

تأليف

نخبة من الباحثين العراقيين

الجزء الثاني

بغداد ١٩٨٥

العصور القديمة

(٢)

الفصل الأول

الادارة ونظام الحكم

د . سامي سعيد الأحمد

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

ملك وسلطته

في الوقت الذي تبدأ فيه معلوماتنا عن الادارة مع قراءة المدونات بعد ظهور الكتابة في حدود اواسط الالف الرابع ق.م فأن العصور الطويلة التي سبقت التاريخ منذ نشوء القرى الاولى لابد ان تكون قد شهدت رؤساء اداروا امور الجماعة وانظمة حكم لا نعرف عنها الآن شيئا . ففي جانب من القرية عند موقع تل الصوان جنوب سامراء عثر على دار واسعة ذات غرف كثيرة ربما كانت قصرا لرئيسها الا ان عدم وجود الكتابات جعلت معرفتنا لا تعدو التخمين .

ورد في اثبات ملوك السومريين ذكر ملوك حكموا قبل الطوفان في مدن سومرية جنوبي العراق غابت غالبية اخبارهم ، الامر الذي يفسر الارقام الخيالية التي أعطيت لفترات حكمهم . وظهرت في عصر العبيد المستوطنات

الزراعية الواسعة التي مارس سكانها الزراعة الكثيفة المعتمدة على الارواء والسيطرة على مصادر الماء (شق الترع وبناء السدود والخزانات ودرء اخطار الفيضان)، وتغطية الاستهلاك المحلي بانتاجها، واستعمال الفائض لتبادل مايفتقر اليه البلد من المواد الضرورية من الخارج كل هذه لابد ان تكون قد رعتها حكومة مركزية قوية اشاعت النظام وحققت الامن وقامت بواجباتها خير قيام لم تصلنا اخبارها • ويوضح نظام الحكم في الدويلات السومرية الاولى خلفية طويلة وتطورا سياسيا غير معروف لدينا الان وقد يكون الكهنة في بادىء الامر هم الحكام الاوائل خاصة وان المعتقدات الدينية تؤكد بان البشر قد خلقوا لخدمة الالهة وتوفير ما تحتاجه • وان اله كل مدينة هو ملكها الحقيقي وقد يكون الكهنة في البداية هم الملوك • وشهدت الفترة السومرية الاولى صراعا بين الملك والكهنة والامثلة متوفرة عن كهنة كان لهم نفوذ واسع مثل دودو كاهن لگش زمن انتمينا وكان الاخير في البداية كاهنا اعلى لاله المدينة •

واضاف ايناتارزى حاكم لگش جميع صلاحيات الكاهن الاعلى لوظائفه وقسم رئاسة مختلف معابد المدينة بين افراد عائلته • ومرت ازمنة زادت فيها حدة المنافسة بين الملك والكهنة حتى وضع اوروواينمگينا(اوروكاجينا) حدا لاستغلالهم •وترينا اصلاحاته بان سلطة الملك اخذت بالاستقلال التام عن الكهنة ونمت حوله طبقة جديدة من موظفيه•وقد يكون المعبد نفسه (او جناح خاص في الاغلب)هو المكان الذي كان يسكن فيه الملوك الاوائل ويديرون منه امور الدولة وكان لقب گلگامش في البداية السيد (آين) ثم اتخذ لقب الملك وكان السيد يعيش في معبد اله المدينة وهو كاهنه الاعلى •

من المعقول الافتراض بان الملك بادىء ذي بدء كان عبارة عن شخص هو المقدم بين اقرانه اختير لتزعم المدينة في الحرب • ففي حالة تعرض البلاد للخطر وخاصة الهجوم الخارجي او الفيضان يعمد اهل البلدة الى

اختيار حاكم منهم تتوفر فيه صفات الزعامة من حنكة وشجاعة لادارة دفة الدولة يخولونه صلاحيات واسعة واطلقوا عليه اسم الملك ٠ ويظهر ان الزعماء الذين اختيروا بهذه الطريقة قد استأثروا بالسلطة وادعوا ارتباطهم بالالهة واختيار الاخيرين لهم كممثليهم بين الناس واورثوا منصبهم لابنائهم ٠

كانت المهام الدينية في بداية نشوء الملكية بيد الحاكم ولما كثرت واجباته انفصلت المهام الدينية عن الزمنية فاختص الكهنة بامور الدين وتفرغ هو لشؤون الدولة فسكن في قصر خاص به مع اسرته وحاشيته وسمي الحاكم انسي (وكيل الاله) او الملك ٠ والمعروف ان الملك كان حاكما مستقلا يدير اكثر من دويلة مدينة واحدة في وقت قد يكون فيه الانسي تابعا للملك ٠ واذا جاوزت منطقة حكم الانسي ما وراء حدود مدينته واعترف به معبد انليل في مدينة نفر فيحمل انذاك لقب ملك ويحمل كل حاكم في مدينة تابعة للانسي لقب حاكم (كورنيتا) في وقت كانت به ادارة المعبد بيد موظفين خاصين يشرف عليهم الانسي ٠ وكان موظفو الدولة مسؤولين امام الانسي ومرتبطين به يستحصلون له الضرائب عن القطعان والقوارب ومصائد السمك ورسوم الدفن والطلاق ٠ وعاش الملك او الانسي في قصر ، وعثر على قصور في مواقع كيش واريدو وادب ٠ وان قصري المدينتين الاولين متشابهان وهما بنايتان كبيرتان متجاورتان كل منهما ذو غرف كثيرة مفتوحة على ساحات مما قد يدلل على رسوخ منصبه وقوته ٠ وعثر في قصر كيش على قاعة كبيرة مع صف من اعمدة اربعة في الوسط ٠

ادار الانسي ممتلكات اله المدينة وهو القائد في الحرب والقاضي ورأس السلطة الدينية والمسؤول عن الاعمال العامة ٠ وتدل ضخامة المقبرة الملكية في اور وثراء مكتشفاتها على رفعة مركز الملك خلال عصر فجر السلالات ٠ وترينا نصوص شروباك من عصر فجر السلالات الثالث ان الملك كان ذا مركز

سام ، واحتوى قصره على الكثير من الموظفين امثال الوكلاء والحجاب والسقاة والموسيقيين والطباخين حيث نعرف وجود ١٤٤ ساقيا و ١٣٢ موسيقارا ومغنيا و ٦٥ طباخا . وتؤكد اسطورة ايتانا والنسر على هبوط الملكية الى الارض بعد الطوفان في مدينة كيش ، وكانت الملكية حسب ما يظهر قد عادت الى السماء عند حلول الطوفان لحمايتها من الخطر . فالملكية كانت مقدسة وهي هبة الالهة الى البشر حتى يعيشوا في نظام وأمن . وتذكر الاسطورة انه لما نزلت الملكية وشاراتها الى الارض وبحث الاله انليل والالهة عشتار عن راع للبشر ، حيث لم يكن في الارض آنذاك ملك فلم يجدا احد' في البداية فنصب الاله انليل ملكا من البشر . وقد اختير للملكية عند نزولها بعد الطوفان ايتانا الراعي ، وتذكر الاسطورة صعود ايتانا الى السماء للحصول على نبتة تشفيه من العقم . وتبدأ الاسطورة بالعبارة (ان مدينة كيش تبكي) لان ملكها عقيم مما يعرض سلامة البلدة بعد وفاته الى الخطر . وبسبب حلول الملكية في كيش اولا ظل ملك كيش يتمتع بمركز كبير . ولما سيطر ميسأ نبيادا ملك اور على كيش فضل استعمال لقب ملك كيش الذي اتخذه سرجون الاكدي بعد ذلك . وتذكر اسطورة ايتانا كون الصولجان والتاج وعصا الراعي وغيرها من اشارات الملكية موضوعة امام الاله انو ملك الالهة في السماء .

وتذكر اسطورة سومرية كيف ان الالهة انانا لما ارادت رخاء مدينتها اوروك ، صممت على زيارة اريدو لجلب معالم المدنية منها ،وعددت الاسطورة مائة عنصر من عناصر التحضر تضمنت التسعة الاولى منها القيادة والتاج والصولجان واشارات الملك مما يدل على الاهمية الكبيرة التي علقها السومريون على الملكية كعنصر اساس لنشوء المدنية . وفي نص من فترة لاحقة ذكر الناسخ اعداء الدولة وغزاتها في الشمال والشرق او مناطق السهوب بانهم (لا يعرفون بيوتا وليس لهم ملوك) ، فالملكية بنظرهم هي

اساس النظام والتمدن ، وگلگامش كما تصوره الملحمة ابن الهة وملك عظيم فكان رغم ظلمه لرعيته يحميهـم من الاخطار ويدرأ عن قطعانهم الوحوش وحتى انه قتل الوحش الذي هو اصل الشر على الارض • فبوجود گلگامش استتب الامن بكل مكان اضافة الى كونه ، كما تبدأ الملحمة ، قد رأى كل شيء وخبر البلاد دلالة على اقتناع شعبه بخبرته ومعرفته التامة بالامور • ويخاطب الملك السومري في التراتيل الدينية براعـي البلاد المخلص • وفي قصـة گلگامش وشجرة الخولوبو أحال الاله شمش اانانا عندما شكت اليه اغتصاب الشجرة التي استنبتتها ، الى گلگامش ملك مدينتها (اوروك) الذي ارجع لها شجرتها بالقـوة •

اعتقد العراقيون القدامى بان الالهة هي التي تختار الملك وتقدم لـه وظائفه ومنذ البداية هو ملك البلاد • وكان الملك (ربما في غالبية المـدن السومرية) ينتخب من قبل المجلسين الحاكمين في الدويلة • ونقرأ في نص سومري (اجتمع اهل كيش واختاروا للملكية ابخور كيش من اهالي كيش) • وافتخر بعض الملـوك باختيار الالهة لهم مـن بين رجال مدينتهم ، فانتمينا واوروواينمگينا (أوروكاجينا) وجـودية اخبرونا بان يد الاله قد اختارتهم من بين ٣٦٠٠ ، ٣٦ الفـ ، ٢٢٦ الف رجـل من رجال مدينتهـم لگشـ على التوالي •

ذلك يوضح بجلاء مبدأ الاختيار • كما اعتبر الكثير من الملوك انفسهم ابناء الالهة فذكر جودية بانه ابن الآلهة نينا ونينسون الخ • واكد اورنمو مؤسس سلالة اور الثالثة بانه ابن الالهة نينسون التي ولدته بناء على اوامر الاله القمر • وقال لبت عشتار ملك ايسن بانه ابن الالـه انليل • واخبرنـا سنحاريب بان (الربة ملكة الالهة قـد اختارتني للملك عندما كنت في رحـم امي) ، وربط نفسه في نصوصه مع ابطال بابل الاسطوريين • وادعـى اشور بانيبال في مناسبات عدة بان امه هي الالهة ننليل (زوجة الاله اشور)

وسيدة نينوى وعشتار اربيل • كما ذكر ان الاله نابو قد اتاه في حلم بوقت كان يستعد فيه لحملة وذكره بانه قد عهد به وهـو رضيع الى عشتار التي رضع من ثدييها واخفى وجهه بينهما • ويمكـن ان تختـار الالهـة للملك شخصا حتى قبل ميلاده بقرون عدة ، فعندما حمل العيلاميون تمثال الالهـة عشتار قدرت تلك الالهة انذاك أن يعيده لمعبدها اشور بانيبال •

وقد يقع اختيار الالهة على شخص مغمور تتلمس فيه الكفاءة والقدرة برأيهم فتأخذ بيده الى مقاليد الملك كما تقرأ في اسطورة سرجون الاكدي التي ادعى فيها كونه من اصل وضيع نشـأ بستانياً ورعته عشتار ووعدتـه بالملك الذي اعطته له بالنهاية • وان ابتداعه القصة واضح من النصوص التي تذكر صلات قرباه وحياته الاولى • ولكي يسبغ الشرعية على تسلّمه السلطة اطلق على نفسه الاسم شروكين (معناه الملك الشرعي) وليست هناك ايـة اشارة الان الى اسمه الحقيقي •

في الوقت الذي لم يعبد خلاله اي ملك في العصر السومري القديـم ، على حسب معلوماتنا الحالية ، يظهر ان نرام سن آخر ملك قـوي للسلالة الاكديـة قد اعتبر الها وعبد في حياته ، وتصفه المصادر بل وتضع امام اسمه اشارة الاله، وترسمه المنحوتات وعلىرأسه الخوذة بالقرنين (رمز الالوهية) • ومن الصعب معرفـة الظروف التي احاطت هذا الطقس الجديد (عبادة الملك) الذي نلحظه الان ونعرفه لاول مرة في العراق القديم • فهل لنرام سن نفسه يد في تنمية هذا الطقس من اجل تعظيم نفسه ؟ وهذا قريب الاحتمال او قد يكون هو نتاج عملية الزواج المقدس الذي كان راسخاً في العصـر الاكدي لا يزاوله الملوك فقط بل بعض الحكام ايضا •

ورغم كون الكتابات من عهد اورنمو لا تضع اشارة الالوهية امام اسمه ولكنه يظهر انه عبد في مدينته اور • فهناك ترتيلة الى الاله اورنمو تشير

الى قصره بانــه بيت اور واعتبر ابنه شولگي واولاده أنفسهم الهة في حياتهم وربما بدأ هذا الاتجاه منذ نهاية حكم اورنمو حيث وردت اسماء ملــوك السلالة وامامهم اشارة الاله ويلبسون في الصور الخوذ ذات القرنين ويقــدم لهم نوع من النذور بنفس الطريقة التي يقدم الى الالهة مع تراتيل لهــم • ووصلت الينا معابد مكرسة لملوك هذه السلالة المؤلهين وقدمــت الاضاحي والنذور الى تماثيلهم التي وضعت في المعابد • وغدت تماثيل الملك منذ زمن الملك شوسن تعامل على قدم المساواة مع تماثيل الالهة في تقديم النذور اليها، فقدمت النذور الى تماثيل شولگي عند ظهور الهلال واكتمال البدر وتسمى الكثير من الناس باسم شولگي الهي وشولگي خالقي الخ • وربما كانت نتيجة طول عهد هذا الملك الحافل بالرخاء ظهور الحركة الدينية في عبادة الملوك• وقد وجد ختم قــرب أربيل مدون عليه (الى سيدته ننليل الاله شولگي) ووصلت الينا نذور مقدمة الى شولگي مثل مزهرية تاجر الى الهه لحيــاة شولگي • وقدم حاكــم مدينة نفــر ختمــاً الــى الالــه نوسكو لحيــاة الالــه شــولگي ، واطلــق امارســن علــى نفســه (الالــه الحقيقــي شمس البلاد) وكرس حاكم اشنونه معبدا الى شوسن المؤله • ويظهــر انــه من عهد شولگي كان هناك عيد خاص يسمى باسم الملك الحاكم مثل عيــد شولگي وعيد امارسن الخ •

وكان دور الملك مهما في الزواج المقدس خلال عيد رأس السنة حيــث يمثل الملك دور الاله تموز • وتخاطبه الالهة (التي تمثلها كاهنة) في ترتيلة لشولگي (سوف اقدم لك الطقوس التي تشكل ملكيتي ساختار لك النموذج الالهي اي اضاحي ليوم القمر الجديد يوم رأس السنة سوف اقدمها اليك) • ويذهب الملك في قارب الى المعبد ويدخل امام الالهة انانّا في مزارها باوروك •

وعندما ترى الالهة شولگي في حلة الاحتفال القشيبة وقبعته الفخمة يغشى عليها وتغني الكاهنة العليا التي تمثل الالهة اغنية حب للملك الذي يمثل

الاله تموز ويصف نص اخر الحمام الطقوسي وارتدائها ملابسها وتهيؤها للملك المؤله •

ولم نعرف شيئا عن عبادة اي ملك اشوري ولكن تماثيل الملوك الاشوريين كانت توضع مع تمثال الاله اشور بمعبده في مدينة اشور وهناك طقوس معينة لتماثيل الملوك • وقد وضعت تماثيل الملك تجلات پليزر مع تماثيل الالهة ، وسبقت اشارة الالوهية تمثال الملك •

ونظرا لاهمية الملك وكون رفاه الامة مرتبطا برفاهه وان أي شر يلحقه يضر البلاد فقد تمت حمايته بمختلف الطقوس منذ اقدم الازمنة • فاذا ظهرت اشارات وعلامات سماوية او ارضية يفسرها الكهنة بشر يحدق بشخص الملك يتحتم على الملك احيانا وافراد اسرته الاختفاء لفترة من الزمن حتى تزول تلك النذر وتختفي العلامات •

فيعين ملك بديل يحل محل الملك ويقوم باعماله بدلا عنه لمدة يوم واحد او مائة يوم • ولا نعرف وقت بداية هذا الطقس ولكنه مورس في العصر البابلي القديم ، حيث اختير ملك بديل للحكم مكان ايرا ايمتي ملك ايسن ووقع الاختيار على بستاني ليكون الملك البديل • ولكن حدث ان مات الملك الاصلي اثناء تناوله حساء فآل الحكم الى الملك البديل • ولا نعرف ان كان هذا السبب صحيحا وربما كان هناك تآمر على حياته فمات مسموما وقد يكون الملك البديل مسؤولا عن ذلك • وزادت المعلومات عن هذا الطقس من العصور المتأخرة • فكان على الملك ان يختفي وافراد اسرته عن اعين الناس ويقوموا باداء بعض الطقوس الدينية • وتختار الآلهة الملك البديل بواسطة الكاهنة بطريقة لا نعرفها الآن • وهناك نصوص من نهاية حكم اسرحدون تتركز جميعها حول تعيين اشور بانيبال وليا للعهد حيث اختير ملك بديل حكم لمدة مائة يوم في وقت بقي فيه الملك داخل القصر • وبعد انتهاء المدة

وعند غروب الشمس يذبح الملك البديل ويدفن بمهابة وبذلك يكون الخطـر قد زال عـن شخص الملك الحقيقي ٠

وعندما تلقى لعنة على العدو قبل بداية معركة يذبح احد طواشية الملك الذي يأخذ اسم سيده حتى لا يقع الملك ضحية العملية السحريـة ويقـع الخطر على البديل ٠ وكان الملك يخبر بظواهر الخسوف والكسوف التـي اعتقدوا ان لها اثرا كبيرا على شخصه وقد يكون انذار شؤم له ٠ فتذكـر رسالة (ليعلم الملك بان الخسوف لـم يكن شؤما على الملك او بلده) ٠ ويرسـل آخر الى الملك رسالة حول خسوف القمر ووقته (وفي اليوم الثالث عشر يكون القمر عالياً ليقف الملك امام مدينة آشور ويعين اليوم لقد اظهـر القمر وجهه لحسن طالع انه بداية شهر ولكن من غير المستحسن تخطيط أي شيء لهذا اليوم) ٠

واعتبر الآشوريون الايام ٧ ، ١٤ ، ١٩ ، ٢١ ، ٢٨ ، اياما نحسة على الملك فلم يسـمح له خلالها بتناول طعام مطبوخ او لبس حلة نظيفة او ركوب عربة ٠ ولا يعطي الكهنة اي وحي ذلك اليوم حتى في محل سري ولا يسـمح لطبيب حتى بمسك يد مريض ٠ واعتبروا اول يوم من السنة الجديدة يوم شؤم وعلى الملك خلال ذلك اليوم ان يبدو كفلاح ويصوم لخير شعبه حتى يظهر القمر الجديد ٠ ولما كان أي خطر يهدد شخصه هو تهديد لسلامة البلد فيستعاض عن حضور الملك في بعض المناسبات كعمليات السحر الخاصـة بالجيش او بعض الاحتفالات الاخرى بارسال ردائه او احد اتباعه لكـي لا يعرض هو شخصيا لاي خطر ٠

وهناك طقوس خاصة بالملك امثال طقس الاكل وهو عبارة عن مائـدة تقدم الى جميع الآلهة لحمايتهم ورعايتهم ، ثم طقس الوضوء (بيت ريمقي) وهو عبارة عن حمام يأخذه الملك ويقوم خلاله بالدعاء الى مختلف الآلهـة

لحمايته من الشر الذي يهدده في بعض المناسبات . والملك مسؤول بصورة فردية عن ذنوب افـراد شعبه فعليه ان يصوم احيانا ويحلق شعر جسـمه ويضعه في طاسة تدفن بارض العدو .

وقد وردت الينا اشارات في النصوص المسمارية من العصر الكشـي والآشوري البابلي الحديث الى اقامة مواكب تشييع فخمة بمناسبة وفاة الملوك أوبعض ذويهم .

ويستشير الملك الآلهة عادة في شؤون الدولة ويكتب غالبـا مقترحـا الى الالهة شمش على لوح طيني يضعه امام تمثال الآله (ياشمش هلا اعين الرجل حاكما على المقاطعة الفلانية) ثم تذبح الاضحية وتفحص احشـاؤها حيث يطبع الآله شمش حسب اعتقادهم رغبته في كبد ذلك الحيوان المضحى يقرؤها كاهن العرافة .

وقد يرسل الملك تقريرا الى آله مثل رسالة سرجون الآشوري المفصلة الى الآله آشور عن حملته الى ارارات .

ان طقس عمل اول طابوقة لبناء معبد او قصر هي مسـؤولية الملـك ويستلزم عملها في يوم بفأل طيب ، وكان شهر حزيران هو الاكثر ملاءمة لذلك فهو (شهر عمل الملـك لقالب الطابوق) .فاذا خرجت اللبنة الاولى جيدة فانها اشارة الى رضا الاله عن عمـل الملك . والمعروف إن الملوك كانـوا يقومون بصنع اللبنة الاولى بانفسهم . وحتى القالب نفسه يلزم ان يكـون من نوع خاص من الخشب يظل بعد ذلك محفوظا في المعبد ويملأ الملك ذلك القالب بالطين مصحوبا بالأدعية وتقديم الاضاحي وعزف الموسيقى .

القـاب الملـوك

كان كل ملك يتخذ الالقاب التي تتحكم بها حالته من قوة او ضعف وانجازاتـه واوضاع معاصريه من الملوك فعندما وحد لوگال زاگيزي غالبية جنوبي العراق اتخذ الالقاب المناسبة وهي ملك البلاد ، ملك الوركاء وملك اور ووكيل الاقطار٠واتخذ سرجون الاكدي الذي وحد البلاد الالقاب : ملك سومر ، ملك العالم وملك الجهات الأربع ٠ وكان اللقب الاخير خاصا ببعض الآلهة العظام مما يدل على اعلان سرجون نفسه ممثـلاً للآلهة على الارض واتخاذه هذه الالقاب يشير الى عـدم خشيته مـن منافس ٠ والغريب انه اطلق على نفسه تسمية الاخ المتقدم للاله نابو ٠ واتخذ اورنمو لقباً جديدا هو ملك سومر واكد الى جانب اللقب السابق ملك الجهات الأربع ٠ وفـي الوقت الذي حمل ملوك سلالة ايسن لقب ملك سومر واكد كان منافسوهم في سلالة لارسة يحملون ذات اللقب مما يفسر تنافسهم ٠ وحمل قسم من ملوك ايسـن ايضا لقب (ملك اور) الذي حمله ايضا بعض ملوك لارسة ٠ كما يظهر ان اتخاذ لقب ملك كيش كان دليلا على السيطرة والسيادة على كل سومر ٠ واستعمل الملوك الكشيون بصورة عامة نفس الالقاب التي استعملها ملوك العراق الاسبقون فاتخذوا الالقاب : ملك بابل والملك القوي وملـك سومر واكد واضافوا لها ملك الكشيين وملك كاردونياش ٠ وقـد تعنـي الاخيرة القطر البحري او مضافا اليه بلاد بابل ٠

لقب ملوك آشور الاوائل انفسهم بأنسي بعل وكاهن آشور ، واضاف اليها شلمنصر الاول ملك الكل الذي يوازي اللقب البابلي ملك العالـم ٠ وبدأت القاب الملوك الآشوريين بالتكامل زمن توكلتي ننورتا الاول فتلقـب بملك العالم وملك بلاد آشور والملك القوي وملك الجهات الأربع ٠ وقد يهمل ملك عند مراسلته لملك دولـة اخرى الالقاب التي اتخذها الاخير ٠ فلما اعلن نبو دايانو نفسه ملكا متحـديا الملك الآشـوري آشور نراري

الثالث خاطب الملك البابلي الاثنين بملكي بلاد آشور فقط دون أية القاب . وعلى الملك ان يكون مستعداً للدفاع عن الابعاد التي ينطوي عليهـا اللقب الذي يتخذه ولتحدي الملوك المعاصرين له . فالقاب ملك العالم وملك الجهات الاربع تتضمن تحدياً للملوك الآخرين دون شك .

ولايـة العهـد

كانت الملكية في العراق القديم وراثية حيث يخلف الملك احد اولاده وخاصة البكر وقد يخلف الملك الحاكم اخاه فأي أناتم لم يكن ولدا للملـك الذي سبقه بل اخا له . ولاسباب قد لا يعين الملك ولده البكر او ان يغير رأيه خلال حياته . فسنحاريب كان قد عين ابنه البكر خليفة لـه ثم عـدل عن رأيه السابق ونصب ابنـه الاصغر . وفي اختيار ولي العهد يستشير الملك عادة الآلهة ويستحصل موافقتها عن طريق الكهنة . وقد تبين الآلهة رغبتها في شخص ولي العهد بالاحلام او الفؤول او بعلامات سماوية او ارضية يفسرها الكهنة . ووصف لنا اسرحدون كيفية اختياره ولاية العهد (كنت الاصغر بين اخوتي البالغين ولكن والدي عظمني في مجلس اخواني نزولا عند ارادة الآلهة قائلا هذا هو خليفتي واستشار شمش وادد بواسطة الوحي وكان جوابهم له متفقا انه هو الذي يلزم ان يخلفك ولتكريم هذا الاعلان الهام استدعى كل اهل آشور صغاراً وكبارا وكذلك اخوتي الذين ولدوا في البيت الابوي . وامام الآلهة جعلهم يقسمون على احترام اولويتي وبشهر نيسان وفي يوم صالح منه بناء على ارادة الآلهة القوية دخلت بيت ولاية العهد بسرور) وقد تم التنقيب مؤخرا في بيت ولايـة العهد عند موقع شريف خان قرب نينوى (تربيصو قديما) حيث عاش وتدرب ولي العهد اشور بانيبال علـى ادارة الدولة . فكان الملك يقيم احتفالا فخما يدعو اليه كافة رجال الدولـة والقادة العسكريين والامراء والنبلاء لمبايعة ولي العهد .

وبعد ان يقسم الحاضرون يمين الولاء له ينتقل ولي العهد من بيت والده للاقامة في بيت ولاية العهد حيث تبدأ فترة تدريبه على الحكم • وعهدت تربية آشور بانيبال الى مربين وحصل على تدريب عسكري وثقافة عامة وقد ناب عن والده وهو بعد وليّ للعهد في الكثير من الامور وقام بمهام رسمية واشرف على اعياد دينية • ولم يكن تقسيم اسرحدون لولاية العهد بين اولاده عادلا • فقد أوصى لآشور بانيبال بالحكم على كل الدولة الآشورية ولاولاده من بعده في وقت عين ابنه الاكبر شمش شموكين ملكا من غالبية المدن البابلية فقط ويخلفه عند موته ابن آخر لاسرحدون لا اولاده الشرعيون • وخصصت مواد كثيرة في المعاهدة بين اسرحدون وحاكمه في ميديا لموضوع ضمان صعود اولاد اسرحدون العرش الآشوري بعد وفاته • وقاد نبوخذنصر الثاني وهو بعد ولي عهد الحملات الهامة نيابة عن ابيه والتي كانت انتصاراته فيها سببا في شهرته • وناب بيلشصر عن والده الملك نابونائيد عند غياب الاخير في تيماء ومارس جميع سلطات والده •

التتويج

يظهر انه حال الانتهاء من دفن الملك المتوفى واكتمال الطقوس الدينية الخاصة بذلك يباشر بمراسيم تتويج ولي عهده • ولدينا من قصر مدينة ماري صورة تتويج ملك (ربما زمري ليم) نراه فيها يلبس الشعارات التي تقدمها له الالهة عشتار في احتفال يحضره عدد من الآلهة•وتحمل الالهة بيدها اليسرى سيفا وباليمنى عصا وحلقة • وقد وصلنا تفصيل بتتويج الملك الآشوري الذي يتم بآشور على الاغلب حيث يدفن الملك السابق ويحمل عرش الملك الجديد على اكتاف الرجال بموكب حافل وهو جالس عليه وامامه كاهن يضرب بالطبل وينادي (آشور هو الملك) مرتين ثم يذهب الملك الجديد الى معبد آشور فيدخل مزاره مقبلا الارض ويحرق البخور ثم يرتقي منصة مرتفعة وضعت

في نهاية المعبد قرب تمثال الآله آشور • ويبـدأ الكاهن بتهيئة دكة قرابين الاله آشور ويقوم كهنة اخرون باعداد مناضد الآلهة الاخرين • ويقدم الملك طاسة ذهبية مملوءة بالزيت ومقداراً من الفضة وثوبـاً مطرزاً غالـي الثمن • ويركع امام الاله آشور ويمسـحه الكاهـن الاعلـى ثم يتوجـه بشارات الملـك وهـي تـاج آشـور وصولجـان تنليـل ويردد خـلال ذلك دعاء يبارك فيه الملك ويدعو لـه بطول العمر ورعاية الآلهة ورضاهـا • وبعد ان يتم الكاهن دعاءه يصلي الحاضرون من الامراء والقواد والوجهاء وبهذا ينتهي الوجه الديني من مراسيم التتويج • ثم يذهب الملك الجديـد الى قصره الملكي بموكب حافل حيث يكون بانتظاره هناك كافة رجـال الدولة والوجهاء وقد اصطفوا خالعين علاماتهم واضعين اياها امـام الملـك دلالة على انتهاء مدة خدمتهم بالدولة وجلب كل منهم هدية لائقة للملك بهذه المناسبة فا نشاء ابقاءهم في مناصبهم وان رغب عنهم عزلهم • ويظهر ان الملك الجديد يتخلى عن اسـمه السابق ويعطى اسما جديدا • ومن الصعب ان نعرف الان ايا مـن اسماء الملوك الاولية عدا اثنين فقـط • وبالوقـت الذي يتوج فيه الملك الآشوري مرة واحـدة في بداية حكمه فان تتويجه في بابل يجدد في كل عيد رأس سنة • ويعتبر اليوم الخامس من احتفالات عيد رأس السنة يوم تولية الملك فيقصد الملك معبد مردوخ ببابل ذلك اليوم ويدخل مزاره بصحبة الكهنة ثم يقف وحيدا فيخرج له الكاهن الاعلى من قدس الاقداس وينتزع منه الصولجان والتاج وشارات الملك ويضعها على منضدة امام الاله مردوخ ثم يرجـع ويلطـم الملـك علـى وجهه ويأمـره بالسجود امام الاله وتلاوة الاعتراف بقيامه بالتزاماته تجاه مردوخ ومزاره وبابل • ثم يجيبه الكاهن باستجابة الاله لدعائه والتزامه جانبه ضد اعدائـه وخصومه • وبعد ذلك يرجع الكاهن الاعلى للملك الصولجان والتاج وشارات الملك ويلطمه ثانية • وخلال فترة وجود الملك في الهيكل يكون النـاس

خارج المعبد في خوف وهلع لانهم يعتقدون ان الملك اسير في العالم السفلي وكون البلاد بلا ملك يجعلها برأيهم عرضة لقوى الشرور وفتك الطبيعة .

الدولة والنظام الاداري

كان جنوبي العراق خلال العصر السومري القديم مقسما الى عدة دويلات مدن وصلتنا منها اسماء ثلاث عشرة مدينة فرضتها طبيعة البلاد ذات المستقرات المحاطة بالانهار والجداول والمفصولة عن بعضها بالاهوار والمكتفية بنفسها ذاتيا . وكانت كل مدينة دولة قائمة بذاتها تتألف من مدينة وبضع قرى باراضيها الزراعية وبساتينها . وقدرت مساحة دويلة لكش بحوالي ١٨٠٠ ميل مربع وبعدد سكان لا يزيد عن ٣٥ الف نسمة . وكانت هناك مدن في اجزاء اخرى من العراق كمنطقة ديالى وآشور . وربما كانت الوحدة السومرية خلال عصر جمدة نصر على شكل اتحاد قبلي تتركز طاعته لسلطة نفر الكهنوتية . وربما كانت الدولة التي ظهرت فيما بعد على شكل جماعات قوية متحدة مثل دولة مدينة اوروك التي كانت تتألف من منطقتين ، ولكش التي كانت تتألف من اربع مناطق .

كان الحكم في الدولة السومرية استشاريا وطبقت بعض المدن النظام الديمقراطي حيث تركزت السلطة الحقيقية في مجلس المواطنين العام (دائرة الشعب) الذي يتألف من مجلسين يضم الاول المسنين والمتنفذين من كبار رجال الاسر والعشائر ويضم الثاني الشباب القادرين على حمل السلاح . وينظر المجلسان بالقضايا الهامة كاعلان الحرب وتنفيذ عقوبة الاعدام والنظر في الدعاوى المهمة ولما شرع كلكامش في سفرته نقل صلاحياته الى مجلس المسنين وكان صعود اوروانيكمينا (اوراكاجينا) الى عرش لكش نتيجة خلع دائرة الشعب للملك السابق وانتخابهم له . وللمواطن حق النقاش ويظهر من قصة انذار

أكّا ملك كيش لگلگامش بـان سلطات الملك كانت محددة • فلما تسلم گلگامش انذار أكّا عرضه على مجلس مدينته ولم يرفضه الا بعد موافقة مجلس الشباب القادرين على حمل السلاح رغم معارضة مجلس المسنين للحـرب •

صور بعض الباحثين المدن السومرية في صراع متواصل بينها علـى الاراضي والماء ، ولكنها في الواقع لم تكن كذلك فيمـا عدا الحروب بـين مدينتي اومّا ولگش اللتين نقرأ في نص عن علاقات صداقة بينهما • وفي نهاية العصر السومري القديم ظهرت فكرة الدولة الموحدة للجنوب عندمـا ضم لوگال زاگيزي غالبية جنوب العراق لدولته ولكنه سرعان ما خسر الجولة أمام سرجون الآكدي الذي وحد البلاد • ونرى في العصر الآكدي المركزية التامة بالدولة حيث ظهر ان حاشية القصر وموظفيه قد ازدادوا كثيرا نظرا لتوسـع الدولة وزيادة مسؤولياتها • فذكر سرجون بانه يطعم ٥٤٠٠ شخص على مائدته كل يوم مما يدل على كثرة موظفي قصره • كمـا عمـل على تقليص نفوذ الحكام مخافـة تعاظمهم وبالتالي تهديدهم الحكومـة المركزيـة •

شكلت سلالة اور الثالثة منذ بدايتها إمبراطورية بكل معنـى الكلمـة اديـرت بإحكام ، واولى الملوك بعض المقاطعات اهتماما خاصا لاهميتها • ومن اجل تنفيذ مشاريع الدولة الكثيرة في التوسع والاعمار طبق شولگي منذ سنة حكمه الواحدة والعشرين سياسة جديدة لزيادة دخل الدولـة لتمكينها من المضي قدما في خططها فسيطرت الدولة فيها على موارد الانتاج وصارت به المالكة للاراضي والمحتكرة لها وللصناعات الى جانب المعابد •

ويقف على رأس الدولة الملك ، واتسع جهاز الدولة منذ حكم شولگي واستلزم الكثير من الموظفين في شتى المرافق كالكتبة ومديري المعامـل الخاصة بالمعابد والقصور ومديري املاك التاج وحكام الاقاليم الخ وفـي

مقاطعات هامة كميلام وآشور واشنونة تمتع الحكام باستقلال تام تقريبا بينما كان حكام المقاطعات الاخرى مرتبطين بالملك ويزورهم المفتشون الملكيون . وتصل الى الملك التقارير عنهم من مراسليه وكما نعرف الآن بدأت بسلالة اور الثالثة سياسة التزاوج الدبلوماسي مع حكام المناطق المجاورة فاورنمو كان متزوجا من ابنة ملك ماري وزوج خلفاؤه بناتهم لحكام المنطقة الجبلية . ورغم ان هذه السياسة لها تأثيرها في تقليل ثورات الحكام الا انها لم تمنع بعضهم من شهر السلاح ضد الدولة . وسار بعض ملوك سلالة ـ لارسا واشنونا على هذا النهج .

ومن عهد سلالة بابل الاولى نسمع لاول مرة عن اشراك ملك هو سابيوم لابنه معه في الحكم للتدرب على الادارة . واتبع حمورابي نظاما مركزيا ، وربط جميع حكامه به وحدد صلاحياتهم بقضايا بسيطة . وصارت كلمة انسي تطلق على الموظف الذي يستمد اوامره ليس من الملك بل من موظف يأتي بعد الملك بالمركز . وترينا الرسائل التي وصلت من عهد حمورابي حرصه على حصر السلطة في شخصه وان يستمد حكامه اوامرهم منه رأسا . ونقرأ في النصوص عن موظفين متنوعي التخصص فهناك الرابيانوم (مدير مجلس المسنين) وحكام المقاطعات وجابي الضرائب ومسؤولو المدن والمشرفون على الاملاك الملكية ومساعدوهم والمسؤولون عن عبيد الدولة ثم مسؤول الشرطة ورسول الملك في الامور الخاصة ومدير الرسوم ومسؤول التجار . وهناك موظفون آخرون اقل مرتبة . ولتسهيل ادارة الدولة اهتم حمورابي بنظام ارسال الرسائل السريع لما في ذلك من فائدة جلية في ربط اجزاء البلاد وايصال اوامره بالسرعة . ونقل الرسائل المراسلون الذين كانوا يتوقفون في محطات

معينة ٠ويحملها المراسلون مختومة ويفضها كاتم سر الملك الذي يتلو على سيده محتواها ويدون جواب الملك الذي يرسل على الفور ٠

لقد تعاظمت سلطة الملك في العصر البابلي القديم وانفصلت عن سلطة المعبد وكشفت الحفريات قصورا فخمة كقصر زمري ليم في ماري والذي مساحته ٦٥×٤٥٠ مترا (حوالي سبعة ايكرات) وهو بناء ضخم ببناية مركزية وشقق وغرف استقبال ودوائر وورشات عمل ومخازن ، محاط بسور سمك جداره الخارجي ٤٠ قدما ذي ابراج دفاعية ٠ ثم قصر حكام اشنونة في تل اسمر وقصر سين گاشيد في الوركاء ٠ وصارت القصور الان اكثر ضخامة وابهة وسعة من المعابد التي اكتشفت من هذه الفترة ٠ وترينا الرسائل التي اكتشفت في قصر ملوك ماري قوة الملك وهيمنته وكثرة موظفيه ومن بينهم المغنيات وكان شمشي أدد الاول الملك الآشوري على رأس دولة قوية مركزية الادارة ٠

يظهر ان معارضة السلطة كانت خلال هذه الفترة جريمة كبرى فنصت المادة ١٠٩ من شريعة حمورابي على اعدام صاحبة حانة الخمر التي لم تخبر باجتماع المتآمرين على الدولة في حانتها ولم تلق القبض عليهم ٠ ونقرأ في نصوص فأل من هذا العصر ما يلي (وريث للملك سوف يقتل والده ويجلس على العرش) و (الوزير سوف يجلس على عرش سيده) و (وجيه سوف يقتل الملك) و (الملك سوف يطرد ولكنه سوف يصبح قويا مرة ثانية في البلاد) الخ والتي تدل على قلق الملوك وكثرة ما حدث من حركات خلع وتآمر عليهم ٠ واستمرت المجالس السابقة فكان بكل مدينة مجلس لمواطنيها متكون من رجال البلدة ، ولم تكن النساء ممثلة فيه حسب ما يظهر ويقضي بالمسائل القضائية وله حق الحكم بالموت ٠

ولم يردنا الكثير من اسماء ملكات هذه الفترة ويظهر ان زوجة سن گاشيد ابنة الملك البابلي كانت مؤثرة في سياسة بلدتها اوروك ثم شبيتو

زوجة زمري ليم التي تصورها لنا رسائلها ذات تأثير كبير على ماري وقوتها متأتية ربما من كونها ابنة ملك حلب • ونعرف ان اخت حمورابي كانت تعمل بالتجارة ولها ممتلكات •

تؤكد بعض الوثائق الادارية من الفترة الكشية خاصة كتابات احجار الحدود كون البلاد موحدة بيد الملك منذ استرجاع القطر البحري • واستمر الجهاز الاداري دون تبديل بين الفترة الكشية وسلالة ايسن الثانية فكانت البلاد مقسمة الى عشرين مقاطعة في الاقل كل منها بحكومة محلية مسؤولة امام الملك في بابل • وسميت كل مقاطعة باسم المدينة الرئيسية فيها مثل بابل ، ايسن ، نفر او على اسم القبائل التي تقطن تلك الاراضي مثل بيت سن ماگير وكان حاكم المقاطعة يعين من قبل الملك ويلحق به موظفون اقل مرتبة مسؤولون عن القانون والنظام وجمع الضرائب وادارة الاعمال العامة وخاصة الارواء • وكان رؤساء القبائل في المناطق الاكثر بعدا خاصة عند الحدود الجنوبية يخضعون اسميا للملك ويتمتعون بشبه استقلال • واستمر الملك بصفته السلطة العليا النهائية والمرجع القضائي الاعلى الذي لا اعتراض على احكامه • ويمنح الملك الاراضي الملكية كمكافأة للخدمة المتميزة في الحروب او للموظفين الكفوئين •

ويظهر ان النظام الاداري لم يبق نفسه خلال الادوار التاريخية المختلفة فخلال فترة السيطرة الآشورية على بلاد بابل (٧٤٥ ــ ٦٢٣ ق•م) كانت الاخيرة مقسمة الى خمس عشرة مقاطعة منها بابل ، بورسيبا وسبار الخ • وصار لدلمون (البحرين) واريدو ادارة واحدة • ويظهر ان هذه المقاطعات كانت وحدات مستقلة لها حكوماتها المرتبطة بالملك مباشرة • وكان الساكين

هـو مسؤول المقاطعة ويعينه الملك ويصدر اليه اوامره مباشرة ويتمكن الملك من عزله ونقله • وعمله تطبيق اوامر الملك والحفاظ على الامن والتوقيع على معاملات انتقال الاراضي ، ثم مسؤول المدينة • اما البيتو فهي المنطقة التي تسكنها عشيرة معينة يديرها رئيس المنطقة (الراب آلي) ، وهناك رأس مجموعة من البيوت ربما مسؤول عن بضع رؤساء بيوت لمنطقة معينة • وهناك قرى بادارة موظفين وهم مسؤولون امام رئيس المدن (الراب آلاني) • وتعرض وثيقة من سبار معلومات عن موظفي البلاط البابلي آنذاك منهم الوزير (السوكّال) وهو موظف مدني كبير يشرف على جهاز الحكومة وهناك كاتب القصر ورئيس الكتاب وربما يسجل الاخير ملكيات الاراضي ، وحمى تجلاتبليزر الثالث امتيازات بابل ، وتكلم سرجون الآشوري عن حقوق مماثلة في آشور ويشير بانها معترف بها منذ مدة طويلة قبله • وتظهر حرية بابل واضحة في كتابه لاسرحدون ، فمواطنو بابل ذوو واجبات محددة ورجال تحت حماية الآلهة انوومردوخ ولهم حقوق متميزة • وقد ارجع اسرحدون لهم حريتهم التي الغاها على ما يظهر والده سنحاريب وكتب لهم كتاب لوح الحرية في وقت كانت به ادارة مدينة اوروك مرتبطة رأسا بالعاصمة الآشورية وذلك نظرا لاهميتها بصفتها اكبر مدينة قريبة من الحدود العيلامية ولحركات القبائل وشؤونها الخاصة بالقنوات وتجهيزات الحبوب •

وصار القصر الملكي زمن نبوخذنصر مركز الدولة السياسي والاداري حيث تصدر الاحكام والقرارات وتقام الحفلات الرسمية ويستقبل الملك الوفود • ويضم القصر مرافق عدة منها دار للعدالة ودوائر لكبار

موظفي البلاط والاقل درجات منهم • وكانت مساحة القصر الجنوبي ٥١ الف متر مربع وحوى مائتي مرفق وخمس ساحات كبيرة حول كل ساحة عدد من الغرف المختلفة الحجم •

واشارت وثيقة من هذا العصر الى انواع الموظفين ، منهم رجال البلاط الكبار مثل ساقي البلاط وكبير الموسيقيين وبواب القصر الذي ينظم دخول وخروج الوافدين الى الملك ورئيس الخبازين وكاتب بيت الملكة ومسؤول نساء القصر ورئيس مجموعة الدروع او قائد المائة ، وقائد مجموعة القوات الخاصة ورئيس المهندسين والمشرف على الشرطة ومراسل ولي العهد ومسؤول قطعان الماشية الملكية • ويظهر ان بلاد بابل قد قسمت ايام السلالة الكلدية الى ثلاث وعشرين وحدة ادارية يدير كلاً منها موظف مسؤول للملك رأسا وفي مقدمة حكام المقاطعات كان الخاص بالقطر البحري ثم لارسة الخ ثم الموظفون ذوو العلاقة بجمع الضرائب من المدن والمقاطعات البابلية •

كان الملك في بلاد آشور هو رأس الحكومة المركزية يديرها من قصره بالعاصمة وقد يتخذ نفس الملك اكثر من عاصمة واحدة مثل شمشي ادد الاول الذي اتخذ من شوبات انليل وآشور وايكلاتم عواصم له • وللملك حكامه في المقاطعات الذين يبعثون اليه بما يتجمع عندهم من الضرائب وتقع على كواهلهم مسؤوليات حفظ الامن وتوزيع اسرى الحرب • وهم مسؤولون امام الملك مباشرة وهناك مبعوثون يحملون رسائله •

ان ما نعرفه عن الادارة الآشورية لقليل فالالقاب التي يحملها الموظفون الاعلون لا تطابق على الدوام ممارساتهم لان الواجبات لم تكن ثابتة التحديد ويمكن معرفتها من الوظائف التي يمارسها ذلك الموظف •

فوظائف الدولة غير محددة وتظهر مرونة ومطاطية سواء بتحديد المسؤوليات او السلطة . وليست هناك وظائف وراثية رغم وجود بعض الاتجاهات نحو ذلك . وكانت واجبات مختلف طبقات الكهنة والسحرة والعرافين في البداية دينية صرفة ولكنهم مارسوا بعد ذلك وظائف اخرى ، وجميع الوظائف هي تعيينات ملكية وكان يطلب من حكام المقاطعات قيادة الجيوش لمحافظة مقاطعته او القيام بحملات تأديبية . وكان حاكم المقاطعة يخشى بطش الملك ان هو استمع للشكاوى التي ترفع ضده اليه ونعرف ان بيل ابني حاكم القطر البحري كان خائفا من غضب آشور بانيبال لما وصلته من تقارير ضده .

وعلى اي موظف ان يرفع تقريره رأساً الى الملك عما رأى وسمع مما يعتقد به مهما للادارة . وبعد الملك يأتي التورتان الذي يوازي رئيس الوزراء في الحكومات الحديثة وكان في العصور الاولى هو رئيس اركان الجيش الذي يقود الحملات بدلا عن الملك وهو حاكم حران . وعندما صار التورتان قويا وبمثابة اول شخص للدولة بعد الملك اخذ مكانه السابق الراب شاقي (معناه كبير السقاة) وفي اثباتات اسماء الموظفين الذين يرعون احتفالات رأس السنة وتسمى السنة بأسمهم (اللمو) كان الملك والتورتان يتبعهما وكيل المؤونة (الراب بابيري) وحاجب القصر (الناگر ايكالي) ثم الاباراكو (من موظفي القصر)ثم رئيس الطباخين فالمشرف على القصر . ووصلتنا قائمة بما يقبضه كبار موظفي العصر الآشوري المتأخر من فضة وحلل ابتداء من التورتان والراب شاقي ورئيس القضاء (السارتينو) والوزير (السوكال) ورئيس السقاة وحاجب القصر ، ومفتش القصر واكثرهم مرتبا كان التورتان ثم الراب شاقي والفرق حتى بين مخصصات الاول والثاني كبيرة .

وكان مسؤولو المدينة الآشورية هم الخازانو (محافظ البلدة)

ومجلس المسنين ومـدير البلدة (راب آلـي) وكاتب المدينة والمراسل والحاجب . وكان محافظ البلدة مسؤولا مهما في المدينة وكان عددهم في بعض العواصم الاقليمية بين ٢ــ٣ . ويعين الملك مدراء المدينة للحد من سلطة الخازانو والمحافظة على المصالح الملكية . وكانت علاقة كاتب المدينة قوية بمدير المدينة ومحافظ البلدة ، ويحـوز ثقتهما ويرتبط بكل منهما المراسل (الديلو) . وفي مدينة كالح كان هناك سيد المقاطعة (بيل بيخاتى) والحاكم (الشاكنو ، اوراسو) وظلت هاتان الوظيفتان منفصلتين وربما كانت في المقاطعات البعيدة بيد شخص واحد . ويظهر ان الحاكم كان هو الاكبر مركزا والحاكم العسكري . وكان جميع الحكام الآشوريين يعينون من قبل الملك من الامراء وموظفي البلاط ويتم اختيار سيد المقاطعة عادة من طبقة الامراء في وقت كان يختار به الشاكنو من موظفي البلاط والموظف التالي في المقاطعة هو الرجل الثاني (اميلو شاني) ثم مدير المدن المسؤول عن بعض القرى والمدن . اما (الراب كارماني) فمسؤول عن جمع الحبوب والتجهيزات وارسالها الى بلاد آشور وهو موظف عند الحاكم . ثم جامع الضرائب (الماكيسو) ويقع على مدير المدينة جمع الضرائب التي تدفع عينا وارسالها الى مخزن الحكومة المركزية . ويظهر ان الملك كان يحاط علما بكل صغيرة وكبيرة حول اعمالهم اليومية . فمرة ارسل الملك مبعوثا الى بلاد بابل للتحري في نقص وقضايا اخرى تبحث للريبة واخبر المبعوث الملك بصعوبة نقل الحبوب الى مدينة سبار (ربما حيث مخـزن الدولة) قبل ان تظهر القناة المحلية التي يتم العمل بسرعة على تطهيرها . وعلى مدير المدينة الحفاظ على الامـن في منطقته واحيانا تعهد اليه قيادة جيوش لمواجهة الهجمات عبر الحدود . وتتم الاتصالات جميعا مع الحكومة المركزية بواسطة مراسلين يسيرون في طرق الدولة وعلى طول الطرق وعبر الامبراطورية . وهناك مراكز عند كل مسيرة يوم واحد (حوالي ٢٠ــ٣٠

ميلا) ترابط بها حامية ويتم بها تبديل الحيوانات التي يستعملها المراسلون حتى المرحلة التالية ويسير المراسلون رغم ظروف الجو واذا تعذر سير العربات فيذهب المراسل سيراً .

وكان في كل مقاطعة آشورية بين ٢-٣ من موظفي الموشاركيسو والاقل منهم مركزا الراب كالابي ومهمة الاثنين التنقل بين القرى ودوائر الدولة ويظهر أنهم مسؤولون عن جمع الخيل من المقاطعات وارسالها الى الحكومة المركزية . وكانت المنطقة الادارية التي في عهدة الحاكم مقسمة الى قطعات تابعة له عرفت باصطلاحات خاصة . وكان الحاكم يشرف على اعمال التجنيد وكان المجندون من الرجال يقسمون الى نصفين يذهب الاول للعمل والاخر للخدمة في الجيش . وهناك نص يمنع كبار الموظفين في المدينة من الذهاب الى بيوت الناس لاخذهم الى الاعمال الرسمية أو ذات النفع العام ، بل باعلان المنادى مما يدل على كونها اختيارية بمحض ارادة الشخص .

ومن موظفي البلاط كان رئيس القصر (شاوخي ايكللي) وكاتب القصر (الطوبشار ايكللي) وحرس الامراء او المقربون (القوروبوتي) ويرسلهم الملك يضا للتحري فيما يصل اليه من شكاوي عن موظفي الدولة الكبار . ثم سواق عربات الامراء وطواشية البلاط وسواق عربات وحدات الجيش وعربات الملك الخاصة واصطبلات الملك ويتلو هؤلاء حملة الاعلام ورجال الصولجان والوحدات التي ترافق الطواشية والمرتبطة مع اصحاب البريد . ثم العاملون في مختلف مصنوعات القصر كالمنسوجات والمفروشات والخياطة والحلويات ثم الاطباء والعرافون والمنجمون والموسيقيون ولكل من هؤلاء رئيسهم مثل رئيس طباخي اللحم (التاكيسو) ورئيس الخبازين .

وهناك مسؤولون عن كلاب صيد الملك ومطعمي طيوره . والى جانب هؤلاء حوى القصر موظفين اخرين كالنساجين والفلكيين ومراقبي القنوات

وموظفي التجنيد • علما ان الملك كان له حرسه الخاص (الموتيرپـوتـي) من المؤتمنين جدا ويحافظون على مصالح الملك واوامره ويلبون ما يأمر به على الفور وقد يرسلهم بمهمات •

كانت المقاطعات الآشورية تختلف تبعا لدرجة حاكمها • فالمقاطعة التي كانت في عهدة التورتان يقع مركزها عند تل بارسيب او حران عند الحدود الشمالية الغربيـة • والى الشـرق منها المقاطعة التي في عهدة الراب شاقي والتي ربما يقع مركزها عند مدينة شابيريشا • والى الشرق منها المقاطعـة التي في عهده مهيء زيت المسـح والى الشمال المقاطعة التي يشرف عليهـا حاجب القصر • ومنذ عهد آشور ناصربال الثاني كان العمل الاداري في المقاطعات الآشورية وفق مبادىء محددة • وكان عصر أدد نراري الثالث عهد تنظيم اداري كبير للمقاطعات حيث اضيف ما لا يقل عن احدى عشرة مقاطعـة جديدة • وكان الاصلاح الجذري زمن تجلات بيليزر الثالث الذي قسم المقاطعات الكبيرة الى عدد من المقاطعات الصغرى لتسهيل حكمها وادارتها ، فقسمت مقاطعة آشور الى مقاطعتي آشور وايكالاته • وكانت حكومة المقاطعة صورة مصغرة للحكومة المركزية • وان اهتمام الدولـة بالمقاطعات تؤكـده الرسائل والوثائق وقوائم الاحصاءات من حران •

هناك مقاطعات كانت تدفع الجزية الى الملك الآشوري مقابل حمايـة الآشوريين لهم ويعتبر امتناعها عن دفع الجزية عملا عدائيا بالنسبة للدولة الآشورية • واحيانا كانت آشور تتدخل في شؤون هذه الدولة التابعـة لاحلال حاكم موال لهم محل آخر لا يرتضونه او ان تقوم ثورة وينصـب بدله اخر موال للاشوريين من افراد عائلته • وعليه ان يقسم يمين الولاء

لآشور بالآلهة العظام . ويترك الملك الآشوري في ولايته قـوة عسكرية صغيرة لضمان دفع الجزية وبذلك فان اي عصيان مـن قبلها يعتبر نكثـا للقسم الـذي قطعه للآلهة وثورة على الاله آشور . ويضع الملك الآشوري في بلاط حاكم هذه المقاطعة موظفا آشوريا (الزابيل كودوري) يشرف على دفع الجزية والايفاء بالالتزامات .

علاقات الدولة الخارجية

تلقي النصوص السومرية ـ الاكدية منذ العصر السومري القديـم اضواء على العلاقات الخارجية فقد توسط ميسليم ملك كيش لحل النزاع بين مدينتي اومّا ولگش ورسم خط الحدود بـين الدولتين المتنازعتـين . وصورت الوساطة الهية امر بها الاله انليل ملك البلدان الـذي اوعز الـى اله كيش بالتوسط لعقد الصلح بين الهي لگش واومّا وهـذا هـو اول اتفاق صلح نعرفـه الان عقد بين دولتين . وقد نستنج من الملحمة السومرية المعروفة بملحمة انمركار وسيد أرتّا وجود علاقة بين انمركار ملك اوروك وحاكم ارتّا بايران (ربما قرب ديزفول الحالية) ربما نظمتها معاهدة لـم تصل الينا وكان حاكما فيها تابعا للملك اوروك يدفع له بموجبها جزية سنوية . فاذا كان هـذا الافتراض صحيحا فتكون هذه اول معاهدة نعرفها بـين دولتين .

واول معاهدة واضحة نعرفها حاليا هي الاتفاقية التي عقدت بين نرام سن حفيد سرجون الآكدي مع ملك اوان في عيلام بايران قد يكون اسمه خيان . وقد اعتبر ملك اوان نفسه في هذه المعاهدة عدوا لمن يعادي نرام سن وصديقا لكل صديق له . ولـم يذكر نـرام سن مثل ذلك بالنسبة لملك

اوان الامر الذي يؤكد تبعية ملك اوان للملك العراقي وبذلك تقع حماية الاول على الثاني .

تعطينا رسائل ماري صورة واضحة عن العلاقات الدولية خلال العصر البابلي القديم نعرف منها عن معاهدات عقدت بين الدول آنذاك . وكانت المعاهدات محترمة ويطلق على نصها المدون اسم وثيقة حياة الآلهة وهناك اشارة في احدى الرسائل الى معاهدة بين حمورابي وزمري ليم ملك ماري .

وتتضمن رسالة اخرى اقتراحا لريم سن ملك لارسة على حمورابي لعقد معاهدة دفاعية هجومية بينهما . وتخبرنا بعض العبارات في الرسائل عن الطقس الاساسي الذي يتم عمله عند عقد معاهدة بين طرفين مثل مسك الحنجرة وذبح حمار او مسك اداة ربما تكون صولجاناً او مسك حافة الثوب وعرفت المعاهدة باللفظة سلام وعبر عن رفض دولة لعقد اتفاقية مع دولة اخرى بالاصطلاح ضرب اليد .

وتدون اسماء آلهة الطرفين المتعاقدين على نصوص المعاهدة كشهود على الاتفاق وتختتم بذبح اضحية . وهناك أحلاف بين طرفين او اكثر ونقرأ عن وجود ممثلين دبلوماسيين في بلاط الملوك ، فزمري ليم كان له ممثلون في بلاط حمورابي . وكان على الملك التابع ان يقدم الولاء الى مليكه الرئيسي ويرسل له جيوشاً عند حاجة الاخير لها . ويظهر ان التابع كان يطلق على الملك الرئيسي كلمة الاب وعبر عن مثل هذه العلاقات بابوة في وقت كان فيه الملوك الرئيسيون يخاطب احدهم الاخر بالاخ وعبروا عن ارتباطاتهم باخوة .

وقد يحذف احد اطراف المعاهدة بندا من بنودها لم يكن ليرتضيه ربما يدعي للطرف الاخر كونه غير مدون بالنسخة التي لديه من المعاهدة • ففي رسالة من شمشي ادد الاول ملك آشور يذكر بها ان ملك اشنونة قد مسح مادة من مواد اتفاقيتهما • وكان مندوبون من كل طرف من المتعاقدين بالمعاهدة يرسلون احيانا لمناقشة تفاصيل مقترحات الخطوة الاولى فارسل زمري ليم مندوبين الى حمورابي لمناقشة المعاهدة التي كان العاهلان ينويان عقدها وقد اعترض حمورابي على بند من بنود الاتفاقية •

وربما يعمد الملوك الى استشارة الآلهة حول عقدهم اي اتفاق مع دولة خارجية • فرسالة تشير الى احتمال استشارة حمورابي كهنة الاله القمر حول ابرام المعاهدة • واخبر زمري ليم مرة مندوبيه بعدم الامتثال لشروط حمورابي • ويظهر ان ممثلي الدولتين المتفقتين كانوا يعينون يوما خاصا لتوقيع المعاهدة • فقد أشار المندوبون في رسالة لتاريخ يوم معين مما يدل على ان هناك اتفاقا مسبقا على وجوب توقيع المعاهدة في ذلك اليوم •

ويتم القسم باله معين او بجمله آلهة ولذلك تكون مخالفة بنود المعاهدة ذنبا موجها الى ذلك الاله او الآلهة • واحيانا كانت تؤخذ الرهائن قبل عقد اية اتفاقية بين دولتين • وغالبا ما ترفق المعاهدة بزواج بين افراد من اسرتي الدولتين المتفقتين المالكتين • وكانت الاتفاقيات تشمل تسليم المجرمين • ففي رسالة من شمشي ادد الاول الى ولده حاكم ماري (وقت سيطرة الآشوريين على ماري) تبين ان للاول اتفاقا مع ملك بابل يتضمن شروطا بتسليم المجرمين • كما تشمل الاتفاقيات حماية كل ملك لقوافل الملك الثاني والدول التي هي في حلف معه عند مرورها في اراضيه •

ويظهر من الرسائل التي عثر عليها في موقع تل العمارنة في مصـر وتعود للفترة بين حوالي ١٣٨٠–١٣٤٠ ق.م عن دخول الملوك العراقيـين خلال هذه المدة مـن بابليين وآشوريين وميتانيين في علاقات مع ملوك مصر والحيثيين . فنقرأ في رسالة عـن معاهدة بين الملك البابلي وبين امنحوطب الثالث عاهل مصر وزفاف اميرة كشية الـى الملك المصري . وكان لـدى الاخير بذلك الوقت زوجات من العائلة المالكة الميتانية . وهناك معاهدة بين نفس الملك المصري والملك الميتاني وتشير رسالة الى حلف بين الملـك المصري امنحوطب الرابع وملك بابل بورنابورياش الثاني . وتبادل جميع هؤلاء الملوك الرسائل التي ذكروا في بعضها الصداقة التـي كانـت تربط آباءهم وتبادلهم الهدايا كما يتبادلونها هم ايضاً .

واطلق كل ملك على الآخر كلمة أخ مما يدل على نظرة كل منهم للآخر كمساوٍ له . كما عقدت معاهدة بين الملكين الميتاني والحيثي دعمت بزواج الاول من ابنة الثاني .

وقد يسيء احد الملوك فهم رسالة تصله من ملك دولة اخرى فيكون جوابه خشناً او قد يأمر من هو دونه مرتبة بالاجابة عليها اهانة . فقـد اعتبرت رسالة الملك الحيثي حاتوشيليش الثالث الى الملك البابلي كدشمان الليل الثاني تدخلا منه في شؤون بلاد بابل فاجابها وزيره نيابة عن الملك البابلي وجاء فيها (لم تخاطبنا كاخوان بل كعبيد خاضعين لك) . فاعتذر الملك الحيثي برسالة وجهها الى الملك البابلي وليس الى الوزير الذي بعث له جواب رسالته الاولى مما يدل على كون ذلك امورا متعارفاً عليهـا فـي العرف الدبلوماسي انذاك .

ان ما وصل الينا من المعاهدات الآشورية لقليل ومنها المعاهدة بين ملك شمشي ادد الخامس ومعاصره الملك البابلي التي اكدت على تخطيط الحدود بين الدولتين • وكان لآشور فيها اليد العليا وانتهت بقسم الطرفين بآلهتهما ثم اتفاقية الملك آشور نراري الخامس وماتيلو ملك دويلة بيت اكوسي بالجزيرة الفراتية وقد وقع الاول نيابة عن ابنائه وشعبه وبلاده وختمت المعاهدة بالقسم بالآلهة • ومن العصر الآشوري المتأخر كانت معاهدة اسرحدون مع ملك صور التي سمح بموجبها للاخيرة بزيادة جزيتها السنوية مقابل ضمه مدينتين قريبتين وتقبله مقيما آشوريا في عاصمته يراقب تنفيذ بنود المعاهدة كما تضمنت المعاهدة مواد تجارية • ثم معاهدة نفس الملك مع حاكم ميديا في غرب ايران من اجل ضمان العرش الآشوري لاولاده بعد وفاته واحترام هذا الحاكم لتعهداته في حماية آشور بانيبال واخوته • وقد فرض اسرحدون بموجبها على تابعه هذا القسم بالآله آشور الذي فرضه عليه (يجب ان تعبد الاله آشور كأنه الهك الخاص) وتضمنت قائمة طويلة العقوبات التي يمكن ان يطبقها الملك الآشوري بحقه ان هو خالف بنود المعاهدة •

المصـــــادر

(١) د. سامي سعيد الاحمد، العراق القديم، الجزء الاول، العراق حتى العصر الاكدي (بغداد ١٩٧٨) .

(٢) د. سامي سعيد الاحمد ، العراق القديم ، الجزء الثاني من العصر الاكدي حتى نهاية سلالة بابل الاولى (بغداد ، ١٩٨٣) .

(٣) طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة القسم الاول ، تاريخ العراق القديم (بغداد ١٩٥٥) .

4- George Contenau, Everyday Life in Assyria and Babylonia, (New York, 1966).

5- Henry Frankfort, The Birth of Civilization in the ancient Near East, (New York, 1965).

6- Mc Guire Gibson, The City and Area of Kish, (Field Research Project, Miami Beach, Florida, 1972).

7- Adam Falkenstein, Le cite Temple Sumerienne, cahiers de l' Histoire Mondiale, 1, (1954), pp. 787-796.

8- J.V. Kinnier Wilson, The Nimrud Wine Lists, A Study of Mend and Administration at the Assyrian Capital in the Eighth Century B.C. (London, 1972).

9- Samuel Noah Kramer, From the Tablets of Sumer, (Indian Hills, 1956).

10- Samuel Noah Kramer, Sumerian Similes, Journal of American Oriental Society, Vol. 89, (1969), pp. 1-10.

11- F. Krau, Sesam im Alten Mesopotamia, Journal of American Oriental, Vol. 88, (1968), pp. 112-119.

12- J. Lewy, Nuzi Feudal System, Orientalia, Vol. XI, (1942).

13- A.T. Olmstead, History of Assyria, (Chicago, 1923).

14- James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts relating to the Old Testament, (Princeton, 1957).

15- Svend A. Pallis, The Antiquity of Iraq, (Copenhagen, 1956).

16- Georges Roux, Ancient Iraq, (Cleveland, 1965).

17- A.I. Tyumenev, The Working Personnel on the Estate of the Temple of Bau in Lagash during the period of Lugalbanda and Urukagina, in I.M. Diakonoff, Ancient Mesopotamia, (Moscow, 1969), pp. 88-125.

18- H. Frankfort, Kingship and the Gods, (Chicago, 1955).

19- L. Waterman, Royal Correspondence of the Assyrian Empire (Ann Arbor, 1936), Vol. 4.

الفصل الثاني

الجيش والسلاح

د. فوزي رشيد

المؤسسة العامة للآثار والتراث ـ بغداد.

نظرة سريعة في نشأة السلاح

من القوانين الطبيعية التي لايستطيع الانسان تجاوزها على الاطلاق، هو قانون التطور الذي ينص على ان كل ابتكار انساني لابد وان يسبقه اولا ظهور الحاجة الملحة اليه ولابد ايضا ان يعتمد في انتاجه على مظهر من المظاهر الطبيعية او على صفة او سلوك بشري او حيواني ان كان ذلك الابتكار من الانتاجات الاولى في حياة الانسان . وفيما يخص حاجة الانسان الى السلاح فان صراعه المستمر مع الحيوانات المفترسة وغير المفترسة ومنافسة الجماعات البشرية لبعضها البعض على اماكن الصيد والرعي قد أوجد تلك الحاجة الى السلاح . واما المظهر الطبيعي او الانساني الذي اعتمدت عليه صناعة اقدم انوع الاسلحة فيمكننا ان نحدده بسهولة وذلك عند التعرف على شكل اقدم سلاح صنعه الانسان في حياته .

وآثار عصور ماقبل التاريخ قد بينت لنا بصورة لا تقبل الشك ان اقدم سلاح عرفه الانسان هو الفأس اليدوية التي كانت عبارة عن كتلة حجرية مهذبة مربوطة على قطعة خشبية مأخوذة من اغصان الاشجار لايزيد طولها على طول ساعد الانسان والحقيقة ان اثار عصور ماقبل التاريخ لم تقدم لنا اية معلومات اكيدة عن طول تلك القطعة الخشبية الا ان القانون الفيزيائي الذي ينص على ان القوة في ذراعها تساوي المقاومة في ذراعها يؤكد على ان طول تلك الخشبة لا يزيد كثيرا على طول الساعد مادامت يد الانسان تمثل المقاومة والفأس وخشبتها تمثلان القوة وهذا يعني ان شكلها الخارجي كان لايختلف عن شكل قبضة يد الانسان مع ساعدها او ساقه مع قدمها ولذلك يمكننا التأكيد على ان الانسان في عصوره المبكرة قد اعتمد في حماية نفسه على اسلحته الذاتية وقد اعتمد بالدرجة الاولى على اليدين ومن ثم الرجلين والرأس في بعض الاحيان وذلك على غرار ماتفعله الحيوانات عموما حيث انها ولاشك تعتمد على اسلحتها الذاتية فقط في حماية نفسها واصطياد فرائسها .

هذا وبالرغم من توصل الانسان القديم عبر مراحل عصور ماقبل التاريخ المختلفة الى ابتكار اسلحة متنوعة مثل الفؤوس والاقواس والسهام والمقالع اليدوية الا ان هذه الاسلحة لم تقلل من اهمية اليدين والرجلين في حماية الانسان لنفسه . والناحية التي اكدت لنا هذه الحقيقة هي الاصطلاحات العسكرية التي وردت في النصوص المسمارية للألف الثالث قبل الميلاد حيث ن من بين الافعال السومرية التي تعبر عن دحر الجيش لقوات العدو هو لفعل الذي يلفظ (خوب) ويعني « هزم العدو » وهذا الفعل كان يكتب بالصورة التي تمثل اليد مع قبضتها او الساق مع قدمها (انظر الشكل ١).

الشكل ـ ١

المراحل التطورية للعلامة المسمارية التي كتب بها الفعل «خوب» الذي يعني هزم العدو				
٨٠٠ – ٦٠٠ ق.م	١٢٠٠ – ٨٠٠ ق.م	٢٠٠٠ – ١٢٠٠ ق.م	٢٦٠٠ – ٢٠٠٠ ق.م	الشكل الصوري

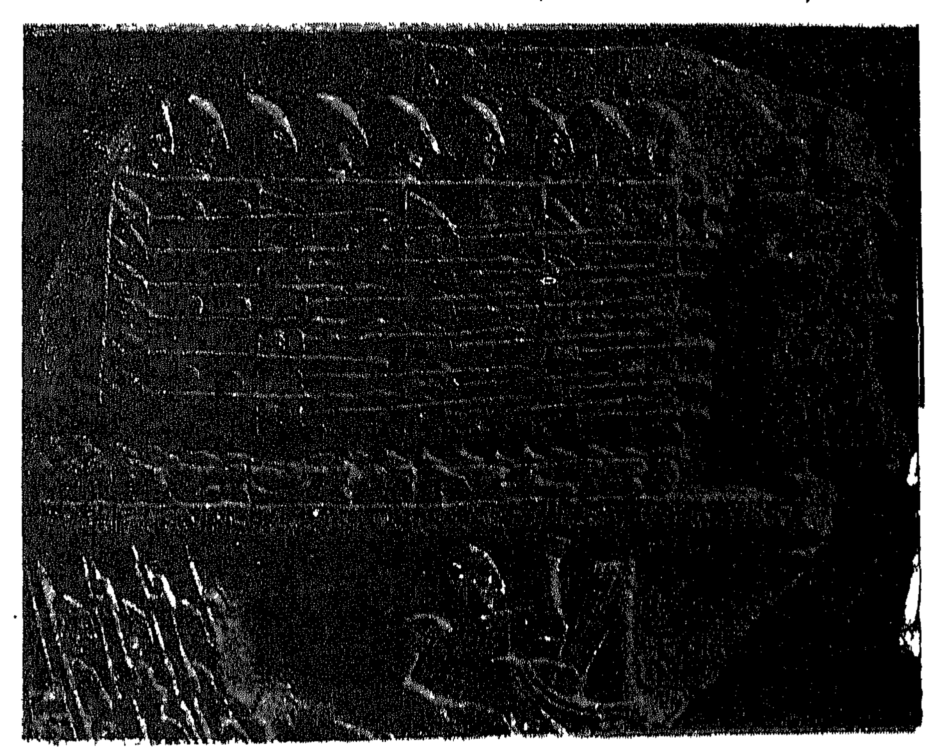
ماتقدم يمثل نظرة سريعة عن نشأة اقدم انواع الاسلحة التي ابتكرها الانسان اضافة الى اسلحته الذاتية ٠ وبالرغم من إشارتنا الى تعدد انـواع تلك الاسلحة وتحسن اشكالها عبر فترات عصور ماقبل التاريخ الا اننـا سوف لاناقش موضوعها في هذا الفصل لانها تقع خارج حدود موضوعنا المتمثل بالجيش والسلاح خلال العصور التاريخية علاوة على ان جميع تلك الاسلحة قد استخدمت في العصور التاريخية ايضا ولكن بعد ان طرأ عليهـا كثير مـن التحسـينات ٠

الجيش والسلاح خلال الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد

وقبل ان ندخل في صميم الموضوع نشير الى اننا نحن البشر نستطيع ان نتصور بعض الاعمال لامن مشاهدتنا لها بل من النتائج التي خلفتها ونستطيع ايضا ان نتعرف على الابطال المتميزين ايضا لامن معايشتنا لهم بصورة مباشرة بل من نوعية الانجازات الجبارة التي نفذوها وكذلك الحال مع الجيوش فأننا نستطيع ان نؤكد على عظمتها او على ضعفها من خـلال ماحققته او عانته الدول التي كانت تحتمي بظل تلك الجيوش وعليه فـان حضارة عظيمة كالحضارة العراقية القديمة لايمكن ان تزدهر وتبلغ القمة في تطورها الافي ظل جيش عظيم وقادة شجعان ٠

وبالرغم من هـذه البديهية فان المخلفات الاثرية والنصوص المسمارية قد قدمت لنا الادلة الكافية على مكانة الجيش العراقي وعلى نظمه وأسلحته ، ومن بين المخلفات الاثرية الكثيرة التي تعطينا تصورا واسعا عـن الجيش واسلحته واساليبه التعبوية خلال الالف الثالث قبل الميلاد هـي المسـلة المعروفة بأسم مسلة العقبان حيث انها قد صورت لنا ضمن مشاهدها جيش سلالة لكش الاولى زمن ملكها المدعو أي اناتم حوالـي ٢٤٧٥ ق ٠ م بوضعيتين اساسيتين ، الاولى قد صورت لنا ترتيب الجنود عندما يكـون

الجيش في حالة الدفاع وقد تم الاعتماد في هذه الحالة على استخدام نظام الصف او ما يدعى بنظام الكراديس مع تزويد الجنـود بالاسلحـة الثقيلـة كالدروع والرماح وبالخوذ الواقية للرأس واهمية نظام الصف او الكراديس أثناء الدفاع تبرز من حيث ان ترتيب الجنود ودروعهم في وضعية لافراغ فيها بين جندي واخر ، ولذلك فهي تمنع العدو من اختراق هـذا النظام بسهولة (انظـر الشـكل ٢) والوضـعية الثانيـة قـد صورت لنـا



الشكل ـ ٢

مسلة الملك « ايانائم » وهي ترينـا وضعية الجيش اثناء الدفاع ، كما هو مصور في المشـهد العلوي واثناء الهجوم كما هو مصور في المشـهد السـفلي ، حـوالي ٢٤٧٠ ق ٠ م

ترتيب الجنود عندما يكون الجيش في حالة الهجوم حيث ان اسلحته خفيفة ونظامه يسمح بالحركة والانفتاح ، كما انها قد بينت لنا ايضا بان العربات الحربية كانت تتقدم الجنود المهاجمين مثلما تتقدم الدبابات هجوم المشاة في الحروب الحديثة ، هذا ومما هو واضح في مشاهد جميع عربات الالف الثالث قبل الميلاد هو انها لم تستخدم الحصان لسحبها بل استخدمت لهذا الغرض الثيران والحمير والبغال وذلك تبعا لدرجة المتانة التي تتمتع بها العربة . والسبب الذي جعل سكان العراق القديم يستخدمون الحمير او البغال لجر عرباتهم الحربية يعود الى ان تصميم تلك العربات كان لايتحمل سرعة الحصان باي حال من الاحوال وهذه الحقيقة هي التي تسببت في عدم استخدام السومريين للحصان رغم معرفتهم له لانه كما قلنا لايصلح لسحب العربات حربية كانت ام غير حربية ولايمكن ايضا استخدامه لاغراض نظام الفروسية لان بقية صنوف الجيش لا تستطيع مجاراة سرعة الحصان لو استخدمه السومريون والبابليون للنظام المذكور . وهذه الحقيقة الخاصة بالحيوانات الساحبة لعربات الالف الثالث قبل الميلاد تقدم لنا التصور الكافي للسرعة الممكنة التي كان الجيش العراقي القديم يستطيع ان يستخدمها في مناوراته اثناء الهجوم او الانسحاب .

ومما هو معلوم حاليا ان صنف المشاة لايكتفي أثناء هجومه بتقدم الدبابات امامه بل يحتاج ايضا الى قوة اضافية ساندة لهجومه من اجل ان تشاغل العدو أثناء تقدم المشاة وفكرة اسناد الجيش أثناء تقدمه تعتبر من اهم المبادىء في التكتيك العسكري عموما وفيما يخص ممارسة العراقيين القدماء لهذا المبدأ العسكري المهم فان المشاهد الاثارية لفترة الالف الثالث قبل الميلاد لم تقدم لنا أي أثر كان يبين لنا بشكل صريح استخدام الجيش لمبدأ الاسناد أثناء تقدم المشاة الا ان الخوذ الواقية التي لبسها جنود الملك أي — اناتم وجنود الالف الثالث قبل الميلاد على العموم ربما تشير الى ان الجنود

كانوا يتعرضون أثناء المعركة الى قذائف تأتيهم من الاعلى ولذلك صممت الخوذ الواقية بشكل مخروطي لان هذا الشكل يساعد على تخفيف الصدمة اذا ماسقطت على الخوذة قذيفة ما ، وهذه القذائف لابد وان كانت تأتيهم من القوة الساندة للجيش المهاجم والناحية التي اكدت هذه الحقيقة هي الكتابات المسمارية التي قدمت لنا الدليل الاكيد على معرفة سكان بلاد وادي الرافدين منذ الالف الثالث قبل الميلاد لمبدأ الاسناد واكدت ايضا على أنه ابتكار عراقي ولم يسبق لاي شعب كان ان استخدمه قبل العراقيين حيث اشارت اليه بشكل واضح الملحمة الخاصة بالمعركة التي نشبت في حدود ٢٦٠٠ ق ٠ م بين مدينة الوركاء وبين مدينة أراتا الواقعة مابين مدينتي الشوش وديزفول الحاليتين حيث ورد فيها مايلي :

« في ذلك الوقت تبع سكان سلالة الوركاء ، الملك انمير كار مثل رجل واحد ، فعبرت جيوشه الجبال المحيطة بمدينة ارتا (زحفا) كما تزحف الافعى بين اكوام الحبوب وعندما وصلت الجيوش الى منطقة لا تبعد كثيرا عن مدينة ارتا بدأت راجمات الاحجار ترمي احجارها التي ساوت كميتها كمية الامطار التي تسقط خلال سنة كاملة فسقطت لذلك الاحجار بكثافة على اسوار مدينة ارتا » ٠ ان هذه الاسطر المختارة من الملحمة المذكورة تؤكد على ان صنف راجمات الاحجار كان خلال الالف الثالث قبل الميلاد يقوم بمهمة اسناد المشاة أي أنه يقوم مقام المدفعية في الوقت الحاضر وفيما يخص اصناف الضباط وعدد الجنود الذين كانوا تحت أمرتهم خلال الالف المذكور فلدينا اشارة واحدة جاءت ايضا ضمن الملحمة الخاصة بحرب مدينة الوركاء مع مدينة ارتا والتي ذكرت بان الضابط من رتبة « اوكلا » كان يقوم بقيادة (٣٠٠) جندي والضابط من رتبة « نوبندا » كان يقود (٦٠٠) جندي والضابط من رتبة «شاكينا» كان يقود (٢٥٢٠٠) جندي وعليه يبدو أن الشاكينا قديما كان يقوم مقام رئيس اركان الجيش في الوقت الحاضر وهو ثاني شخصية

في الجيش بعد شخصية الملك رأس السلطة السياسية والقائد العام للقوات المسلحة ومن نصوص مسمارية اخرى تبين لنا بأن كان للملك ولقصره حرس خاص يسمون باللغة السومرية « شوب ـ لوگال » أي بمعنى التابعين الى الملك وأما الجنود فكانوا على صنفين ، الاول يسمى « ايرن » ويعني الجندي الدائمي والصنف الثاني يسمى « كوروش » ويبدو من المصادر المسمارية المختلفة بان هذا كان عاملا ومحاربا في آن واحد ولذلك يمكننا التأكيد على ان هذا النوع من الجنود كانوا يلتحقون في الخدمة العسكرية وقت الحروب فقط اما في اوقات السلم فكانوا يقومون بالمهام الزراعية ولذلك يمكننا ان نسمي هذا الصنف من المحاربين بالجيش الشعبي، والعلامة المسمارية التي كتب بواسطتها كلمة جندي من نوع « كوروش » لها قراءات اخرى من ابرزها هي (كال) وتعني « القوى » وهذه الحقيقة الخاصة بالعلامة المسمارية المذكورة تدل على ان الجنود من نوع كوروش والذين اسميناهم بالجيش الشعبي كانوا يساقون الى الخدمة العسكرية أثناء الحروب مادام الواحد منهم يمتلك القدرة على القتال وفي حالة فقدان احدهم لهذه القدرة بسبب العجز او الكبر فانه يعفى من الخدمة العسكرية • وفيما يخص مجمل الاسلحة التي أستخدمتها الجيوش العراقية القديمة خلال الالف الثالث قبل الميلاد يمكننا أن نقسمها الى مجموعتين رئيسيتين، الاولى هي مجموعة الاسلحة الهجومية التي كانت تتألف من الفؤوس والصولجانات (= المگاوير) ، الخناجر ، السيوف ، الاقواس ، والسهام راجمات الاحجار ، الرماح ، والشباك • وفيما يخص السيوف علينا ان نشير الى انها لم تكن تستخدم لاغراض القتال بل كانت لاغراض الاستعراضات العسكرية لان السيوف خلال الفترة المذكورة كانت تصنع من البرنز ولذلك ماكانت تمتلك الصلابة الكافية لكي تستخدم لاغراض المبارزة • ولهذا السبب لم تصور السيوف على الاثار التي انتجت خلال الالف الثالث قبل الميلاد ولكننا تعرفنا عليها

من خلال الكتابات المسمارية وكان السيف يوصف بالخنجر الكبير ، واما المجموعة الثانية فتمثل الاسلحة الدفاعية وكانت تتألف من الدروع ، والخوذ الواقية ، والملابس المدرعة . تعرفنا فيما تقدم على نظام الجيش واسلحته واسلوب قتاله خلال النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد اما نظامه قبل هذا التاريخ فان العلامات الاولى للخط المسماري التي ظهرت منذ منتصف الالف الرابع قبل الميلاد قد مكنتنا من التعرف عليه ولو بصورة تقريبية حيث ان العلامة التي كتبت بها كلمة معركة كانت تتألف من العلامة الخاصة بالجندي مضافا اليها فأسين . وهذه الحقيقة تؤكد على ان الفأس كانت السلاح الذي يمنح لصنف المشاة خلال الفترة التي ظهرت فيها الكتابة المسمارية وخلال الفترة التي سبقتها ايضا وسبب ذلك يرجع الى ان سكان القسم الجنوبي من العراق قد تعرفوا على النحاس ومن ثم البرنز خلال الالف الرابع قبل الميلاد ولذلك صنعوا منه الفؤوس التي تمثل افضل انواع السلاح لصنف المشاة . أما القوة الساندة لصنف المشاة خلال النصف الثاني من الالف الرابع قبل الميلاد فليس لدينا مايحددها بشكل دقيق ولكن اثار الفترة المذكورة قد صورت لنا مشهدا لصيد الاسود ظهر فيه القوس والسهم والرمح ولذلك نعتقد ان صنف حملة الاقواس كانوا يمثلون القوة الساندة لصنف المشاة أما الرماح فيبدو أنها كانت تستخدم للاغراض الدفاعية .

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المجال هو أن آثار الفترات التي سبقت النصف الثاني من الالف الرابع قبل الميلاد لم تقدم لنا اية مشاهد حربية ماعدا آثار الالف الخامس قبل الميلاد وخاصة في موقع تل الصوان القريب من مدينة سامراء الحالية حيث قدمت لنا نماذج من الكرات الصلبة التي كانت تستخدم لاغراض المقالع اليدوية ولكننا لاندري فيما اذا كانت هذه المقالع اليدوية تستخدم لاغراض الحرب أم الصيد أم لكليهما . ومع هذه الحقيقة الخاصة بخلو الفترات التي سبقت النصف الثاني من الالف الرابع

قبل الميلاد فان ذلك لايعني على الاطلاق بان تلك الفترات كانت خالية من المعارك والحروب بل ان ذلك يشير الى ان المعارك والحروب كانت الشـغل الشاغل لسكان تلك الفترات ، ولذلك كانت الحروب لا تمثل حدثا « غير اعتيادي » بحيث يستحق تخليده برسمه او تصويره نحتا على الحجر •

وقبل ان ننتقل الى مرحلة اخرى نود ان نشير الى ان العراقيين القدماء وخاصة سكان مدينة الوركاء بالذات هم اول من فكر باحاطة مدينتهم بسور دفاعي حيث ورد في احد النصوص المسمارية ان گلگامش ملك الوركاء قد بنى في حدود ٢٧٥٠ ق • م سورا لمدينة الوركاء وبالفعل فان تنقيبات البعثة الالمانية في المدينة المذكورة قد أظهرت بقايا السور المذكور وقد بلغ طـول محيطه تسعة كيلو مترات ومن بعض كتابات مدينة الوركاء تبين لنا بانه كان يتصيد الاعداء كما تصاد الطيور في الشبكة •

وفيما يخص اواخر الالف الثالث قبل الميلاد فالمعلومات التاريخيـة تؤكد أن الملك الاكـدي سرجـون قد تمكـن في عـام ٢٣٤٠ ق • م من الوصول الى قمة السلطة السياسية في العراق القديم وبعد فترة قصيرة من تسلمه الحكم استطاع ان يكون امبراطورية عظيمة امتدت حدودها مـن جبال طوروس شمالا وحتى الخليج العربي جنوباً ومـن جبـال زاكروس وعيلام شرقا وحتى البحر المتوسط غربا وتكوين امبراطورية بهذه السعة لم يتحقق الابعد الانتصار على شعوب عديدة اغلبها لم تكن قد تعرفت علـى الاساليب العسكرية المتطورة في القتال ولذلك كان لزاما على سرجون ان يجد اساليب قتالية جديدة تتناسب وطبيعة هذه الشعوب وبالفعـل فـان المعلومات المتوفرة تؤكد على ان الاكديين قد فضلوا الاقواس والسـهام كقوة سائدة لتقدم المشاة عوضا عن راجمات الاحجار لان الاقواس والسهام سهلة الحمل ولاتؤثر على حركة الجيش اثناء التقدم والانسحاب كما هـو الحال مع راجمات الاحجار • ومسلة النصر العائدة الى الملك الاكدي نـرام

سين ٢٢٩١ ـ ٢٢٥٥ ق ٠ م توضح نوعية التسليح الاكـدي الذي لا يعيق حركة الجيش أثناء مناوراته العسكرية وعلاوة على ماتقدم فقد ادخل الاكديون طريقة المبارزة رجلا مع رجل لأن هذه الطريقة أكثر نفعا مع الشعوب التـي كانت تجهل الاساليب المتطورة في القتال واعتمد الاكديون في تعبئتهـم للجيش على العدد الكبير للجنود ، فقد اشار الملك سرجون الاكـدي في احدى كتاباته على انه قد قاد جيشا كان قوامه ٥٤٠٠٠ الف جندي والسبب في زيادة عدد افراد الجيش لم يأت من حاجة اساليب القتال الى ذلك العدد بل كان على الجيش ان يترك في الاماكن التي يحتلها عددا مـن جنـوده للحاميات العسكرية التي يقيمها في تلك الاماكن لتحمي هيبة السلطة الاكدية وتحمي طرق التجارة ايضـا ٠

وتكوين الامبراطورية الاكدية خلال النصف الثاني مـن الالف الثالث قبل الميلاد ماهو في حقيقته الا اول تجربة ضخمة في التاريخ وضعت الجيش واسلحته ونظام الحكم ايضا تحت المحك الحقيقي فأدت هذه التجربة ولاشك الـى تبلور الجوانب السلبية التي رافقت تعبئة الجيش وتدريباته ومعاملة الضباط والجنود آنذاك ولذلك فقد منحت هذه التجربة الرائعة الكثير من الدروس والعبر للأجيال اللاحقة ٠

الجيش واسلحته خلال الالف الثاني قبل الميلاد

من أهمية القوانين في حياة الانسان انها تركز في موادها على معالجة السلبيات الواضحة والتي تشكل خطرا على أمن وسلامة المجتمع ولذلك فان اضافة اية مادة جديدة الى مواد القانون يعني ذلك ان ماعالجته تلك

المادة كان نتيجة لبروز ظاهرة سلبية لابد من معالجتها والحد من تأثيرها على المجتمع ومما يؤكد هذه الحقيقة هو ان السلبيات التي تبلورت من جراء الممارسات العسكرية للالف الثالث قبل الميلاد قد رأيناها واضحة في شريعة حمورابي ١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق ٠ م وبالتحديد ضمن المواد المتعلقة بالجيش وتنظيماته العسكرية والتي لم نر مثيلا لها في الشرائع السابقة حيث ان ماعالجته تلك المواد لابد وان كان جزءا من السلبيات السابقة فحاول حمورابي ازالتها واحلال البديل الافضل محلها ٠

والمواد التالية مختارة من مجموع المواد المتعلقة بشؤون الجيش ضمن شريعة حمورابي :

المادة (٢٧)

« اذا اسر جندي او سماك في أثناء الخدمة المسلحة للملك وبعد ذلك (أي أثناء غيابه) اعطوا حقله وبستانه لرجل اخر وأوفى (الرجل الاخر) ماعليه من الالتزامات الاقطاعية فاذا عاد (الجندي او السماك) ووصل بلدته فعليهم ان يعيدوا له حقله وبستانه وعليه ان يمارس حقوقه الاقطاعية » ٠

المادة (٢٨)

« اذا أسر جندي او سماك في أثناء الخدمة المسلحة للملك وكان ابنه قادرا على القيام بالالتزامات الاقطاعية ، فعليهم ان يعطوه الحقل والبستان وعليه أن يمارس حقوق والده الاقطاعية » ٠

المادة (٣٦)

« لايجوز للجندي ولا للسماك ولا للمزارع (أي الشخص الذي يدفع ضريبة) ، ان يبيع بالمال الحقل والبستان والبيت »

المادة (٣٧)

« اذا اشترى رجل حقلا اوبستانا او بيتا يعود لجندي او لسماك او لمزارع فيجب تحطيم رقيم عقده (ويجب ان) يخسر نقوده، وان الحقل والبستان والبيت ترجع الى مالكها » .

ومن السلبيات الاخرى التي أثرت الى حد ما على نفسية المقاتلين في العصور التي سبقت فترة حكم الملك حمورابي هو ان الدولة ما كانت تعتبر نفسها ملزمة في اتخاذ التدابير اللازمة لاعادة الاسرى بعد أنتهاء الحرب ولذلك كان معظم الاسرى ينخرطون في صنف العبيد في البلد الذي كانوا يؤسرون فيه والذي يؤكد هذه الحقيقة هو ان كلمة عبد باللغة السومرية كانت تكتب بعلامتين الاولى تمثل الرجل والثانية هي العلاقة الدالة على الاعداء وبذلك يكون معنى كلمة عبد « الرجل من بلاد الاعداء » . اما الملك حمورابي فقد عالج هذه الناحية بالشكل الذي كان ممكنا آنذاك والمادة التالية من شريعته خير شاهد على ذلك :

المادة (٣٢)

« اذا أسر جندي او سماك في أثناء حملة مسلحة للملك واعتقه تاجر واوصله الى بلدته فاذا كان في بيته (من الاموال) مايكفي لعتق نفسه فعليه ان يعتق نفسه واذا كان لا يوجد في معبد اله بلدته لعتقه فعلى القصران يعتقه ولايجوز ان يعطي حقله وبستانه مقابل عتقه » .

ومن السلبيات الاخرى هو ان بعض العاملين في الجيش كانوا يتخلون عن مسؤولياتهم العسكرية نتيجة الترف الذي اصاب حياتهم فيرسلون اشخاصا اخرين عوضا عنهم عند دعوتهم للالتحاق بالحملة العسكرية ومثل هذه السلوكيات تضعف الجيش وتؤثر على مستواه القتالي ولذلك فقد اعتبر حمورابي مثل هذه الحالات خيانة عظمى بحق الجيش والوطن

ولذلك نصت شريعته على اعدام الجندي الذي يقوم بارسال بديل عنه والمادة التالية الدليل على ذلـك :

المـادة (٢٦)

« اذا طلب التحاق جندى او سماك (يعمل في الجيش) في حملة للملك ولم يذهب بل أجر بديلا « عنه وارسله عوضا » عنه فان ذلـك الجندى او السماك يعدم اما بديله فله ان يأخذ بيته « اي بيت الجندي او السماك » .

والحقيقة ان مضمون هـذه المـادة يدلل ايضا « على ان التنظيمات العسكرية التي سبقت حمورابي لم تكن كافية لسد كـل حاجات الجيش والمعركة لان اقدام العسكري على ارسال بديل عنه اثناء المعركة يعني ان نظام التعبئة والاحصاء كان ضعيفا » ولا يمتلك نظرة شمولية على جميع افـراد الجيش لذلك كـان ممكنا للعسكري النظامي ان يتخلى عـن واجباتـه العسكرية اثناء دعوته للقتال ، ولذلك كان حمورابي شـديدا مع هذا النوع من الجنود بحيث من يقدم على مثل هذه الاعمال لا يفقد حياته فقط بل يحرم عائلته ايضا من وسيلة العيش المحترمة ولذلك يبدو لنا ان نظـام التعبئـة والاحصاء قد احرز تقدمـا في زمن الملك حمورابي بحيث عمل على ايجاد اساليب جديدة تمكن الماكنة العسكرية من السيطرة على كل اجزائها .

ومن الامور الاخرى التي برزت الحاجة اليها قبل ان يأتي حمورابي لى الحكم هو جهاز الاستخبارات الذي لولاه تكون عملية ضمان سلامـة وامن البلاد غير كاملة ، ومن الواجبات الاخرى الرئيسية لهذا الجهاز المهم هو الحد من نشاط الطابور الخامس وتوفير المعلومات الضرورية عـن العدو والحقيقة اننا لا نملك معلومات اكيدة عن هـذا الجهاز ولكننا نستطيع ان نخمن بان سلالة حمورابي كانت تمتلـك جهازا خاصـا بالاستخبارات وان

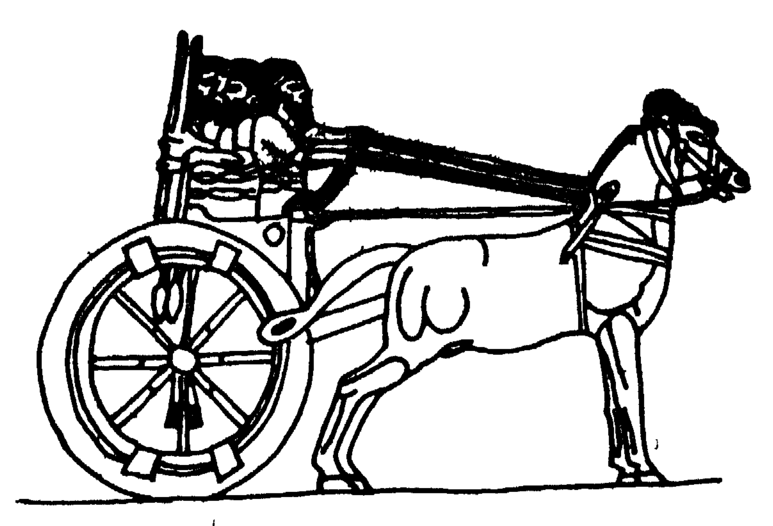
ارتباطه المباشر كان مع الملك والاشارة التي تدلل على ذلك هي المـادة (١٠٩) من شريعة حمورابي التي تنص على ما يلي :

« اذا تجمع محتالون (= مجرمون) في بيت بائعة الخمر ولم تلق القبض على هؤلاء المحتالين ولم تقدمهم الى القصر فان بائعة الخمر هـذه تعـدم » •

وهذه المادة تؤكد على ان جميع الاماكن التي يؤمها الناس الذين يميلون بطبيعة تربيتهم الى خلق المشاكل والاخلال بالامن كانت توضع تحت الرقابة وان اصحاب هذه الاماكن ملزمون باخبار السلطة بكل سلوكيات الاشخاص التي من الممكن ان ينجم عنها مايربك الامن والاستقرار أو يهدد سلامة البلاد•

والجهاز الذي يتولى هذه المهمة يمكننا ان ندعوه بجهاز الاستخبارات والدليل الاخر الذي يؤكد على ان بداية جهاز الاستخبارات كانت في زمـن سلالة حمورابي هو التكامل الذي وجدناه في جهاز الاستخبارات الاشوري فلو لم تكن بداية هذا الجهاز قبل الفترة الاشورية لما وجدناه كامل النمو في العهد الآشوري • ورجـل الاستخبارات في العصـر المذكور كان يدعـى « ديالو » هذا ومن خلال الكتابات المسمارية التي جاءتنا من النصف الثاني للالف الثاني قبل الميلاد تأكد لنا ان صناعة العربات الحربية عنـد الاشوريين وبقية سكان العراق القديم قد بلغت مرحلة من المتانة والتناسب مع سـرعة الحصان بحيث ساعد ذلك على استخدام الخيول لجر العربات وخاصة الحربية منها • والعامل الرئيس الذي ساعد على هذا التناسب هو التطور الذي حصل على صناعة العجلات حيث كانت قبل التاريخ المذكور تصنع مخرمة اي ان هناك اضلاعاً او شعاعيات تسند فيما بين المحور واطار العجلة وهذه الناحية قد خففت من وزنها وساعدت على سرعة حركتها علاوة علـى أن توصـل

الاشوريين الى تعدين الحديد قد ادى الى ان تصبح محاور العجلات التي كانت تصنع منه اكثر مقاومة للاحتكاك الذي ينتج عن سير العربة • وتناسب العربات الاشورية مع سرعة الحصان قد اظهر الحاجة الملحة الى تربية الخيول والاعتناء بها ولذلك بدأت النصوص المسمارية منذ ١٣٠٠ ق•م تذكر لنا المعلومات الكافية عن تربية الخيول وتحسين انواعها ومما لاشك فيه ان استخدام الخيول مع العربات قد رفع من اهميتها في المعارك الحربية وهذه الزيادة في الاهمية قد رفعت بدورها من قيمة قواد ها بحيث اصبحت العربة تقاد من قبل ضابط يسمى في النصوص المسمارية « ساكروماش » ورفعت من قيمة من يقوم بادارة الخيول وعرباتها بحيث أصبحت مرتبته تعادل مرتبة الوزير ويلفظ باللغة السومرية « كير ـ داب » وباللغة الاكدية « كارتبو » وهذه الكلمة كانت تعبر خلال الالف الثالث قبل الميلاد عن الشخص الذي يقوم بقيادة الحيوان بواسطة مسكه من لجامه اي بمعنى السائس •



عربة حربية آشورية مع الحصان ذو الرقبة المقوسة

الجيش والسلاح خلال الالف الاول قبل الميلاد

من ابرز الجيوش خلال اوائل الالف المذكور هو الجيش الاشوري حيث انه قد ورث كل التجارب العسكرية السابقة علاوة على اضافته العربات الحربية التي تجرها الخيول الى ماكنته العسكرية ومن يطلع على القواعد والاسس التي استند عليها الجيش المذكور سوف يجدها لا تختلف من حيث الجوهر عن الاسس والقواعد التي تقوم عليها الجيوش الحديثة ولكن الاختلاف يكمن في التطور الذي اصاب انواع الاسلحة وتحسن اساليب العمل اما الجوهر فواحد بين الاثنين •

ففيما يخص الجنود فقد زادت اصنافهم عما كانت عليه في الفترات السابقة فكلمة الجندي الاعتيادي كانت تلفظ « صابو » وهي ترجمة لكلمة « ايرن » السومرية التي مر ذكرها ، واسم المقاتل في الجيش الشعبي كان يلفظ « قرادو » ويعني القوى فهو بذلك ترجمة لكلمة « كوروش » السومرية وعلاوة على هذين الصنفين فقد اخبرتنا النصوص المسمارية الاشورية عن وجود اصناف اخرى ذات تدريبات وتخصصات عسكرية افضل من الصنفين المذكورين مثل «بيرو»، «كوتّو»، «كلبو» و«موتير»، والنوعان الاخيران من الجنود هما لاغراض المراسلات العسكرية وفيما يخص الضباط فأعلى رتبة في الجيش الاشوري هي رتبة « الترتانو » وهو بمثابة رئيس اركان الجيش اي على غرار رتبة « الشاكينا » خلال الالف الثالث قبل الميلاد ولكن ما امتاز به الاشوريون عن الفترات السابقة هو انهم كانوا يضعون دائما « البديل » لكل رتبة من الرتب العسكرية العالية حيث ان طبيعة الحياة والحروب قد تودي بحياة اصحاب هذه الرتب العالية في فترات هي بأمس الحاجة اليهم فان لم يك هناك من يحل محلهم في الحال فتلك ناحية تؤثر على الجيش وعلى نفسية الجنود والضباط وخاصة اذا حدث ذلك اثناء المعركة ولذلك كان هناك دائماً « بديل » والبديل بالنسبة لرتبة الترتانو كان يسمى « ترتانو شانو » اي

بمعنى الترتانو الاخر ويرتدى الترتانو بدلة طويلة نهايتها السفلى مزخرفة وفي وسطها حزام عريض واخر ضيق ويرتدى فوقها شالا « يتألف من ظفائر طويلة ويترك عادة كتفه الايسر عاريا » اما لباس الرأس فكان عبارة عن عصابة مزخرفة عريضة من الامام يتدلى منها شريطان من الخلف وينتعل الترتانو حذاء شبيها بما ينتعله الملك وهذا الحذاء مثبت بالقدم بسيور تدور حول الاصبع الكبير وحول العقب ويمتد بينهما سير ثالث ويكون مع امتداد واقية العقب من الحذاء الى منتصفه . والرتبة التالية للترتانو هي رتبة « الراب شاقه » والتي تعني كبير السقاة وهذه الرتبة بالذات تؤكد على ان من اكبر المشاكل التي كانت تصادف الجنود اثناء المعارك القديمة هي عملية توفير الماء اللازم لهم ، وخاصة اذا كانت المعركة في أحر اشهر الصيف ولذلك فالشخص الذي يستطيع ادارة هذه المهمة بنجاح ينال احترام وتقدير السلطة الحاكمة وكل افراد الجيش جنودا كانوا ام ضباطاً ولذلك اصبحت رتبة كبير السقاة ثاني رتبة عالية في الجيش الاشوري والرتبة التالية هي « ناقر ايكالي » اي بمعنى منادى القصر ومهمته بالتأكيد هي دعوة الجنود والمواليد الى الخدمة العسكرية والجهاز الذي ترأسه هذه الرتبة لا بد وانه يوازى مديرية التعبئة والاحصاء في الوقت الحاضر والرتبة الاخرى هي « الابركو » ومسؤولية حاملها هي الاشراف على الناحية المالية ، علما ان اصحاب هذه الرتب الاربع مضافا اليهم الملك يكونون هيئة اركان الحرب . ومن الرتب العالية التي تلي هيئة اركان الحرب هي رتبة « السوكالو » ومن اسم هذه الرتبة جاءت الينا كلمة « سركال » ومهمة السوكال هي الاشراف على تنفيذ القوانين فهو بذلك يوازي مدير الدائرة القانونية ومن بعده تأتي رتب الضباط ودرجاتهم فكبير الضباط كان يدعي « راب موكي » وكانت تحت امرته الخيالة والعربات و « راب كيصر » الذي يوازي آمر سرية في الوقت الحاضر وكان صاحب هذه الرتبة يقود مئة جندي مع خمسين عربة

وعلاوة على ذلك فقد احتوى الجيش الاشوري على رتب اخرى منها مايوازي حاليا رتبة آمر الفصيل وصاحب هذه الرتبة كان يقود خمسين جندياً مع خمسة وعشرين عربة وما يوازي آمر الحضيرة الذي كان تحت امرته عشرة جنود ومن الرتب العسكرية الاخرى هي رتبة « راب ابولاتي » ومعناها آمر الابواب وبالتأكيد ان صاحب هذه الرتبة كان مسؤولا عن الجنود المخصصين لاغراض الحراسة .

فيما تقدم تحدثنا عن الرتب العسكرية التي كانت مهماتها الاساسية هي القتال وفيما يلي نتحدث عن الاصناف الاخرى ذات المهام غير القتالية ومن اهم هذه الاصناف هو صنف الطبابة ورئيس هذا الصنف كان يسمى « راب ـ آسي » اي بمعنى كبير الاطباء كانت مهمته الرئيسة هي معالجة الجرحى اثناء القتال اي انه كان يتألف بصورة اساسية من الجراحين اما معالجة الامراض الجرثومية فتأتي بالدرجة الثانية ومما يؤكد على ازدياد اهمية الجراحين في حياة العراقيين القدماء هي المواد التي تضمنتها شريعة حمورابي حول الطب والطبيب حيث انها لم تناقش الا الامور المتعلقة بموضوع العمليات الجراحية لان الامراض الجرثومية كانت تعالج وفق نصوص طبية مبين فيها علاج كل مرض من امراضهم الدارجة اما العمليات الجراحية فليس بالامكان اجراؤها من خلال النصوص بل يتوقف نجاحها على جراح ماهر ولذلك كان صنف الطبابة الملحق بالمؤسسات العسكرية يعتمد بالدرجة الاولى على الجراحين وعلاوة على الصنف المذكور كان صنفان آخران الاول هو صنف الموسيقى العسكرية ، ورئيس هذا الصنف كان يسمى « راب زماري » والثاني هو صنف الهندسة العسكرية ففيما يخص صنف الموسيقى فنحن نعلم ان للموسيقى قدرة على اثارة طاقات الانسان الكامنة فاستخدامها عند مسيرة الجنود الى المعركة تمنحهم العزيمة

الكافية للقتال علاوة على قدرتها في ضبط مسيرة الرتل العسكري اثناء سير الجنود واثناء الاستعراضات .

هذا وقد استخدم الجيش الآشوري العراف الذي يسمى « بارو » لأن للعرافة في اعتقادنا اهمية كبرى وخاصة من الناحية النفسية حيث ان مهمة العرافة كانت تتعلق بكشف طالع المعارك التي كانوا ينوون القيام بها او التي تفرض عليهم من قبل الاعداء فان كانت النتيجة ايجابية اقدموا على المعركة التي كشفوا الطالع من اجلها وان كانت سلبية فعليهم التريث بالموضوع ولكن المعروف عن الاشوريين انه لم تمض سنة في حياتهم دون ان يكون لهم فيها ولو معركة واحدة ولذلك نعتقد بان النتيجة السلبية لكشف الطالع كانت لاتثني الاشوريين عن عزمهم ولهذا فأنهم كانوا يعلنون دائما نتائج ايجابية ليمنحوا بذلك القادة والجنود الثقة بالنفس والامل الكبير بالنصر علاوة على ايمانهم بان من يتفاءل بالخير سوف يجده ولا شك انسعة الامبراطورية التي كونها الاشوريون وكثرة الانتصارات التي حققوها دليل على اهمية العرافة وقدرة الاساليب النفسية في زرع الثقة بالنصر في نفوس المقاتلين . والاساليب التي استخدمها الاشوريون ومن عاش قبلهم لاغراض كشف طالع المعارك والملوك كانت عديدة ولكن من ابرزها اسلوبان الاول يتمثل بصب الزيت على الماء وكانوا يحصلون على النتيجة من خلال الاشكال التي تحدثها فقاعات الزيت فوق سطح الماء والاسلوب الثاني اعتمد على دراسة حركة الكواكب والنجوم وعلى بقية الظواهر الطبيعية .

وفيما يخص الهيكل التنظيمي للجيش الاشوري فقد كان يتألف من الفرقة التي كانت تلفظ «بقار» وتعدادها حوالي عشرة آلاف جندي ومن الوحدة العسكرية التي تسمى « كودودو » وتعدادها الف جندي فالسرية التي تلفظ « كيصرو » وتعدادها مئة جندى فالتصيل الذي تعداده

خمسون جندياً واما الحضيرة فتعدادها عشرة جنود ، وبخصوص تشكيلات الجيش اثناء القتال فليس هناك خطة ثابتة بل يعتمد ذلك على نوعية ارض المعركة ونوعية السلاح المستخدم وهذا في الواقع امر طبيعي يحدث مع الجيوش الحديثة كذلك .

هذا وان كثرة المعارك التي قام بها الاشوريون خلال سني حكمهم وخاصة خلال النصف الاول من الالف الاول قبل الميلاد قد فرضت على من في يدهم زمام الامور ان يوجدوا الوسائل الممكنة لتأجيج الروح العسكرية عند الاشوريين باستمرار وذلك تفاديا للفتور الذي قد يصيب بعض افراد الجيش ومن الوسائل الفعالة التي استخدمها الاشوريون لهذا الغرض هي الالواح التي زينت قصورهم الملكية حيث ان معظمها كان يصور بالنحت البارز المعارك الحربية والانتصارات التي حققها الجيش الاشورى وعلاوة على هذه الناحية فقد كان لهذه الالواح تأثير اخر على نفوس حلفاء الاشوريين الذين يزورون تلك القصور لاغراض التداول بخصوص تحالفهم حيث انها كانت تزيد من هيبة الاشوريين في نفوسهم وفي نفوس الاعداء ايضا ، ولذلك فلابد وان كانت سببا في منع حدوث الكثير من الثورات والاضطرابات ضد السلطة الاشورية .

هذا ومن الامور التي ميزت الجيش الاشورى عن بقية الجيوش في العراق القديم هي التحصينات العسكرية وبناء القلاع وسبب ذلك يرجع الى توفر الحجر في المنطقة التي سكنها الاشوريون وجيرانهم وهذه التحصينات العسكرية قد ادت بدورها الى تطوير الات الحصار التي تمخضت عنها صناعة الدبابة الاشورية ، والمشاهد الحربية قد بينت على انها كانت انواعاً منها الصغيرة ومنها الكبيرة التي تتسع لخمسة اشخاص وبالتاكيد ان استخدام الدبابة الكبيرة أو الصغيرة كان يتوقف على نوعية الاسوار وجدران القلاع المنوى تهديمها وادت الاسوار والقلاع الى ادخال السلالم ضمن التجهيزات

العسكرية وذلك لغرض التسلق الى اعالي الاسوار عند مباغتة الجيش للمواقع المسورة او المحصنة ومما آمتاز به الاشوريون ايضا هو انهم لوحدهم قد استخدموا السفن الحربية لاغراض المعارك اما الجيوش التي سبقت الاشوريين فلم تستخدام السفن الا لاغراض النقل اما الاشوريون فقد صمموا سفنهم لاغراض القتال الصرفة والمعلومات المتوفرة تؤكد على انهم قد استعانوا بالفينيقيين ولذلك كانت سفنهم الحربية تبدو وكانها فنيقية .

اما العربات فلم يكتف الاشوريون بالسرعة التي حققها لهم الحصان عند بداية استخدامه مع العربات بل حاولوا زيادة تلك السرعة من ناحية التحكم في متانة العجلة وخفة وزنها ومن تكبير اطار العجلة مما ساعد ذلك على زيادة سرعة العجلة وارتفاع جسم العربة عن الارض مما يبعد احتمال اصطدامه مع ما يحتويه الطريق من مطبات الا ان هذه التطورات التي اصابت العربة قد انتهى مفعولها منذ ان بدأ الاشوريون في اواخر القرن الثامن قبل الميلاد فيادخال نظام الفروسية في تكتيكهم العسكري حيث ان هذا النظام قد افقد تلك العربات اهميتها بصورة تدريجية الا انه في الوقت نفسه قد ساعد على الاهتمام بالخيول كثيرا وتحسين انواعها ، هذا وان اناقة الحصان الاشورى قد بلغت منذ اوائل الالف الاول قبل الميلاد مرحلة متطورة جدا بحيث لا يمكن مقارنتها مع الانواع الاولى وان الفرق بين الحصان الاشوري والحصان الحالي ضئيل جداً ويكمن في شكل الرقبة فقط اذ أن رقبة الحصان الاشورى تظهر باستمرار مقوسة ومسحوبة الى الخلف قليلا بينما رقبة الحصان الحالي مستقيمة تقريبا .

ومن المحتمل جدا ان كانترقبة الحصان الاشوري مستقيمة ايضا ولكن ظهورها على المنحوتات مقوسة كان بسبب وضعية (اللجام) لان وضعية اللجام على مايبدو كانت تضغط على رقبة الحصان وتمنعه من التنفس بحرية ولذلك كان الحصان يعالج هذه الناحية بأرجاع رقبته الى الخلف كي

يتخلص من ضغط اللجام المتسلط عليها واذا كانت رقبة الحصان الآشوري في الحقيقة مستقيمة فعلا فلماذا صوره الفنان الاشوري في جميع المنحوتات بالرقبة المقوسة ؟ في الواقع ان التعليل الذي يمكن ايجاده بهذا الخصوص قد يرجع الى ذوق النحات نفسه ، اذ من الممكن ان كان الفنان الاشوري معجبا بوضعية الحصان وهو يتخلص من ضغط اللجام على رقبته فصوره باستمرار بالرقبة المقوسة ولكن من الممكن ايضا ان كانت رقبة الحصان مقوسة فعلا ومع ذلك فان سبب التقوس يعود الى وضعية اللجام وضغطه المستمر على رقبته بحيث ان محاولة الحصان للتخلص من هذا الضغط قد تسبب في صياغة عضلات الرقبة بهذا الشكل المقوس .

وفيما يخص الجيش واسلحته أثناء الفترة الكلدية فأن ما قلناه بخصوص الجيش الاشوري واسلحته ينطبق على الجيش خلال عهد الدولة الكلدية .

المصـــادر

١ ــ الدكتور فوزي رشيد ، النفط والتنمية ، السنة السادسة ــ نيسان ــ مايس ١٩٨١ ، وسائط النقل المائية والبرية في العراق القديم .

٢ ــ يوسف خلف عبد الله ، الجيش والسلاح في العهد الاشوري الحديث ، رسالة ماجستير ، ١٩٧٧

٣ ــ الدكتور فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، دار الحرية للطباعة ــ بغـــداد ١٩٧٩ .

4- Claus wilke, das Lugalbandaepos, wiessbaden, 1969.

5- Erki Salonen, Die waffen der Alten Mesopotamier, Helsinki 1966.

6- Armas Salonen, Notes on wagon and Chariots in ancient Mesopotamia, Helsinki, 1950.

7- Armas Salonen, die Landfahrzeuge des Alten Mesopotamien, Helsinki, 1951.

8- J.A. Brinkman, a political history of Post--Kassite Babylonia, Roma, 1968.

الفصل الثالث

القانون والأحوال الشخصية

رضا جواد الهاشمي

استاذ مساعد في كلية الآداب ـ جامعة بغداد

لعل من نافل القول التأكيد على اهمية القوانين بين النتاجات الفكرية لحضارة بلاد وادي الرافدين ، وبسبب دلالاتها المتعددة فقد اصبح الحديث عنها يتقدم بقية الموضوعات الحضارية ، كما اكثر الباحثون من تناول الموضوعات القانونية سواء شمل اهتمامهم ترجمة النصوص القانونية القديمة او تحليل موادها او استقراء موضوعاتها فيما له علاقة باستكشاف الجوانب الحياتية المختلفة لسكان العراق القدماء .

ويبرز في المقام الاول من الحديث عن تاريخ القانون في العراق القديم الاشارة الى ازدهار الجانب القانوني منذ مراحل مبكرة من حضارة بلاد وادي الرافدين ، ففي الوقت الذي نفتقد فيه اي دليل وثائقي عن صيغ قانونية في مراكز حضارية اخرى كما هو الحال في بلاد وادي النيل ، او ان تكون بعض النتاجات القانونية في مراكز اخرى ناجمة عن التأثيرات الفكرية لقوانين بلاد وادي الرافدين مثلما كان الحال في بلاد الاناضول ، حقق

العراقيون مستويات متقدمة جدا في صيغ القوانين المدونة والتي تعد شريعة حمورابي نموذجا رائعا لها ٠

ومهما قيل في اسباب ازدهار القوانين في العراق القديم ، فمما لا نشك فيه ان بعضها يغوص في اعماق التاريخ الانساني غير المدون وتبقى تفاصيله مجهولة ، ولكن من الامور المؤكدة في هذا الخصوص ، أن تطور القانون لا ينفصل عن تطور الفكر بشكل عام وهو بدوره يمثل انعكاسا للمديات المتقدمة في جوانب الحياة المادية ٠

ومع هذا وذاك من الاسباب ، فأن لتوجهات العراقيين الدينية وخلاصة تجاربهم التنظيمية التي تبلورت في طبيعة نظام الحكم ، لهما الدور المباشر في ازدهار القانون وتطوره في العراق القديم ٠

فالقانون في الاساس ، منطلق لتنظيم العلاقات ، وتثبيت حقوق وواجبات طرفي العلاقة في اشكال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية ومن بين اوجه العلاقات ، تلك التي تقوم بين الناس ، فرادى وجماعات من جانب ، وبين الحاكم او من يمثله من سلطات وادارات وهيئات من جانب آخر ، ولان الملك في نظرة العراقيين القدماء شخص لا يختلف كثيرا عن بقية الناس ، اوكلت الالهة اليه مهمة حكم البشر وادارة شؤونهم ، فهي من واجباته ، مثلما له حقوق على الناس ، لذلك برزت الحاجة الماسة الى تعيين الحقوق والواجبات لطرفي العلاقة الرئيسيين الملك من جانب ، والمجتمع من جانب اخر ٠

وعلى الرغم من ان هذا التصور للعلاقة لم يردنا مدونا بشكل مباشر ولكننا نستشفه من اقوال الملوك وبعض من النصوص الدينية ، فالملك مكلف بنصرة المظلومين والاقتصاص من الظالمين وهو الراعي العادل ، ولكنه لم يمثل صورة الحكم الالهي المطلق « فأذا لم يحرص على تطبيق العدالة ،فسيغير الاله ايا قدره » أي ان مصيره وقدره كملك منوط بموقفه من العدالة وحرصه على تطبيقها ، لانها ارادة الالهة ٠

وتتجلى ارادة الالهة في نشر القوانين فيما نقرأه في مقدمة قانون حمورابي حيث يقول « لما عهد انو العظيم سيد الالهة وأنليل رب السماء والارض الذي بيده مصير البلاد ، الى مردوخ بكر أيا ، أن يحكم جميع البشر ، وعندما عظماه بين الهة السماء وجعلا اسم بابل مجيدا شهيرا في جميع الدنيا واسسا فيها مملكة راسخة البنيان رسوخ السماء والارض ، انتدبني آنذاك انو وانليل ، انا حمورابي الامير الكريم عابد الالهة ، لانشر العدل في البلاد واقضي على الشر والغش وامنع القوي من اضطهاد الضعيف » .

ومع تطور انظمة الحكم في العراق القديم وازدهار الحياة السياسية وظهور الدولة المركزية الموحدة على انقاض دويلات المدن السومرية منذ عهد الدولة الاكدية ، اصبح اصدار القوانين امرا اكثر ضرورة ، من اجل تنظيم العلاقات بين سكان المناطق المختلفة والمدن المتعددة ، التي كانت فيما سبق قيام الحكم المركزي ، تخضع لاعراف وتقاليد وربما لانظمة وتعاليم ملكية خاصة بها ، بينما اخذت هذه الانظمة تتعارض مع بعضها في المدن والمقاطعات المختلفة . فوجد ملوك العراق ضرورة توحيد النظم وحدود العلاقات وشروط الاتفاقيات وبخاصة المالية منها بين سكان المملكة بصرف النظر عن سكناهم ، فمن الشائع بين الباحثين ان حمورابي مثلا نسخ عددا من شريعته ووزعها على المدن الرئيسية لاجل توحيد الانظمة والقوانين ، وليؤكد من خلالها مركزية الحاكم وقوة الحاكم وتمتع جميع مواطني الدولة بالحقوق والحرية التي يوفرها القانون .

فأذا كانت صورة الملك ، وهو اعلى سلطة في البلاد ، بهذه الحدود والصرامة ومعطيات الحقوق والواجبات فالاحرى ببقية الناس ان يسيروا على منوالها بل يكون لزاما عليهم تحقيق الالتزام ، بخاصة وان المجرى العام للحياة في العراق تتفق تماما مع التنظيم والالتزام اللذين يجسدهما القانون .

والاكثر من ذلك ذلالة ، ان العراقيين نظروا الى الهتهم نظرة النظام

الدقيق ، والتقيد الصارم بالحدود الملزمة للحقوق والواجبات ، فكل اله مسؤول عن جانب معين من شؤون الكون او الطبيعة او الحياة ، ويبلغ توزيع المسؤوليات في نظر العراقيين الى حد الاعتقاد بأن لكل مدينة اله مسؤول عنها يتولى رعاية شؤونها ويحمي مصالح افرادها ، وهو الوسيط بينهم وبين الالهة الكبار التي تحكم السماء والارض ، ومثلما على الالهة واجبات ، فلهم حقوق تتمثل في خدمة البشر لهم ببناء معابدهم وتقديم فروض الطاعة والعرفان بالجميل اليهم . لذلك يبدو واضحا ان الملك في العراق القديم كان الصورة البشرية المطبقة على ارض الواقع للاله فحمورابي في خطواته يمثل ارادة مردوخ اله بابل الرئيسي وسيدها وحاميها وراعي مصالح ابنائها ، ولذلك كان الحديث عن نشر العدل واشاعة الطمأنينة وحماية الضعفاء من بين فقرات التفاخر في تسجيلات الملوك التذكارية .

وهكذا كانت نظرة العراقيين ، الى الالهة والى الملوك والى انفسهم ايضا ، وحتى الى الحياة نفسها ، فكل شيء فيها يخضع في حركته الى نظام دقيق يتآلف مع نظم الحركة لجوانب الحياة المختلفة ، وان الواقع الذي تعكسه المخلفات المدونة الكثيرة التي وصلتنا عن العراقيين القدماء ، تكشف بوضوح عن التطبيق العملي لفكرة النظام في حياتهم العملية ، فالنظام والالتزام والحقوق والواجبات والعدالة والحرية والمساواة ، كلها مفردات رئيسية في لغة القانون العراقية ، وقد حرص العراقيون فرادى وجماعات ومؤسسات وملوكا على المحافظة عليها والسهر على تنفيذها ومعاقبة المخالفين او المسيئين اليها ، ومن هذا المنطلق ازدهر القانون في العراق القديم وتطورت العلاقات المنظمة في اوجهها السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

حول منشأ القانون ونماذجه الاولى

اذا كان القانون يمثل صورة تنظيم العلاقات بين الناس وتعيين حدودها ومنع الخروج عنها ، فعلينا ان نفتش عنه في اقدم مجالات العمل الاجتماعي

لبني البشر ، ويمكننا التأكد من وجود صورة القانون بجانبها التنظيمي والالتزامي قبل ظهور التدوين في حياة البشر ، من حالات العرف والعادات والتقاليد التي تسري بين كثير من التجمعات السكانية مسرى القانون ولو انها غير مدونة .

ومع ان القانون المدون يمثل المرحلة المتطورة الناضجة في صيغ تنظيم العلاقات الانسانية ، ولكن غيابه لفترة ، مع وجود دلائل تطبيقه في صورة الوثائق القانونية ، انما يؤكد عمق التجربة واصالتها في العراق القديم ، والتي افرزت في حالة تقدمها ، القوانين المدونة التي تعد حالة متقدمة في تاريخ الفكر الانساني .

ان من بين اهم الحقائق التاريخية التي تميز بها العراقيون القدامى انهم اكدوا تمسكهم بالقواعد القانونية سواء ما كان منها في صيغة القانون المدون ، او في صيغة العرف القانوني والقواعد المقررة فاجروا مثلا جميع معاملاتهم الاقتصادية من بيع وشراء وقروض وايجار وائتمان وايداع وهي حالات في العلاقات المالية بين الناس ، وكذلك تنظيم علاقاتهم الاجتماعية في حالات الزواج والطلاق والارث والتبني ، وفق احكام متعارف عليها ملزمة للجميع بدلالة تسجيلها لذلك كان اجراء هذه المعاملات والاتفاقيات دون توثيقها باسلوب شرعي قانوني يعد باطلا وغير ملزم لاحد طرفي الاتفاق ، ناهيك ان بعض العقوبات كانت توقع بالاجراءات المرفوضة اجتماعيا أي غير قانونية .

ولذلك فأن مايقارب من ٩٠٪ من النصوص المسمارية المكتشفة لحد الان ، تعالج موضوعات المعاملات القانونية او ما تعرف في لغتنا المعاصرة بالعقود .

وجاءت القوانين والشرائع المدونة في فترة لاحقة لتؤكد اهمية الاتفاق وتسجيله بالاسلوب القانوني حتى ان قانون حمورابي ينص في المادة (١٢٨)

وهي فاتحة مواد الاحـــوال الشـــخصية ، على ان الرجل الذي يأخذ امرأة للزواج ، ولا يحرر لها عقدا بذلك ، فهذه المرأة ليست زوجة .

وقبل ظهور القوانين المدونة في العراق القديم ، كان المحكمون يلعبون دور القضاة في فض المنازعات وتعيين التجاوزات على التقاليد والتي كانت من تأثيرها على الناس بمثابة الانظمة والقوانين المدونة وقد غدت احكام هؤلاء بمرور الوقت سوابق قضائية لها منزلة الاحكام القانونية ، كما اصبحت احد المناهل التي استندت اليها القوانين المدونة . وعليه ، فان القوانين المدونة تعد من النـاحية الواقعية عملية جمع وتبويب وتنظيم وتدوين لكـل التقـــاليد والاعراف والنظم والعلاقات واجتهادات العارفين واعلانها للناس بهيئة شرائع او قوانين ، وقد حدث ذلك مع تطور الحياة ونضج التجربة الانسانية ، وبلوغ انظمة الحكم في العراق القديم مستوى متقدما من المركزية والتنظيم .

وبسبب اقتران الشرائع المدونة في العراق القديم بانظمة الحكم المتطورة فانها اخرجت بمستوى رفيع من حيث لغتها القانونية واسلوبها العلمي وتبويب موضوعاتها ، وتوافق احكامها مع الواقع وابتعادها عن المثالية او الشؤون والعبادات ، كما روعي في وضعها تسلسل الموضوعات والعلاقة المنطقية بين مادة واخرى او مجمــوعة مواد ومجمــوعة اخرى ، وعلى الرغم من دعوى الملوك المشرعين بانهم يصدرون قوانينهم باوامر الهية ، ولكن تحليل فقراتها يكشف بوضوح علاقاتها بارض الواقع والتجربة الحياتية الغنية للعراقيين .

واخيرا فأن القوانين اخرجت بشكل مهيب واحتلت اماكن رئيسية وهامة في المدينة ، كأن تكون في المعابد او عند بواباتها . وتعــد صــورة مسلــة حمورابي في شكلها العام ومادة صناعتها من حجر الدايوريت الاسود الصلب ، وجمال كتابتها ، نموذجا جيدا للقوانين ، كما أن تحلية واجهتها بصورة الاله الشمس والملك حمورابي ، كل ذلك يزيد من وقعها في النفوس ، فهي في شكلها ايضا تتناسب مع اهميتها في حياة العراقيين القدماء .

ومع التأكيد على القيمة الفكرية العالية للشرائع والقوانين العراقية القديمة فان ذلك لا يمنع من تسجيل بعض المآخذ عليها ، ومن ذلك مثلا اهتمامها ببعض الامور الجزئية على حساب العامة ، كما انها تغفل امورا مهمة في حياة الناس ، والرأي الذي يجتمع عنده الباحثون بخصوص هذه المآخذ ، هو ان المشرع لم يجد ضرورة تكرار الاحكام المتفق عليها ، وانه تجاوزها لشيوع اتباعها أو عدم وجود خلاف حولها بين القضاة والمحكمين . لذلك فان القوانين تطرقت الى الامور التي هي موضع خلاف ، وبخاصة بين المدن او بين المناطق المختلفة من الدولة الواحدة ، فمثلا كانت عقود القروض تبرم بنسب فوائد مختلفة ، بينما ينص قانون حمورابي على توحيدها في ارجاء المملكة مما يزيد من قوة التعامل المالي والتجاري ويقلل فرص الخلاف والمنازعات التي يحتمل ان تثيرها النسب المختلفة لفوائد القروض المالية .

ومما يؤخذ على القوانين القديمة اقرارها ببعض العقوبات الصارمة او اعتمادها على بعض المبادىء الساذجة والتي لا تتوافق مع اعراف البشر المتمدنين في العصر الراهن ، ومن امثلة ذلك تعميم المسؤولية او استنتاج البيّنة عن طريق الامتحان وما الى ذلك ولكن اذا ما تذكرنا اننا نستعرض اعمالا قانونية يقرب عمرها من اربعة الاف عام ، سنقبل بالضرورة بعض الهنات او المآخذ التي تسجل على جوانب من القوانين ، غير متناسين ان القوانين العراقية القديمة تشكل التجربة الاولى في تاريخ البشر ، وانها بالمقارنة مع الكثير من الاعمال القانونية اللاحقة ، تمثل الاساس الصحيح والسليم لتجربة الانسان القانونية .

اشرنا من قبل الى ان الدلائل على التطبيق العملي للقوانين عرفت قبل اكتشاف النصوص القانونية ، ونخص بالذكر منها ، اكتشاف الاف المعاملات القانونية التي تسجل العقود والاتفاقيات المبرمة بين الناس في الامور المالية والاقتصادية او في العلاقات الاجتماعية وبخاصة منها ما يتعلق بتنظيم الاسرة

والتي تعرف عادة بالاحوال الشخصية ، وان هذه العقود تخضع الى صياغة متميزة وتبويب للمعلومات وتثبيت للحقوق والواجبات المترتبة على التعاقد كما تنص احيانا على نوعية العقوبات التي يتحملها ناكل التعاقد .

ومما يؤكد خضوع تدوين هذه العقود لاشراف جهة رسمية ، انها كانت تذيل عادة باسماء الشهود ، وتختم اسماء الشهود غالبا باسم شاهد يصف نفسه « بالكاتب » وهي وظيفة رسمية رفيعة المستوى في العراق القديم ، تشكل دلالة التأييد الرسمي للعقد او الاتفاق .

لذلك فأن الباحثين في تاريخ التشريع في العراق القديم ، يجدون في هذه العقود والمعلومات القانونية مادة علمية غزيرة ، يتعرفون من خلالها على كثير من الجوانب القانونية ، منها مثلا شروط الدين وحقوق الدائن ونسب الفوائد ، وعقوبة الاخلال بالالتزام ، وشروط الزواج او الطلاق وتبعات كل منهما الاجتماعية والاقتصادية ، وغير ذلك من شؤون الحياة الاقتصادية والاجتماعية . وكانت هذه العقود توضع عادة بعد تسجيلها في غلاف من الطين ايضا ، تدون عليها كامل المعلومات التي يتضمنها العقد ، او مختصرها حتى يكون بالمستطاع الرجوع اليها في حالة وقوع خلاف بين طرفي التعاقد بخصوص فترات الاتفاق ولكن في حالة تعذر فض الخلاف الناشب بين الطرفين ، يتم اللجوء عادة الى المحكمة التي تعمد بدورها ويحق لها فقط ، كسر غلاف العقد ، واخراج العقد الذي يكون بمثابة النسخة الاصلية ، ودراسة شروط الاتفاق وحسم الخلاف عن طريق اصدار الحكم لصالح احد الطرفين وهذا يعني ضمنا ان اي كسر يتعرض له غلاف الرقيم ، او ان يتم اخراج الرقيم من داخل غلافه ، يعرض فاعل ذلك الى الاتهام بالتزوير .

وتكون بعض العقود مهمة جدا ، مثل عقود شراء البيوت والعقارات او عقود الزواج او الارث او التبني او الدين او الايجار وذلك بسبب استمرار اثرها القانوني لفترة زمنية طويلة ، قد تتعدى عمر الجيل الذي ابرم الاتفاق

ووقع العقد ، لذلك يحرص اصحاب العقد على حفظها في اماكن امينة وانتقالها مع التركة من الاباء الى الابناء ، وبذلك قد تجتمع عند بعض الاسر خلال بضعة اجيال اعداد من العقود التي تخص معاملاتهم المالية واتفاقاتهم المختلفة وذلك ما يتم اكتشافه احيانا في بعض الدور على شكل سجلات كاملة لبعض هذه العوائل فترسم لنا صور النشاط الاقتصادي وجوانبه لبعض العوائل الثرية في العراق القديم ..

ومع الفائدة المتوخاة من دراسة العقود والمعاملات القانونية الكثيرة ، وبخاصة من الفترات التي سبقت ظهور القوانين المدونة ، فأن ظهور القوانين المدونة مع أواخر الالف الثالث ق . م يشكل المصدر الرئيسي لدراسة وتتبع الجوانب القانونية في العراق القديم ، مع استمرار الفائدة من العقود في توضيح بعض فقرات القوانين او فهم جوانبها التفصيلية ، كما انها تؤكد لنا مدى تطبيق القوانين والالتزام باحكامها في العراق القديم .

يجمع الباحثون على ان قانون الملك اورنمو ، مؤسس الدولة السومرية الحديثة او ما تعرف بسلالة اور الثالثة،الذي حكم ما بين ٢١١٣-٢٠٩٦ ق.م، هو اقدم النصوص القانونية المكتشفة لحد الان . ونقول المكتشفة ، لان في تقدير الباحثين ان بقايا المدن والمستوطنات القديمة لا تزال تخفي بين انقاضها نصوصا قانونية اخرى لم يحالف الحظ المنقبين بعد لاكتشافها فهناك اكثر من دليل منطقي على وجودها ، ومن ذلك وجود العقود القانونية ، وكذلك اشارات الملوك الصريحة الى اصدارهم للقوانين ، ومنهم سرجون الاكدي حوالي (٢٣٥٠ ق . م) الذي يذكر من بين اعماله الكثيرة اصداره للقوانين .

ومثلما يكتسب قانون اورنمو قصب السبق والاقدمية لاننا لم نعرف لحد الان قانونا مدونا يسبقه ، وهذا امر ربما يتغير في المستقبل مع احتمال العثور على قوانين تسبقه ، فأن قانون حمورابي يكتسب الاهمية والشهرة بين قوانين العراق القديم على الرغم من انه ليس بالقانون الاول ولا الاقدم،وانزمن

صدوره يتأخر عن زمن صدور قانون اورنمو بنحو ثلاثة قرون ولكن الذي يميز قانون حمورابي ويمنحه الشهرة والاهمية ، كونه القانون الوحيد الذي وصل الى ايدي الباحثين بنسخته الاصلية وبحالة كاملة وجيدة تقريبا ، لذلك امكن ترجمته ودراسته واستقراء موضوعاته وعقد مقارنات بين فقراته او بين مبادئه وافكاره وبين التراث القانوني اللاحق • وهذا ما جرى لقانون حمورابي فعلا ، فقد شهدت نصوصه اوسع الدراسات اللغوية والفقهية والتاريخية والمقارنة ، مثلما ترجم الى العديد من اللغات الحية المعاصرة •

ومادام الحديث عن منشأ القوانين ونماذجها الاولى ، فتجدر الاشارةالى عمل اصلاحي عظيم الشأن يكاد يرقى الى مستوى القانون ، لولا انه يخلو من المقدمة والخاتمة ، وتقتصر موضوعاته على معالجة الوضع الضرائبي وشؤونه تقريبا ومع ذلك فان هذه الاصلاحات المنسوبة الى امير لجش اوروكاجينا بحدود « القرن الرابع والعشرين ق • م » يصنفها معظم الباحثين في تاريخ القانون مع المناهل الاولى للقانون والتشريع في العراق القديم •

وابرز المبادىء التي تتمحور حولها اصلاحات اوروكاجينا هو التأكيد على فكرة « الحرية في حدود القانون » وان المناصب الوظيفية العالية في الحكومة او الادارة لا تعفي صاحبها من الحدود القانونية ، لذلك اعلنها اوروكاجينا حربا ضد الموظفين وجامعي الضرائب ممن خرقوا التقاليد وتجاوزوا على حقوق وممتلكات المواطنين •

نعود ثانية للتعريف بقانون اورنمو ، الذي يعد اقدم قانون مدون في تاريخ العراق وفي تاريخ البشرية جمعاء ، ولكن من المؤسف حقا ان هذه الصورة الاولى للفكر القانوني في العراق القديم وصلتنا ناقصة جدا ، وعلى الرغم من تمكن الباحثين من تشخيص مقدمته وخاتمته ، أي ان القانون مبوب بموجب الاسلوب الصحيح للقانون ، ولكن عدد المواد التي امكن ترجمتها لا تزيد على اثنتين وعشرين مادة ، والسبب ان النسخ المكتشفة من

القانون كانت مدونة على الواح من الطين يرجح انها مستنسخة عن الاصل الذي كان مدونا على الحجر ، تكسرت وتلف معظم اقسامها لذلك تعذر التعرف على الصيغة الكاملة للقانون •

دون قانون اورنمو باللغة السومرية ، ويتوضح من بقايا المقدمة ، كيف فوض الاله ننار (اله القمر) اله مدينة اور ، الملك اورنمو ، لحكم المدينة ، ووصفه بالملك الورع التقي العادل ، وان مجيئه كان ايذانا بالقضاء على الفساد والفوضى وسوء الادارة والتجاوز على حقوق الاخرين ، وبذلك تمتع الناس بحقوقهم وحريتهم ، اما المواد القانونية ، فأن المتبقي منها والتي امكن ترجمتها ، فأنها تعالج الاحوال الشخصية من زواج وطلاق وتتطرق ايضا الى بعض المخالفات والاساءات وتحدد العقوبة لكل حالة منها •

وتتناول بعض المواد وضعية العبيد من بين الممتلكات ومعالجة حالة فرارهم ، ومن الملاحظات الهامة على قانون اورنمو انه ينص على مبدأ التعويض في العقوبات على خلاف المبدأ الذي يعتمده قانون حمورابي وهو القصاص •

وتضع بعض المواد القانونية ضوابط للعمل القضائي وسير المحاكم . وبخاصة منها ما يتعلق بشهادة الزور وتبعاتها ، ويفهم من بعض الكلمات التي نجت من التلف الذي يصيب معظم الكتابة ، ان المواد القانونية الاخرى، عالجت موضوع الارض والزرع وما يقع بسببهما من مشاكل •

ومن حسن الصدف ان القانون الثاني من حيث القدم ، وهو القانون الذي اصدره الملك لبت عشتار (١٩٣٤-١٩٢٤ ق • م) خامس ملوك سلالة ايسن وهي من السلالات التي حكمت مناطق من العراق في فترة العهد البابلي فقد وجد بحالة افضل من سابقه ، قانون ارنمو مما يتيح امام الباحثين فرصة التعرف بشكل افضل على كثير من الجوانب القانونية في بلاد وادي الرافدين فقد حفظت لنا الكسر السبع جزءا من المقدمة والخاتمة وعددا من المواد القانونية يصل لحوالي سبع وثلاثين مادة ، يعتقد انها تمثل ثلث النص الاصلي

من القانون ، ومن المؤكد ان هذه الكسر هي نسخة من القانون الاصلي ، وذلك بدلالة كثرة الاخطاء النحوية وسوء ترتيب المواد ، فقد جرت العادة ان تستنسخ القوانين او بعض النصوص الدينية من قبل الطلبة لغرض تعليمهم وتدريبهم على الكتابة والقراءة ، والراجح جدا ان النسخ المكتشفة لقانون لبت عشتار هي من قبيل هذه النصوص اما الاصل فانه دون على مسلة اونصب مميز كما يستنتج ذلك من الفقرة التي وردت في مقدمة القانون وهي تقول « عندما عززت رفاهية بلاد سومر واكد ، أقمت هذه المسلة » .

يمكن القول ان المقدمة والخاتمة في القوانين العراقية القديمة كانت تتبع تقاليد كتابية ثابتة ، تمجد الملك وتبين خصاله وصفاته الحميدة وكيف اختارته الالهة للحكم وفوضته امر الناس ليحكم بينهم بالعدل وينشر القانون ، كما لا تهمل المقدمة الاشارة الى الاوضاع المتردية وسوء الادارة وفساد الموظفين ، التي عمل الملك باصدار قوانينه ، لايقافها وازالة الحيف الذي لحق بالمواطنين .

اما المواد القانونية التي سلمت من التلف الذي اصاب الالواح ، والتي امكن ترجمتها ، فأنها تعالج شؤون الاراضي الزراعية ، الحقت بها مواد قانونية تعالج شؤون السرقة في البساتين او في دار مجاورة لارض زراعية مهجورة ، كما عالجت بعض المواد شؤون العبيد في حالات هربهم او ايواء الهاربين منهم او عتقهم ، كما تناولت مواد اخرى حالات الاعتداء على الاخرين ، وخصصت مواد لتنظيم شؤون الضرائب ، وبسبب اهمية سلامة العلاقات الخاصة فيما يعرف بقانون الاحوال الشخصية ، فأن عددا مميزا من المواد يعالج جوانب الموضوع وتبعاته من حيث الاولاد والحقوق المالية والاجتماعية وشؤون الارث .

وهكذا نلاحظ ان الامور الزراعية ، وشؤون الممتلكات الخاصة ، وبخاصة العبيد ، الذين يمثلون جانبا متميزا من ممتلكات الافراد ، لكونهم

اليد العاملة التي تحتاجها الاعمال الزراعية ، وكذلك قوانين العقوبات واخيرا قوانين الاحوال الشخصية ، تشكل الموضوعات الاساس التي عالجتها القوانين العراقية القديمة ، وهي ماتزال ابرز الموضوعات في القوانين المعاصرة .

واذا كان قانون اورنمو وقانون لبت عشتار قد دونا باللغة السومرية ، فان ثالث القوانين من حيث التسلسل الزمني ، وهو قانون مملكة اشنونا ، يعد أول القوانين المدونة باللغة الاكدية ، وقد اكتشف هذا القانون خلال حفريات مديرية الاثار العراقية في موقع اثري يقع في منطقة بغداد الجديدة الكائنة في ضواحي العاصمة بغداد ، اسمه تل حرمل ، ومن نتيجة التنقيب عرفنا انه يمثل مدينة صغيرة اسمها (شادوبوم) من مدن مملكة اشنونا ، التي كانت تشرف بهيمنتها السياسية على حوض ديالى بكامله تقريبا ، ومملكة اشنونا واحدة من الممالك التي ازدهرت في مطلع العهد البابلي القديم ، وبقيت دويلة قوية حتى نجح الملك حمورابي في ضمها مع غيرها من الدويلات الى مملكة موحدة قوية اقامها في العراق تعرف باسم سلالة بابل الاولى او مملكة بابل القديمة .

ان اللوحين اللذين اكتشفا في تل حرمل هما نسخ من قانون اصلي لمملكة اشنونا لم يكتشف لحد الان ، وينسب هذا القانون الى المملكة دون تعيين اسم الملك المشرع لتعذر معرفته بسبب تلف في النص في موضع اسم الملك . وقد تسبب ذلك الى تعذر تعيين تاريخ تشريعه بشكل دقيق ، ولكن مما لا شك فيه انه سبق قانون حمورابي ، وربما بمدة تزيد عن خمسين سنة .

لقد سبقت الاشارة الى بعض المآخذ على التبويب واللغة في قانون لبت عشتار ، ومثل ذلك ، بل اكثر ، يقال بخصوص قانون اشنونا ، والسبب الرئيسي في ذلك ان النسخ المكتشفة هي ليست القانون الاصلي ، وانما نماذج استنسخت لاغراض تعليمية ، من قبل الطلبة ، لذلك فهي معرضة الى الاخطاء اللغوية وعدم الدقة في تبويب موادها .

وقانون اشنونا كسابقيه غير كامل ، لذلك لا نعرف عدد المواد الكاملة في النسخة الاصلية ، وان عدد المواد المثبتة على النسخ المكتشفة تصل الى سبعين مادة قانونية .

وعلى غير عادة القوانين السابقة ، فان المواد الاحدى عشرة الاولى تتعلق بتحديد الاسعار والاجور مما يثير الشك في صحة تبويب المواد المستنسخة كما ان ميزة هذه الفقرات في انها لا تبدأ باداة الشرط « اذا » على غرار كل المواد القانونية .

اما المواد الاخرى فانها تعالج شؤون الممتلكات والاموال وقانون العقوبات وقوانين الاسرة ، اما غياب الفقرات الخاصة بالزراعة وشؤونها ، فالراجح ان سببه عدم العثور على النسخة الكاملة من القانون .

تبدأ المواد القانونية بعد مواد الاجور التي اشرنا اليها ، بمعالجة الجوانب الاجتماعية والتجاوزات وتنظيم المعاملات المالية فمنها مواد تعالج موضوع السرقات واخرى لتنظيم العقود القانونية وتعيين شروط ابرامها وبطلان ما يشذ منها عن هذه الاحكام . وتتناول مواد اخرى موضوع الاحوال الشخصية ومخالفة القواعد والاحكام المقررة ، والغريب في تبويب مواد الاحوال الشخصية ، ان احدى الفقرات جاءت في نهاية المواد بمعزل عن المواد الخاصة بالاحوال الشخصية . ومما يتعلق بشؤون الملكية موضوع العبيد الذي تطرق القانون لمعالجة الامور المتعلقة بهم . وقد اشرنا الى اهمية العبيد من بين الممتلكات لانهم يمثلون جانبا رئيسيا في الممتلكات ولكونهم يمثلون اساس اليد العاملة التي لها اهميتها في المجتمعات الزراعية .

ومع كل النواقص والمآخذ التي تلاحظ او تسجل على القوانين التي عرضنا لها لكنها تترك ثقلا واضحا على مجرى دراسة تاريخ القانون في العراق القديم وان خلاصة المعلومات والمبادىء والافكار التي تلتقي عندها القوانين هذه تشكل الخلفية الصحيحة لقانون حمورابي . ولهذا السبب ، فقد اشرنا

من قبل الى سبب الاهمية التي يحتلها قانون حمورابي في مجرى الدراسات القانونية القديمة ، لانه على عكس القوانين الاخرى المكتشفة ، فهو النسخة الاصلية ، ويحتوي على (٢٨٢) مادة قانونية تطرقت الى جوانب حياتية اكثر تنوعا واوسع تفصيلا • واخيرا فهو بالاضافة الى القوانين التي سبقته ومجموعة المصادر المختلفة لدراسة القانون يعطينا الصورة الواضحة والكاملة للابعاد التاريخية للقانون والتشريع في العراق القديم •

ومما يزيد من اهمية قانون حمورابي انه كتب بلغة ادبية وقانونية رفيعة المستوى ، لذلك يعتمد الباحثون نصوص القانون لتعليم الطلبة قواعد اللغة الاكدية ، لان القانون يمثل اللغة القواعدية المثالية التي تجمع كل شروط وقواعد الجملة الاكدية من حيث تركيبها وقواعدها •

اما تبويب المواد القانونية في قانون حمورابي ، فانه يحاكي تبويب احدث القوانين والتشريعات من حيث الترابط الموضوعي بين مادة واخرى او الانتقال من موضوع لاخر •

يعد حمورابي من الحكام المعمرين ، فقد دام حكمه زهاء ثلاث واربعين سنة قضاها في انجاز مهمات سياسية وعسكرية وادارية وتنظيمية تعد مثالا جيدا للانجازات الرائعة ، نجح حمورابي على اثرها في اقامة دولة موحدة قوية شملت بنفوذها مناطق العراق وبعضا من المناطق خارج العراق ، لذلك وجد حمورابي ضرورة اصدار قانون موحد تسري احكامه على جميع انحاء المملكة الموحدة ، فان جانبا رئيسيا من قوة الدولة يتمثل في وحدة قوانينها •

كتب قانون حمورابي باللغة الاكدية على مسلة من حجر الديوريت الاسود يبلغ ارتفاعها حوالي ٢٢٥سم ، وقطرها حوالي ٦٠سم ، ونقشت في اعلى المسلة صورة تمثل الاله شمش (اله الشمس) وهو متربع على عرشه ، ويقف امامه حمورابي وقفة المتعبد يستلم من الاله العصا وحبل القياس ، وهما من رموز وشارات السلطة والحكم في العراق القديم ، والراجح بسبب صورة الاله

الشمس التي تعلو المسلة ان هذه النسخة المكتشفة هي نسخة مدينة سبار ، بينما تعد نسخة مدينة بابل والتي كانت تحمل صورة الاله مردوخ في عداد المفقودات .

ونتأكد من وجود نسخ اخرى للقانون بدلالة كسر من حجارة مسلات اخرى تحمل اجزاء من المواد القانونية اكتشفت بين انقاض المدن القديمة .

وبالاضافة الى النسخ الاصلية التي يقدر انها صنعت في زمن حمورابي ووزعت على المدن الرئيسية في مملكة حمورابي فان بعض الدلائل تشير الى استمرار مفعول هذه القوانين بعد زمن حمورابي لمدة طويلة ، فقد استنسخت سنها مواد كثيرة لاغراض التعليم او الاستفادة منها من قبل المشتغلين بشؤون القوانين والمحاكم .

والمسلة بحالتها الاصلية مؤلفة من (٤٤) حقلا من الكتابة المسمارية فيما عدا بعض الاجزاء التالفة تعمدا في اسافل الاعمدة الكتابية ، ويرجح ان احد الملوك العيلاميين الذي كان وراء سرقة هذه المسلة ونقلها الى عاصمته سوسة، كان وراء هذا المسح قصد تسجيل اسمه وتخليد ذكره ، ولكنه ربما ذعر وخاف من اللعنات الشديدة الوارد ذكرها في الخاتمة ، التي ستنزل على من تسول له نفسه ويطمس معالم هذا القانون ، فعدل عن عمله وبقي مكان المواد الاخيرة فيما يلي المادة (٢٨٢) خاليا ، حيث يرجح ان المواد القانونية الكاملة تبلغ نحو (٣٠٠) مادة .

وقانون حمورابي مؤلف من مقدمة يعدد فيها حمورابي القابه واعماله والاسباب التي دعته لاصدار القانون ، وهي انتداب الاله مردوخ له ليحكم مدينة بابل ولينشر العدل بين الناس ، تليها المواد القانونية ، واخيرا الخاتمة . ويذكر فيها النتائج المتوقعة من تطبيق القانون بقوله صراحة ، هذه هي « الاحكام العادلة التي اصدرها حمورابي الملك العظيم للبلاد فازدهر فيها العدل والحكم الصالح » ويشير حمورابي في الخاتمة على الاجيال اللاحقة ان

تتدبر احكام قانونه والسير بموجبها لانها ستكفل لهم العدل والطمأنينة ، كما يعدد اللعنات الشديدة التي ستنزلها الالهة بحق من يعمل على تحريف نصوص القانون او ازالتها او محو اثرها .

وتجدر الاشارة بخصوص مقدمة قانون حمورابي ، انها تمثل مكانة مهمة في الدراسات اللغوية والادبية ، وبسبب لغتها البليغة وجزالة الفاظها ، يظن انها مكتوبة باسلوب شعري ، وانها تقترب في اسلوبها ولغتها من التراتيل الدينية .

اشرنا من قبل الى روعة تنظيم وتبويب المواد القانونية في شريعة حمورابي حيث يمكن حصرها في خمسة ابواب رئيسية هي :

١ ـ التقاضي واصول المرافعات وتشمل المواد ١ـ٥

٢ ـ الاموال او المعاملات المالية وتقع في (١٢٠) مادة ٦ـ١٢٦

٣ ـ الاشخاص او قوانين الاحوال الشخصية : وتشمل المواد ١٢٧ـ٢١٤

٤ ـ الاجور : وتشمل المواد ٢١٥ـ٢٧٧

٥ ـ العبيد : وتشمل المواد ٢٧٨ـ٢٨٢

وعلى الرغم من الموضوعات الكثيرة التي يتطرق اليها قانون حمورابي ، فأنه يغفل جوانب كثيرة اخرى ، كما انه يتطرق الى بعض الامور الخاصة في الوقت الذي يهمل فيه بعض القضايا العامة ، لذلك توحي مواده وكأنها من نوع الدستور الموجز الذي تضمن القضايا الهامة من وجهة نظر المشرع وقت وضع القانون والراجح جدا ان القضايا المعروفة والشائعة بين القضاة لم تستوجب تثبيتها في القانون ، بخاصة وان عددا كبيرا من قرارات المحاكم الصادرة في دعاوي سابقة كانت تسجل ويحتفظ بها حتى يستعين الحكام بها عند النظر في قضايا مماثلة او مقاربة في المستقبل .

فقد كشفت اعمال التنقيب في مدينة لجش عن مجموعة من نصوص

قرارات المحاكم يبلغ عددها (٢٥٠) وثيقة ، تؤرخ من فترة سلالة اور الثالثة (٢١١٣ — ٢٠٠٦ ق ٠ م) وهي تسجل الاحكام الصادرة بخصوص موضوعات متنوعة ٠

اننا نعرف تمام المعرفة ان القانون لم يكن الفصل في كل الامور ، بل أن « شيوخ المدينة » او « مجلس الشيوخ » كان يساعد الحكام في اصدار القرار واحيانا ينفردون باصدار الاحكام ، وذلك ما يوضح ان الاعراف والتقاليد التي كان رجالات المدينة الكبار في السن يمثلونها ، تشكل احكاما يستند اليها عند النظر في بعض المخالفات ، وبذلك شكلت هذه المنابع الاخرى للقانون ولعمل القضاة ، مبررا لتجاوز قانون حمورابي للكثير من الامور والقضايا القانونية ٠

ولكن في حالة تجاوز هذه الملاحظات ، فأن قانون حمورابي يمثل واحدا من اقدم الانجازات الرائعة في تاريخ الحضارة الانسانية وانه يسبق قانون الامبراطور الروماني جستنيان بنحو الفي عام ٠

ويمثل القانون وجوانب احكامه معينا غزيرا لعلماء القانون عند دراستهم لتاريخ القانون ومراحل تطور الفكر القانوني ٠ كما ان المعلومات الواسعة عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية التي تناولها القانون تساعد في رسم صورة حية لواقع المجتمع وطبيعة علاقاته واسس تنظيماته ومجموعة مثله وقيمه وجانبا من افكاره ٠

كما ان النقطة الجوهرية التي يعكسها قانون حمورابي والقوانين العراقية الاخرى ، هي ذروة التنظيم الذي بلغه المجتمع العراقي وهو احد ابرز مقومات المدنية الراقية لبلاد وادي الرافدين ٠

والى جانب ذلك فان قانون حمورابي يكشف في معالجاته انه القانون المدني العام الموحد ، الذي يخضع جميع المواطنين لاحكامه ، وانه يلزم الجميع ، من موظفين كبار او قضاة او رجال دين او كاهنات او رجال عاديين

او عبيد واماء ، للاصطفاف سواسية امام احكامه • وصحيح ان العقوبات في قانون حمورابي كانت تأخذ بنظر الاعتبار المرتبة الاجتماعية ، ولكن المساواة تتمثل في مسؤولية الجميع عند اجراء اعمالهم وتنفيذ التزاماتهم ، من التقيد بنود القانون ومراعاة احكامه •

ويخضع حمورابي رجال الدين لاول مرة لاحكام القانون المدني ، بينما نعرف ان القضاء والمحاكم كانت فيما سبق من اختصاص المعبد ورجال الدين ، وبذلك فأن حمورابي بعمله هذا يؤكد فصل القضاء عن الهيمنة الدينية وربطه بعجلة الادارة المدنية •

والى جانب ذلك فأن علماء القانون يؤشرون بعض المبادىء القانونية المتقدمة في احكـــام شريعة حمورابي ، منها ما يعبّر عنه الفقهاء بمبدأ القوة القاهرة ، وتفسيره ان الملتزم يعفى من تنفيذ التزامه اذا تعذر عليه ذلك بقوة قاهرة أي بسبب وقوع حدث يستحيل عليه تغييره مثلما يستحيل معه تنفيذ الالتزام •

ويشار ايضا الى مبدأ قانوني اخر هو منع التعسف في استعمال الحق الفردي ، ومعناه ان الحقوق الخاصـــة يجب الا تســـبب اضرارا بحقوق الاخرين •

وقبـــل ختام حديثنا عن قانون حمـــورابي علينا ان نقف عند بعض السمات الشخصية لهذا العاهل القدير التي كان لها من دون شـــك اثر على ازدهار القانون في عهده ، فلم يشتهر حمورابي باصدار القانون فحسب ، ولو ان هذا الانجاز لوحده يرقى به لمصاف مشاهير الحكام وعظماء التاريخ ، بل انه يؤرخ سنة حكمه الثانية بنشر العدل في البلاد • وصحيح ان هذه العبارة استخدمها عدد ليس بالقليل من ملوك العراق القديم ، ولكن المخلفات الكتابية للملك حمورابي تكشف لنا عن التطبيق العملي للعدل الذي قصده ملوك العراق القديم •

لقد اشتهر حمورابي اضافة لقانونه ، بعدد من الرسائل التي كان يبعث بها الى كبار موظفيه وحكام المدن المختلفة الذين يعملون بامرته ، ويبلغ عدد الرسائل المكتشفة لحد الان (١٤٥) رسالة • واهمية هذه الرسائل في انها تكشف عن تتبع حمورابي الشخصي والمباشر لشؤون البلاد والمجتمع، ومن الامور التي اولاها حمورابي عنايته ، شؤون القضاء وحقوق المواطنين وضمان انتشار العدل • فهو يتابع تنفيذ القرارات التي اصدرتها المحاكم او التعليمات والاوامر التي سبق له اصدارها • كما كان الناس يرفعون احيانا شكواهم الى الملك مباشرة • وبخاصة عند شعورهم بانعدام العدالة ، او اذا كان الخلاف مع موظف كبير ، كأن يكون حاكم المدينة ، فيتدخل عندها حمورابي لينتصف للمظلومين وينشر العدل ، كما كان حمورابي ينقض بعض الاحكام اذا شعر بمنافاتها للقانون والعدالة ، وبذلك فأنه جعل من شخصه مراقبا مباشرا لكل الامور المتعلقة بشؤون العدالة والقانون ، وكان يمثل دور محكمة استئناف عليا يرجع اليها المواطنون ، حيث كان يحق للملوك فقط تغيير قرارات المحاكم ، لكونهم مصدر الشرائع وينبوع العدالة • وعليه يكون طبيعيا من ملك اولى شؤون العدل والقانون هذا الاهتمام الكبير ان يشهد عصره صدور اهم واشهر القوانين المدونة في تاريخ الحضارات القديمة •

ونعرج في نهاية استعراضنا للقوانين العراقية القديمة على القوانين لاشورية ، فالمعروف ان المكتشف منها لحد الان قليل جدا لا يتناسب مع شهرة وعظمة هذه الدولة وملوكها ، وكثرة انجازاتهم ، وبخاصة الاعمال الادبية منها • ولكن من بين التفسيرات لهذا النقص في أصدار قوانين عند الاشوريين انهم اعتمدوا القوانين السابقة ، وبخاصة قانون حمورابي ، ومما يؤيد ذلك انه تم اكتشاف استنساخ لفقرات من قانون حمورابي في مكتبة الملك اشور بانيبال الشهيرة ، كما يدعم ذلك ايضا ، ان المجموعة القليلة من الفقرات القانونية الاشورية المعروفة لحد الان ، تتفق في احكامها مع القوانين

البابلية التي سبقتها بنحو الف عام • لذلك يبدو واضحا ان استمرار المبادىء والاحكام القانونية لم يستوجب اصدار شرائع وقوانين جديدة ، اضف الى ذلك انهماك الملوك الاشوريين بالاعمال العسكرية والعمرانية التي شغلتهم بعض الشيء عن الانصراف لجوانب الادارة والتنظيم ، ومنها اصدار القوانين ، كما يرجح سبب اخر لعزوف الاشوريين عن اصدار القوانين ، مفاده انهم حكموا امبراطورية واسعة ضمت شعوبا وامما مختلفة ذات ثقافات وعادات وافكار متباينة ، مما يتعذر على المحاكم ايجاد المبادىء القانونية التي يمكن ان تجتمع عندها هذه الامم والشعوب •

ومع هذا فان هناك مجموعتين رئيسيتين من القوانين الاشورية ترجع الاولى الى العهد الاشوري القـديم (حوالي ٢٠٠٠ ــ ١٧٥٠ ق • م) عثرعليها في المستوطنة التجارية الاشورية ، كانيش (كول تپه) في اسيا الصغرى • وهي مواد قانونية تعالج بالدرجة الاساس شؤون المحاكم واصول المرافعات التي تنظر في الشؤون الاقتصادية عامة ، والتجارية منها بوجه خاص • حيث يجب ان نتذكر بان هذه المستوطنة كانت حلقة الوصل التجارية بين اسيا الصغرى وبين بلاد اشور • وعلى الرغم من ان هذه النصوص القانونية لم تكتشف في بلاد اشور ، ولكن بسبب طبيعة هذه المستوطنة ، وبسبب لغة النصوص ، فالمعتقد انها تمثل نفس القوانين التي كانت تسود بلاد اشور •

اما المجموعة الثانية من النصوص القانونية الاشورية ، فتعرف بالقوانين الاشورية المتوسطة ، ويرجع زمنها الى ما بين (١٤٥٠ - ١٢٥٠ ق • م) وهي التي اكتشفت في اطلال مدينة اشور ، وهي مدونة على الواح من الطين حالتها تالفة جدا مما يزيد من صعوبة التعرف على تفاصيلها ، والغالب انها الواح كتبت أو استنسخت في فترات مختلفة وذات موضوعات متباينة ليس بينها ترابط • ومهما كانت الموضـــوعات وحالة هذه الالواح والغرض من تدوينها فانها تكشف في احكامها بوضوح عن استمرار التقاليد القانونية العراقية القديمة

كما عهدناها في قانوني اشنونا وحمورابي مع اختلافات بسيطة املتها شروط التطور التاريخي •

ومثلما نختتم الحديث في التاريخ السياسي للعراق القديم بعهد الدولة البابلية الحديثة (الكلدية) يتوجب علينا ان نشير الى النتاجات القانونية لهذه المملكة ايضا ، وواقع الحال انه لم يصل الينامن هذا العهدغير لوح واحد يتضمن عددا من المواد القانونية ، ولكن يفهم مما ورد في نهاية النص ان هناك ألواحا اخرى من المؤمل ان تكتشف في المستقبل •

ومع الحالة الرديئة لهذا اللوح فقد امكن تمييز حوالي خمس عشرة مادة تتطرق الى حالات التجاوز على الاموال والممتلكات وكذلك موضوعات الاحوال الشخصية ومما يقال بشأن احكام ومبادىء هذه القوانين انها لا تختلف كثيرا عن المبادىء العامة التي سادت العراق منذ منتصف الالف الثالث ق • م سوى ما اقتضته ظروف التطور الاجتماعي والاقتصادي لهذا العهد أو ذاك •

لقد اشرنا في مطلع حديثنا عن القوانين ، كما تطرقنا الى ذلك عند تعرضنا لقانون حمورابي ، الى ان القانون يمثل الصورة المثالية للمجتمع التي اتفق الناس على ايجادها وسعت الحكومات الى تثبيتها وازدهارها ، لذلك فان التجاوزات والمخالفات والاساءات ، انما هي حالات استثنائية تولى القانون معالجتها وصولا الى تحقيق المستوى المطلوب من العلاقات والتنظيم وشروط الالتزام •

وفي ضوء هذه النظرة للقوانين ، فأننا نستطيع متابعة الكثير من جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وتطور الحرف والصناعات ومستويات الاجور والاسعار ، وما الى ذلك من شؤون الحياة الانسانية ، فمثلا تعد اشارة قانون حمورابي في بعض مواده الى اخضاع اعمال الجراحين لأحكام القانون دلالة ساطعة على اعتماد الجراحة في التطبيب ، ويبدو واضحا ايضا ان بعض العمليات

الجراحية كانت مضمونة النجاح الى درجة ان القانون يأمر بمعاقبة الطبيب الذي يفشل في اجرائها بنجاح ويتسبب في الحاق الضرر بالمريض •

ومثلما يقال عن الجراحة والتطبيب ، يذكر ايضا بخصوص جوانب اخرى عرضنا لها في الموضوعات الرئيسية التي تطرق اليها قانون حمورابي : فمثلا في شؤون الزراعة والري والديون والايجار والشركات والممتلكات وما الى ذلك من انشطة مختلفة ، وسوف نعرض بالتفصيل لموضوع الاحوال الشخصية في ضوء القوانين ، لنحاول من خلالها وفي ضوء ما يتوفر من معلومات في نصوص وعقود اخرى ان نتابع تفاصيل العلاقة في الخليه الاساس في بناء المجتمع وهي العائلة ، لأنه في تقديرنا ، يساعد كشف الجزء في معرفة الكل ، وان التعرف على العائلة في وضعها الاجتماعي والاقتصادي وعلى العلاقات التي تحكم افرادها ، وبخاصة العلاقة بين طرفي العلاقة الرئيسيين وهما الرجل والمرأة ، سيكشف من دون شك عن اسس العلاقات الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع عامة ، وسيؤشر بدوره زخم الحركة المتطورة لحضارة العراق القديم •

الاحوال الشخصية وبناء العائلة

اشرنا عند استعراضنا للقوانين العراقية القديمة الى تطرقها لقوانين الاحوال الشخصية ، اي قوانين تنظيم العائلة ، كما قدمت النصوص المسمارية عددا ليس بالقليل من العقود القانونية المتعلقة بشؤون العائلة ، لذلك وبالنظر لوفرة المعلومات عن نظام العائلة العراقية القديمة ، نجد ضرورة كشف تفاصيل هذا النظام ، لا لنعرض لاركانه واسسه وخصائصه فحسب ، وانما نقصد من وراء ذلك الكشف عن متانة البناء الاجتماعي المتمثل بالعائلة باعتبارها النواة الاساسية للمجتمع •

وبسبب اهمية البناء الاجتماعي للعائلة ، فقد اهتمت القوانين

والاصلاحات الاجتماعية والديانات بوضع الضوابط والقواعد لاشـــكال العلاقات التي تحكم افراد العائلة ، لان في سلامة العلاقات العائلية نضمن سلامة التطور الاجتماعي ونتأكد من التقدم والازدهار ٠

ولم تتخلف القوانين والشرائع العراقية عن غـــيرها في مجال تنظيم العلاقات العائلية ، بل انها اولت هذا الموضـــوع عناية كبيرة تزيد عن عناية القوانين ببقية الموضوعات ، والسبب الرئيسي في ذلك ان العلاقات العائلية او ضوابط وقواعد الاحوال الشخصية تتعدد في اشكالها ، فهي روابط اجتماعية واقتصادية ، ومنها روابط آنية واخرى تسحب اثرها على المستقبل ، كما ان مجموع الروابط الاقتصادية والاجتماعية التي تنشـــأ بسبب بناء الاسرة ، تنتقل بتأثيرها الى عدد من الاسر من ذوي اصحاب العلاقة المباشرة ، الزوج والزوجة ، وحتى في الجوانب الاقتصادية للعلاقة ، فمنها ما يتحقق مباشرة بعد قيام العلاقة الزوجية ، ومنه ما يتأجل تنفيذه للمستقبل في حالة الطلاق مثلا ، او حدوث خلافات زوجية ، او في حالة الوفاة لاحد طرفي العلاقة ، ولهذه التداخلات واوجه العلاقة الواسعة يخصص للاحوال الشخصية عدد كبير من المواد القانونية يحتل حجما مميزا في قوانين المجتمعات الانســـانية تتناسب مع اهمية الموضوع في حياة بني البشر ٠

وعلى غرار حديثنا عن منشـــأ القوانين وقدمها ، فأن القواعد العـــامة والالتزامات الاجتماعية والاقتصادية لقوانين الاحوال الشخصية ، تستمد مقوماتها من العادات والتقاليد والاعراف التي تسود المجتمع حيث يؤكد ذلك اكتشاف عدد من الاتفاقات القانونية فيما يعرف بالعقود التي تنظم الزواج او الطلاق او الارث او التبني وذلك قبل ظهور القوانين المدونة ، والملاحظ على عقود الزواج والطلاق والارث والتبني انها تتناغم في قواعدها مع الشروط التي تحددها القوانين المدونة مما يؤكد بدوره على المنهل الذي استقت منه هذه القوانين مبادءهـــا ٠

وعليه فأن مجموع التراث المدون من عقود قانونية او فقرات ومواد قانونية يشكل المصادر الرئيسية لدراسة الحدود القانونية للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية في بناء الاسرة العراقية القديمة •

ان الركنين الاساسيين في بناء العائلة يتمثلان في الرجل والمرأة اللذين يصبحان بعد تسجيل اتفاقهما على الزواج في عقد قانوني ، زوجا وزوجة ، ان هذه النقطة الجوهرية تضمن للمرأة مجموعة الحقوق الاجتماعية كزوجة وكأم ، وكعضو فاعل ومؤثر في المجتمع او كما يعبر عنها ، النصف الاخر للبشرية •

ان هذا الادراك السليم للعلاقات الزوجية وفصلها عن مظاهر العلاقات الجنسية المجردة انما تؤكد على الجوهر الحقيقي للعلاقة ، كما ادركه العراقيون ، والمتمثل في بناء الخلية الاجتماعية الصغيرة المتمثلة اساسا بالزوجين وما ينجم عنهما من ابناء لذلك كان انجاب الاولاد وتربيتهم وتنشأتهم وتزويجهم بعد بلوغ سن الزواج من المهام التي لم يهملها المشرع العراقي القديم ، والتي كانت ولا تزال من مسؤولية الابوين الرئيسية •

وعلى الرغم من الاطار القانوني للعلاقة بين الزوجين فان نوع الاتفاق هذا وما ينجم عنه من ابناء ، وما يهيئه من علاقات اجتماعية ، يضفي عليه بعدا اجتماعيا يزيد حجمه احيانا عن حجم الالتزامات المالية التي تؤطره ، كما يتوجب علينا ان ننتبه الى العواطف والاحاسيس التي يهيؤها الزواج بحد ذاته وبسبب الابناء ايضا حيث يؤدي كل ذلك ببناء العائلة الى مستوى العلاقات الانسانية المتميزة • وليس من باب المغالاة ان نقول بان المتتبع لقانون الاحوال الشخصية في العراق القديم ، يدرك بسرعة التوجهات الانسانية المتقدمة التي تتحرك بين ثنايا الالتزامات والقواعد القانونية التي تحكم العلاقة بين افراد العائلة •

تعد العائلة البابلية عائلة ابوية ، أي ان للرجل فيها حقوقا تفوق حقوق المرأة ولكن هذه الامتيازات لم تصل الى حد استعباد المرأة ، او اخفاء دورها

الاجتماعي والاقتصادي فقد ضمن القانون للمرأة حقوقها الاجتماعية والاقتصادية قبل الزواج وبعده بصورة لم تعرف المرأة له مثيلا الا مع مطلع القرن الحالي •

فمنع الرجل من حق تطليق المرأة الكيفي ، وحصره في حالات استثنائية مقابل منح المرأة حق طلب الطلاق ، يعدان من الحقوق والامتيازات الاجتماعية المتقدمة التي لا تزال المرأة في كثير من بقاع العالم تناضل وتطالب بالحصول عليهما •

تتطرق قوانين الاحوال الشخصية في العراق القديم الى تعيين قواعد الالتزام للاركان الرئيسية في نظام العائلة وهي الزواج والطلاق والارث والتبني • وتكشف العقود القانونية المتعلقة بالاحوال الشخصية عن التطبيق العملي لجوانب الالتزام في اشكال العلاقات العائلية ، مثلما تقدم لنا احيانا تفصيلات تفوق المعلومات التي نستقيها من بنود القوانين •

والزواج اقتران اي ارتباط اجتماعي بين رجل وامراة يخضع في اتيانه الى مجموعة من القواعد الاجتماعية والمالية والقانونية ، حتى يكون صحيحا ، اي أن أي اقتران ينافي هذه القواعد يشكل خروجا عن القانون ويتحمل مرتكبوه التبعات القانونية •

ان الخطوة الاولى لقانونية الزواج تتمثل في كتابة عقد الزواج الذي ينقل الاقتران بين الجنسين من مجرد تحقيق الوظيفة الطبيعية للجنس ، الى الارتقاء بها الى مستوى حفظ النوع ، أي تثبيت الحقوق والواجبات للطرفين فيما له علاقة بمستقبل هذه العلاقة ، والتي يبرز في مقدمتها واهمها انجاب الابناء •

ويسبق ابرام عقد الزواج عادة تهيئة واسعة واعداد قد يستغرق بعض الوقت ليس المقصود منه التفاوض والاتفاق على شروط العقد فقط ، وانما منح العقد بعده الاجتماعي الذي يتناسب مع طبيعته • وعليه فقد تكون

مراحل المفاوضـــات والخطبة وتقــديم الهدايا ، كلها من نوع الاعلان عن الزواج •

كان عقد الزواج العراقي القديم يبرم بين الرجل ، الزوج في المستقبل ، وبين رجل اخر ، يكون ابا الفتاة ، الزوجة مستقبلا ، او اخاها او ولي أمرها ولهذا الســبب قلنا في مطلع الحديث عن العائلة العراقية القديمة انها عائلة ابوية وذلك بسبب هذا الموقف الرسمي في عقد الزواج الذي كان يسلب المرأة حق الاختيار او القبول او الرفض ويمنح ذلك لولي امرها على الرغم من انها الطرف الذي يقع عليه تبعات العقد •

ومع ذلك فقد منحت القوانين بعض النســوة حرية الاختيار وتنفيذ الالتزام او رفضه ، وابرام عقد الزواج ، ومثل ذلك حال الكاهنات او المرأة التي تتزوج ثانية او تدخل في علاقة قانونية مع رجل اخر خلال غياب زوجها الاضطراري لذلك يرجح ان سبب تمثيل الاب لابنته في عقد الزواج هو صغر سن الفتاة •

ولم تقتصر حقوق بعض النسوة وبخاصة بعض الكاهنات في دورها في الزواج فحسب بل نعرف عن بعضــهن ممارســة الاعمال التجارية والمالية ، وتبوأهن مراكز وظيفية عالية مثل وظيفة الكاتب او الحاكم ، اضافة الى ان الوظائف الكهنوتية بحد ذاتها كانت من نوع الوظائف ذات الطابع الاجتماعي المرموق كما نعرف عن نسوة دخلن كشــاهدات في بعض العقود على غرار الرجل •

ومن ابرز فقرات عقد الزواج ، تلك الفقرة التي تنص على اجراء الزواج وتذكر صراحة ان الرجل اخذ المرأة ليكونا « زوجا وزوجة » ويحتمل ان تضاف فقرات اضافية الى بنود الاتفاق ، اما الحقوق والواجبات للزوجين فانها لم تذكر لانهـا من الامور المعروفة ، بينما تشــير القوانين الى حالات مخالفتها من قبل احد الزوجين ، لذلك يكون صحيحا تفسير بعض الباحثين

للنقص في القوانين المدونة ، بانها تطرقت الى الحالات المختلف عليها ، او الحالات التي يحتمل انها تثير خلافا بين طرفي التعاقد ، ولم تجد القوانين ضرورة تكرار الحالات الشائعة في العلاقات او الالتزامات او القواعد والاحكام العامة والخاصة .

ومن الملاحظ على فقرات قانون الاحوال الشخصية انه عالج الخلافات المحتملة بخصوص الحقوق المالية ، او التبعات الاجتماعية لطرفي التعاقد .

وبعد مجموعة من المراسيم ، منها حفلات خاصة يشترك فيها العروسان ، كما تشهد المراسيم نوعا من الطقوس الدينية لاضفاء طابع الخير والبركة واليمن على المناسبة ، وتنتهي هذه الاحتفالات دائما بدخول الرجل بالمرأة وتنفيذ اهم بنود عقد الزواج .

وقد تتأخر الفتاة المخطوبة لبعض الوقت في بيت ابيها ، ربما لاستكمال متطلبات الزواج ، ولكن الفتاة في هذه الحالة تعد زوجة شرعية ، وتترتب على الطرفين « الزوج والزوجة » جميع الحقوق والواجبات المتعارف عليها او المنصوص عليها قانونا للزوجين ، فهي بحكم الزوجة قانونا ، وان اي مساس بشرفها يعرض مرتكبه الى عقوبة المذنبين بحق النساء المتزوجات ، وفي هذا تأكيد صريح على اهمية عقد الزواج ، كما ان العقوبات المنصوص عليها قانونا بحق المذنبين بحق نساء متزوجات ، التي تصل احيانا الى عقوبة الموت ، انما تشير الى المكانة الاجتماعية المرموقة التي تحتلها الزوجة في الحياة العامة ، وهي المكانة اللازمة لتؤهلها موقع الزوجة والام الجيدة في المجتمع .

جرت العادة في العراق القديم ان يتزوج الرجل بأمرأة واحدة ، ولكن يحق له التسري بعدد غير محدود من الاماء ، كما جرت العادة ان تدفع الزوجة العاقر بامة من عندها لتكون لزوجها ، وكأنها بعملها هذا تعوض زوجها النقص في الابناء الذي يحيط بعلاقتهما الزوجية .

وعرف العراقيون القدماء التزوج بالكاهنات ايضا ، ويتضح من قواعد الزواج بهن ، كما عرضت في القوانين ، وبخاصة العادة التي تلزمهن تقديم اماء لازواجهن لغرض الانجاب ، يشير كل ذلك الى ان التزوج بهن لم يكن شائعا ، وهو من نوع الأرتباط الأجتماعي الذي ينشد الرجل من ورائه تحقيق مكاسب اجتماعية وربما اقتصادية ، بخاصة وان الدرجات العليا من الوظائف الكهنوتية كانت حكرا على بنات الطبقة الحاكمة من ملوك وامراء وموظفين كبار ، مقابل شـــهرة عدد من الكاهنات بالثروات الطائلة ، فمثلا يقدر ان الكاهنة من صنف ناديتوم ، في مدينة سبار بحدود مطلع الالف الثاني ق • م كانت اثرى اثرياء عصرها لما تمتلكه من اراض وعقارات وماشية واموال ، جاء ذكر معظمها تفصيلا في سجلات رسمية وعقود ومعاملات مالية كانت هي طرفا فيها •

ومما تجدر الاشارة اليه بخصوص النسوة الكاهنات ، انه لم يكن مسموحا لهن بالانجاب ، لذلك اضطرت واحدة منهن ، عندما وضعت ابنها سرا ، ان تضعه في سفط وترمي به في نهر الفرات ، فألتقطه احد المزارعين وهو يروي حقله ، واهتم بالطفل ورباه ، ثم احتضنت الالهة عشـــتار هذا الصبي برعايتها حتى سلمته مقادير بلاد سومر واكد وجعلته ملكا على البلاد ، وهو الملك سرجون الاكدي مؤسس الدولة الاكدية (٢٣٧١ ق • م) الـــذي حكى لنا قصة حياته مدونة على احد الالواح الطينية •

اشرنا من قبل الى ان الاساس في الزواج الاقتران بزوجة واحدة ، ولكن عددا من المواد تلمح صرلحة الى الزوجة الاولى او الرئيسية ، مما يعني ضمنا وجود زوجات اخريات للرجل ، ولكن لا نعرف على وجه التأكيد هل ان هذا اللقب كان يمنح للزوجة من صنف الكاهنات ، لعلمنا ان الرجل كان يتزوج احيانا بزوجة ثانية لغرض الانجاب ، وتؤكد القوانين ان الزوجة الثانية تبقى دون المنزلة الاجتماعية للزوجة الكاهنة • ولكن نظرا لان الكاهنات لم يلقبن

الا بلقبهن الوظيفي كأن يقال ناديتوم او انيتوم او شـــوگيتم ، وهي مراكز وظيفيه كهنوتية نسوية ، لذلك نرجح ان يكون لقب الزوجه الرئيسية الذي اوردته بعض الفقرات يخص النسوة من غير صنف الكاهنات ، وهذا يعني احتمال زواج الرجل باكثر من زوجة ، مع سريان قاعدة الزواج بواحدة •

ومما يلفت الانتباه في القوانين العراقية القديمة فيما له علاقة بالزواج ، النظرة الانسانية المتقدمة التي خصها القانون للعبيد والاماء من ناحية مثل هذه العلاقات الانسانية • فالاماء في كل الاعراف والقوانين ملك اليمين ، ويحق لصاحب الامة ان يفعل بها ما يشاء ومتى يشاء ، والتسري حالة في حقوق صاحب الامة ، ولكن التسري قد يثمر ابناء ، وعندها يتدخل القانون لمنع حالة الاحباط والضياع التي يتعرض لها عدد من الابناء يتزايد باستمرار في مجتمعات تعرف العبودية ، فهم احرار لانهم من صلب رجل حر ، كما ان حريتهم تنسحب لصالح امهم ، حيث لا يحق لصاحب الامة ، « ام ولد » بيعها ، كما هي حقوقه على بقية امائه ، وانها تنال حريتها الكاملة بعد وفاة مالكها • ومما تجدر الاشارة اليه ، ان الفقه الاسلامي يقف الموقف ذاته من الامة « ام ولد » •

وتكشف لنا اربع مواد من قانون حمورابي ، ان بعض العبيد ، وبخاصة عبيد القصر ، كان يحق لهم التزوج من بنات الاحرار ، وعلى الرغم من تبعية الاولاد لابيهم في المجتمع العراقي القديم ولكن في حالة زواج العبد من حرة ، فأن الابناء ينتســبون لامهم ، ولا يحق لصاحب العبد الادعاء بملكية ابناء زوجة عبده الحرة •

وهي بدون شك نظرة انسانية تعزز مواقع الخير في الحياة وبين الناس وتهدف لمنع وقوع عدد ممن لا ارادة لهم ، وهم الاطفال ، في العبودية •

جرت العادة في العــــراق القديم ، وقبل ان تنقطع علاقة الفتاة بعائلتها قانونيا عند الزواج ، ان يقتطع لها ابوها او اخوتها ، جزءا من ثروته او تركته

وتسجل في عقد مدون وتمنح لها عند زواجها ، وهي الاموال الوحيدة التي تنالها الفتاة من ابيها ، لذلك فهي بمثابة حصتها من ارث ابيها ، وكانت الفتاة تحصل على مثل هذه الحصة من الاموال ايضا عند دخولها في السلك الكهنوتي ، والواضح ان هذا القدر من الاموال الذي كان يعرف بالشيرقتوم ويترجم عادة الى مهر ، كان يسلم للزوج لادارته وتنميته ، ولكن المرأة في بعض الاحيان كانت تواصل الاشراف على اعمالها ونشاطاتها المالية التي كانت تقوم بها قبل الزواج ، وبذلك فانها تشرف على ممتلكاتها في مهرها بنفسها ، كما كانت اموال المهر تبقى ملكا خاصا بالمرأة واولادها فقط . وبما ان هذه الاموال تمثل اخر خيوط الصلة المالية بين المرأة وبين عائلتها ، فقد تعود الاموال الى عائلتها في حالة وفاة الكاهنة غير المتزوجة .

واذا كان الشيرقتوم يمثل الحق المالي الاول للفتاة عند زواجها ، فان الحق المالي الثاني يتمثل في هدية زوجها ، وتعرف بالترخاتم ، وهي مبالغ من الاموال النقدية او العينية يرد ذكرها في عقد الزواج ويعتبر تسليمها وتسلمها شرطا ضروريا لشرعية العقد ، ومن الواضح ان هذه الهدية يمنحها الزوج لزوجته ، ولكن بما ان عقود الزواج تبرم بين الزوج وبين ولي امر الزوجة ، فأن صياغتها في عقود الزواج توحي وكأن ولي امر الزوجة يتسلمها لنفسه .

اما البيبلوم ، فهي هدية مالية تقدم برفقة هدية الزواج الى والد الزوجة الذي يستلمها نيابة عن ابنته ، لانه كما اشرنا الى هذه النقطة مرارا ، هو الذي يمثلها في عقد الزواج ، ويبدو ان هذه الهدية التي تشبه هدايا الخطوبة لم تكن لها صفة دائمية حيث لم يرد ذكرها في حالة الطلاق الذي كان يرافقه احيانا استرجاع الزوج لهدية الزواج التي دفعها سابقا ، واعادة مهر زوجته اليها او الى ذويها .

وبما ان هذه الهدية لها صفة غير دائمية فالارجح انها من نوع الاموال

البسيطة تصرف لتغطية نفقات العرس او مواد عينية لتلبية متطلبات حفلات الخطوبة والزفاف •

وقد تنال بعض الزوجات حظوة كبيرة عند زوجها ، وكان انجاب الابناء اكبر اثر تتركه الزوجة في حياة زوجها ، كذلك غالبا ما كان الزوج يهبها اموالا نقدية او عينية ، ويكتب لها بذلك وثيقة قانونية يثبت فيها حقوق زوجته في هذه الاموال ويمنع أي ادعاء في المستقبل قد يثيره الورثة بخصوص هذه الاموال •

واجبــات الزوجــة

اذا كانت الفقرات السابقة كلها حقوقا للزوجة ، فهي مقابل واجبات تقع على عاتقها وتمثل حقوقا للرجل في الزواج •

ان في مقدمة الواجبات التي تحاسب عليها المرأة حسابا شديدا ، هو واجب الحفاظ على عفتها وشرفها وملازمتها لبيتها ، وعدم الاخلال بسمعتها التي هي سمعه زوجها ، وكانت عقوبة المرأة التي تخل بذلك قاسية جدا تصل الى الموت او فقدانها لحريتها وتحولها الى امة •

وكانت حقوق الرجل في عفاف زوجته صارما حتى لو هجرها لبعض الوقت شريطة ان يترك لها مستلزمات العيش ، ولكن القوانين البابلية منحت المرأة بعضا من حقوق الرجل على زوجته ، فكان عفاف الرجل جانبا من حقوق الزوجة على زوجها • فاذا ثبت انه فرط بعفافه ، تحكم لها المحكمة بالطلاق دون أن تخسر حقوقها المالية ، علما ان عقوبة المرأة في حالة اثبات نفس التهمة عليها هي الموت •

الطــلاق

يعبر عن فسخ العلاقة القانونية والاجتماعية التي تربط المرأة بالرجل طلاقا ، وفيما عدا الحالة الوحيدة التي يشم منها رائحة حق المرأة في طلب

الطلاق من زوجها ، وهي التي اشرنا اليها قبل قليل ، فأن طلب الطلاق يرد دائما على لسان الرجل • ومن المصطلحات المعبرة عن ذلك « تركت » « وأنت لست زوجتي » و « يقطع حواشي ثوبها » •

ولكن اذا تركت الزوجة زوجها او كرهته او قالت له « سوف لا تأخذني » او « انت لست زوجي » او امتنعت عنه ، فأن ذلك كان يعد تمردا على حقوق الزوج واخلالا بشروط العقد وبالتالي ، كانت مثل هذه الحالات ان بدرت عن الزوجة ، توقعها تحت طائلة القانون ، وان العقوبات الصارمة كانت تصل غالبا الى الموت •

ونظرا لكون الطلاق يمثل الحالة الاستثنائية ، والقاعدة هي في دوام الزواج ، لذلك تطرقت القوانين الى الحالات الشائعة التي توجب الطلاق ، ويأتي في مقدمتها تفريط الزوجة بعفافها وسمعتها وشرفها •

ان المجتمع العراقي القديم من المجتمعات الزراعية ، حيث تحتل اليد العاملة اهمية كبيرة ، وتعكس في حالة توفرها مردودا اقتصاديا عاليا في النشاطات الزراعية القديمة • ولهذا كان حرص الرجل على الابناء كبيرا جدا ، وقد اشرنا من قبل الى الهبة التي يقترن منحها في الغالب بانجاب الزوجة للابناء ، كما عرفنا ايضا كيف تدفع الكاهنة الزوجة بأمة من عندها الى زوجها لغرض الانجاب ، ونضيف الى ذلك قولنا ان من حق الرجل تطليق زوجته العاقر ، وصحيح ان القانون يامر بمعاملتها بالحسنى ويلزم الرجل بدفع مهرها او نقود لطلاقها ، ولكنها مع ذلك هي الحالة الوحيدة التي يذكرها القانون ، والتي تمنح للرجل حق تطليق زوجته دونما سبب جوهري الا فيما يتعلق بعقمها •

ومن الحالات التي يحتمل وقوعها في العلاقات الزوجية ، حالة مرض الزوجة العضال الذي يمنعها من تأدية واجباتها البيتية والزوجية ، فقد اكد القانون نظرته الانسانية في معاملة مثل هذه الحالات ، عندما منع الرجل من

تطليق زوجته المريضة والزامه باعالتها طيلة مدة حياتها ، والراجح انها اصيبت بالمرض العضال بعد وقت من زواجها ، وبعد ان انجبت عددا من الابناء ، لانه في حالة عدم انجابها ، يحق للرجل تطليقها متذرعا بعقمها •

المحـارم

يدفع الحديث عن الزواج والطلاق صوب المحارم ، ويقصد بها الحدود الاجتماعية والقانونية بين الحلال والحرام في العلاقات الجنسية ، او بين المسموح وبين الممنوع •

وقد تكون الحدود الاجتماعية غير ثابتة في بعض الاحوال ، فمثلا بستطيع الرجل ان يخطب امرأة لنفسه ويتزوجها ، بينما كان الاتصال بها قبل اجراءات الزواج محرما • ولكن هناك حالات قطعية من المحارم ، منها وفي مقدمتها المرأة المتزوجة ، فهي حرام على غير زوجها ، وينزل القانون عقوبة الموت بمن يغتصبها • كما يحرم القانون الاتصال بالابنة وزوجة الابن ، لان مقام الاخيرة بالنسبة لرب الاسرة مقام احدى بناته •

ومن المحارم الكبرى في المجتمع البابلي القديم اتصال الابن بامه بعد وفاة ابيه ، ونعرف كون هذا الفعل من الجرائم الكبرى بسبب نوع العقوبة التي تنص على حرقهما ، وهذه الحالة من نوع المحارم التي تجمع عليها معظم المجتمعات الانسانية في اعرافها وقوانينها ، لكون الفعل منافيا للطبيعة والمعتقدات والاخلاق •

وتنتهي قائمة المحارم عند الاخت ، حيث لا نعرف حدود المحرمات في العلاقات القرابية ، مثلا ، بالنسبة الى ابنة العم او الخال ، وما الى ذلك •

الارث

ومن بين ابرز فقرات قانون الاحوال الشخصية ما يتعلق منها بالارث

وتوزيع التركة وتعيين الوارثين الشرعيين لان تعيين الورثة والتركة ، وتحديد الحصص تشكل النقاط الجوهرية في قوانين الارث •

عرفنا من استعراضنا لحالات الزواج والطلاق كيف انها تسبب تداخلا في الورثة •

فقد يتزوج رجل باكثر من امرأة وتنجب كل واحدة ابناء ، ويصدف ان يتزوج رجل امرأة لها اولاد من زواج سابق او ان يقترن رجل بامرأة لكل منهما ابناء من زيجات سابقة ، كماكانت تقع حالات تبني كثيرة ؛ يعمد فيها الزوج او الزوجة الى تبني ابناء اضافة الى ابنائهم •

وعلى الرغم من تخصيص قانون حمورابي لعشرين مادة من فقراته تعالج شؤون الارث ، فأن جوانب اخرى لا تزال غامضة ، فمثلا مقدار حصص الابناء من ذكور او اناث ، او وضع حصص الابناء الطبيعيين عن الاولاد المتبنين ، او حصصهم قياسا بحصص ابناء الامة ، الى غير ذلك من موضوعات ولكن نؤكد قولنا ثانية بشأن هذا النقص في المواد القانونية بخصوص الموضوعات المختلفة ، بأن قانون حمورابي يعالج عادة الموضوعات المختلف عليها ، او يعتقد انها تشكل نقاط خلاف ، بينما يترك للاعراف والتقاليد دورها في التحكم بالعلاقات ، وتعيين الضوابط والاحكام ويتوضح لنا ذلك من مئات العقود والمعاملات القانونية لحالات في الزواج او الطلاق او الارث ، لم ترد تفاصيلها في القوانين المدونة • وقد اشرنا من قبل الى ان تسجيل العقد كان منوطا بجهة رسمية ، لذلك يستحيل معها ان يبرم اتفاق غير قانوني او غير شرعي ، كذلك لاحظنا على المادة (١٢٨) من قانون حمورابي انها تنص على شرعية الزواج بعد تحرير العقد ، ويصح ذلك في جميع الحالات في الاحوال الشخصية وفي غيرها ، فالعقد شريعة المتعاقدين ، وبموجبه يحكم القضاة ؛ ويمثل عدم ابرامه او ضياعه ، خسارة كبيرة لكثير من الحقوق والامتيازات •

لذلك سنمرّ على ابرز الخصائص والمميزات التي عرف بها قانون الارث البابلي :

فقد عرف العراقيون تمييزا بين انواع الاموال في التركة ،وهي :

أ ـ اموال غير منقولة كالاراضي والبيوت والبساتين .

ب ـ اموال منقولة : كالنقود والحلي والملابس والاثاث وما الى ذلك مما له قابلية الانتقال من مكان الى اخر .

جـ ـ الحقوق المالية : وهي من نوع الاسهم والسندات في عصرنا الراهن وبذلك فهي من نوع الاموال المنقولة ، كأن تكون رأس مال مشارك في عملية تجارية ، او اموال مقرضة الى اخرين .

والقاعدة العامة في تعيين الورثة هي ان الذكور جميعا من الابناء الذين هم من صلب الرجل يتقاسمون التركة بالتساوي مع منح الابن الاكبر اي البكر بعض الامتيازات ، كأن يحق له اختيار الحصة الاولى ، او تقتطع له حصة اضافية وتفسير ذلك ان الابن الكبير يتحمل تبعات اجتماعية تتطلب نفقات مالية ، فمثلا في حالات استقبال الضيوف ، او مسؤولية رعاية الاخوة الصغار وما الى ذلك هذا مع العلم ان عادة تفضيل او تقديم الابن الاكبر تشترك بها معظم الشعوب القديمة ، ولا تزال اثارها قوية في مجتمعاتنا لحد الوقت الحاضر .

وقد يترك المتوفي وثيقة رسمية تشبه ما نعرفها اليوم بالوصية يخصص بموجبها جانبا من ممتلكاته لاحدى زوجاته او لابنه المفضل وربما لابنه المتبنى فيقتطع الجزء المذكور في الوثيقة من التركة اولا ، ثم يقسم الباقي بالتساوي بين الورثة .

وقد يموت الاب عن بعض الصبية الصغار الذين هم دون سن الزواج ، فعلى اخوتهم الكبار ان يقطعوا من تركة ابيهم مبلغا من المال يساوي هدية

الزواج ويخصصوها لاخيهم الصغير ، حيث يضاف هذا المبلغ الى حصة الصغير من الارث وفي هذه الحالة فقط يتساوى نصيب الصغير من اموال ابيه مع بقية اخوته ، لانه حصل على المبلغ الذي سبق لاخوته المتزوجين الحصول عليه من قبل عند زواجهم وهو مبلغ هدية الزواج .

لقد اشرنا عند الحديث عن الزواج الى حالات التسري بالاماء وانجاب الابناء منهن ، حيث عرفنا بان هؤلاء الابناء يولدون احرارا ، لانهم من صلب رجل حر كما انهم ينقلون الحرية الى امهم . ومع هذه الحقوق المتميزة ، فان ابناء الامة ما كان يحق لهم مشاركة اخوتهم بالتركة ، الا في حالة ضمان هذا الحق لهم من قبل ابيهم خلال حياته ، ودون ذلك في عقد لصالحهم .

وللام تركة ايضا ، وان مبدأ تعيين الورثة وحصص الوارثين لها لا تختلف عن المبادىء المتبعة بالنسبة الى تركة الاب ، ولكن في حالة الاخوة من اب واحد ومن بطنين مختلفين ، فيرث كل منهم تركة امه على انفراد ، ويتقاسمون تركة ابيهم بالتساوي . ومن اهم الثروات عند الام هو مهرها الذي ينتقل الى ابنائها بعد وفاتها ، بينما يجب ارجاع مبالغ مهرها الى بيت ابيها في حالة وفاة الزوجة دون ابناء يرثونها .

وفي حالة وفاة الاب عن ارملة واولادها صغار قاصرون ، فتكون الام بمثابة الوصية على اولادها وعلى حقوقهم في تركة ابيهم ، وينتقلون مع امهم الى بيت الزوج الجديد ، في حالة تزوجها ثانية ، وعندها يوقع القانون مسؤولية صيانة حقوق وممتلكات الصبية الصغار من تركة ابيهم على زوج امهم ، حيث يتم تثبيت ذلك في المحكمة لمراقبة تنفيذ الالتزامات عند بلوغ الابناء سن الرشد .

اشرنا من قبل لاقتصار الارث على الذكور الا فيما يذكر بخصوص الاموال التي تخصص لمهر الفتاة ، حيث نستشف من بعض الفقرات القانونية ان الفتاة غير المتزوجة كانت تكلف اخوتها اقتطـــاع جانب من تركة الاب

لمهرها قبل اقتسام التركة فيما بينهم لذلك فالارجح ان حصة الفتاة من الارث هو مبلغ مهرها الذي كان حقا ماليا مكتسبا لها ينتقل معها الى بيت الزوجية وتورثه بعد موتها الى ابنائها ان كان لها ابناء ، وبعكسه يرجع لبيت ابيها : أي يرثه اخوتها .

وتعين لنا بعض المواد القانونية نسبة من التركة قدرها ثلث الحصة الواحدة على انها تخصص للفتاة من صنف الكاهنات التي لم تحصل على مهرها في حياة ابيها ، فتقتطع من التركة ، ونذكر بهذا الخصوص بان مهر الفتاة كان يقدم اليها عند زواجها او عند دخولها السلك الكهنوتي .

فهل ان ثلث الحصة الواحدة يمثل نسبة ثابتة لكل البنات في تركة ابائهم او ان الاشارة تخص الفتيات اللواتي نذرن للعمل في المعبد ، وحتى لو اقتنعنا بوجهة النظر التي ترى بان الثلث هو حصة البنات من التركة ، لكننا لا نعرف هل كان الثلث هذا يشمل جميع الاموال في التركة أو يقتصر على الاموال المنقولة فقط ، ولكن قياسا على اهمية الارض في حياة الوحدات العائلية القديمة ، ومقارنة نظم الوراثة البابلية بنظم الارث عند كثير من الشعوب القديمة ، وبخاصة ما يرد ذكره في التوراة ، وما هو ثابت في تاريخ العرب القديم ، وفي قوانين واعراف العشائر لحد الان ، أن المرأة لا تورث في الاموال غير المنقولة ، لذلك كان قرار الاسلام في توريث الاناث بنصف حصة الذكور في كل التركة ، يمثل نقلة نوعية كبيرة على طريق حقوق المرأة وبخاصة في المجالات الاقتصادية .

اما الزوجة التي خصص لها الاسلام حصة في ميراث زوجها ، فلم تترك لها القوانين العراقية القديمة اية حصة فيما عدا منحة أو هدية زوجها خلال حياته لها ، شريطة ان تكون اموال الهدية أو المنحة مقترنة بوثيقة رسمية أو عقد قانوني تستند اليه في ادعائها بجزء من تركة زوجها كما وتستطيع مقاضاة اولادها او ابناء زوجها بموجب ذلك ايضا ، فتستقطع الاموال

أو المبالغ المذكورة في الوثيقة لصالح الزوجة ، ويقتسم الورثة بقية التركة . وربما يكون عذر المشرع العراقي القديم في عدم ترك حصة للزوجة يستند الى انها تمتلك اموالا خاصة بها تتمثل في مهرها الذي يعد الضمانة المالية لبقية حياتها ، وتنتقل هذه الاموال بعد موتها الى ابنائها او بيت ابيها ان لم يكن لها ابناء • ويضمن لها القانون حق الاستمرار في السكنى في بيت زوجها ويمنع مضايقتها او اخراجها من البيت الا اذا كان خروجها من البيت بمحض ارادتها فمثلا ان تتزوج ثانية فتنتقل لى بيت زوجها الجديد •

اما الاخوة فلا توجد اشارة صريحة الى حصولهم على حصص من الارث الا في حالة وفاة اختهم دون انجاب ابناء ، فيعود مهرها الى بيت ابيها الذي ان كان ميتا فيتقاسمه اخوتها •

لقد وردت الاشـــارة الى مآل مهر المرأة التي تموت دون ابناء ولكن لا نعرف عن مصير ثروة الرجل الـذي يموت دون ابنـاء والمعتقد ان مثل هذه الحالة نادرة وربما مستحيلة في العراق القديم ، لان القانون البابلي كان يســمح لمثل هؤلاء الرجال بتبني ما يشـاؤون من اولاد ويكون الاولاد المتبنون بحـكم الاولاد الشرعيين في كل شيء بمـا في ذلك الارث حيث يتقاسمون التركة مع (اخوانهم) من الابناء الطبيعيين ان وجدوا بحصص متساوية •

اما حجب الارث فكان يمثل واحدة من اشد العقوبات التي يوقعها الاب باحد ابنائه لذلك لم يكن اتخاذ قرار حجب الارث قرارا اعتباطيا يستطيع الرجل اتخاذه متى يشاء ، فلربما في ساعة غضب او تحت تأثير احدى زوجاته ضد ابناء زوجة اخرى وما الى ذلك من اسباب ، وانما يجب تثبيت الاسباب الموجبة امام محكمة واستصدار امر منها بالموافقة على قرار الاب بحجب الارث عن واحد او اكثر من الورثة ، فالارث حق مكتسب بالولادة او ما هو بحكمها

حتى يحق لوالده حرمانه من الارث •

قانونا كالتبني ، ولا نعرف بشكل دقيق نوع المخالفات التي يرتكبها الولد

وكانت المحكمة تطلب من الوالد ان يصفح عن ابنه اذا كان ارتكابه للذنب الذي يوجب حرمانه من الارث ، لاول مرة ، ولكن في حـــالة تكرار الابن لفعلته ، فتحكم المحكمة بحجب الارث •

وربما نستطيع تقدير نوع المخالفة من مادة في قانون حمورابي تعاقب الابن بالطرد من ممتلكات ابيه ، اذا ثبت عليه مضاجعة زوجة ابيه وهي صاحبة اولاد • فان الطرد يعني ضمنا حرمانه من تركة ابيه ، كما يحرم ابناء الرجل من امة من الارث الا اذا حرر لهم ابوهم عقدا يعترف فيه ببنوتهم ، فيحق لهم بعدها تقاسم التركة مع بقية اخوتهم ، وعليه فأن الابناء المتبنين والابناء من امة ، كانوا بحاجة الى قرار رسمي بابوة الرجل لهم حتى يرثوه بعد موته •

ويمثل موضوع التبني اخر الموضـــوعات التي تخص قوانين العائلة العراقية القديمة والتبني يتمثل باتفاق بين طرفين على خلق علاقة جديدة بين رجل يمثل دور الاب أو امرأة تمثل دور الام وبين ولي امر ولد او بنت يمثلان دور الابن او الابنة ، وتتضمن علاقة البنوة هذه حقوقا وواجبات للطرفين •

ان مجموعة عقود التبني المكتشـــفة تفصح عن الغاية الحقيقية وراء التبني ، فلم يكن التبني رغبة من رجل او امرأة حرما من نعمة الاولاد وانما تتمثل في اغلب حالاتها في ارتباط قانوني بين رجل عجوز او امرأة مسنة ، يهدفان الحصول على مســـاعدين لهم يقومون على خدمتهم وينجزون لهم اعمالهم ، وبخاصة ان كان بعضهم حرفيا حيث يقوم الابن المتبنى بتسيير اعمال متبنيه • والاهم من ذلك السهر على راحتهم وتوفير اسباب المعيشة لهم عند العجز والشـــيخوخة • كما تكشف بعض العقود ان الغايات الدينية كانت مشجعة على التبني ، فبعض العقود تشترط على الابن المتبنى ان ينفذ الطقوس والمراسيم الدينية اللازمة على روح متبنيه بعد وفاته •

تركز مواد قانون حمورابي المتعلقة بالتبني على الخلافات التي يقدر انها تنشب بين طرفي العلاقة المباشرة في التبني وهما المتبني والمتبنى ، حيث نفهم منها ان عددا كبيرا من الحرفيين كانوا يعمدون الى التبني ، لان طبيعة اعمالهم كانت تمنعهم في الغالب من الاستقرار وتكوين عائلة ، ولان حياتهم تعتمد على الاجور التي يحصلون عليها مقابل عملهم .

ففي حالة شيخوخة الحرفي وعجزه عن القيام باعمال حرفته سيتعرض الى الموت جوعا ، لذلك كان بحاجة الى صبي يدربه على اسرار مهنته ليستعين به على ايام شيخوخته وعجزه .

ويعمل بعض هؤلاء الحرفيين في خدمة القصر او المعبد حيث ان طبيعة اعمالهم كانت تمنعهم من تكوين اسرة او انهم يمنعون من الانجاب ، لذلك سهل القانون امامهم مهمة التبني وعرض للمشكلات التي يتوقع حدوثها في حالة تبنيهم .

وقد يتأخر زوجان عن الانجاب ولهما رغبة شديدة على استمرار علاقتهما الزوجية ، لذلك يعمدان الى تبني ابنا لهم قبل ان يرزقا بابناء من صلبهم ، فأذا اراد الاب في المستقبل فسخ علاقة البنوة مع الابن المتبنى ، يجب عليه ضمان كامل حقوقه عند فسخ عقد التبني .

وعموما فان بعض حالات التبني كانت تمر بفترة تجربة ربما يتراجع بعدها المتبني عن رغبته لذلك كان ابرام العقد بين الطرفين يمثل الصيغة القانونية التي لا يحق بعد ابرامها لاحد منهما ، بالرجوع عنها ، والا سيتحمل البادىء تبعات نقض الاتفاق ، كما يحق للابن المقرر تبنيه التخلي عن متبنيه اذا تأخر المتبني في ابرام العقد ، او تردد في اعلان ابوته التي تتيح للابن المتبنى حق الارث في ممتلكات متبنيه مستقبلا .

وكذلك الحرفي ، عليه ان يعلم ابنه المتبنى اسرار حرفته ، وبعكسه يحق للابن الانفصال عن متبنيه .

وتواصل القوانين تأكيدها على الجوانب الانسانية في اقامة هذه العلاقات ففي حالة تبني رجل لطفل رضيع يبقى الطفل هذا تحت التجربة ، فأن تكيف للبيئة او المحيط الجديد فسيكون لمتبنيه ، اما اذا واصل الطفل يطلب امه ، فعلى الرجل ان يعيده الى امه وابيه ، ولا يترتب على الطفل في هذه الحالة اية تبعات قانونية ، حيث نحا القانون منحى انسانيا في تأكيد شوق الطفل الطبيعي الى والديه ، وبخاصة وهو في دور الحضـانة ، وعلى العموم فان العقوبات التي كانت توقعها القوانين بالاولاد المتبنين ، في حالة اخلالهم بشروط التبني قاسية جدا ، فاذا رفض ابوة متبنيه يعلم جبينه ويباع في سوق النخاسة .

اشرنا قبل قليل الى حالة تبني طفل رضيع ، وهو الذي يخبرنا بمعرفة المجتمع البابلي للمرضعات ، حيث يكون وجودهن ضروريا مع وجود حالات التبني فتأخذ المرضعة طفلا ، اضافة الى اطفالها وترضعه حتى يتعدى مرحلة الرضاعة .

وتقع حالات تموت فيها الام بعد الوضع مباشرة ، فتبرز الحاجة الى مرضعة ايضا ، لذلك تلزم القوانين المرضعة بالتأكد من مقدرتها على ارضاع طفل اخر وسلامة لبنها ، وصحتها الجيدة ، لانه اذا مات طفل على ثدييها أي في فترة رضاعتها له ، وتعاقدت على رضاعة طفل اخر دون ان تخبر ابويه بوفاة الطفل السابق ، يعد عملها هذا جرما وتعاقب عليه بصورة تمنعها من القيام بالرضاعة مستقبلا .

مررنا على الصفحات السابقة بجوانب تفصيلية من قوانين وضوابط وقواعد واحكام العلاقة للاحوال الشخصية في العراق القديم ، وكنا نقصد

من وراء التفصيلات لهذا الجانب ، الكشف عن الابعاد التنظيمية المتطورة التي بلغها المجتمع العراقي القديم ، التي تركت اثرها من دون شك على جوانب النشاطات الانسانية الاخرى ، بخاصة واننا عالجنا اكثر العلاقات اهمية وحساسية في حياة الناس ، كما ان تنظيم العلاقات الخاصة تؤشر غالبا الاطر الفكرية الناضجة لاشكال العلاقات الاجتماعية والاقتصادية وكيفية منح هذه العلاقات ابعادها الانسانية التي تتناسب مع العواطف والاحاسيس والمشاعر ، بعيدا عن العلاقات المادية المباشرة .

ونرى اتماما للفائدة ان ننقل جانبا من فقرات قانون حمورابي التي تتناول الاحوال الشخصية :

المادة ١٢٨ : ــ

« اذا اخذ رجل زوجة ، ولم يسجل لها عقدا (بالزواج)* ، فهذه المرأة ليست زوجته » .

المادة ١٣٥ : ــ

« اذا انصرف رجل (عن بيته) ولم يكن في بيته الغذاء (الضروري) ، ودخلت زوجته قبل عودته بيت رجل ثان ، وانجبت منه اولادا ، ثم رجع زوجها بعد ذلك الى مدينته ، فعليها ان تعود لزوجها الاول ، اما الاولاد ، فيتبع كل منهم أباه » .

المادة ١٣٨ : ــ

« اذا رغب رجل في ان يطلق زوجته المختارة (الاولى) التي لم تنجب له اولادا ، فعليه ان يعطيها نقودا بقدر هدية زواجها ويسلمها مهرها الذي جلبته من بيت أبيها ثم يطلقها » .

(*) الكلمات الموضوعة بين قوسين تضاف الى النص لتوضيح دلالاته ومعناه .

المادة ١٤٢ : —

« اذا كرهت امرأة زوجها وقالت له سوف لن تأخذني (لن تضاجعني) فيحدد واقع حالها (سلوكها) في منطقتها ، فاذا كانت تحافظ على نفسها ولم ترتكب خطيئة ، بينما يذهب زوجها خارجا ، ويحط من شأنها كثيرا فلا جرم على تلك المرأة ، ويمكنها ان تأخذ مهرها وتذهب الى بيت ابيها » .

المادة ١٤٨ : —

« اذا اخذ رجل زوجة وداهمها المرض ، فاذا عزم ان يتزوج امرأة ثانية فيمكنه ان يتزوج ولا يحق له ان يطلق الزوجة المريضة ، فتسكن في البيت الذي بناه ، ويستمر في تحمل مسؤولياتها طالما هي على قيد الحياة » .

المادة ١٥٣ : —

« اذا تسببت زوجة رجل في موت زوجها لاجل رجل ثان ، فعليهم ان يوتدوا هذه المرأة » .

المادة ١٦٠ : —

« اذا جلب رجل هدية الخطوبة الى بيت عمه « والد زوجته » واعطى هدية زواج ، ثم قال له عمه ، انا لن اعطيك ابنتي ، فعليه ان يرد ضعف كل شيء كان قد جلب اليه » .

المادة ١٦٢ : —

« اذا اخذ رجل زوجة وانجبت منه ابناء ، ثم توفيت هذه المرأة ، لا يحق لوالدها الادعاء بالمهر ، فمهرها يعود الى اولادها » .

المادة ١٦٧ : —

« اذا اخذ رجل زوجة وانجبت منه ابناء ثم توفيت تلك المرأة ، وتزوج بعد وفاتها امرأة ثانية وانجبت منه ابناء ، فبعد وفاة الوالد لا يقتسم الابناء

على اساس الامهات عليهم ان يأخذوا (كل منهم) مهر امهم ثم يقتسمون تركة الوالد بالتساوي »

المادة ٢٥ : ـ من قانون اشنونا وهي تشبه المادة ١٦٠ : ـ من قانون حمورابي : ـ

« اذا قدم رجل نفسه ليخدم في بيت عمه (والد زوجته) وقبل عمه ذلك في اتفاق ، لكن عمه اعطى ابنته لرجل اخر ، فعلى والد الفتاة اعادة نقود الزواج التي استلمها مضاعفة » .

المادة ٢٧ : ـ من قانون اشنونا وهي تشبه حكم المادة ١٢٨ : ـ من قانون حمورابي : ـ

« اذا اخذ رجل ابنة رجل بدون موافقة امها وابيها ، ولم يعمل عقدا بالزواج مع امها او ابيها ، فهي ليست زوجة حتى لو عاشت في بيته سنة واحدة » .

المصـــادر

١ ـ الاستاذ طه باقر : شرائع العراق القديم مجلة سومر ـ بغداد ـ ١٩٤٧

٢ ـ الاستاذ طه باقر : قانون جديد من تل حرمل مجلة سومر ـ بغداد ـ ١٩٤٨

٣ ـ الاستاذ طه باقر : قانون لبت عشتار مجلة سومر ـ بغداد ـ ١٩٤٨

٤ ـ الاستاذ طه باقر : قانون مملكة اشنونا مجلة سومر ـ بغداد ـ ١٩٤٨

٥ ـ الاستاذ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج ١ ـ بغداد ـ ١٩٥٥

٦ ـ الدكتور محمود الامين : قوانين حمورابي مجلة كلية الاداب ـ بغداد ٣ ـ ١٩٦١

٧ ـ الدكتور عامر سليمان : القانون في العراق القديم ج ١ ـ الموصل ـ ١٩٧٧

٨ ـ صموئيل نوح كريمر : من الواح سومر ، ترجمة طه باقر ـ منشـــورات مكتبة المثنى ـ بغداد .

٩ ـ رضا جواد الهاشمي : نظام العائلة في العهد البابلي القديم ـ دار الاندلس ـ بغداد ـ ١٩٧١

١٠ـ الدكتور فوزي رشيد : الشرائع العراقية القديمة ـ بغداد ـ ١٩٧٣

١١ـ جورج كونتينو : الحياة اليومية في بلاد بابل واشور ، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي ـ منشـــورات وزارة الثقـافة والاعـلام ـ بغداد ـ ١٩٧٩

الفصل الرابع

العلاقات السياسية الخارجية

د. عامر سليمان

كلية الآداب – جامعة الموصل

ارض الرافدين موطن احدى اولى الحضارات الاصيلة في العالم ، ففي الجزء الجنوبي من وادي الرافدين والذي كان يعرف ببلاد سومر ، نشأت ، كما سبق ورأينا ، ونمت وازدهرت حضارة كانت بحق من الحضارات التي اغنت الحضارة البشرية بمختلف اوجهها الاصيلة . ولم تكن هذه الحضارة حضارة محلية مقصورة على بلاد سومر او بلاد وادي الرافدين حسب بل انها امتدت ، كما سيأتي ذكر ذلك ، الى البلدان والاقاليم القريبة والبعيدة من خلال العلاقات التجارية والعسكرية والسياسية التي قامت بينها وبين تلك البلدان والاقاليم . والعلاقات السياسية بشكل خاص من الانشطة التي تنم عن درجة متقدمة من النضج الحضاري والسياسي حيث لا يمكن أن تنشأ إن لم تكن هناك كيانات سياسية على هيئة دول او ممالك مستقلة ذات انظمة خاصة بها . وحيث ان معلوماتنا عن

العلاقات السياسية الخارجية في العراق القديم مستمدة بالدرجة الرئيسة من المدونات المسمارية ، لذا كانت تلك المعلومات محددة بتاريخ اقدم تلك المدونات والتي لا يمكن أن تتجاوز الألف الثالث قبل الميلاد على اية حال ، وهي الفترة التي استخدمت فيها الكتابة بشكل واسع نسبيا • والى جانب المدونات المسمارية ، هناك بعض المنحوتات التي تعطينا هي الاخرى صورة عامة عن بعض جوانب العلاقات السياسية • بما تحمله من مشاهد خاصة باستقبال السفراء والوفود الاجنبية او اسلوب معاملتها ومعاملة الملوك والحكام المندحرين وتقديمهم الهدايا والضرائب الى الملوك المنتصرين كما نجد هذا واضحا في مشاهد المنحوتات الجدارية التي كانت تزين قاعات وساحات قصور الملوك في مدينة النمرود وخرصباد وغيرها من المدن والعواصم الاشورية والبابلية •

العلاقات السياسية في الالف الثالث قبل الميلاد

من اجل ان تكون صورة العلاقات السياسية التي قامت بين الدول والممالك في الالف الثالث قبل الميلاد اكثر وضوحا لابد من ان نستذكر الوضع السياسي العام الذي كان يسود بلاد وادي الرافدين في هذه الفترة المبكرة من التاريخ القديم • فالمعلومات الموثقة بالنصوص المسمارية وتنائج التنقيبات الاثرية تشير الى انه كان يحكم في وادي الرافدين في الفترة المعروفة بعصور فجر السلالات عدد من دويلات المدن المستقلة التي عاصر البعض منها بعضها الآخر كلا او جزء وتتابعت على حكم المنطقة وقامت بينها صراعات سياسية عنيفة انتهى البعض منها بعقد المعاهدات والاتفاقات الثنائية ، في حين انتهى البعض الآخر بنشوب الحروب المدمرة التي كانت تنتهي غالبا بسيطرة احدى الدويلات على الاخرى • ولم تقتصر تلك الصراعات والحروب على الدويلات التي كانت قائمة في العراق القديم ، حيث لم تكن هناك حدود سياسية او طبيعية تحجز هذا الجزء من العالم

القديم عن بقية اجزاء العالم المجاورة ، بل امتدت لتشمل دويلات المدن في البلدان المجاورة كبلاد عيلام مثلا • ومنذ مطلع القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد كانت هناك محاولات جادة لتوحيد تلك الدويلات في دولة واحدة ، فكانت محاولة لوجال زاجيزي حاكم مدينة اوما التي اعقبتها بفترة وجيزة محاولة اخرى كانت اكثر نجاحا وشمولا ، تلك هي محاولة الملك سرجون الاكدي الذي اسس اول امبراطورية في التاريخ حكمت في الفترة من ٢٣٧١ ــ ٢٢٣٠ ق•م وهكذا أنهت الامبراطورية الاكدية عصر التجزئة والانقسامات في العراق القديم واصبحت البلاد تحكم من قبل حكومة مركزية واحدة • وبعد انهيار الامبراطورية الاكدية اثر هجوم الاقوام الكوتية البربرية ، ومن ثم طرد تلك الاقوام الى خارج الحدود قامت امبراطورية اور الثالثة التي اتبعت الاسلوب نفسه الذي سارت عليه الامبراطورية الاكدية في طريقة الحكم المركزي • ومع نهاية سلالة اور الثالثة نأتي على نهاية الالف الثالث قبل الميلاد •

اقدم المفاوضات السياسية :

ان ماورد فيالقصيدة السومرية المعروفة باسم «اينمركار وسيّد ار"اتا» عن المفاوضات التي تمت بين البطل السومري اينمركار ثاني حكام سلالة الوركاء الاولى حسبما جاء ذلك في جداول الملوك السومريين ، وحاكم مدينة اراتا ، أحدى المدن الواقعة في المنطقة الجبلية في الاجزاء الغربية من ايران ، يمثل الاشارة الى اقدم علاقات سياسية معروفة حتى الان حيث يفترض ان حكم اينمركار يرقى الى عصر فجر السلالات الثاني في النصف الاول من الالف الثالث قبل الميلاد •

وعلى الرغم من ان الالواح الطينية التي تضم هذه القصيدة ترقى بتاريخها الى فترة لاحقة من تاريخ اينمركار نفسه ، الا ان القصيدة تعكس لنا طبيعة العلاقات التي كانت تربط دويلات المدن في هذه الفترة والاسلوب الذي كانت تتم فيه المفاوضات السياسية •

لقد عزم اينمركار حاكم الوركاء ، عندما احس في نفسه القوة والمقدرة وبعد ان ناشد الهة مدينته انانا ، ان يجعل أر"اتا دولـة تابعة له ويفـرض عليها الجزية من الذهب والفضة واللازورد ، فاختار رسولا لائقا ليقـوم بمهمة ايصال عزمه هذا الى حاكم ار"اتا . وهذه اول اشارة الى استخدام الرسل والسفراء بين حكام الدول المختلفة . ويبدو ان الرسول كان يحمل رسالة مدونة على لوح من الطين حيث يلمح كاتب القصيدة الى ان اينمركار كان اول من كتب على الالواح الطينية وانه فعل ذلك لان رسـوله كـان « ثقيل الكلام » وعاجزا عن ترديد الرسالة شفويا ربمـا بسـبب طـول الرسالة . وهكذا حمل الرسول رسالة التهديد والوعيد التي بعث بهـا اينمركار الى حاكم ار"اتا وعبر الجبال السبعة حتى وصل الى المدينة وتلـى على حاكمها رسالة سيده غير ان حاكم اراتا رفض الاذعان لاينمركار مدعيا بانه محمي من قبل الالهة انانا ، وانها هي التي عينته حاكما على اراتا وسلمه جوابا الى اينمركار محذرا اياه من اللجوء الى السـلاح مقترحا ان تقـام مبارزة بين بطلين يختاران من المدينتين . ويبدو ان مهمة الرسول لم تكـن مهمة سهلة وهينة حيث كان عليه ان يقوم بعدة جولات من المفاوضات بين حاكمي المدينتين وينقل في كل جولة جواب وشروط هـذا الحاكـم الـى الحاكم الثاني وهكذا . وكانت الجولة الاخيرة عندما ذهب الرسول الـى حاكم ار"اتا بشروط اينمركار الثلاثة وهي :

١ ــ قبول اينمركار التحدي واستعداده لارسال ممثله للمبارزة .

٢ ــ الطلب من حاكـم اراتا تكديس الذهب والفضة واللازورد للالهـة انانا في الوركاء (اي دفع الجزية) .

٣ ــ التهديد بالتدمير الشامل ما لم يجلب سيد ار"اتا واهلهـا احجـار الجبـل لبنـاء المعبـد .

وللاسف ان بقية اجزاء القصيدة تالفة بعض الشيء ويبدو انه وصلت حاكم ارّاتا معونة خارجية شجعته للوقوف امـام اينمركار وقوت مـن معنوياته ومع ذلك يمكن ان نقرأ في نهاية النص ان أهل ارّاتا جلبوا الفضة والذهب واللازورد الى الوركاء ووضعوها اكداسا في باحة معبد انانا فـي الوركاء وربما كانت نهاية تلك المفاوضات عقد معاهدة ثنائية بين الدولتين حيث ليست هناك اية اشارة الى نشوب الحرب بينهما •

والى جانب هذه القصيدة الملحمية هناك قصيدتان سومريتان اخريان تشيران ايضا الى العلاقـات السياسـية والمفاوضات التي كانت تتم بـين اينمركار حاكـم الوركاء وحاكم اراتا ، وكان السفير المختار في احداها هو لوجال بندا ، احد ابطال الوركاء المنتمين الى حاشية اينمركار • ان هـذه القصائد الملحمية الثلاثة وعلى الرغم مما يكتنفها من خيال اسطوري تمدنـا دون شك بصورة تقريبية عن العلاقات السياسية التي كانت تربط دويلات المدن السومرية • ويؤيد هذه الصورة ويؤكدها ما ورد في قصة جلجامش ، خامس ملوك مدينة الوركاء نفسها وبطل الملحمة الشهيرة المعروفة باسـمه ، مع آجا حاكم مدينة كيش الواقعة الى الشمال من بلاد سومر والتي كانت، كما تذكر جداول الملوك ، المكان الذي هبطت فيه الملكية من السـماء بعـد الطوفان مباشرة • لقد شعر آجا ، حاكم كيش بخطر جلجامش حاكـم الوركاء الذي يهدده في السيطرة على بلاد سومر فبعث اليه بانذار نهائـي يطلب فيه الخضوع الى دولة كيش او تحمل عواقب الرفض • ومرة ثانيـة هنا ، يستخدم الحاكم الرسل لايصال رغبته الى الحاكم الثاني مطمئنا علـى سلامة الرسل على الرغم من العداء الموجود بين الدولتين وعلى الرغم من طبيعة الرسالة التي يحملونها الى حاكم المدينة المعادية • وكان جـواب جلجامش الاخير ، بعد ان استشار مجلس المسنين ومجلس الرجال المحاربين فـي الوركـاء :

« لتوضع الآن اذن عدة (السلام) جانبا ، وليحل محلهـا عنفـوان المعركـــة » .

وهكذا اعقبت هذه المفاوضات معركة عنيفة دارت بين آجا وجلجامش لا تعرف تفاصيل نهايتها .

اقدم معاهدة دولية في التاريخ :

وتبقى المعاهدة التي ابرمت بين دويلة لجش ودويلة اومّا المتجاورتين بتحكيم حاكم كيش من اهم مالدينا من معلومات موثقة عن اقدم معاهـدة دولية معروفة حتى الآن . فقد تم ابرام هذه المعاهدة ونفذت بنودهـا في اواسط الالف الثالث قبل الميلاد ، لذا فهـي تتصـدر جميـع البحـوث والدراسات التي تتناول تاريخ القانون الدولي في العالم مهما كانت لغـة تلك البحوث والدراسات .

لقد دونت اخبار هذه المعاهدة وتفاصيل الصراع الطويـل الـذي اتسمت به العلاقات العدائية التي كانت تربط الدولتين على مخاريط فخارية من عهد أنتمينا خامس حكام لجش (حدود ٢٤٠٠ ق.م) ، بالخط المسماري واللغة السومرية عثر على نسختين منهما حتى الان وكان الغرض الاساس من تدوين اخبار الصراع الطويل بين الدولتين والـذي انتهى في مرحلتـه الاولى بعقد تلك المعاهدة ، هو تخليد ذكرى اعادة حفر خندق الحـدود الذي يفصل اراضي لجش عن اراضي اومّا والذي كان يؤلف جزءا من بنود المعاهدة القديمة . ولقد حاول مدون الوثيقة ان يضع حـدث اعادة حفـر الخندق في اطار تاريخي جذاب نبدأ بذكر بداية الصراع بين الدولتين الذي انتهى بعقد المعاهدة بتحكيم طرف ثالث هو ميسيلم حاكم كيش اما بصفته الملك الذي كان يتبعه حاكما دولتي لجش واوما او لانه الملك الذي ارتضى بتحكيمه كلا الحاكمين . وفي كلتا الحالتين ، فان الصيغة التي اتبعت فـي حسم النزاع بين الدولتين وتثبيت الحـدود بينهما هـي صيغة متقدمـة

ومتطورة وماتزال تستخدم لحسم الخلافات الحدودية بين الدول المختلفة .
وهكذا تذكر الوثيقة ان :
« انليل » ملك الاقطار جميعها ، والد الالهة كلها ، حدد حدود « ننجرسو »
و « شارا » بكلمته الثابتة ، وقام « ميسيلم » ملك « كيش » بتحديد
ابعادها وفقا لكلمة « ساتران » واقام مسلة هناك .

ومما يلاحظ من نصوص هذه الوثيقة وغيرها من الوثائق الخاصة بالمعاهدات ان النزاع بين الدولتين المتنافستين قد صور على انه صراع بين الهي المدينتين اي بين الاله ننجرسو اله مدينة لجش والاله شارا اله مدينة اوما وان التحكيم الذي قام به ميسيلم ملك كيش صور على انه تم بامر من الاله انليل ، « ملك الاقطار جميعها ووالد الالهة كلها » ، وهنا تكمن السلطة التي كان يتمتع بها ميسيلم كما يبدو والتي مكنته من فرض التحكيم على الدولتين ، وكان المنفذ هو الاله ساتران اله ميسيلم .

ويبدو ان قرار التحكيم الذي فرضه ميسيلم وثبته على مسلة اقيمت على الحدود بين الدولتين كان الى جانب دولة لجش حيث لم يمض زمن طويل على ابرام المعاهدة حتى عمد اوش حاكم اوما الجديد الى نقض الاتفاق وتحطيم المسلة التي اقامها ميسيلم واجتياز الحدود واحتلال جزء من اراضي لجش :

« (ولكن « اوش » ، حاكم « اومّا » انتهك حرمة (كل من) قرار (الالهة) والعهد (الذي تعهد به كرجل لرجل) واقتلع مسلتها (اي مسلة الحدود) ودخل سهل « لجش » » .

وتستمر الوثيقة في حديثها عن تاريخ النزاع حيث تذكر ان أياناتم ، حاكم لجش الذيدعم أتمينا نفسه دخلالمعركة ثانية ضد اوما وانتصر عليها بمعاونة الالهة العظام وابرم معاهدة جديدة معها وجعل الخندق حدودا بينهما وثبت ذلك على عدة مسلات وضعها على طول الخندق واعاد مسلة ميسيلم الى مكانها السابق وشيد ابنية ومعابد على الحدود . ومن اجل ان يضمن

ایاناتم . وهو الحاكم المنتصر ، نفاذ المعاهدة وعدم نشوب النزاع ثانية ، خصص شقة من الارض من جانب مدينة اوما وجعلها منطقة حياد بين الدولتين . كما تضمنت المعاهدة دفع جزية سنوية معينة الى لجش مقابل استغلال سهل لجش المعروف باسم جو ادينّا . وقد خلد ایاناتم انتصاراته هذه على مسلة نحتها لهذا الغرض ، عثر على القسم الأكبر منها ، سماها الباحثون المحدثون بمسلة النسور او العقبان لانه صور نسورا او عقبانا تنهش جثث القتلى من جيش اوما كما مُثّل ایاناتم نفسه على الوجه الاخر من المسلة وهو في عربته الحربية قائدا جيشه المنتصر . وثبت على المسلة اخبار انتصاراته هذه والقسم الذي اقسمه حاكم اوما على التزامه بالمعاهدة الجديدة والحدود التي ثبتها أياناتم بين الدولتين :

« سوف لا انتهك الى ابد الابدين حرمة حدود « ننجرسو »
قط ،كما لا اتجاوز على سدوده وقنواته (التي تكون الحدود)
كما لن اقتلع مسلاته ، (غير انه) لو اعتديت (على الحدود)
عندئذ عسى ان تلقي عليّ « اوما » من السماء الشبكة
« شوشكال » العائدة « لسننخرساج » » .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الباهر الذي حققه أياناتم على خصمه وابرامه المعاهدة معه وادائه القسم بالالهة جميعا فلم يمض جيل واحد حتى عادت اوما ورفضت تنفيذ المعاهدة كما رفضت دفع الجزية السنوية ، ونقض اور ـ اومّا حاكمها المعاهدة المشينة ودمر الابنية التي كانت قد اقيمت على طول الخندق وجفف مياه الخندق وحطم مسلة ميسيلم ومسلات أياناتم والقاها في النار وهيأ نفسه لعبور الحدود والدخول في ارض لجش ، ولكي يضمن النصر ، سعى وراء طلب المساعدة من حاكم اجنبي ، وكان ذلك في عهد أنتمينا صاحب الوثيقة التاريخية المهمة التي تحكي لنا قصة النزاع والمعاهدة :

« وحصل على (عون من) الاقطار الاجنبية ، (واخيرا) عبر قناة حدود « ننجرسو » ... »

وهكذا دخل اتتمينا الحرب مع اوما وهزم جيشها . وبعد تفاصيل اخرى عن العلاقة مع اوما يذكر أتتمينا اخيرا الهدف الرئيس من كتابة الوثيقة وهو تخليد ذكرى اعادة حفر القناة التي تحدد الحدود بين الدولتين ثم ينزل لعنات الالهة على كل من يحاول ان يعبر الحدود ويستولي على الحقول والمزارع بالقوة سواء اكان من مدينة اوما او غيرها . .

وبذلك تشير هذه الوثيقة التاريخية الى اقدم المعاهدات الدولية المعروفة حتى الان والى اسلوب التحكيم الذي اتبع ولاول مرة لحسم النزاع بين الدول المتخاصمة كما تضمنت الوثيقة الاشارة الى بعض الطقوس والمراسيم الدينية التي اصبحت فيما بعد جزءا مهما من بنود اية معاهدة تعقد كاداء القسم بالالهة العظام واستنزال اللعنات على كل من يحاول نقض بنود المعاهدة والقيام ببعض الاعمال الرمزية حيث يقول اياناتم في مسلته :

« ان أياناتم تصرف بفطنة . فقد وضع على عين حمامتين بهارا ونثر على راسيهما ارزا (؟) ثم جعلهما يؤكلان من اجل « انليل » في مدينة « نفر » (مع ترديد العهد التالي) .... »
ثم يذكر قسم حاكم اوما ..

واخيرا لابد من الاشارة الى حقيقة تدوين المعاهدة وتثبيتها على مسلة توضع عادة على الحدود وربما دونت عدة مسلات لهذا الغرض كما يشير الى ذلك أياناتم ، والى طريقة تخصيص قطعة من الارض حاجزة تفصل بين حدود الدولتين وان كانت تحت اشراف الدولة المنتصرة لكنه سمح لسكان المدينة الثانية باستغلالها مقابل ضريبة سنوية وهذا ما اطلق عليه في الترجمة بارض « الحياد » .

وفي اواخر عصور فجر السلالات قام لوجال زاجيزي بمحاولة لتوحيد دويلات المدن السومرية المتعددة وقبل ان يتم محاولته هذه برز سرجون الاكدي على مسرح التاريخ فاكمل ما بدأ به لوجال زاجيزي ووحد جميع الدويلات تحت ادارة سلطة مركزية واحدة مقرها في العاصمة الجديدة اكد وبذلك اسس اول دولة موحدة شملت جميع انحاء العراق القديم وامتدت الى البلدان والاقاليم المجاورة بحيث يمكن ان نسميها « امبراطورية » استمر حكمها الاكثر من قرن من الزمان (٢٣٧١ — ٢٢٣٠ ق٠م) ٠ ولم تعد الاتفاقات والمعاهدات تبرم بين دويلات المدن الصغيرة بل بين الدولة الاكدية القوية وبين غيرها من الدول الصغيرة ، لذا كانت تلك المعاهدات ، ولدينا مثل عليها سناتي على ذكره ، معاهدات تبعية تتعهد فيه الدولة الضعيفة بالالتزام بالشروط التي تمليها الدولة الاكدية القوية ٠ وهكذا نجد المعاهدة التي ابرمها نرام — سين (٢٢٩١ — ٢٢٥٥ ق٠م) حفيد سرجون ورابع حكام الدولة الاكدية مع ملك اوان الى الشمال الشرقي من سوسا في بلاد عيلام قرب ديزفول الحالية والذي يظن انه كان الحاكم خيتا ٠ لقد دونت هذه المعاهدة على وجهي لوح طيني ، عثر عليه في مدينة سوسا عاصمة بلاد عيلام ، بالخط المسماري واللغة الاكدية ، وربما كانت هناك نسخة اخرى دونت باللغة العيلامية ، واستخدم في تدوينها لغة بسيطة وعبارات واضحة ربما لكي تكون مفهومة من قبل العيلاميين انفسهم٠ ويفهم من بنود المعاهدة انها كانت قد ابرمت في اعقاب انتصار عسكري حققه الملك الاكدي نرام — سين على اوان فأصبح حاكمها بعدئذ تابعا للملك الاكدي ، حيث يذكر احد بنود المعاهدة ان ملك اوان يعد نفسه عدوا لمن يعادي نرام — سين وصديقا لكل صديق له في حين لا يوجد مايقابل ذلك بالنسبة للملك نرام — سين نفسه طالما كان هو الملك القوي ٠ كما نصت المعاهدة على قبول حاكم اوان وضع تمثال نرام — سين في معبد الاله انشوشيناك في سوسا واشارت الى اداء ملك اوان القسم بالالهة امام

الملك الاكدي على الالتزام ببنود المعاهدة والمحافظة على تطبيقها • وقد تصدر المعاهدة نداء الى الالهة ذكر فيه اسماء العديد من الالهة لاضفاء القدسية على الاتفاق • ويفهم مما جاء في المعاهدة ان الملك نرام ـ سين ربما تزوج من ابنة ملك اوان حيث تشير احدى الفقرات الى ان ملك اوان يتمنى ان يرى ولدا لنرام ـ سين من زوجته ليكون وريثا لعرش اكد •

وهناك بعض الاشارات الواردة في نصوص اكدية اخرى قد تدل على تنفيذ بنود هذه المعاهدة حيث يذكر احد النصوص ارسال نرام ـ سين وفدا الى سوسا مع هدايا ثمينة ربما لطلب المساعدة العسكرية من حاكم اوان ضد القبائل الكوتية كما ان هناك اشارة اخرى الى حضور احد موظفي نرام ـ سين الكبار ، وهو الكاهن شادريش تاكال ، الى سوسة لتكريس تمثال سيده نرام ـ سين فيها ، وكان حاكم سوسة هو اخو حاكم اوان وتابعا لنرام ـ سين ايضا •

وفي عهد سلالة اور الثالثة التي سيطرت على بلاد عيلام باستثناء بعض المرتفعات الشرقية التي ظلت تحتفظ بشيء من الاستقلال ، قد وردت اشارات الى قيام مصاهرات سياسية بين الاسرة المالكة في اور وحاكم انشان مثلا كما ورد ذكر وصول مندوب عن حاكم سيماش الى اور وفي السنة التالية وصل مندوب حاكم انشان الى اور في عهد ملكها شوسين كما تزوج حاكم انشان من احدى بنات ملك اور وزوج الاخرى الى حاكم زابشالي • وهكذا كانت العلاقات السياسية بين اور الثالثة وحكام المدن العيلامية توثق بالمعاهدات الثنائية وتقوى بالمصاهرات السياسية ومع ذلك ، فلقد استغل العيلاميون فرصة ضعف الملك السومري ابي ـ سين ونقضوا كل الاتفاقات والمعاهدات التي كانت تربطهم باور وتغاضوا عن جميع العلاقات العائلية التي ارتبطوا بها بالاسرة الحاكمة في اور وهجموا اخيرا على اور وانهوا سلالتها الحاكمة •

ولعل من بين العلاقات السياسية او بالاحرى المساومات السياسية الجديرة بالاشارة والتنويه هنا تلك المفاوضات التي تمت بين ابي — سين (٢٠٢٩ — ٢٠٠٦ ق.م) آخر ملوك سلالة اور الثالثة واشبي — ارا حاكم مدينة ايسن الذي استقل عن سيده ملك اور واسس مملكة في ايسن اصبحت فيما بعد الوريثة الشرعية لسلالة اور الثالثة في بلاد سومر واكد وحكمت فترة جاوزت القرنين من الزمان . ففي السنوات الاخيرة من حكم ابي — سين اضطربت الاحوال السياسية والاقتصادية وتقلص نفوذ اور حتى غدا لا يتجاوز حدود مدينة اور نفسها . وكانت بلاد سومر تواجه في هذه الفترة غزو الاقوام العيلامية من الشرق وتدفق القبائل الامورية من الغرب . وهكذا استغل اشبي — ارا هذه الاوضاع المتردية ، وكان احد حكام ابي — سين التابعين ، وبدأ مساوماته السياسية مع ابي — سين الذي قرر أن يشتري منه كمية من القمح لسد حاجة سكان اور وما جاورها من قرى . وهناك رسالة من اشبي — ارا الى ملك اور يذكر فيها انه قد نجح في شراء القمح المطلوب (٢٤٤٠٠ كور اي حوالي عشرة اطنان) بسعر جيد (وهو نصف شاقل من الفضة لكل كور) غير ان الاسعار تضاعفت . كما يذكر اشبي — ارا انه سمع بان الاموريين القادمين من الغرب قد دخلوا بلاد سومر : « واحتلوا الحصون العظيمة الواحد بعد الآخر » لذا فانه لم يرسل القمح الى اور وانما ارسله الى مدينة ايسن . ويذكر اشبي — ارا في رسالته انه لو رسل اليه الملك بستماية سفينة حمولة كل منها مائة وعشرون كورا ، فانه سيسلم القمح الى مدن سومر المختلفة ، بيد انه ، وهنا تأتي المساومة ، ينبغي عليه ان يعهد اليه اولا بشؤون الاماكن التي سترسو فيها السفن . وتنتهي الرسالة برجاء الى ابي — سين ان لا يستسلم الى العيلاميين لان لديه من القمح ما يكفي لحل مشكلة المجاعة في « القصر ومدنه » مدة خمس عشرة سنة . ويبدو من رسالة اخرى جوابية ان ابي — سين كان يثق باشبي — ارا ، او انه كان مضطرا للوثوق به ، حيث وافق على ان يعهد

اليه بمدينتي نفر وايسن مقابل ارسال القمح • وتتردى الاوضاع بعد دلك وتسقط اور على ايدي الجيوش العيلامية ويرتفع شأن اشبي – ارا ليصبح الملك الوارث لمعظم اجزاء امبراطورية اور الثالثة •

العلاقات السياسية في العصر البابلي القديم

يعد سقوط سلالة اور الثالثة عام ٢٠٠٦ ق•م• نهاية حقبة زمنية تميزت بالحكم المركزي في العراق وبداية حقبة جديدة اتسم القسم الاول منها ، والذي دام زهاء القرنين ، بالتجزئة والانقسام وقيام العديد من دويلات المدن المستقلة في مختلف ارجاء وادي الرافدين حتى ان بعض الباحثين اطلق تسمية هذه الحقبة من تاريخ العراق القديم بعصر « دويلات المدن الثاني » • وكان الصراع السياسي والتنافس على السلطة على اشده بين هذه الدويلات للسيطرة على المنطقة وتوحيد الدويلات واعادة الحكم المركزي الى العراق • وكلما نمت قوة احدى الدويلات وتعاظمت وضمت اليها عددا من المدن والدويلات المجاورة سارعت الدويلات الاخرى باقامة الاحلاف العسكرية والسياسية للوقوف امامها والتصدي لها وتحجيم خطرها • وكان لشخصية الملوك والحكام في هذه الفترة ، وكان جلهم من الاقوام الامورية القادمة من الغرب ، اثر كبير في اقامة الاحلاف او الانضمام الى هذا الحلف او ذاك حيث كان هناك اكثر من حلف واحد يتوزع المنطقة من البحر الاسفل « الخليج العربي » وحتى البحر الاعلى «البحر المتوسط» • هكذا نجد مرسل احد الرسائل المكتشفة في مدينة ماري ، تل الحريري حاليا على نهر الفرات ضمن الحدود السورية ، يقول ساخرا :

« لا يوجد هناك ملك هو الاقوى وحده ، فهناك عشرة او خمسة عشر ملكا يتبعون حمورابي (ملك) بابل ، والعدد نفسه يتبع ريم – سين (ملك) لارسا ، والعدد نفسه يتبع ابال – بيل (ملك) اشنونة ، والعدد نفسه يتبع اموت – ابي – ايل (ملك) قطنا ، وعشرون ملكا يتبعون يارم – لم (ملك) يمخد » •

وظل وضع التجزئة والانقسام هذا قائماً في وادي الرافدين حتى السنوات الاخيرة من حكم حمورابي ، سادس ملوك سلالة بابل الاولى ، وهي احدى الدويلات الامورية التي قامت في هذه الفترة وساهمت في الصراع السياسي بين الدويلات المختلفة • ففي اواخر حكمه ، تمكن حمورابي من توحيد جميع الدويلات الواحدة بعد الاخرى وتاسيس دولة مركزية قوية مقرها مدينة بابل ضمت جميع انحاء وادي الرافدين وامتدت بنفوذها الى الاقطار والاقاليم المجاورة وظلت وحدة القطر ومركزية الحكم قائمة حتى بعد وفاة حمورابي وان انتابها بعض الضعف والوهن • وفي حدود عام ١٥٩٥ ق•م تعرضت بابل لهجوم مفاجىء قادم من اسيا الصغرى قام به الجيش الحثي انهى حكم سلالة بابل وفسح المجال امام الاقوام الكشية للسيطرة على بلاد بابل وبذلك تنتهي فترة العهد البابلي القديم التي استمرت اربعة قرون تقريباً •

ان معلوماتنا الرئيسة عن العلاقات السياسية والاساليب الدبلوماسية التي سادت العهد البابلي القديم مستمدة من الوثائق والرسائل الملكية المكتشفة في مدينة ماري ، مركز احدى الدويلات الامورية التي ازدهرت في فترة العهد البابلي القديم • فقد حوت هذه المجموعة من الرسائل على اشارات كثيرة الى الاحلاف العسكرية والسياسية التي كانت تقام بين الدويلات المختلفة كما ضمت اشارات عن ارسال السفراء والمبعوثين والمراسيم الخاصة بابرام المعاهدات والطقوس الدينية التي كانت ترافق ذلك فاعطتنا صورة تقريبية عن الوضع السياسي العام وعن العلاقات السياسية بين الدول ليس في بلاد وادي الرافدين فقط بل وفي سوريا وفلسطين ايضاً، نظرا لعلاقة مملكة ماري الوثيقة بهذه المنطقة ايضا ووقوعها على الطريق الموصلة بين وادي الرافدين والساحل السوري • اضافة الى هذه الرسائل والوثائق ، وهي كثيرة ، هنالك رسائل ملكية اخرى كشف

عنها في المدن البابلية والاشورية غير انه ، وللاسف الشديد لم يعثر حتى الآن على نصوص معاهدة ابرمت بين دولتين في هذه الفترة من تاريخ العراق القديم وربما كان ذلك نتيجة عدم تناول التنقيبات الاثرية مواقع وجود نصوص تلك المعاهدات او ان الملوك والحكام اكتفوا بارسال الرسائل التي تؤيد مواقفهم وتؤكد التزامهم بالحلف او المعاهدة المتفق عليها بين السفراء والمندوبين • غير ان الاحتمال الاول يبقى الاقوى •

وكانت الاحلاف والمعاهدات ، شأنها في جميع العصور القديمة والحديثة ، على نوعين ، احلاف ومعاهدات تعقد بين دول متكافئة من حيث القوة والمركز ، واحلاف ومعاهدات تعقد بين دولة قوية واخرى صغيرة او ضعيفة ويمكن تسمية النوع الثاني من المعاهدات بمعاهدات التبعية • وكان النوع الثاني من المعاهدات والاحلاف هو الغالب في مختلف العصور • وتتميز معاهدات النوع الاول بان يخاطب فيها ملك الدولة المتحالفة ملك الدولة الرئيسة والقوية في معاهدات التبعية ملوك الدول التابعة المتحالفة بكلمة « ابني » ويخاطبه ملوك تلك الدول بكلمة « ابي » • فالملك حمورابي كان يخاطب زمري ــ لم بكلمة اخي وكذلك فعل شمشي ــ ادد في مخاطبته لملك اشنونا كما فعل الشيء نفسه حاكم قطنا في مخاطبته اشمي ــ داكان بعد ان اعتلى العرش الاشوري بعد والده ، حيث جاء في رسالة له يشكو فيها ان عشرين مانا من الرصاص مقابل ضئيل لحصانين كان قد بعث بهما اليه حسب طلبه ويختتم حاكم قطنا رسالته بالعتاب التالي :

«ماذا ينقص بيتك حتىانك لا تستطيع تلبية رغبة اخيك» وكان حاكم قطنا يعد نفسه مساويا في المنزلة ومكافئا للملك الاشوري في حين كان الملك الاشوري ينظر اليه بانه تابع له واقل منزلة لذا كانت مخاطبته له مختلفة •

اما ملك كركميش الجديد ، فقد كتب الى سيده زمري ــ لم بعد ان اعتلى العرش خلفا لوالده ابلا خاندا ، يجدد العهد ويؤكد التبعية قائلا :

ان والدي ابلاخاندا لم يمت ، ان والدي هو زمري لم » .

وكان يسبق ابرام المعاهدة عادة ، ولاسيما المعاهدات التـي كانـت تبرم بين الدول المتكافئة ، مفاوضات ومناقشات قد تتم عن طريق المراسلـة وذلك بان يبعث احد الاطراف برسالة مدونة الى الطرف الثاني يعرض فيها رغبته في اقامة حلف او ابرام معاهدة او الدخول في حلف قائم ، وهـذا ما لاحظناه ايضا في مفاوضات الالف الثالث قبل الميلاد كما سبق وذكرنا . وقد تكون المفاوضات عن طريق مندوبين ، او سفراء ، يرسلون الى الطرف الثاني لمناقشة تفاصيل المقترحات ووضع الخطوط العريضة للمعاهدة . فعندمـا اراد زمري ـ لم ملك ماري ، مثلا ، ابرام معاهدة صداقة مـع حمورابي ، ملك بابل ، بعث باثنين من مندوبيه الى حمورابي لمناقشة بنود المعاهـدة .

ان المعلومات المتوفرة لدينا عن هذه المفاوضات مستمدة من الرحالـة التي بعث بها المندوبان الى زمري ـ لم قبل رجوعهما من بلاد بابل اي قبل ابرام المعاهدة فقد ذكرا في رسالتهما ان حمورابي اعترض على احد بنـود المعاهدة وانه طلب التريث في توقيعها ريثما يستشير الاله سين حول ذلك . وقد رأى المندوبان ان ذلك حجة تذرع بها حمورابي حيث يردفان طالبين من سيدهما زمري ـ لم عدم الانصياع لشروط حمورابي التـي يحملهـا مندوبه الخاص الى ماري والانتظـار لحين وصولهما الى مـاري للاطـلاع على تقريرهما حول الوضع في بلاط بابل . وهكذا توضح لنـا الرسالـة وبشكل جلي الاسلوب الذي كانت تتم بواسطته المفاوضات كما انها تشير بشكل غير مباشر الى ان المعاهدات كانت تدون وتوثـق بالتوقيـع ، اي بالختـم .

اضافة الى ذلك ، هناك اشارات عدة الى ارسال السفراء من بـلاط ملكي الى آخر ، وكانت تعلق اهمية كبيرة على وصول السفراء ورعايتهـم ففي احدى المرات استلم يسمخ ـ ادد ، نائب الملك الاشوري في مـاري ، رسالة تانيب من والده شمشي ـ ادد بسبب تعطيله اعضاء سفارة كانوا في

طريقهم اليه من قطنا في سوريا ، كما وقع يسمخ ــ ادد نفسه ثانية ، وهو الاداري غير الكفوء كما يصفه ابوه ، في مشكلة مع ابيه عندما اخبره بأن سفيرا معينا لم يتمكن من مواصلة رحلته الى ما بعد ماري بسبب حادث مؤسف وقع لعربته ، ربما كان ذلك كسر محور العجلة ، حيث يستفسر شمشي ــ ادد في رسالته مستهزئا :

« الا يتمكن من ان يركب حمارا ؟ » .

وهناك اشارات اخرى تدل على ان الملوك كانوا يلجأون احيانا الى قراءة الطالع للحصول على التوجيهات الالهية حول كيفية استقبال الرسل والسفراء المرتقب وصولهم .

وكان بعض السفراء ، او الدبلوماسيين ، كما هي الحال في الوقت الحاضر ، يقومون باعمال تجعلهم من غير المرغوب فيهم . ففي رسالة بعث بها احد نواب الملك الى آخر يذكر فيها ان شخصا معينا ، ويبدو انه كان وكيلا لنائب الملك ، كان كاذبا وغير موثوق به وان الكاتب لا يريد ان يراه ثانية .

وقد تتضمن اجراءات ابرام المعاهدة احيانا اخذ الملك الرئيس رهائن من الملك الادنى ريثما يتم ابرام المعاهدة وقد يقتل الرهائن ان فشلت المفاوضات ولم تبرم المعاهدة . فهذه رسالة من شمشي ــ ادد ، ملك بلاد اشور الى ابنه يسمخ ــ ادد في ماري يقول فيها :

> « بخصوص الناس من « ويلاتم » الذين تحت امرتك ، لقد امرتك بان تحجزهم لعله يقام حلف . والان ليس هناك حلف مع « ويلاتم » ... (اما بخصوص) الناس من « ويلاتم » ، اصدر اوامرك بقتل كل واحد منهم هذه الليلة » .

وقد يكون الضحايا من السجناء الذين لم يقتلوا في حينه لارتكابهم جريمة معينة لاحتمال عقد حلف مع ملكهم حيث ليست هناك ايه اشارة

اخرى من هذا النوع يمكن ان تؤيد اخذ وقتل الرهائن كما لا تدل الرسالة على ان هؤلاء كانوا من الرجال الدبلوماسيين •

وكان النوع الثاني من المعاهدات والاحلاف ، اي معاهدات التبعية ، غالبا نتيجة حتمية من نتائج انتصار دولة قوية على دولة اخرى او اكثر عندها ترضخ الدول والممالك المندحرة الى توقيع معاهدة والدخول في حلف تبعية مع الدولة المنتصرة • وقد يكون طلب ابرام المعاهدة من هذا النوع او الدخول في حلف مع دولة قوية بناء على طلب حاكم الدولة الادنى ضمانا لمستقبله ومستقبل مملكته الصغيرة وطلبا للحماية • وفيما يلي مقتطفات من رسالة بعث بها حاكم دولة صغيرة الى حاكم دولة قوية يعرض فيه طلبه لعقد حلف يكون فيه تابعا :

« الى يخدولم قل : هكذا يقول ابي ــ سامار : اعقد حلفا ! •••
ان مدني التي لم يستول عليها بعد سيستولي عليها الان • ولم تفقد هذه المدن بسبب الاعمال الاعتدائية التي قام بها حاكم خاشوم (او) اورسم (او) حاكم كركميش (او) يمخد ، (ولكن) فقدت بسبب الاعمال الاعتدائية التي قام بها شمشي ــ ادد (ملك اشور) ••• »

وفي رسالة لاحقة ، يخبر ابي ــ سامار ، يخدولم قائلا :

« اذا تركت ابي ــ سامار ، فقد تركت مدنك ، ولعلك تقول : ابي ــ سامار هو ليس ابني وان مقاطعتي لا (علاقة لها) بمقاطعته • (ولكن) في الواقع ان مقاطعتي هي لك وابي ــ سامار هو ابنك » •

وفي حالة وفاة الملك التابع المرتبط بمعاهدة تبعية مع ملك اقوى ، كان على خليفته ان يقدم فروض الطاعة ويجدد العهد والولاء للملك « الاب » ، وقد يتدخل الملك « الاب » اي ملك الدولة القوية ، في تنصيب

احد اولاد الملك المتوفى دون غيره ، وبعبارة اخرى ، كان اعترافه بالملك الجديد امرا ضروريا لسريان مفعول معاهدة التبعية التي كان قد عقدها الملك المتوفى •

واحيانا قد يكون هدف المعاهدة الرئيس التزام احد الاطراف المتعاقدة بالحياد تجاه عدو معين يخشاه الطرف الآخر وهذا ما تشير اليه احدى رسائل زمري ـ لم حاكم ماري عندما عقد مثل هذا النوع من الاتفاق مع احدى القبائل الامورية •

ومن الطبيعي ان اقامة اي حلف او ابرام اية معاهدة من النوع الثاني كان يمنح زعيم الحلف او رئيسه ، وهو ملك الدولة الاقوى ، السلطة والنفوذ على ملوك وحكام الدول التابعة التي رغبت او ارغمت على دخول الحلف او ابرام المعاهدة • فقد كان رئيس الحلف يتوقع من تابعيه ان يتركوا له سياستهم الخارجية ويقطعوا علاقاتهم الدبلوماسية مع اعدائه ويقدموا له المساعدات العسكرية عند الحاجة مقابل قيامه بحمايتهم من اي اعتداء خارجي قد تتعرض له دولهم الصغيرة او نشوب اية ثورة داخلية تهدف للاطاحة بحكمهم • وكمثال على هذا النوع من الاحلاف ، الحلف الذي تزعمه شمشي ـ ادد ملك بلاد اشور ، والذي ضم كلا من مملكتي كركميش وقطنا في شمال سوريا ، وكان الهدف الرئيس من وراء اقامة الحلف هو تطويق مملكة يمخد في حلب من جهة وضمان الوصول الى ساحل البحر المتوسط من جهة ثانية في حين كان هدف الممالك التابعة في الحلف المحافظة على مصالحها التجارية وحمايتها من مملكة يمخد ومملكة اشور نفسها • لذا بعث شمشي ـ ادد برسالة الى حاكم قطنا يخبره فيها ان بعض الامراء في منطقة الفرات الاوسط وملك كركميش : « سيقطعون بحضوري العلاقة مع سمو ايبوخ » • كما طلب زمري ـ لم من ملك مملكة اندارت في شمال وادي الرافدين ، بعد ان اخضعها وجعلها دولة تابعة ، ايقاف

ارسال الحبوب الى بلاد اشور بهدف فرض نوع من الحصار الاقتصادي علـى اشـور •

اما بالنسبة للمساعدات العسكرية ، فلدينا امثلة عدة على ذلك منها رسالة حمورابي التي طلب فيها من تابعه زمريا ان يبعث له جيوشا واخرى من ريم ــ سين ملك لارسا يقول فيها الى حمورابي ملك بابل :

« اذا داهمك العدو فستأتي جيوشي لمساعدتك ، واذا داهمني عدو ، ارسل جيوشك لمساعدتي » •

ومثال آخر ماكتبه شمشي ــ ادد الى نائب الملك في ماري يسمخ ــ ادد :

«قل الى يسمخ ــ ادد : هكذا يقول شمشي ــ ادد ، والدك : لقد ارسلت لك رسالة مرة او مرتين لتأتي الـى طوطول والان وصلت الى شوبات ــ انليل وبعثت بهـذا الرقيم اليك • اجمع موظفيك وحجابك وقواتك الذين ذهبوا مع ساميداخم وموظفي قصرك واحضـر شوبات ــ انليـل » •

وفي حالة ارسال المساعدات العسكرية بناء على طلب احـد اطـراف الحلف ، كان يفترض ان تبقى القطعات العسكرية المرسلة تحت تصـرف طالبها فترة الحاجة اليها ، اي فترة الحرب او الطوارىء • وفي بعض الاحيان قد تتاخر تلك القطعات ولا تعود الى مكانها حتى بعد زوال فترة الطوارىء ، وهكذا نجد احد السفراء يبعث الى ملكه زمري ــ لم في ماري حول رجال ماري الذين ارسلوا الى حمورابي للمساعدة قائلا :

« قل لسيدي ، هكذا يقول ابال ــ بي ــ ايل خادمـك : وفقـا لتوجيهات سيدي التي ارسل حولها سيدي الرسـائل ••• لقـد تكلمت مع حمورابي بكلمات جيدة •• وهكذا قلت :

طالما ان الالهة قد قضت على الاعداء وان الايام الباردة قد حلت ، لماذا تبقي خدم اخيك (اي حليفك) ؟ خولني حتى اتمكن من الرجوع وحتى يتمكن قائد القوات من ان يصل قبل حلول الجو البارد ، هكذا تفاوضت معه وبامور عديدة (مشابهة) اخرى .... » .

وفي حالة نشوب اي خصام بين ملكين تابعين ، فان التحكيم بينهما كان يتم من قبل رئيس الحلف ، اي الملك الاقوى في الحلف ، وهذا مايذكرنا بالتحكيم الذي قام به ميسيلم ملك كيش في فض النزاع بين حاكم لجش وحاكم اوما كما سبق ونوهنا ، وتشير احدى رسائل زمري ـ لم ، الذي كان يرأس حلفا يضم عددا من الدويلات ، حيث يقول فيها :

« ان اسقور ـ ادد ملك كارانا عندي الان . لقد غزوت بلده فاجمع كل شيء اخذته وارجعه اليه » .

اي ان اسقور ـ ادد اشتكى لدى زمري ـ لم حول غزو الملك الثاني لبلده ونهبه وسلبه له فحكم زمري ـ لم باعادة جميع ما اخذ الى اسقور ـ ادد دون مناقشة .

وكان ابرام اية معاهدة يتم وفق طقوس ومراسيم معينة اشارت الى بعضها الرسائل المكتشفة وان كنا لم نعثر بعد على نصوص معاهدة وتفاصيل ابرامها من هذه الفترة. لقد تضمنت تلك الطقوس والمراسيم قبل كل شيء اداء القسم بحياة الالهة ، وذكرت اسماء الالهة لتكون شاهدة على القسم وعلى الاتفاق الذي تم بين الطرفين او الاطراف المتحالفة ، وهي طريقة ترقى باصولها الى اقدم الاشارات عن المعاهدات الاولى كما سبق ولاحظنا . وكان الحنث بالقسم ونقض الاتفاق المبرم يعد من الذنوب والآثام الجسيمة التي ترتكب ضد الالهة وبالتالي كان على الطرف الذي يحنث بيمينه ان يتحمل مسؤولية حنثه وعقاب الالهة له بالعقاب الذي نصت عليه كثير من

المعاهدات السابقة والتالية من حيث الفترة الزمنية كمعاهدة اياناتم مثـلا ، التـي تنص غلـى انـه :

« ما بقيت الايـام وما دام ينطق بالكلمات ، لـو نكث رجـل « اوما » ، لا فرق بامر من او بطلب من عهد ، لمليكي «انليل» ، ملك السماء والارض ، (عندئذ) عسى ان تلقيَ عليَّ اوما من السماء الشبكة « شوشكال » شبكة انليـل الـذي اقسـم (بحياته) في اليوم الذي ينقض فيه ذلك العهد » .

اما معاهدات العصر الاشوري الحديث ، فتشغل الفقرات الخاصـة باستنزال اللعنات على من ينقض المعاهدة ويحنث بالقسم جزءا كبيرا مـن نـص المعاهـدة .

كما تضمنت طقوس ابرام المعاهدة القيام ببعض الاعمال الرمزية التي ربما كانت ترمز الى اشياء معينة ترتبط بعقد الاتفاق ونفاذه والموافقة عليه من قبل الاطراف المتعاهدة . ومن بين هذه الاعمال ماوصف في النصـوص المسمارية بانه « لمس الحنجرة » الذي ربما كان يشير الى قدسـية المعاهدة والالتزام ببنودها كقدسية واهمية الحنجرة بالنسبة للانسان . ومن الاعمال الرمزية الاخرى ان يقوم الطرف الادنى في المعاهدة بمسك حافة ثـوب او حزام الطرف الاعلى . ولعلنا نجد بقايا مثل هذه الاعمال الرمزية في الاتفاقات والمصالحات التي تجري بين القبائل والعشائر العراقية حتى الوقت الحاضر . كما كان من بين الاعمال الرمزية عند عقـد المعاهـدة ، ولا سيما معاهدات السلام التي تعقب علاقة عدائية بين الاطراف المتعاقدة ، هو قتل « صـغير الحمار » في احتفال معين . وقد يقوم بالمهمة مندوب عن الملـك الرئيس ان كانت المعاهدة بين حاكمين تابعين كما توضح الرسالة التالية التي كان قـد ارسلها احد موظفي الملك الى سيده :

« وصلني رقيم ابال ــ ادد من (مدينة) اشلاكو وذهبت الى اشلاكو لقتل الحمار بين رجال خانا ورجال ادا ــ ماراز وقد جلبوا (اضافة الى ذلك) جروا وغصنا مورقا وكان (عليّ) ان ان قتل صغير الحمار (وبذا) اثبت الصداقة بين رجال خانا ورجال ادا ــ ماراز ... » .

وقد اشير في بعض النصوص المسمارية الى نقض المعاهدة او رفض الاتفاق بعبارة « ضرب الايدي » ، فقد يقوم ملك بالغاء معاهدة كانت تربطه بملك آخر وذلك « بضرب يده » . وهناك رسالة من ملك كارانا الى زمري ــ لم يقول فيها الاول للثاني :

« لقد امسكت بحاشية ثوب زمري ــ لم ، ليت سيدي لا يضرب يدي »

وقد يحذف احد اطراف المعاهدة بندا من بنودها دون علم الآخر فقد ذكر شمشي ــ ادد في رسالة له الى ابنه ان ملك اشنونا قد مسح مادة من لوح « حياة الارباب » اي لوح المعاهدة .

اضافة الى ما تتضمنه المعاهدات من بنود تتعلق بالناحية العسكرية والالتزام بسياسة خارجية معينة يمليها عادة الطرف الاقوى في المعاهدة ، فقد تتضمن بنودا اخرى كتسليم المجرمين او العبيد الابقين . لذا ، فان شمشي ــ ادد يبعث برسالة الى يسمخ ــ ادد في ماري يطلب منه فيها التحري عن مكان اختفاء شخص معين والقبض عليه وارساله اليه فورا تمهيدا لتسليمه الى ملك بابل الذي طلبه منه :

« قل ليسمخ ــ ادد : هكذا يقول شمشي ــ ادد والدك : ان اشتان ــ شري النوركاني الذي نفي الى بابل هو ... في (مدينة) ساكاراتم . والان تفحص في سوابق هذا الرجل والمكان الذي هو فيه . وزع الجند ! قم بتوقيفه وجلبه مخفورا

في (مدينة) شوبات ــ انليل • لقد طلبه مني الرجل البابلــي (اي الملك حمورابي) » •

كما تضمنت بنود المعاهدات عادة حماية كل طـرف لقوافل ورعايـا الطرف الآخر المارة باراضيه • لذا فان يسمخ ــ ادد حاكـم ماري بعـث برسالة الى حمورابي يخبره فيها ان قافلة له توجهت من ماري عبر حدود حمورابي الى دلمون في الخليج وفي اثناء عودتها اوقفت داخل حدود حمورابي بسبب بعض الاستفسارات عن استخدام الابــار وقد ارسل يسمخ ــ ادد ممثلا له يرافق القافلة الى بابل لعل حمورابي نفسه يحل المشكلة • وفــي رسالة اخرى من شمشي ــ ادد الى ابنه يذكر فيها الصعوبات التي واجههـا اشخاص من مملكة يمخد في شمال سوريا عند محاولتهم عبور نهر الفرات على مقربة من ماري في حين شكا يسمخ ــ ادد الى ابلاخاندا ملك كركميش في سوريا ان رجلا من مملكته دخل اراضي مــاري وخطف سيدة من رعاياه وفي الجواب على هذه الشكوى طلب ملك كركميش من يســمخ ــ ادد ان يرسل اسم الشخص المعتدي واسم السيدة المختطفة وفي رســالة لاحقـة يكتب ابلاخاندا الذي فشلت تحرياته كما يبدو ويقتــرح ان يذهــب زوج السيدة المختطفة الى كركميش لعله يتمكن من العثور على زوجته •

واخيرا ، واذا ما تم ابرام معاهدة ، فكانت العادة ان توثق بمصاهرة سياسية يتزوج فيها ملك او امير احد الاطراف من اميرة من العائلة المالكة في الطرف الثاني وهي طريقة كانت متبعة في جميع العصور • وفي مقتبس مــن الرسالة التالية ما يوضح ذلك :

« اشمي ــ داكان عقد صلحا مع التوركيين وسياخذ ابنه زازيا (ملك التوركيين) لابنه موت ــ اسقر • وقد ارسل اشمي ــ داكان ذهبا وفضة الى زازيا هدية زواج » •

العلاقات السياسية في الفترة بين نهاية العصر البابلي القديم وبداية العصر الاشوري الحديث

تشمل هذه الفترة من تاريخ العراق القديم فترة زمنية طويلة جدا تتجاوز القرون الستة وتمثل بصورة عامة فترة السيطرة الكشية على بلاد بابل وفترة العصر الاشوري الوسيط في بلاد اشور . ولقد شهدت هذه الفترة احداثا سياسية وعسكرية غاية في الاهمية ليس في بلاد بابل واشور فحسب بل وفي جميع انحاء الشرق الادنى القديم ، ولم تعد الممالك التي قامت في كل من بلاد بابل واشور دولا محلية لا يعنيها مايحدث في بقية انحاء الشرق الادنى بل اصبحت جزءا من تلك الاحداث والتقلبات السياسية التي كانت تسود منطقة الشرق الادنى القديم ، تؤثر فيها وتتأثر بها ، وهكذا كانت العلاقات السياسية الخارجية مع الدول الاخرى من اهم العوامل الفاعلة التي تحدد سياسة الدول او الممالك المختلفة . ففي اسيا الصغرى وشمال سوريا قامت الدولة الحثية التي كانت تهدف الى السيطرة على سوريا وشمال وادي الرافدين ، وفي الاجزاء العليا من وادي الرافدين قامت دولة ميتاني التي سيطرت على بلاد اشور لفترة جاوزت القرن وفي مصر كانت المملكة الحديثة قد انتهجت سياسة جديدة تسعى للتدخل في شؤون سوريا والسيطرة عليها فاصطدمت سياستها هذه بمصالح الدولة الحثية وكان الصراع عنيفا بينهما وكانت سوريا مسرح ذلك الصراع . اما في بلاد بابل ،فكانت الدولة الكشية تسعى للتعايش السلمي مع الدول الاخرى ولا سيما مع الدولة الاشورية في شمال العراق والالتزام بالحياد تجاه الصراع القائم بين المملكتين الحثية والمصرية . وقد افرزت هذه العلاقات المتشابكة والصراعات الكثيرة قيام الاحلاف السياسية والعسكرية وعقد المعاهدات بين اطراف الصراع المختلفة .

وتاتي معلوماتنا الرئيسة عن العلاقات السياسـية التي قامت بين دول وممالك الشرق الادنى القديم ، بما فيها بلاد بابل واشـور ، في هذه الفترة من مجموعة من الرسائل الملكية المعروفة لدى الباحثين باسـم « رسـائل العمارنة » نسبة الى موقع العمارنة في مصر الوسطى والذي يمثل موقـع عاصمة الملك المصري امنوفس الرابع (اخناتـون) • فقـد عثر في هـذا الموقع على مجموعة من الالواح الطينية جاوز عددهـا ثلاثماية لوح تمثـل الرسائل الملكية التي كان قد استلمها كل من الملك المصري امنوفس الثالث (١٤٠٥ ــ ١٣٦٧ ق•م) وابنـه امنوفس الرابـع (اخناتـون) (١٣٦٧ ١٣٥٠ ق•م) من ملوك وحكام الشرق الادنى القديم •

ومن الجدير بالاشارة الى ان جميع هذه الرسائل ، باستثناء ثلاثة منها فقط ، مدونة بالخط المسماري العراقي وباللغة الاكدية على الرغم مـن ان لغة معظم كاتبيها ولغة المرسل اليه لم تكن الاكدية كمـا لم يكـن الخـط المستخدم لديهم عادة هو الخط المسماري مما يشير الى ان اللغة الاكديـة بخطها المسماري كانت قد استخدمت في هذه الفترة لغة دبلوماسية يتفاهـم بواسطتها حكام وملوك الشرق الادنى القديم على اختلاف لغاتهم واجناسهم وهذا يشير بدوره الى مدى قوة وانتشار الحضارة العراقية القديمة في هذه الفترة على الرغم من عدم وجود دولة قوية في بلاد بابل او اشور تسـتطيع فرض استخدام لغتها في المخاطبات الرسمية بين حكام الدول الاخرى •

والى جانب هذه المجموعة من الرسائل هنالك عدد لا بأس به من الرسائل الملكية والوثائق الاقتصادية والقانونية التي عثر عليها في بلاد بابل واشـور نفسهـا القت ضـوء على العلاقـات السياسية بين الدولتين كمـا ان هنـاك وثيقة تاريخية مهمة عرفت « بالتاريخ التعاصري » افادت كثيرا في معرفـة العلاقات السياسية التي كانت تربط بلاد بابل ببلاد اشور •

تشير هذه المصادر الى ان العلاقات السياسية بين الدولتين الكشية في بلاد بابل والاشورية في بلاد اشور كانت تتأرجح في هذه الفترة بين العلاقات السلمية والحربية العدائية وكانت الدولة الكشية تميل دائما الى ترجيح العلاقات السلمية شأنها في ذلك شأن علاقاتها مع الدول والممالك الاخرى . لذا ، ابرمت بين كل من الدولة الكشية والدولة الاشورية معاهدات سلام عدة لاقرار الوضع الراهن بينهما وتحديد الحدود بين المملكتين ، ولم تكن هناك حدود طبيعية وثابتة بل كانت تتوقف في اتجاهها شمالا او جنوبا على قوة كل من الطرفين . وتعد المعاهدة التي عقدت بين الملك الكشي بورنابورياش الاول وبوزور ـ اشور الثالث (١٥٢١ ـ ١٤٩٨ ق.م) ملك بلاد اشور اقدم المعاهدات المذكورة بين الدولتين فقد ذكر « التاريخ التعاصري » ان بوزور ـ اشور (الثالث) ملك بلاد اشور وبورنابورياش (الاول) ملك كاردونياش (بابل) « اقسما يمينا وعينا بينهما حدودا ثابتة » .

وفي عهد الملك الاشوري اشور ـ بيل ـ نشيشو (١٤٤٩ ـ ١٤١١ ق.م) ابرمت معاهدة اخرى مع الملك الكشي كرا انداش خاصة بتثبيت الحدود بين المملكتين ايضا . وشهد اواسط القرن الرابع عشر قبل الميلاد نشاطا ملحوظا في العلاقات السياسية بين دول الشرق الادنى القديم ، ففي بلاد اشور اعتلى العرش الملك اشور ـ اوبالط الاول (١٣٦٥ ـ ١٣٣٠ ق.م) في اعقاب الاستقلال عن السيطرة الميتانية وقد حاول الملك الاشوري ان يثبت قوة الدولة الاشورية من خلال اقامة علاقات سياسية طيبة مع دول الشرق الادنى وفي مقدمتها مصر حيث سارع الى مكاتبة الملك المصري اختاتون ملقبا نفسه في الرسالة الاولى « ملك بلاد اشور » وبعث اليه بهدايا ثمينة . اما في الرسالة الثانية فقد لقب نفسه « ملك بلاد اشور ، الملك العظيم ، اخوك » اي انه عد نفسه على قدم المساواة مع الملك المصري كما

تشير الى ذلك الصيغة المستخدمة في المخاطبة وهي « اخوك » وطلب الى اخناتون ، بعد ان استعرض العلاقات الطيبة التي تربطهما ، مزيدا من الذهب . وقد اغاضت هذه العلاقات السياسية الجديدة بين الملك الاشوري والملك المصري البلاط الكشي في بابل الذي كان يرى في الدولة الاشورية دولة تابعة له فبعث الملك الكشي برسالة الى اختانون ملك مصر استعرض في بدايتها علاقات بلاده مع مصر ثم عاتبه على قلة الذهب المرسل اليه وشكر اليه زيارة الاشوريين البلاط المصري وفيما يلي ترجمة لهذه الرسالة لاخذ فكرة واضحة عن العلاقات السياسية التي كانت تربط الملكين :

« الى نفخوريريا ، ملك مصر
هكذا يقول بورنابورياش ، ملك بلاد بابل ، اخوك . انني بخير ، فعسى ان تكون انت وبيتك وازواجك واولادك ونبلاؤك وخيلك وعرباتك باحسن حال .
حين عقد ابي وابوك الصداقة بينهما كانا يتهاديان اثمن الهدايا ولم يمنع احدهما ما كان يطلبه الآخر مهما عزّ وغلا والآن لقد اهدى اليّ اخي منين من الذهب . فكم تمنيت لو انك ارسلت الي ذهبا بقدر ما كان يرسله ابوك . واذا كان لابد من تقليل المقدار ، فارسل الي نصف ماكان يرسله اليّ ابوك. فلم اقتصرت على ارسال منين من الذهب فقط ؟ انني الآن باذل جهدا كبيرا في بناء المعبد، وسوف انجز العمل بدقة فارسل اليّ قدرا من الذهب، واذا رغبت في شيء يوجد في بلادي مهما كان فابعث اليّ رسلك لياتوك به .

في عهد ابي كوريكالزو ارسل اليه الكنعانيون يقولون : « لنذهب الى مصر ولنغزها جميعنا وسوف نعقد معك حلفا » . اما ابي فقد اجاب على رسالتهم قائلا : « ليكن الحلف مابينكم ،

ولكن لتحذروا جانبي ، اذ لما كان ملك مصر حليفي فمن ذا الذي يصدني عن ان اغزوكم ؟
وهكذا من اجل ابيك لم يسمع ابي قولهم • اما ما يخص بعض الاشوريين من اتباعي (كذا !) افلم اخبرك برسالتي في شأنهم ، فلم دخلوا الى بلادك ؟ وبما انك تحبني فيقيني انك لن تدخل معهم في شيء (من التحالف) وانك ستعمل على احباط سعايتهم وجهودهم • وفي الختام لقد ارسلت اليك هدية : ثلاث منات من حجر اللازورد وعشرة افراس لخمس عربات » •

وعلى الرغم من الادعاء الذي ذكره الملك الكشي في رسالته بان الاشوريين كانوا تابعين له ، فان الرسالة تشير دون شك الى تنافس كل من الملك الاشوري والملك الكشي على كسب ود الملك المصري وعقد علاقات طيبة معه • ولما وجد الملك الكشي ان لامناص من الاعتراف بقوة الدولة الاشورية وسيطرتها على شمال وادي الرافدين ، فانه دخل معها في علاقة صداقة جديدة وتم ابرام معاهدة بين الجانبين زينت بمصاهرة سياسية تزوج بموجبها الملك الكشي من ابنة الملك الاشوري اشور اوبالط وكان من نتائج هذه المصاهرة ان بدأ تدخل الدولة الاشورية في شؤون بلاد بابل الداخلية وبدأ الصراع ثانية بين الدولتين ووصل الى درجة نشوب الحرب على الرغم من ان السياسة الكشية كانت تميل دوما لتحقيق التعايش السلمي مع الدولة الاشورية •

وفي عهد الملك الاشوري ادد ــ نراري الاول (١٣٠٧ ــ ١٢٧٥ ق•م) يبدو انه شعر بنفسه القوة الى درجة انه ارسل برسالة الى خاتوشيليش الثالث ، الملك الحثي ، عرض فيها عليه « الاخوة » اي المساواة في المنزلة وعقد معاهدة متكافئة • ويبدو من جواب خاتوشيليش انه رفض بقوة ذلك وقال ساخرا « ما هذه المناقشة عن الاخوة وزيارة جبل امانا ؟ لماذا اكتب اليك فيما يتعلق بالاخوة ؟ هل ولدنا انا وانت من ام واحدة ؟ » ومما لا ريب

فيه ان الملك الحثي كان يعرف ما هو المقصود السياسي من مصطلح «الاخوة» لكن تجاهل ذلك عن قصد ولم ترق له فكرة مساواته مع ملك بلاد اشور .

ومن ناحية اخرى نجد ان الملك الحثي يبعث برسالة الى الملك البابلي يستعرض فيها « العلاقات الاخوية » بينه وبين والد الملك الكشي ثم يستفسر فيها عن سبب قطع المراسلات معه وكأنه اراد بذلك استمالة الملك الكشي ضد الملك الاشوري وفيما يلي مقتطفات من هذه الرسالة :

« لماذا اوقفت ، يا اخي العزيز ، ارسال رسلك ؟ هل تكلم اتي مردوخ بلاطو ثانية امام اخي بكلمات معادية لي ؟ »

ثم يذكر له ضعف ملك اشور وعدم تمكنه من اعتراض رسله فيقول :

« ان ملك بلاد اشور بكل مشاته وسلاح عرباته لا يوازي مشاة بلادك ... (من الذي) يستطيع من ملوك بلاد اشور ان يمنع رسلك ... ؟ »

وينهي خاتو شيليش رسالته بتحريض سافر للملك الكشي ضد الملك الاشوري فيقول :

« ... تقدم الان وقم بغزوة الى بلاد العدو ، واني منشوق لسماع كم سيذبح اخي من الاعداء . لقد اعتادوا ان يدعوا والدك « الملك الذي يستعد للحرب لكنه يمكث في وطنه بعد ذلك » الم يقولوا ذلك عنه دائما ؟ اخي يجب ان لا تبقى في الوطن، اذهب الى بلاد الاعداء وادحر العدو ... » .

وقد انتهت العلاقات السياسية الاشورية ــ الكشية بسيطرة الدولة الاشورية المباشرة على بلاد بابل سيطرة مؤقتة وحكمها حكما مباشرا وذلك في عهد الملك الاشوري توكلتي ننورتا الاول (١٢٤٤ ــ ١٢٠٨ ق.م) غير ان العلاقات العدائية بينهما عادت ثانية . وفي اواخر الالف الثاني قبل الميلاد ،

وبعد زوال سلطان السلالة الكشية ، نقرأ عن معاهدة سلام ابرمت بين الملك الاشوري ومعاصره البابلي كان الغرض منها انهاء النزاع الطويل بين البلدين ليتفرغ كل منهما للاخطار الخارجية المحدقة بهما ، كما زوج الملك الاشوري ابنته من الملك البابلي ومع ذلك لم تستمر العلاقات الطيبة بين البلدين لفترة طويلة .

العلاقات السياسية من بداية العصر الاشوري الحديث وحتى سقوط بابل ونهاية الحكم الوطني فيها

تعد فترة العصر الاشوري الحديث التي دامت زهاء ثلاثة قرون (٩١١ ـ ٦١٢ ق.م) من ازهى العصور التي مرت على بلاد اشور في تاريخها الطويل . فقد تميز هذا العصر بتعاظم قوة الاشوريين السياسية والعسكرية وازدهار حضارتهم واتساع نفوذهم حتى شملت حدود امبراطوريتهم في القرن السابع قبل الميلاد معظم انحاء الشرق الادنى القديم بما في ذلك مصر . ومع ذلك ، تخللت العصر فترات من الارتباك السياسي والضعف العسكري والانكماش كان اخرها ايذانا بنهاية كيان الاشوريين السياسي وسقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م .

كانت الدولة الاشورية في هذا العصر المزدحم بالاحداث والتقلبات والتغيرات السياسية التي كانت تجري في مختلف اقطار الشرق الادنى القديم محاطة بقوى معادية لم يرق لها نمو الدولة الاشورية وتهديدها لمصالحها الاقتصادية والسياسية لذا كانت تتحين الفرص للانقضاض عليها والقضاء على نفوذها المتزايد . ولتحقيق ذلك ، عمدت الى عقد الاحلاف العسكرية فيما بينها وابرمت المعاهدات الثنائية لتشكيل جبهات قوية تواجه النفوذ الاشوري وتصده وتعمل على القضاء عليه . وكانت تلك الاحلاف

والمعاهدات تتركز في جبهات ثلاث مختلفة تاتي في مقدمتها الجبهة الشمالية الغربية المتمثلة بالممالك والدويلات السورية • وكان حلف الدويلات والممالك الواقعة في الشمال يضم عادة كلا من كركميش وبيت ـ اديني وسمأل في حين كانت مملكة دمشق الارامية تتزعم حلف وسط وجنوب سوريا الذي ضم في احيان كثيرة كلا من حماة وارواد وقيليقيا واسرائيل وعمون وصور وصيدا • اما الجبهة الثانية فكانت الجبهة الشمالية الشرقية حيث كانت مملكة اورارتو تعمل على تجميع القوى المعادية في حلف عسكري يواجه تقدم الدولة الاشورية بهذا الاتجاه وقد ضم حلف اورارتو كلا من كوركم وارواد وملاطية وكموخ وغيرها • وفي الجبهة الجنوبية ، كانت مملكة عيلام ، كدأبها دوما ، تعمل على تغذية القبائل المناوئة للحكم المركزي في بلاد بابل واشور وتمد لها العون المادي والعسكري كلما سنحت الفرصة وتوفر لها الملجأ في حالة فشل التمردات والثورات التي تقوم بها ضد الحكومة المركزية • وفي العصر الاشوري الحديث ، استمرت مملكة عيلام بعقد الاحلاف مع القبائل الكلدية والارامية القاطنة في القسم الجنوبي من العراق مما اضطر الدولة الاشورية الى القيام بحملات متكررة على بلاد عيلام كان آخرها في عهد اشور بانيبال الذي قضى نهائيا على مملكة عيلام •

وازاء هذه الاخطار المحدقة بالدولة الاشورية ، كان على الاشوريين ان يعملوا من اجل تثبيت اركان دولتهم وحماية حدودهم ويواجهوا تلك الاحلاف حتى طغت الناحية العسكرية على حياة الدولة الاشورية في عصرها الحديث بصورة عامة •

ومن دراسة وتحليل السياسة الخارجية للدولة الاشورية يبدو انها كانت على درجة كبيرة من النضج وبعد النظر حيث كان يسبق تجهيز اية حملة عسكرية دراسة مستفيضة لجميع الاوضاع الداخلية والخارجية

للمنطقة المزمع توجيه الحملة اليها كما كان يسبق ذلك اتصالات مكثفة مع امراء وحكام الاقاليم والبلدان المجاورة لضمان ولائهم السياسي وتأمين طرق الاتصال والمؤن في حالة التقدم والانسحاب ، وقد تعقد المعاهدات مع الحكام والامراء المحليين وتوثق بالمصاهرات السياسية .

وكانت العلاقة التي تربط الدولة الاشورية بالدول والممالك الموالية او التابعة على انواع عدة . فكان هناك الدول والممالك الصغيرة الموالية للدولة الاشورية ، طوعا او خوفا ، والسائرة في فلكها ، غير انها كانت دولا مستقلة ، وكان على مثل هذه الدول ان تعترف بالسلطان الاشوري وتقدم للملك الاشوري الجزية السنوية والهدايا المقررة كما كان عليها ان تلتزم بعلاقاتها السياسية الخارجية بما تمليه مصلحة الدولة الاشورية فتعادي من يعادي الدولة الاشورية وتصادق من يصادقها ، وتحصل مقابل هذه الالتزامات على امتياز الحماية العسكرية ضد اي اعتداء خارجي او تمرد داخلي .

وقد وردت اشارات كثيرة الى هذا النوع من العلاقة في الرسائل التي ارسلت من والى الملك الاشوري من حكام وملوك مثل هذه الدويلات ومن هذه الرسائل ، رسالة بعث بها احد حكام الممالك في شمال سوريا الى تجلاتبليزر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م) ملك بلاد اشور حيث يقول فيها :

« لقد مسك ابي حاشية (ثوب) سيدي ، ملك اشور العظيم ، عندها عاش وعاشت يعدي [اسم المملكة] ... لقد ركض ابي عند عجلة سيده تجلاتبليزر ، ملك بلاد اشور ، في الحملات العسكرية من الشرق الى الغرب ... لقد مات ابي عند قدمي سيده تجلاتبليزر ملك بلاد اشور في الحملة وبكى عليه جميع معسكر سيده ملك اشور ... واقيم له تمثال على جانب الطريق ، وجيء بابي من دمشق . لذا ، وبسبب ولاء ابي وولائي

انا ، فقد وضعني سيدي تجلاتبليزر ــ على العرش » •

اما اذا امتنعت مثل هذه الدويلات عن تقديم الولاء ودفع الجزية او رفضت الاعتراف بسلطان الدولة الاشورية، او دخلت حلفا او ابرمت معاهدة مع دولة معادية للدولة الاشورية ، عندها تقتضي السياسة الاشورية ان تقوي من قبضتها عليها وتهاجمها عسكريا وتغير حاكمها المحلي احيانا باخر موال للسياسة الاشورية ومستعد لدفع الجزية السنوية وكانت مثل هذه العلاقة الجديدة توثق بالمعاهدات وتختتم بالقسم امام الالهة العظام كما كانت تتضمن تعيين موظف اشوري في البلاط المحلي يشرف على تنفيذ الاتفاق ويراقب سياسة الحاكم المحلي وقد يزود بقوة عسكرية صغيرة تحسبا وتحرزا لاي طارىء •

ان تاريخ الحملات العسكرية الاشورية على الجبهات المختلفة مليء بالامثلة على هذا النوع من الدويلات والممالك التي كانت تتمرد على السلطة الاشورية وتنبذ الاعتراف بها وتمتنع عن دفع الجزية وتدخل احلافا مضادة للدولة الاشورية ، غير ان جواب الدولة الاشورية على ذلك كان قاسيا ورادعا في معظم الاحايين • ومن الامثلة الكثيرة على ذلك ما فعله سنحاريب (٧٠٤ ــ ٦٨١ ق•م) مع مملكة يهوذا جنوبي فلسطين ، والتي كانت تابعة للدولة الاشورية تدفع الجزية السنوية ، عندما خرجت عن تبعيتها وانضمت الى حلف مؤلف من عسقلون وعقرون وغيرهما لمواجهة نفوذ الدولة الاشورية وتلقت مساعدة من الملك المصري اضافة الى اتصالها ببعض القبائل الكلدية في بلاد بابل مما اضطر سنحاريب ان يزحف بجيش جرار على ساحل البحر المتوسط ويخضع عسقلون وينصب عليها ابن حاكمها السابق ثم اتجه نحو عقرون التي استلمت مساعدة عسكرية من مصر ومع ذلك استسلمت بعد حصار سنحاريب لها واعيد تنصيب ملكها السابق عليها بعد ان قدم الولاء والطاعة واخيرا حوصرت عاصمة يهوذا الى ان استسلمت لسنحاريب ، حسبما جاء

في نصوص سنحاريب الملكية ، ودفع ملكها حزقيا الجزية وهو صاغر .

وفي حالة حنث الحاكم المحلي القسم وعدم اعترافه بالدولة الاشورية او طرده الموظف الاشوري من بلاطه ورفضه دفع الجزية ودخولـه حلفـا مضادا للمرة الثانية ، عندها تتخذ الاجراءات العسكرية الفورية اللازمة لضم اراضي تلك المملكة الى الدولة الاشورية وعدها مقاطعة اشورية تدار مـن قبل حاكم اشوري بصورة مباشرة .

اضافة الى الرسائل الملكية الكثيرة التي تبادلها الملوك الاشوريون مع ملوك وحكام الممالك والدول في الجبهات المختلفة ، فقد تم العثور على عدد من المعاهدات المبرمة بين الدولة الاشورية وعدد من حكام وامراء الـدول والممالك التابعة وفي فترات مختلفة وتعد هذه المعاهدات من اهم مالدينـا من نصوص مسمارية خاصة بالعلاقات السياسية الدولية في هذه الفترة من تاريخ العراق القديم ، بل انها اقدم المعاهدات المعروفة بشكلها وصيغتهـا الاصلية التي دونت بها في حين كانت جميع المعاهدات الاخرى السابقة عبارة عن اشارات واردة في الرسائل والوثائق الملكية وغيرها من النصوص . ان دراسة نصوص هذه المعاهدات ودراسة النصوص المسمارية الاخرى ذات العلاقة تشير بوضوح الى ان الطقوس والتقاليد التي كانت سائدة في الالف الثالث والثاني قبل الميلاد عند ابرام المعاهدات ظلت متبعة في العصر الاشوري الحديث ايضا . كما ان البنود التي تضمنتها تلك المعاهدات تتشابه مع بنود المعاهدات الاشورية والتي ضمت الى جانب البنـود الخاصـة بالتعـاون العسكري والسياسي بنودا خاصة بتسليم المجرمين او اللاجئين ومسؤولية كل طرف من اطراف المعاهدة حماية رعايا الطرف الآخـر ورعاية قوافلـه التجارية عند المرور في حدود مملكته وغير ذلك من البنود .

وتعد المعاهدة التي عقدهـا اشور ــ نراري الخامس (٧٥٤ ــ ٧٤٥ ق.م) مع ماتع ــ ايلو حاكم ارواد على الساحل السوري ، اقدم معاهـدة

وصلت الينا بصيغتها الاصلية٠وكانت المعاهدة قد ابرمت اثر قيام الملك الاشوري بحملة عسكرية على مدينة ارواد عاصمة مملكة بيت ــ اكوشي الارامية ، ولقد الزمت المعاهدة الحاكم التابع ماتع ــ ايلو بوجوب الاخلاص للملك الاشوري وللدولة الاشورية والاشتراك الفعلي في اي حرب يشنها الملك الاشوري على اعدائه حيث جاء فيها :

« لم يؤت بهذا الحمل من حظيرته للتضحية ولا لوليمة ولا للبيع والشراء ولا (للعرافة المتعلقة) برجل مريض ولا للتضحية من اجل [٠٠٠] : لقد جلب لتوثيق المعاهدة بين اشور ــ نراري وماتع ــ ايلو ٠ فاذا اذنب ماتع ــ ايلو بحق (هذه) المعاهدة التي تمت باداء القسم بالالهة ، فانه مثل هذا الحمل ، الذي جلب من حظيرته (والذي) سوف لن يعود الى حظيرته وسوف لن يرى حظيرته مرة ثانية ، فيا للحسرة [سيطرد] ماتع ــ ايلو وابناؤه وبناته وموظفوه وشعب بلاده من بلادهم ، ولن يعودوا الى بلادهم ولن يروا بلادهم مرة ثانية ٠٠٠٠ » ٠

ثم تستطرد المعاهدة بعد ذلك الى القول :

« اذا لم تخلص لاشور ــ نراري ، اذا لم يكرس قلبك لاشور ــ نراري، ملك بلاد اشور، فانك وابناءك وشعب بلادك [٠٠٠٠] ٠ اذا ذهب (الجيش الاشوري) للحرب باوامر اشور ــ نراري ، ملك بلاد اشور ، ولم يأت ماتع ــ ايلو مع موظفيه وجيشه وعربته (الى الحملة) باخلاص كامل، فعسى ان يكسو سن، السيد العظيم الذي يقيم في حران ، ماتع ــ ايلو وابناءه وموظفيه وشعب بلاده بالجذام كالرداء يغطي اجسامهم فيهيموا على اوجههم في العراء وعسى ان لا يرحمهم ٠٠٠٠ » ٠

ثم تتولى الدعوات واللعنات باسم بقية الالهة والطلب من كل الـه انزال مرض معين على ماتع ــ ايلو وحاشيته في حالة نقضه المعاهدة او عدم عده حياة اشور ــ نراري كحياته هو • وتنتهي المعاهدة بالقسم الذي اداه ماتع ــ ايلو باسم الالهة العظام جميعها •

وقد حرص الملوك الاشوريون على اقامة علاقات طيبة مـع الممالـك المجاورة المكافئة لهم من حيث المركز والقوة بغية تثبيت مواقف تلك الممالك الى جانب الدولة الاشورية وضمان عدم قيامها بتقديم المساعدات لاية دولة معادية لها • وهذا ما نقرأه في رسالة يرقى تاريخها الى حدود عام ٧١٠ ق•م • بعث بها الملك الاشوري سرجون الى شخصية اشورية ، ربمـا كان ابنـه وخليفته على العرش سنحاريب • فقد اشار سرجون في هذه الرسالة الـى اقتراح ميتا ، حاكم مملكة مشكوفي اسيا الصغرى والذي كان فيمـا مضى عدواً للدولة الاشورية أو محايدا على الاقـل ، حول رغبته بالتقارب مـع بلاد اشور • فرحب الملك سرجون بحرارة بهذا الوضـع الجديـد وبعـث بتعليماته للعمل على تطوير علاقات الصداقة هذه وامر اعتماد سفير اشوري الى ميتا بينما تمت الموافقة على ارسال سفير من مشكو الىالبلاط الاشوري• اضافة الى ذلك ، فقد وجه سرجون ابنه سنحاريب (ان كـان هو المرسـل اليه في الرسالة) بان يكتب الى ميتا ويخبره بان الملك الاشوري كان ممتنـا جدا حول تطور العلاقات بينهما وانه وافق على اقتراح عقد اتفاقية تسـليم المجرمـين •

وشبيهة بالمعاهدة التي عقدها اشور ــ نـراري الخامس مـع حاكـم ارواد المعاهدة التي ابرمها اسرحدون (٦٨٠ــ٦٦٩ ق•م) حفيد سرجون مع بعل ، حاكم صور الفينيقية ، ويظن ان المعاهـدة ترقـى بتاريخها الى عـام ٦٧٧ ــ ٦٧٦ ق•م • ، وهي السنة التي قام بها اسرحدون بحملة عسكرية على مدينة صيدا التي ربما رفضت الاذعان للمطاليب الاقتصادية والسياسية التي

وفرضها الملك الاشوري على مدينة صور مما جاء ذلك في المعاهدة • ولقد وصلت الينا نسخة من المعاهدة وهي بحالة رديئة لا يمكن معها قراءة جميع بنودها • ومن الطبيعي انها تبدأ بذكر اسرحدون ، ملك بلاد اشور ، والقابه الرنانة الكثيرة وبيان قوته وتأييد الالهة له ، ثم تتطرق في العمود الثالث الى « المندوب الملكي » الذي عينه اسرحدون في مدينة صور وصلاحياته :

« ••• [المندوب الملكي الذي] عينته عليكم ••• ولا تفتحوا رسالة ارسلها لكم دون (حضور) المندوب الملكي ، اذا كان المندوب الملكي غالبا ، انتظروه وبعد ذلك افتحوها ••• » •

وهذه اشارة صريحة الى ما سبق وذكرناه عن تعيين ممثل إشوري في بلاط الدولة التي تقع تحت حكم الدولة الاشورية ونفوذها وتعقد معها معاهدة تبعية من هذا النوع •

وحيث ان مدينة صور كانت من الموانيء المهمة على سواحل البحر المتوسط وان حياتها الاقتصادية تعتمد بالدرجة الاولى على تجارتها البحرية وسفنها الكثيرة ، لذا نصت المعاهدة على تعهد الملك الاشوري بحماية سفن صور وعدها من السفن التابعة له ، فاذا تحطمت في مكان آخر تابع لنفوذ الدولة الاشورية ، يعد كل اعتداء عليها اعتداء على اموال الملك الاشوري نفسه :

« اذا تحطمت سفينة لبعل او لشعب صور في بلاد الفلسطينيين او في أي مكان على حدود اقليم اشوري، فكل شيء في السفينة ملك لاسرحدون ، ملك بلاد اشور لكن يجب ان لا يلحق أي ضرر باي شخص على ظهر (السفينة) (بل) عليهم تسجيل اسمائهم [واخبار الملك بها] » •

وفي فقرة اخرى من المعاهدة ، حدد اسر حدون الموانيء والطرق التجارية والمدن التي يضمن فيها لبعل حاكم صور الحماية .

وفي ختام المعاهدة دعاء الى جميع الالهة الاشورية بانـزال مختلف انواع اللعنات والويلات على بعل في حالة نقضه المعاهدة ، بطبيعة الحـال وخروجه عن ولائه للملك الاشوري .

وتاتي المعاهدة التي عقدها اسرحدون عـام ٦٧٢ ق.م مـع رمتايـا حاكم اركز بانو الميدية والتي عثر عليها في مدينة النمرود عام ١٩٥٥ اكمـل مثال على معاهـدات التبعية التي كانت تبرم بين الملـوك الاشوريين وحكام وملوك الدول والممالك التابعة . ولد تم العثور على تسع نسخ مـن هـذه المعاهدة كل منها خاص بحاكم من الحكام التابعين ، ومعظمهم من الميديين ، لاتختلف عن بعضها الا باسماء المدن والحكام ، غير ان المعاهدة المبرمة مـع رمتايا هي اكمل تلك النسخ ووجدت بحالة جيدة من الحفظ :

كان الهدف الاساس من ابرام هذه المعاهدات هو ضمان مبايعة ولـي العهد الاشوري اشور بانيبال على عرش بلاد اشور ومبايعة اخيه شمش ـ شم ـ اوكن على عرش بلاد بابل واخذ التعهدات من الحكام التابعين بالولاء والطاعة لهما في حالة وفاة والدهما اسرحدون ومعاونتهما على اعتلاء العرش مهما كانت الظروف ، قد ضمت المعاهدة أكثر من اربعماية سطر من الكتابة المسمارية يتقدمها ختم الاله اشور ، لتوثيق المعاهـدة واضـفاء القدسـية والشرعية عليها ، ثم تاتي المقدمة التي تذكر ان :

« (هذه هي) معاهدة اسرحدون ، ملك العالم، ملك بلاد اشور ، ابن سنحاريب ، ملك العالم كذلك ، ملك بـلاد اشور ، مـع رمتايا حاكم مدينة اراكزا بانو (و) مع ابنائه واحفاده وجميـع شعب اراكزا بانو (و) مع كل الرجال الذين تحت امرته الصغير (منهم) والكبير . معكم جميعا ، ومع ابنائكـم واحفادكـم

الذين سيأتون في المستقبل بعد هذه المعاهدة من مشرق الشمس إلى مغربها ومع جميع من هو تحت امرة وسيادة اسرحدون ، ملك بلاد اشور ، ابرمت المعاهدة معكم بخصوص اشور بانيبال ، ولي العهد ، بن اسرحدون ، ملك بلاد اشور » .

ثم يتبع ذلك ذكر اسماء الالهة التي وثقت امامها المعاهدة والقسم الذي اخذه اسرحدون من تابعيه للالتزام ببنود المعاهدة ثم يذكر بعدها الغاية من ابرام المعاهدة ، وهي البيعة لاشور بانيبال وليا للعهد على عرش اشور وشمش ـ شم ـ اوكن ، وليا للعهد على عرش بلاد بابل واخذ العهد من الحكام التابعين لهما وتنصيبهما على العرش في حالة وفاة والدهما اسرحدون :

« (هذه هي) المعاهدة التي عقدها معكم اسرحدون ملك بلاد اشور ، امام الهة السماء والارض العظيمة ، (ونيابة عنها) من اجل تعيين ولي العهد اشور بانيبال ابن سيدكم اسرحدون ، ملك بلاد اشور ، الذي رشحه وعينه لخلافته ، فعندما يفارق اسرحدون ، ملك بلاد اشور ، الحياة ، عليكم ان تنصبوا عليكم ملوكية وسيادة بلاد اشور ...... »

ثم تأتي الفقرات الخاصة باخذ العهد من الحكام التابعين لتنفيذ ذلك بدقة والعمل باخلاص من اجل اشور بانيبال واخيه :

« اذا مات اسرحدون وابناؤه صغار ، فعليكم مساعدة اشور بانيبال ، ولي العهد المرشح، على اعتلاء عرش بلاد اشور، وعليكم ان تنصبوا اخاه العزيز ، شمش ـ شم ـ اوكن ، ولي العهد المرشح لبلاد بابل على عرش بلاد بابل ، وتعهدوا اليه الحكم على (بلاد) سومر واكد وكاردونياش ، ولا تحتجزوا اية هدية اعطاه اياها والده اسرحدون ، ملك اشور ، بل تمكنوه من ان يأخذها معه » .

وتستمر بنود المعاهدة في تعداد الفرضيات في حالة نشوب اية محاولة لاغتصاب العرش او قتل ولي العهد او التآمر عليه او محاولة تغذية الخلافات بين الاخوين او ... الخ ومن ثم يأتي القسم واللعنات والويلات باسماء جميع الالهة على كل من يفعل ذلك . ثم ختمت المعاهدة بالتاريخ مع ذكر ماهيتها :

« اليوم السادس عشر من شهر ايارو ، في لمّو (= سنة) نبو ــ بيل ــ اوصر ، حاكم خورصباد . معاهدة ثبتت (من قبل اسرحدون) بخصوص اشور بانيبال ، المرشح لولاية عهد بلاد اشور ، وشمش ــ شم ــ اوكن ولي العهد المرشح لبلاد بابل » .

وعلى الرغم مما جاء في بنود هذه المعاهدة ومثيلاتها من المعاهدات التي عقدت مع حكام المدن الميدية لحماية العرش الاشوري ، وعلى الرغم من الالتزامات التي التزم بها اولئك الحكام امام اسرحدون والاحتياطات التي اتخذها لضمان ارتقاء ولديه العرش الاشوري والبابلي، الا ان الاحداث التي وقعت بعد ذلك دلت على عدم جدوى مثل هذه المعاهدات وان مفعولها بعد غياب الملك القوي الذي فرضها يكاد يكون معدوما حيث مالبث ان نشبت الخلافات بين الاخوين وكانت مملكة عيلام قد وجدت الفرصة سانحة امامها لاشعال نار الفتنة بين الاخوين والوقوف الى جانب ملك بابل ضد الملك الاشوري ، وقد انتهت تلك الفتن بحرب شعواء ذهب ضحيتها الملك البابلي وهوجمت عيلام وتم القضاء على مملكتها نهائيا .

ومنذ اواخر عهد اشور بانيبال ، بدأ الضعف والارتباك السياسي يعم بلاد اشور ، في حين كان قد اعتلى العرش البابلي الملك الكلدي نبوبلاصر (عام ٦٢٦ ق . م) واستقل عن الدولة الاشورية وحاول مهاجمة مدنها وقد التقت مصالحه في السيطرة على بلاد اشور بمصالح القبائل الميدية التي كانت قد توحدت وكونت لها مملكة يتزعمها الملك الذي عرف في المصادر الاغريقية باسم كي ــ اخسار . وهكذا نقضت المدن الميدية العهد الذي كانت قد

قطعته لاسرحدون الا قليل منها وتحالفت مع نبو بلاصر تحت قيادة كي ــ اخسار للهجوم على بلاد اشور ، وهذا ما تم فعلا حيث هوجمت اشور وتربيص وغيرها من المدن الاشورية واخيراً سقطت نينوى عام ٦١٢ ق ٠ م ٠ بعـــد حصار لم يدم طويلا ، وتذكر المصادر الاغريقية ان التحالف الذي تـم بـين نبو بلاصر وكي ــ اخسار قد ختم بمصاهرة سياسة تزوج بموجبها ولـي العهد البابلي نبوخذنصر من اميرة ميدية كما تذكر بعض القصص الاغريقية ان نبوخذنصر كان قد شيد الجنائن المعلقة من اجل زوجته الميدية غير انه ليس هناك مايؤيد هذه القصص اثاريا ٠

على الرغم من سقوط نينوى ، الا ان الاحلاف والمعاهدات التي كانت بلاد اشور قد عقدتها مع بعض المدن والممالك في الغرب قد اظهرت فاعليتها ٠ فماان سمع المصريون بالمحنة التي تمر بها اشور الا وسارعوا بارسال جيش الى سوريا لمساعدة الجيش الاشوري ثم اعقبه جيش آخـر بقيادة الفرعـون المصري نفسه غير ان الوقت كان متاخراً وهرب الفرعون المصري امام زحف نبوخذنصر قائد الجيش البابلي ٠ كما التزمت بعض الدويـلات السـورية بموقفها الى جانب الدولة الاشورية في حين اظهرت دويلات اخرى عدائهـا السافر لها كدويلة يهوذا ٠

وفي العهد البابلي الحديث ، يبدو ان السياسة الخارجية التي اتبعهـا نبوبلاصر ومن ثم نبوخذنصر لم تكن تختلف كثيرا عن السياسة الاشورية ولا سيما فيما يخص علاقة الدولة البابلية بالدويلات والممالك التابعة ولعل خير مثل على ذلك علاقة الدولة البابلية بدويلة يهوذا التي كانت تابعة اول الامر وموالية للبابليين وبعد تمردها اصبحت خاضعة بشكل اقوى ومن ثم ونتيجة تمردها مرة اخرى قضي عليها نهائيا وسبي سكانها ٠

ومن الاشارات المهمة عن العلاقات السياسية والدبلوماسية في العهـد البابلي الحديث ان احد قادة نبوخذنصر ، وهو نبونائيد الذي اختير فيما بعد ليكون ملكا على عرش بابل ، قام بالتوسط في المفاوضات التي جرت بـــين

مملكة ليديا والميديين حيث امكن من خلال تلك المفاوضات والوساطات وضع حد للصدامات العسكرية بين الطرفين وعقدت معاهدة سلام عام ٥٨٥ ق ٠ م بينهمـــــــــا ٠

وعندما اعتلى نبونائيد العرش البابلي ، كانت علاقاته وثيقة بالملـــك الفارسي كورش وكانت تربطهما معاهدة صداقة وثيقة غير انه ما ان قويت شوكة الملك الفارسي وقضى على الميديين في ايران ، الا وبدأ بالعمل على نقض المعاهدة التي تربطه مع الملك البابلـي والاعداد للهجـوم علـى بلاد بابـل واشور مستغلا فرصة الارتباك الاقتصادي الذي ساد بلاد بابل ومستعينا بالاسر اليهودية التي كان قـد جاء بهـا نبوخذنصـر عنـــدما قضـــى علـــى يهوذا وهكذا ، نقض كورش الاتفاق وهجم علـى بابل واســقطها عام ٥٣٩ ق ٠ م ٠ وانهى بذلك الحكم الوطني في العراق ٠

وهكذا يتضح لنا من استعراض العلاقات السياسية التـي كانت تربط الـدول والممالك المختلفة في العراق القديم بعضها بالبعض الاخـر او بالدول والممالك المجاورة بأنها كانت على درجة كبيرة من التطور والنضـج وانهـا اتبعت ، ومنذ اقدم العصور المعروفة لدينا من خلال النصوص المسماريـة ، اساليب وطرقا سياسية ودبلوماسية كانت الاساس الذي قامت عليه فيما بعد القوانين الدولية سواء كان ذلك في استخدام الســفراء والمندوبين وارسال الرسائل الملكية وعقد المفاوضات وتوقيع المعاهدات والاتفاقات الثنائية وتوثيقها بالقسم اوباســتخدام اســاليب التحكيــم الدوليــة واقامــة الاحـلاف العسكرية والسياسية التي تضم اكثر من دولتين او بالطقوس والمراســيم التي كانت ترافق كل ذلك والتي تطورت وتبلورت فيما بعد لتصـبح جـزء من مراسيم عقد المعاهدات الدولية ٠ ان ذلك يعكس لنا دون شك صفحة مشرقة من تاريخ العراق القديم ظلت اثارها قائمة على مر العصور ولم تؤثر فيها فترات السيطرة والاحتلال الاجنبي التي اعقبت الحكم الوطني في العراق ٠

اهـم المراجـع

اوبنهايم ، بلاد مابين النهرين ، شيكاغو ، ١٩٦٤ ، ترجمة سعدي فيضي .

د . سامي سعيد الاحمد ، الاتفاقيات العسكرية والمعاهدات في العراق القديم ، بحث مقدم الى المؤتمر العلمي الاول لجمعية المؤرخين والاثاريين في العراق ، ١٩٨١ .

د . سامي سعيد الاحمد ورضا جواد الهاشي ، تاريخ الشرق الادنى القديم ، بغداد .

ساكز ، عظمة بابل ، لندن ١٩٦٢ ، ترجمة د. عامر سليمان .

د. عامر سليمان ، القانون في العراق القديم ، الموصل ١٩٧٧ .

كونتنو ، الحياة اليومية في بلاد بابل واشور ، ١٩٦٥ ترجمة سليم طه التكريتي .

كريمر ، السومريون ، شيكاغو ، ١٩٦٢ ، ترجمة د . فيصل الوائلي .

كريمر ، من الواح سومر ، ١٩٥٦ ، ترجمة طه باقر .

طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ، ١٩٧٣ .

وليد محمد صالح ، العلاقات السياسية للدولة الاشورية ، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة بغداد ، غير منشورة ، بغداد ، ١٩٧٦ .

H.W.F. Saggs, Everyday Life in Babylonia and Assyria, London, 1965.

——, The Might that was Assyria, London, 1984.

D.J. Wiseman, The Vassal - Treaties of Esarhaddon, London, 1958.

——, Chronicles of Chaldean Kings, London, 1961.

الفصل الخامس

الزراعة والري

د . سامي سعيد الأحمد

كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الزراعـة

اشتهر العراق خلال عصوره كافة بالزراعة ، وصارت خصوبة تربته مضرب الأمثال عند الكتاب الكلاسيكيين • فقدر هيردوتس من القرن الخامس ق.م غلتها بمائتي ضعف وسترابون من القرن الاول بثلثمائة وهي ارقام توضح برغم عدم معقوليتها سمعة العراق قديما بالزراعة والتي نجد صداها بمصطلح (ارض السواد) الذى عرف به العراق في العصور المتأخرة لسعة وامتداد اراضيه المزروعة الخضراء • واقترن اسم العراق عند عرب الجزيرة قبل البعثة النبوية بالثروة والرخاء المعتمدين على الزراعة فقال زهير بن ابي سلمى :

تغل لكم ما لا تغل لأهلهـا   قرى بالعراق من قفيز ودرهم

ينقسم سطح العراق الى منطقتين رئيسيتين : السهل الرسوبي الجنوبي (سـومر واكـد ، عند الاقدمين) ثم منطقة المراعي ابتداء من شمال تكريت

المرتبطة بسفوح التلال والجبال حيث تنمو الأشجار والنباتات الطبيعية وفيها مناطق خصبة يمكن زراعتها بالاعتماد على الديم بالشتاء والربيع وهي بلاد اشور عند الاقدمين • وتنمو في الاخيرة الاعشاب والازهار بصورة وفيرة في الربيع الى جانب توفر اشجار البلوط والصنوبر والحور في المناطق الجبلية •

وفي مرتفعات شمالي العراق تم الاهتداء الى الزراعة في حدود الالف الثامن ق • م حيث المطر الوفير والمناخ الملائم لنمو الحنطة والشعير فقد زرع سكان جرمو (وهي أقدم مستوطن زراعي قريب من چمچمال) الحنطة ذات السنابل بصفين من البذور ، والتي ماتزال اقرب الى الشـــكل البري • ولعل اصل زراعة حنطة الخبز متأصل بجرمو حيث عثر في بيوت طبقاتها الاخيرة على تنانير • كما زرعوا الشعير والعدس والحمص •

والى جانب الحنطة والشعير عثر على بذور الكتان في موقع حسونة وهو نبات يتطلب ارواء • كانت الزراعة مهمة عند العراقيين القدامى حيث يعتمد عليها رخاء البلد لذا كثرت عندهم الهة المياه والخصب وقسم جاكوبســون الدين العراقي القديم الى اربعة اطوار جعل الاول مرتبطا بالطبيعة وقواها المؤثرة على حياة الانسان وفعالياته وبرزت به لذلك الهة الزراعة والارواء ، والخضرة فكانت لهم الهة خاصة بالأهوار والبساتين الجنوبية واخرى بالمناطق الرعوية والحقول • فكان اله الماء ايا وزوجته ربة الارض من الالهة المهمة • وللحبوب الهها الخاص الذي يقيها مخاطر الافات ونليل ربة الحنطة ونداباربة الشعيروهكذا•وقدمت الىالالهة بواكيرالفواكهوالمنتجات الزراعية•وصورت اختام العصر شبه الكتابي نباتات وسنابل وقطعان ماشية ، وحوت مزهرية من نفس الفترة صور عيد رأس السنة بالاضافة الى ذلك • وبالمنظر الاعلى

رمزان للالهة الام وكاهن يقدم سلة فاكهة الى امرأة لابد وان مثلت هذه الالهة • كلها تعكس الدور الذي لعبته الزراعة والرعي في حياة السكان خلال ذلك العصر • ونقرأ في الكتابات الادبية تشبيهات منتزعة من الحياة الزراعية مما يدل على تأثيرها الكبير عليهم ، فشبهوا تحمل الظروف القاسية بصبر القصب وصار الفلاح عند السومريين رمز السعادة • وذكر انكيدو لكلكامش عند وصفه عالم الاموات ان الرجل ذا الستة اولاد هناك سعيد مثل الفلاح • وجاءت تشبيهات كاتب من العصر البابلي القديم منتزعة من عالم الزراعة بما يشير الى التعلق بها (ان امي مطر السماء ، انها الماء الذي يروي احسن البذور ، انها الحصاد الوفير الذى يقدم محصولا ثانيا ، انها بستان من البهجة مملوءة بالمرح، انها شجرة الشربين المملوءة بالمخاريط، انها الفاكهة الاولى المبكرة، انها قناة تجلب المياه الوافرة الى قنوات الارواء انها تمر دلمون الحلو في موسمه) •

قام العراقيون منذ اقدم الازمنة بتتبع الخصائص الطبيعية وتأثيراتها على الزراعة فعرفوا موسم الفيضان والاحوال الجوية وموسم كل محصول من المزروعات الصيفية والشتوية واتقنوا مسح الاراضي لتحديد ملكية كل ارض وكانت لهم أوزان ومكاييل ومقاييس ثابتة • ومنذ العصر السومري القديم عرفوا التقويم واحتساب الزمن وجاءت اسماء بعض الاشهر السومرية مشيرة الى فعالية زراعية تنجز في ذلك الشهر برغم اختلاف اسماء هذه الاشهر من مدينة لاخرى • فسمي الشهر الثاني عشر بشهر حصاد الشعير واذا لم يكن الشعير ناضجا في بدء ذلك الشهر وضعوا شهرا كبيسا حتى يقع حصاد الشعير دائما ضمن ذلك الشهر • واطلق على شهر اب في مدينة لكش اسم عيد اكل الدخن • وسمي اول شهر بالسنة باسم شهر انتاج الحقل وكان على

ما يظهر مطابقا لنيسان • وكان اسم احد الاشهر زمن سلالة اور الثالثة شهر تذرية الحبوب ومن اسماء الاشهر الاشورية الاولى كان شهر القرع وشهر البطم الذي يدلَ (اذا صحت القراءة) على علم الاشوريين بالزراعة المتخصصة منذ اوقات مبكرة •

وقسم الدكتور احمد سوسة تطور الزراعة عند السومريين منذ عصورهم الاولى في جنوب العراق الى ثلاثة اطوار :

الاول : يبدأ منذ استيطان السومريين الاوائل وبدء حياتهم الزراعية الاولى في الجزيرات المتناثرة بمنطقة الاهوار • وكانوا خلاله قليلي العدد ولذلك لم يمارسوا الزراعة على نطاق واسع فاستغلوا موارد الهور الاخرى كالسمك والطيور • فكانت الزراعة محدودة وبدائية دونما ارواء حيث كانوا يستفيدون من رطوبة التربة (طريقة الرى الحوضي) مع توفر النخيل على ضفاف الانهار •

الثاني : عندما كثر السكان وازدادت الماشية فلم تعد جزيرات الهور كافية لاعاشتهم فبدأوا باحياء اراضي جديدة من مناطق الاهوار بتسويرها بسدود ترابية وتجفيفها وسقي المزارع سيحا باحداث فتحات في اسوارها للارواء قدر الحاجة • ونظر لقلة عمق المياه لم يكن الضغط على هذه السدود شديدا مما يتطلب اعمالا ضخمة ولم يجابه الفلاحون بهذه المنطقة مشكلة الملوحة في التربة لتوفر الماء وضمان الطبيعة لاستمرارخصوبة التربةواستمر العمل بتجفيف الاهوار واستغلال ارضها فاستصلح اورنمو اهوارا واحاطها باسوار لحمايتها من الفيضان•

: وكان اكثر نضجا وانتاجا من سابقيه وحدث خلاله تغير جوهري باسلوب الزراعة • فصارت الجداول الطويلة تشق من الفرات لتصل الى اراضي زراعية بعيدة وانشأوا السدود والمبازل والخزانات الامر الذى كسر عزلة السومريين في الاهوار الى اراضي زراعية شملت

معظم المنطقة الجنوبية . ولما كان مطر هذه المنطقة بالشتاء لا يكفي لانضاج المحصولات الشتوية ، وصيفها طويلا جافا فقد استعملوا اساليب الري الاصطناعية من حفر جداول وقنوات لايصال الماء سيحا الى الاراضي الزراعية .

وتوضح المقالة السومرية في الفلاحة (من حوالي ١٧٠٠ ق.م) مدى تقدم العراقيين انذاك بالزراعة والمامهم باصولها ومواعيدها . وهي سلسلة من الارشادات ، موجهة من فلاح سومري لولده ادعى انها من وحي الاله نينورتا لتكون عنده كدليل للفعاليات الزراعية الواجب أتباعها طوال العام لضمان محصولٍ وفير . فينصحه ان يهتم بالسقي وان لا يجعل الماء يطغى فوق الحقل وان يراقب الارض الرطبة بعد انحسار الماء خشية دخول الابقار والسابلة اليها . واكد على وجوب تطهير الحقل من الحشائش الضارة والاشواك وان يجند اهله وعماله للعمل واحضار كل الادوات الضرورية والسلال واوصاه بالتأكد من وجود ثور احتياطي عنده تحسبا لما قد يحدث لثوره فيتأخر العمل. واوصاه بضرورة تقليب الارض مرتين بالمعول مرة وبالمجرفة مرة أخرى وان يستخدم المطرقة لتكسير كتل الطين . وطلب منه ان يراقب عماله مخافة تهربهم من العمل، ثم ينصح بوجوب القيام بالحرث والبذر معا وان يحرث ثمانية اخاديد بكل قطعة ارض مساحتها عشرون قدما ويتأكد من وضع البذور في الارض بعمق متساو . ثم ينصح بوضع بذور الشعير على عمق اصبعين واذا لم يكن بامكان البذور اختراق التربة فيلزم تغيير سكة المحراث . ويعطيه تعليمات عن كيفية الحرث كحرث انواع مختلفة من الاخاديد مستقيمة ومائلة وتطهير الاخاديد بعد البذر من كتل الطين اليابسة حتى تخرج النبتة بسهولة . واوصاه ان يتلو عند خروج النبتة دعاء الى الهة جرذان الحقل والحشرات مخافة ان يضروا بالنبتة النامية ، وليبعد الطيور لئلا تنتزعها . واخبره ان يسقي الشعير مرتين في البداية ، الاولى عندما ينمو الى حد يغطي قعر الاخاديد ، والثانية عندما

ينمو اكثر ليغطي الحقل وهكذا • ثم يوصيه بمراقبة النبتة الخارجة آنذاك مخافة ان تصاب بمرض ، واذا نما الزرع عليه ان يسقيه ثالثة ورابعة ويقطع النبتة ابان قوتها اى بالوقت الملائم •

ويطلب منه ان يبدأ بدرس المحصول فورا بعد الحصاد بمزلج او زحافة تجر فوق حزم الغلة المكدسة ويؤدى صلاة حالما تنسخ الحبوب وتذرى بعد ذلك بالمذارى لخمسة ايـام توضع بعدها على عيدان مصفوفـة لتنقيتها من الاوساخ • وكان الفلاح يزرع حقله بطريقتين الاولى بحرث الارض ثم بذرها وتغطية البذور وفي الطريقة الثانية يربط قمع البذور بالمحراث لضمان التوزيع المتساوى للبذر •

ترينا الاختام الاسطوانية والمنحوتات الكثير من الصور المتعلقة بالزراعة ففي واحدة نرى امرأة تحمل مذراة بيدها مما يدل على مشاركة المرأة الرجل في اعمال الحقل • وتلقى الكثير من الوثائق والمستندات اضواء على الزراعة واحوال الاراضي •

وترينا شرائع العراق القديم مدى الاهتمام بالزراعة وتنظيم معاملاتها • فتشريع لبت عشتار يحتم على البستاني تسليم الارض البور التي تعهد بغرسها كاملة الى صاحبها والا فان الجزء البور المتبقي يصبح من حصته • واشترط حمورابي على البستاني تعميرها لاربع سنوات وفي الخامسة يقتسم صاحب الارض والبستاني البستان بالتساوى • وللاول ان يختار نصيبه ، واذا ترك البستاني قطعة غير مغروسة فتحتسب من حصته • واذا أهمل البستاني الارض بدل غرسها فعليه ان يعوض لصاحبها عن محصول سنة بقدر محاصيل الحقول المجاورة • وعالجت مواد قانونية انزال الضرر بحقول الاخرين فمواد في قانون اورنمو تقضي بمن يزرع حقل شخص اخر دون موافقته واعتراض الاخير رسميا عليه أن يخسر ما صرفه على الحقل ، ومن يسبب اغراق حقل مزروع يدفع لصاحبه غرامة عينية ، ومن يؤجر حقلا ولم يزرعه يدفع غرامة عينية ايضا

الى صاحب الحقل • والزم حمورابي من يترك حقلا استأجره ان يدفع لصاحب الحقل او البستان غلة بقدر الحقل المجاور • واذا نبت الحقل المتروك من نفسه فعلى المستأجر تقديم محصوله لصاحب الحقل واذا تركه المستأجر بورا لثلاث سنوات ونبت من نفسه في الرابعة فعلى المستأجر انذاك ان يقدم المحصول الى صاحب الحقل اضافة الى غرامة حددها القانون•واوصت مادة في تشريع حمورابي بعدم الاذعان لتذمر الفلاح والعمل على تطبيق العقد معه في وقت سمحت مادة اخرى فيه على تأجيل المدين لما في ذمته من ديون الى السنة القادمة انْ احرقت الصواعق محصوله او غمره الفيضان واعفته من دفع الفائدة عن تلك السنة • وحتمت مادة على الراعي ان يستحصل موافقة صاحب الحقل الذي ترعى فيه مواشيه والا فعليه ان يدفع غرامة اضافة الى تنظيفه الحقل وحمى قانونا لبت عشتار وحمورابي الشجرة وفرضا غرامة على من تسول له نفسه بقطع واحدة من حقل شخص اخر • وفرضت قوانين حمورابي غرامات على مخربي الات الزرع تختلف باختلاف الآلة (خمسة شاقلات عن المحـرات ، وثلاثة عن المسحاة او الجرافة) تعطى لاصحابها • وأنزل قانون اشنونا عقوبة الموت على من يقبض عليه في حقل اخر ليلا وبغرامة في اثناء النهار •

الآلات الزراعية

استعمل العراقيون القدامى شتى الادوات الزراعية فاستعمل سكان جرمو السكاكين والمناجل الصوانية • وعثر في موقع كريم شاهر على شفرات منجلية واحجار لدق الحبوب • ووجد في الطبقة الثالثة من موقع حسونة منجل بشفرة صوانية لابد وان لصقت بالقار في ايدي خشبية لم تبق • واعتمدوا في الحرث على الة حجرية مثلثة حادة الحافة واستعملوا اطباقا من الفخار لفصل الحبوب عن السنابل • ووجدت في أريدو مناجل من نوع استعمل في عصر العبيد • وفي طبقات موقع العبيد عثر على المنجل الطيني الى جانب الصواني وهو الذي يميز عصر العبيد ولابد وان كانت له اهمية في عملية الزراعة ربما كانت الحاجة الملحة

الى الة غير غالية الثمن ويمكن تعويضها بسهولة لسد حاجة مواسم الزراعة الغنية التي كانت تتاح ارواء اكثر سعة وكفاية ، وكان ذا حافة حادة وقد احرق بالنار طويلا فصار صلبا للغاية • وبسبب عدم صلاحية مادة الطين لان تكون آلة قاطعة عالجوها بالحرق الشديد • وتستعمل حافة الشفرة الخفيفة لقطع المحصول • ومثل هذا المنجل يكون هشا سهل الكسر مما يفسر في الاغلب كثرة ما وجد منه ، وكان كل واحد من المناجل المكتشفة تقريبا مكسورا • ويمكن القول ان سكنة عصر الوركاء قد جلبوا معهم المنجل النحاسي رغم ان اول المناجل المعدنية قد وصل من العصر السومري القديم • وتحسنت المناجل على مر الزمن خاصة بعد شيوع استعمال المعادن التي صارت تصنع منها •وفي منحوتة اشورية نرى الملك آشور ناصربال الثاني يحمل منجلاً • واستعمل العراقيون ايضا الفؤوس التي منها المر وكذلك المحراث الذى استخدموه منذ العصر السومرى القديم للحرث ثم للحرث والبذر معا • وكانت طريقة البذر البدائية تتم بوضع البذور بثقوب محفورة بالارض بواسطة عصا مدببة • وحفر الاخاديد باليد قد استمر لمدة طويلة • واستعمل سكان موقع كريم شهر الشفرات المنجلية منذ حوالي الالف العاشر ق • م • وربما كان المحراث الاول خشبيا يقوده الرجل بنفسه دونما حيوان ثم استعمل الحيوان لجره ، وادى هذا التغيير الى انتقال الزراعة من حرث القطع الصغيرة الى زراعة الحقول • ولا نعرف متى تم ذلك لان المحراث الذي يقوده الثور كان معروفا في جنوب العراق منذ نهاية الالف الرابع ق • م وعرف العراقيون القدامى انواعاً عدة من المحاريث التي تجرها الحيوانات ، فهناك النوع البسيط الذى يسوقه رجل واحد نراه مصورا على ختم وهو ممسك بيد دفة المحراث ويحث بالاخرى الثور على السير • ونشاهد في ختم اخر رجلا يمسك دفتي محراث بيديه الاثنتين وشخصا آخر يضغط على سكة المحراث كيما يثبتها في اخاديد الحرث بالارض بينما يحث شخص اخر الحيوان الذى يجر المحراث على السير • وفي ختم اخر نشاهد محراثا تجره

اربعة ثيران يسير كل منها خلف الاخر ويشرف على عملية الحراثة اربعة رجال يمسك احدهم بدفتي المحراث ويضغط ثان على السكة بينما يحث اثنان الثيران بالسوط على المضي بالعمل • وهناك نوع اخر ربما توصلوا الى معرفته بعد ذلك وهو اكثر تعقيدا ارفق به قمع باعلى انبوبة عمودية مسندة من الجانبين تنزل الحبوب منه الى الانبوبة ومنها الى الاخاديد التي يشقها المحراث • وقد وصلت الينا صورته في ختم من القرن الرابع عشر ق •م وربما كان معروفا من عصر اسبق ويجر هذا المحراث ثوران بسائق واحد ويمسك رجل اخر بدفتي المحراث وهناك رجل ثالث مهمته القاء البذور في القمع • وللمحراث رأس دقيق كالسن يحفر الاخاديد بالارض • وصار المحراث بالعصر الاشوري المتأخر اكبر واكثر تعقيدا كما يظهر من صورة في دور شروكين وبمنحوتة لاسر حدون •

ويظهر ان العراقيين القدامى قد نظروا الى المحراث نظرة تتضمن شيئا من القدسية • فصورت اختام عدة تقديم المحراث الى اله ، ففي واحدة نرى ثلاثة كهنة يقدمونه الى اله خصب جالس وفي ختم آخر نرى الهاً ممسكاً بمحراث وفي ختم ثالث نرى كاهنا يحمل محراثا يقدمه الى اله • وفي الغالب كانت هناك طقوس خاصة بتقديم المحراث الى الاله فيصور ختم شمش حاملا بيده اليمنى محراثا وامامه متعبد يسكب في اناءين وقد عزوا اختراع المحراث الـــــى آبـــو وتموز الهي الخصب • وصار ننورتا هو اله المحراث وقد يكون اسمه رب المحراث • وصار المحراث رمزا للاله ننكرسو • وصور في ختم الاهان يقودان محراثا يجره اسد وتنين مما يدل على قدسيته • وكان المحراث أحد شارات السومريين المقدسة وعثر على صورته في مقبرة اور الملكية من العصر السومري القديم ، كما صور على حجر حدود من الفترة الكشية كرمز لاله معين • وكان هناك طقس ديني يجري في بداية كل موسم حراثة يشترك فيه الكهنة والحكام لابد وان كان المحراث عنصره الاساسي •

وعرفوا منذ العصور الاولى المسحاة التي كانت في البداية مصنوعة من

الحجر الصلب ومهندمة من الحافات ثم عملت بعد ذلك من المعدن • واستعمل سكان عصر العبيد بوادى الفرات الجنوبي المجارف الصوانية الثقيلة التي لا تكون ذات فعالية كبيرة في بيئة طموية مما ادت دون شك الى بطء العمل ومحدودية مساحات الاراضي المزروعة اضافة الى كون مادتها مجلوبة من الخارج مما يزيد التكاليف • ومن الالات الاخرى الجرجر وقد عثر في قبر بو ـ آبي بمقبرةاور الملكيةعلىواسطة تجرهاالحمير الوحشيةخاليةمن العجلات ظهر عندما اعاد المنقبون تركيبها كونها زلاقة تتألف من كرسي خشـــبي طـويل يقف على قطع خشبية منزلقـة قصيرة مع حافـة امامية مرتفعـة تماثل الجرجر • وتستعمل هذه الآلة في دراسة المحصول وهي مصنوعة من الخشب وتجرها الحيوانات التي تسير عليها مرات عدة فتنكسر السنابل وتقطع السيقان الى قطع قصيرة لاستعمالها كعلف • كما مارسوا طريقة دراسة المحصول بربط عدد من الحيوانات وتسييرها مرات عدة فوقه • وعرفوا ايضا المذراة لفصل البذور عن التبن •

المحصولات الزراعية

كانت اكثر المحصولات شيوعا خاصة في الجنوب الشعير والحنطـة وبالاخص الاول • واول نوع حنطة زرع كان احادي البذرة الذي تأصل في الشرق الادنى ولكن طغى عليه حتى في عصور ما قبل التاريخ الشعير بنوعيه والحنطة ثنائية البذرة التي تأصلت في جبال زجروس ووصلت منها الى جنوبي العراق والتي شكلت في عصور ما قبل التاريخ على ما يظهر خمس المحصول والباقي شعيرا • وهناك انواع عدة من الحنطة في العراق منها مايعرف بالحنطة بطيئة وسريعة النضوج وتلك التي تلائم مختلف البيئات • وان الحنطة التي عثر عليها في

جرمو من نوع غيرقياسي فبعض سنابلها رديئة ورخوة والاخرى مكتنزة وقريبة من نوع ثنائية البذرة•وسرعان ماحلت الحنطة العارية محل ثنائية البذرة وشاعت في عصر العبيد • وعثر في موقع جمدت نصر على صنف جديد هجين صار النوع السائد في العراق • وصورت سنابل الحنطة والشعير في كثير من الاختام الاسطوانية مما يدل على اهميتها • فنرى على ختم أسطواني صورة ربة الزراعة جالسة وهي تحمل بيدها اليمنى سنبلتين من الحنطة والشعير وباليسرى سنبلة اخرى وثلاثة اشخاص يقفون بخشوع امامها يقدمهم الكاهن الذي يحمل بيده اليمنى سنبلة • وبختم اخر صورة الربة باو جالسة تحمل سنبلتين من القمح وامامها ثلاثة كهنة تحيط بهم سنابل القمح •

شاعت زراعة الشعير في الجنوب الذى نعرف عن بدء زراعته في جرمو بشمال العراق • وتروى اسطوة سومرية ان الهين اخوين قد ادخلا الشعير الى سومر جلباه من الجبل حيث خزنه الاله انليل • فاصل الشعير الجبلي واضح بهذه الاسطورة • والشعير الذى زرع في جرمو من نوع شعير الدورتين وهو نوع وسط بين الشكل الوحشي والمزروع ويبرهن على العلاقة المباشرة بينهما • ويتكلم مثل سومرى عن نوعي الشعير ، المتقدم والمتأخر (بالنضج) • وعثر على اثار لشعير في موقع مطاره جنوب كركوك وفي حلف • وكانت اسعار الشعير دائما ارخص من الحنطة وتختلف اسعاره من فصل لاخر وتكون ارخص وقت موسمه • والمعروف ان الشعير ينضج قبل نضوج الحنطة بحوالي اسبوعين لذا يكون حصاده مبكرا بالنسبة للحنطة • وزرعوا ايضا الذرة واتتنا ما يمكن ان تكون سيقان ذرة نابتة من كتفي الالهة باو الجالسة في صورة ختم • وباخرى ربة الزراعة جالسة حاملة بيدها غصنا يماثل الذرة ونبت غصنان من نفس النبات من كتفيها • وعثر على حبوب ذرة في مدفن

في اشور • وكانت زراعة الماش والعدس والدخن والمحصولات الاخرى معروفة منذ عصور ما قبل التاريخ •

اما الرز فقد دخلت زراعته العراق متأخرة حيث بدأت حوالي القرن الخامس ق•م وقبل ذلك ادخل سنحاريب القطن الذى وصف شجرته بالشجرة التي تحمل صوفا•والغريب ان القطن كان معروفا في منطقة الخليج العربي في عصر سبق دخوله العراق وان اتصال هذه المنطقة بالهند حيث موطن القطن الاصلي كان قائما منذ بداية الالف الثاني ق•م • وزرع العراقيون القدامى السمسم ايضا ، ومعناه بالسومرية حب شجرة الزيت منذ عصور قديمة رغم ان النصوص التي ذكرته كثرت بعد سلالة اور الثالثة • وكان غاليا ونادر الزراعة في شمال العراق وحتى في العصر السرجوني حيث تحسنت زراعته في بلاد اشور • ونعرف ان قيمته زمن اشور بانيبال كانت اربعة اضعاف قيمة الحبوب ، وفي الغالب كان يستورد الى الشمال من الجنوب واستخرجوا منه الزيت الذى استعملوه لشتى الاغراض •

كان القصب ينمو بصورة تلقائية في منطقة الاهوار منذ اقدم الازمنة وشكل عنصرا هاما في الاقتصاد فكانت الماشية تقتات عليه ويستعملونه عند تكامل نموه لبناء البيوت وصنع الحصران • ووردت في النصوص منذ العصر السومرى القديم منتجات المنطقة الجبلية التي جلبوها دون شك من هناك • استعملوا الفستق الذى عرفوا منه نوعين ثم اللوز الذى اسموه اللوز الحلو وكذلك البلوط القرمزي ويلقي ابو محمد عبدالله بن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الادوية والاغذية الضوء على وجود شجرة بلوط بشرق العراق تختلف عن البلوط الاعتيادي يلتصق بشجيرتها دود يجمعه الناس في

زمانه ويجففونه بالشمس ثم يسحقونه لاستعماله كمادة صباغة . فالسومريون لابد وانهم عرفوا ذلك وسموا بسببه شجرة البلوط هذه بيلوط الدودة .

كما زرعت البساتين منذ العصر السومري القديم . وفي ظلال النخيل زرعوا انواع الاشجار الظلية فمن ذلك العنب الذي عرفوه منذ ذلك الوقت . وتذكر اسطورة ننورتا والتنين كور السومرية ان هذا الاله بنى جبلا على جثة كور وزرعه اشجارا منها شجرة العنب ونقرأ في ملحمة كلكامش عن مشاهدته العنب الاسود خلال رحلته في الغرب مما يدل على عدم وجوده في العراق آنذاك ولم يدخل العنب شمالي العراق الا في الالف الاول ق.م حيث شاعت زراعته . ونعرف من احصاء حران من العصر الاشوري المتأخر ان جميع البساتين كانت مزروعة بالعنب الذي بلغ عدد اشجاره من ٢٠٠٠ ـ ٢٩ الف . وهناك منطقة بلغت اشجار العنب فيها ٢٨٢ الف واخرى ٤١ الف . وزرع العراقيون القدامى في البساتين منذ عصور اولى البنجر الذي عرفوا منه نوعين الاحمر والابيض ثم الثوم الذي عرفوه من عصور قديمة وكان شائع الاستعمال . ثم البصل ونقرأ عن مزرعة للبصل تزيد مساحتها عن ٣٥٠٠ متر مربع . وعرفوا الكراث والرشاد كما انهم زرعوا التين الذي ذكر ان نبوخذنصر الثاني قدم قطعا مجففة منه الى الالهة . وقد عرف العراقيون التين منذ العصر السومري ، وورد في لوح من تل حرمل اربعة انواع منها تين الجبل وتين اكد. وجاء في لوح من اوغاريت بشمال سورية نوع من التين اسمه سوبارتو مما يدل على جلبهم اياه من شمالي العراق . ثم التفاح الذي جاء ذكر انواع عدة منه في نصوص من العصر الاكدي واور الثالثة وذكر لوح تل حرمل أيضاً سبعة انواع كما ذكر استعمال خشب التفاح بالبناء منذ سلالة بابل الاولى . وذكر التفاح في ترتيلة ترقى الى العهد البابلي القديم كما زرعوا المشمش الذي كتبوه برمزين يعنيان تفاح الجبل مما يدل على جلبهم اياه

من منطقة جبلية • وعرفوا السفرجل والاترج الذى ذكر الفيلسوف اليوناني ثيو فراستوس من القرن الثالث ق•م وجوده في العراق وقال پلني الكبير ان البعض يسمي شجرته بالتفاح الاشوري مما يؤكد أصلها العراقي • وجاء في نصوص القصر الاكدي ذكر ثمر قد يكون الزعرور واخر اسموه كميشرو ربما الكمثرى وزرعوا الرمان الذي عرفوا منه ، بدليل النصوص ، عدة انواع حيث جاء ذكر رمان عسلي ورمان حامض وذكر الرمان في نصوص من اور الثالثة مع استعمال قشور الرمان في الدباغة • وهناك نوع سمي برمان الملك ربما كان اكبرها حجما واحلاها مذاقا • اما التوت والنبق فقد عرفوهما من اقدم الازمنة •

جاءتنا قائمة باسماء مزروعات بستان مردوخ ابلا ايدينا من القرن الثامن ق •م في جنوبي العراق نجد فيها محصولات معروفة الان مثل اللفت والفجل والسلق والثوم والبصل والرشاد واخرى يمكن زراعتها ولكن تزرع بقله كالكزبرة والخشخاش والكمون ، وكثرت البساتين في القطاع الخصب جنوب تلال سنجار ، فهناك وثيقتان تذكران بستانين في منطقة سنجار حوت أحداهما على ٢٤٠٠ شجرة فاكهة • وزرع سنحاريب البساتين في نينوى التي احضر لها اشجارا من الخارج وحتى اطلق بها طيورا وحيوانات وقد تأقلمت الاشجار للبيئة الجديدة على حسب قوله بدرجة مدهشة • وفي جانب القصر زرع بستانا شبّه كثافة اشجارها بجبال الامانوس (شمال غرب سورية) غرس فيها انواع الزهور والنباتات العطرية واشجار الاثمار وما ينبت في الجبال والسهول وانشأ فيها مستنقعا اطلق قربه طيورا وخنازير وايائل • وقد زرع الزيتون في المثلث الاشوري والذي لم يكن من نوعية جيدة •

كانت اسعار البساتين اغلى بكثير من الاراضي وتختلف قيمتها عن بعضها باختلاف موقعها وكثافة انواع اشجارها • وكانت تلحق ببعض المعابد بساتين تتم فيها بعض مراسيم عيد رأس السنة • ونعرف ان بعض

الملوك جلبوا اشجارا من المناطق التي فتحوها وزرعوها في العراق • فسرجون الاكدى جلب انواعاً من الاشجار التي يمكن زراعتها في البلاد كالتين والعنب وبعض انواع الورد • وفي حجر حدود من الفترة الكشية نرى صفا من رجال اجانب يحملون منتجات بلادهم التي من بينها صندوق به نبتة مغطاة بالاوراد • ونعرف عن استعمال العراقيين القدامى للاسمدة في البساتين • ومن التهم التي وجهت الى حاكم في نوزى ابتزازه الاموال لدفع اجور عمال سمدوا لـــه بساتينه •

كانت النخلة اهم شجرة في البساتين ويصعب معرفة المكان الاصلي الذى ادخلت منه النخلة الاولى الى العراق وقد تكون جزيرة العرب • كمـا لا نعرف وقت جلبها فقد يكون عصر العبيد ، وقد كثرت زراعتها في الجنوب فهي برغم كونها من الاشجار بطيئة النمو التي لا تعطي ثمرها الا بعد مدة بين ٤ـ٦ سنوات ان كانت مزروعة بالفسائل وبين ٨ـ١٥ ان كانت مستنبتة من النوى ، الا انها كانت محور الحياة الاقتصادية • فقد عرفت منذ القدم فوائد اجزاء النخلة المختلفة فاستعملوا ثمرها واستخرجوا منه انواعا عدة من الخمور ثم الدبس والخل • واستخدموا النواة كوقود ثم علف بعد سحقه وكـذلك السعف والجريد لعمل الاثاث ولوازم الحياة اليومية والالياف لصنع الحبال والخوص لعمل الحصران والسلال ثم الجذوع للوقود وتسقيف البيوت الخ • وجاء في نص بابلي متأخر ٣٦٥ فائدة للنخلة وعددت اغنية تدمرية فـوائدهـا بثمانمائة وقال سترابون ان النخلة تزود البابليين بكل حاجاتهم عدا الحبوب وعرف العراقيون منذ القدم تكاثر النخيل بالفسيل والتي هي الطريقة الغالبة ، وطريقة ترك المسافات بين النخل ، والتلقيح ، مدركين تكونها من جنسين منفصلين ذكر وانثى • وقد ذكرت النصوص درجات الجودة في بعض التمور ولا تزال التعابير المستعملة في زراعة النخيل وجنيه تحتفظ باصلها البابلي مثل تال وتبلية (الة التسلق) والشيص (التمر الردىء غير الملقح) • وصورت

النخلة على كثير من الاختام وظهرت في مسلة من عصر اسرحدون مع المحراث والثور والجبال الخ • وفي رسالة من العصر البابلي القديم يشبه المرسل امه بالنخلة طيبة الرائحة مدللادون شك بكونها مصدر خير وبركة • ولم تكن شجرة الحياة المقدسةفي المنحوتات الاشورية الاالنخلة ويحمل الملك بيده مايشبه الطلع •وكانت الربة انانا ربة مخازن (عذوق) التمر وزوجها تموز كان رب النمو والحياة الجديدة في النخلة وكان بيت هذه الربة هو بيت عذوق التمر •

وادرك العراقيون القدامى اهمية ترك المسافات بين النخيل الذي تم على اسس معروفة ففي وثيقة من لارسة حوالي نهاية القرن الثامن عشر ق•م كانت هناك ٢٥ نخلة في بستان مساحته نصف ايكر واذا افترضنا ان المسافة بين نخلة واخرى ٣٠ قدما فيكون عدد النخيل في الايكر خمسين نخلة • وقد عثر على نوى تمرفي طبقة من كهف شانيدر قرب راوندوز من العصر الحجري القديم الاعلى وهي منطقة لا ينمو فيها النخل مما يدل على كون النواة المكتشفة هناك نجمت عن نقل التمر من مكان الى آخر • والنخلة من الاشجار المعمرة وتختلف غلة النخلة باختلاف نوعها • وتشير نصوص قديمة الى ان بعض النخل يحمل مازنته ١٠٥ كيلو غرام وهذا لابد وان يكون من نوع الزهدي وتشير بعض الوثائق البابلية الى ان من بين طرق العناية التي كانت تبذل للنخيل هو تقليب الارض • وقد وردت بعض الواجبات التي يلزم مستأجر بستان النخل بالقيام بها كجزء من الاهتمام بالنخل منها تقليب الارض المزروعة ومراقبة ظهور الطلع والقيام بالتلقيح ، ومن العناية ايضا اضافة بعض الاسمدة • وحوت شريعة حمورابي مواد لحماية النخلة ففرضت غرامة على من يقطعها دون موافقة صاحب البستان واجبرت مادة اخرى البستاني الذي يترك البستان دون تلقيح ان يدفع لصاحبها قدر انتاج بستان جاره • وحددت مادة اخرى ما يأخذه

البستاني بثلث المحصول وثلثين الى صاحب البستان . وكانت اسعار التمور تختلف باختلاف النوع فالتمور النفيسة غالية بالنسبة للانواع الاخرى التي ارخصها الزهدي ، وكانت اسعاره في الموسم اقل عادة ، وتأخذ في الارتفاع بعد ذلك .

والنوع الاخر من الاراضي كانت المراعي ، وان الارقام التي وصلتنا عن الماشية زمن سلالة اور الثالثة عالية وترينا مدى كثرتها والاهتمام بالمراعي انذاك . فنص من زمن شولگي يذكر ٣٥٠ الف رأس من الغنم والماعز وما يعادل عشر هذا الرقم من الابقار . ونص اخر من نفس الفترة يذكر بضع مئات من الاغنام ذات الألية السمينة جيء بها من المنطقة الشمالية الغربية من العراق . وتدل هذه الارقام اضافة الى وجود قطعان خاصة بالدولة على المراعي الكثيرة الارواء على طول فروع الفرات الاوسط والمناطق المحيطة بها . وتلقي صناعة المنسوجات الصوفية من سلالة اور الثالثة اضواء اخرى على كثرة الاغنام . فهناك معمل استخدم تسعمائة عامل واستهلك ٦٤٣٥ طنا من الصوف الخشن مع الفي طن من الصوف الجيد الوارد من القطعان الملكية . وافترض بعض الباحثين بأنه كان هناك حوالي ٢٠٠ الف رأس من الماشية كانت تقدم الصوف زمن سلالة اور الثالثة في منطقة گرسو فقط ونصف مليون رأس من الاغنام والماعز في منطقة لگش ويظهر من قوائم موقع دريهم من سلالة اور الثالثة ان كميات الشعير والنخالة المعطاة الى الحيوانات في حضيرة غنم كانت في شهر واحد لقطيع يتألف من ٢٢ الف رأس من الغنم وحوالي الف بقرة . ومن علف فترة ثلاثة اشهر قدر عدد القطيع بخمسين الف راس من الماشية و ١٥٠٠ بقرة وهذا مركز واحد من عدة مراكز . كل هذه تلقي ضوءا على اهمية المراعي التي كانت ترعى بها هذه الاعداد والاهتمام بها وقتذاك . وحوت قوانين حمورابي عدة مواد خاصة بالرعاة مما يدل على شيوع هذه المهنة وكثرة الرعاة والاغنام .

اشتهر العراق منذ القدم بخصب تربته الذي يعزى الى نظام رى البلاد المستمر طوال السنة وهو الانجاز الهائل الذى قدمه العراقيون القدامى الى العالم ادى التوسع في الزراعة الى الاهتمام بتحديد ملكية الاراضي ومساحاتها وذلك نتيجة عملية مسح للحقل وحسابات رياضية • وقد وصلتنا خرائط عدة لحقول زراعية منها واحدة عثر عليها في اوما لحقل امر بمسحه الملك أمارسين مساحته حوالي مائة دونم مقسمة الى قطع صغيرة باشكال مختلفة • ووصلت الينا خارطة تعود الى منتصف الالف الثاني ق • م توضح الشبكة الاروائية وملكيات الحقول التي منها حقل ملكي والقرى واسماؤها وحددت المناطق المشاع استعمالها كالطرق والمراعي والاهوار •

الري

في الوقت الذي ما كان يحتاج فيه الفلاحون الاوائل في مرتفعات شمالي العراق لأية وسائل اروائية لتوفر المطر الكافي للزراعة والمناخ الملائم فالامر على العكس في جنوبي العراق • فلما كان المناخ في السهل الفيضي لم يتغير جذريا طيلة هذه الحقب فلا يمكن لسكنة السهل الاوائل ممارسة الزراعة دون طرق اروائية • وبدأ شق القنوات والترع بعصر العبيد في الجنوب وتل الصوان وجوخه مامي من عصر سامراء ولوحظ اثار قنوات قديمة في المنطقة المجاورة لاريدو والتي لابد وان كانت في عصور ما قبل التاريخ ذات صلة مباشرة بمجرى الفرات الرئيسي •

كان اساس ثراء المدن السومرية الاولى خصوبة التربة التي اعتمدت على الارواء ولابد وان كانت السيطرة على فيضانات الربيع بنظام واسع من السدود والقنوات عملية بطيئة • وكان الرخاء مدهشا الى الحد الذى اعتبر السومريون نظام الري المتكامل من عمل اله • وتذكر اسطورة ان الإله ننورتا قد حارب عفريتا في الجبال وانتصر عليه مما سبب ارتفاع المياه التي خربت كل ماشيده

البشر والالهة ولم تتوقف هذه حتى اقام هذا الاله حاجزا عظيما اوقف به الفيضان وسلط المياه الزائدة على دجلة • فالري لذلك بنظرهم عمل الهـي لخدمة البشرية وانقاذها •

ان العوارض الطبيعية لجنوبي العراق ليس من الضروري ان تكـون نفسها في العصور القديمة ففيه يجرى نهرا دجلة والفرات في سهول الغرين المترسب • وفي وقت ارتفاع المياه خلال فيضانات الربيع فان كميات المياه الغزيرة قد تجبر الانهار على كسر ضفافها العالية لاغراق مناطق واسعة من السهل المحيط بها وان تجد ممرا طبيعيا غير المجرى السابق • وقد حدثت مثل هذه التحولات في مجرى دجلة والفرات خلال العصور القديمة • ويسبب المجرى تحولا للمدن والسكان المعتمدين على قنوات تلك الانهار • ويكون مستوى الفرات عند الأنبار اعلى من مستوى دجلة بحوالي تسعة امتار ولما يصل موقع الناصرية يصبح اوطأ من دجلة بنفس هذا المقدار تقريبا • وهذا الامر ساعد على شـق جداول من ضفة الفرات اليسرى جنوب الرمادي تنحدر عبر المنطقة الواقعـة بين النهرين باتجاه دجلة ثم شق قنوات من ضفة دجلة اليمنى عند موقع الكوت تنحدر عبر الاراضي بين النهرين باتجاه الفرات • فالفرات (پوراتوم بالاكدية) ودجلة (اديجلات بالاكدية) ينبعـــان مـــن جبال شـــرق الاناضـــول التي ذكر شلمنصر الثالث وصوله اليــــها • ولــم يكــن مجراهمـــا في الجنوب على ما هما عليه الان وسنحاول اعطاء تخطيط وقتي مستند على المصادر المتوفرة والدراسات الحديثة لمجريهما القديمين • فقد اظهرت الدراسات للمنطقة القريبة من سپار وتل الدير وجود نهرين موازيين للفرات يظن انهمـا مجريان قديمان للفرات ويمثلان مراحل تحركه نحو الغرب الى مجراه الحالي غرب السـهل الطموي • واقترح (پيپ) التقاء دجلة والفرات في ضواحي سپار وبعد ذلك اتبع دجلة مجرى شرقيا ـ جنوبيا مستقلا تقريبا وموازيا لمجراه الحالي • وتظهر الادلة بان هذا المجرى القديم قد قل استعماله وترك حوالي

نهاية الالف الرابع ق٠م وقد تتبعه بيب لمسافة ٧٥ كم الى الجنوب الشرقي حتى يختفي عند الغراف ، وبذلك يصبح على مسافة ٣٠ كم من نفر ، فاذا كان هذا فعلا المجرى القديم لدجلة في الالف الرابع ق٠م فان هذا بالنسبة للباحث ادامز يؤكد فرضية بيب بان تأثير فيضانات الفرات هي التي اجبرت دجلة الى مجراه الشرقي ٠ وبذلك فان الكمية العظمى من ماء الفرات في الفترة بين الالف الرابع ق٠م والعصر الكشي قد تحولت الى الغرب ٠

كان مجرى الفرات الرئيسي يمر بكيش ونيبور وشروباك والوركاء واريدو ويتفرع منه شمال غرب كوثا نهر الاراختو (كرانيس) الذي تقع عليه مدن بابل ودلبات ومرد ويصب بالنهر الرئيسي عند الوركاء ٠ ونهر الايكلاتوم (الابكال وهو فرع الهندية الحالي) الذي يصب بالاراختو ٠ واخبرنا اريانوس عن سير الاسكندر الكبير في فرع الفرات (اراختو) حتى وصل نهر (الايكلاتوم) مما يؤكد تلاقي النهرين انذاك ٠ وتفرع من الفرات الى الشمال قليلا من سپار قناة زوبي (جمدة نصر عند البعض)التي تمر شمال تل جمدة نصر وتصب بمجرى الفرات الرئيسي شمال تل ابو الصلابيخ قرب الدغارة والتي لا نسمع عنها في العصور المتأخرة ٠ وعلى مقربة من سپار تتفرع قناة الارنينا (ربما جدول اللطيفية) التي ربما كانت تمر بكوثا وتصب بمجرى الفرات الرئيس شمال كيش٠وهناك قناة الاوتورونگال التي تأخذ الماء من ضفة الفرات اليسرى جنوب نفر وتمر بادب واوما وتل المدينة (بادتبيرا القديمة) وزبالوم (ابزيخ الحالية) حيث تذهب منها قناة الى لگش واخرى تمر بلارسا ثم تصب بالفرات جنوب الوركاء ٠ ويظهر من النصوص ان قناة الاوتورونگال على غاية من التنظيم الاروائي الفني حيث تمتد لاكثر من ١٣٠ كيلومتراً وانشئت عليها الكثير من النواظم والسدود وربما هي الجدول الذى ذكره اورنمو وجعله يحاكي البحر واعد له مبازل خاصة لصرف

المياه الزائدة الى الفرات • وعند بابل كانت تتفرع قناتان الاولى تسير الى كيش والثانية من الضفة اليمنى الى بورسپا ، وكانت هناك شبكة قنوات تربط الاوتورگال بشط الغراف • ويظهر ان الاراختو صار من حوالي سنة ١٠٠٠ ق•م الفرع الرئيسي للفرات • وفي بداية القرون الميلادية انتقل الى الغـرب حيث ترك خط مواقع الاستيطان شمال بابل وظهرت لنا لاول مرة ما نسميها الان قناة المحاويل • وفي العصر البابلي الحديث كانت هناك قناة تتفرع من ضفة اراختو اليسرى تسمى قناة نورس تسير في الغالب باتجاه نهر الدغارة الحالي • وكذلك جدول يأخذ الماء من ضفة الابكلاتوم اليسرى قرب قصبة الكفل الحالية سمي بنهر خابور • وهناك قناة صرتو (العاليــة بالاكديــة) التي قد تكون هي نفسها ارخوس عند الكلاسيكيين ونهر عيسى عند البلدانيين العرب • ولنهر عيسى فرع الصراة ربما احتفظ بالاسم الاكدي القديم للنهر• وتسير القناة باتجاه الكرمة الحالية بين دجلة والفرات مارة بمنخفض عقرقوف وتصب بمبزل الخر جنوب موقع بغداد • وكانت تقع على صدره بلدة فم البداة (فومبديثا) ذات الاهمية التجارية • ثم نهر ملكا الذي يأخذ الماء من ضفــة الفرات اليسرى ويتجه شرقا نحو دجلة ويسير بموازاة ضفتــه اليمنى حتى يصب به جنوب سلوقية (تل عمر مقابل المدائن) • وذكر بارحوشا بان نبوخذ نصر الثاني شق حال تسلمه السلطة نهر ملكا وشيد فوق مدينة سپار خزانا محيطه اربعون فرسخا (الفرسخ ٣ ــ ٤ ميل) وعمقه عشرون قامة (القامة ستة اقدام) واقام له بوابات يمكن فتحها لارواء السهل • ويظهر ان في مطلع العصور الميلادية امتدت قناة كوثا التي تأخذ الماء من الفرات شرقا لتقرب من دجلة • وتفرع من نهر الاراختو قبل وصوله بابل نهر سورا الاعلـــى ويســـتمر ســورا الاعلــى الى الجنوب الشرقي حتى يقترب من دجلة جنوب النعمانية الحالية فيسير موازيا لدجلة ثم يصب فيه • ويمر الفرات بعد الوركاء بناظم الدقدقة(على مسافة ميل ونصف شمالي شرقيزقورة اور)الذي شيد لتنظيم مياه الفرات نتيجة انخفاض مستوى الماء وضعف التيار ويتفرع

الفرات بعد الدقدقة الى نهرين(ادنون)الذي تقع عليه اور ثم اريدو •والثاني يستمر حتى الخليج العربي • ولا تزال اثار مجرى نهر الفرات القديم ما بين اور ومصبه في الخليج العربي عند خور الزبير يخترق قسما من اراضي هور الحمار الامر الذى يدل على ان النهر كان يمر بارض يابسة في هذا الجزء قديما • وكشف هاورد نيلسون في المنطقة ما بين نهاية هور الحمار الجنوبية على طول ضفة شط العرب الحالي اليمنى بين البصرة والسيبة شبكة كثيفة من جداول الرى القديمة • وقد يكون تلاقي دجلة والفرات وتكوينهما مجرى مشتركا حوالي القرن الاول ، حيث صور (پومپونيوس) ميلا تلاقي هذين النهرين وجريان النهر المشترك الذي يكونانه الى الخليج العربي •

وغير دجلة مجراه عدة مرات ومن المحتمل ان يكون مجراه الحالي هو نفسه خلال الالف الاول ق•م الذى ربما تحول في القرن الرابع الى مجرى الدجيلة وظل يسير بهذا الاتجاه حتى القرن السادس عشر حيث رجع بالتدريج الى مجراه الحالي • ولدجلة عدة روافد هي الخابور والزاب الاعلى والاسفل (زباتوس و كابروس عند الكلاسيكيين) وديالى (تورنات عند البابليين) والعظيم (ردانو عند البابليين) • ومن مشاريع دجلة التي نعرفها من الفترة التي سبقت التحرير العربي هو مشروع النهروان الذي كانت له قواطيل (مداخل) عدة تغذيه بالماء ، تتفرع من شرق دجلة قرب الدور الحالية ويجري بعدها موازيا دجلة ويمر بعدة قرى وقصبات منها باعقوبا (بعقوبة) حيث يلتقي عندها بديالى وينحدر حتى يصب بدجلة جنوب مدينة ماذريا قرب موقع الكوت • وقد شيد سد على نهر العظيم في المكان الذي يعبر فيه هذا النهر جبل حمرين لمنع المياه الكثيرة التي تتجمع في العظيم اثناء الفيضان من تخريب النهروان•

كان وادي الثرثار (ترتارا قديما) كما هو الان اوسع منخفض في العراق تصب فيه وديان عدة ترد من جبال سنجار وحواليها وطوله يقارب ثلاثمائة

كيلومتر • ويدل شكل الوادى الطولي الضيق وارتفاع حافته الشرقية واختلاف استقامة الوديان المرتبطة به على انه لابد وان نشأ نتيجة انكسار قشرة الارض وهبوط فيها • وكان نهر ديالى في اقدم عصوره يسير باتجاه جدول الروز الحالي مارا بمنخفضات المريجة والشويجة ويصب بدجلة قرب الكوت الحالية • ثم غير اتجاهه بعد ذلك وصار يسير لفترة طويلة في جدول الخالص الحالي ونعرف بان مجرى نهر ديالى القديم يبدأ بعد عبوره جبل حمرين في نقطة تقع على مسافة قليلة شمال المجرى الحالي ويوازيه ويسير باتجاه نهر الخالص الحالي وبعد ان يخترق منطقة اهوار يخرج ليسير جنوب غرب بعقوبةباتجاه الجنوب ثم الجنوب الشرقي حتى يصب بدجلة جنوب مصب نهر ديالى الحالي • وكان يتفرع من جانب نهر ديالى الرئيس (في المنطقة بين جبل حمرين ودجلة) فرعان اساسيان شمالي ويسير باتجاه جدول مهروت الحالي ويتفرع الى شعب عدة وتقع عليه مدن اشنونة ونيريبتوم القديمة وجنوبي باتجاه نهر دابان وعليه يقع موقع اشجالي • وهناك فرع يسير الى الشرق من الفرع الشمالي باتجاه جدول الروز الحالي وتقع عليه بعض المواقع ويظهر ان هذه المنطقة كانت قديما مملوءة بالاهوار •

تذكر النصوص المسمارية الكثير من اسماء القنوات والانهار ولكن من الصعوبة معرفة مكانهابالضبط • وقد وردتنا قوائم باسمائها من مكتبة اشوربانيبال • فهناك قنوات سميت باسماء الالهة واخرى باسماء اشخاص او اماكن او مدن او اسماء مميزة مثل القناة الوسطى وقناة بيت الحمار وباطوال مختلفة ابتداء من ١٢م الى ٤٢م وعمق من ٣ — ٦ وعرض بين ٦ — ٧٢ متراً • ونقرأ في نص اشارة الى مال مخصص لقناة مما يدل على تمويل الملوك لاصلاحها • ويذكر نص ان اهمال اية قناة لمدة شهرين يستدعي حضور السلطة • وكان هناك موظف واجبه النظر في اهمال اخراج الطين المتراكم في القنوات مع عمال دائميين مسؤولين عن اصلاحها والمحافظة عليها في كل منطقة • وانحصرت مسؤولية مديرية الرى باصلاح الاراضي المهملة وتوزيعها

وتثبيت حدود الملكية كل ذلك لان مشكلة الغرين في نهري دجلة والفرات خطيرة • وقدر ليس وفالكون معدل الحد الادنى لكمية الغرين السنوية في النهرين ٢و٧٦٩ × ١٠ قدم كافية لان تغطي مساحة قدرها مئة ميل مربع الى عمق ٢٨و٣ انجات • ونسبة غرين الفرات اقل قليلا من غرين دجلة • والمعروف ان ١٠٪ من ترسبات دجلة تصل الى الخليج العربي وتترسب الكمية الباقية في طريقها اليه • واتضح من دراسة مقارنة ان نهر دجلة يحمل من الغرين اثناء الفيضان عند وصوله العراق ما يعادل خمسة امثال ما يحمله نهر النيل في مصر مما يجعل مسألة الرواسب الغرينية من المشاكل الكبيرة بالعراق • وان الضفاف العالية عند الجداول القديمة المتناثرة في مختلف اجزاء السهل الفيضي الواسعة تدل على مدى الجهود الضخمة التي قام بها العراقيون القدامى كل سنة لتطهير جداولهم من الترسبات الغرينية •

يعود اتقان العراقيين القدامى لهندسة الري الى حاجتهم لتوسيع اراضيهم الزراعية بعد ازدياد عددهم فشقوا الجداول السيحية ونقلوا الماء الى الاراضي الزراعية البعيدة وعرفوا وسائل رفع المياه الى الاراضي المرتفعة • وكانت تجاربهم في ذلك مثار الاعجاب وكلها ادت منذ عصر العبيد الى الازدياد الهائل بالمنتجات الزراعية وتجاوزها الاستهلاك المحلي وتصديرها الى الخارج كما ذكرنا • واهتموا في مختلف عصورهم بالري فحفروا القنوات واقاموا النواظم والسداد ودرأوا خطر الفيضان وكانت هذه الاعمال موضع فخر كبير لهم • فلگش صارت بفضل جهود ملوكها يحقل الري مرتبطة بدجلة والفرات بقنوات اروائية كثيرة وصل الينا كثير من اسمائها • واعاد اورنمو كري كثير من الجداول وحفر اخرى لابد وان اهملت في فترة التسلط الگوتي فقد حفر واحدة قرب اور واثنين في لگش واعاد ربط اور بالفرات عند موقع الدقدقة • وان القناة الكبيرة التي شقها حمورابي واسماها (عطاء الشعب) لابد انها كانت حملة واسعةطهر بها الفرع الرئيسي للفرات حيث يذكر تجهيزه مدنا

مهمة بالماء ابتداء من نفر حتى اريدو • ونلحظ مدى اهتمام الملوك بالري من اطلاق الكثير منهم اسماء القنوات التي شقوها على بعض سنوات حكمهم• ونلحظ من رسائل حمورابي لحكامه مدى اهتمامه بتطهير القنوات • وفي رسالة له نقرأ (ادعوا اصحاب الحقول على شواطىء القناة ان يطهروها خلال شهر) • وفي رسالة اخرى يأمر احد الحكام باكمال تطهير القناة التي تنتهي عند اوروك والتي لم تكن قد طهرت حتى تلك المدينة • وقضت مادة في تشريع حمورابي على تعويض المزارع الذي اهمل تقوية سدود قناة اروائه عما سببه من اضرار بحق جاره •واذا طغى ماء جدوله (نتيجة اهمال تطهيره) على حقل جاره فعليه ان يعوضه حبوبا حددها القانون • وكان الاهتمام بالقنوات يستدعي اشراف حكام المقاطعات • ونعرف من رسائل ماري ان حاكما اعتذر عندما دعاه الملك لرؤيته على اساس وجود اعمال اروائية مهمة تستدعي بقاءه • واستخدم حاكم مرة الفي عامل لتطهير قناة ، واستدعى حاكم من ماري جميع سكان المنطقة لاصلاح القنوات • ومن سلالة بابل الاولى نقرأ في النصوص ان الملك سيفتش مشروعك و (اسأل الملك عن حقل فلان) مما يدل على ان الملك كان يعرف الحقول وله اهتمام شخصي بالري • وفي عهد هذه السلالة كان هناك موظف يعينه الملك للاشراف على القنوات له سلطات واسعة حيث نعرف عن تجهيزه مرة ١٤٠٠ عامل لشق قناة • ونعرف ان هناك مفتشا للري وحتى مقاولين للعمل بهذه الاشغال • وكان المقاول يتعاقد مع صاحب الارض او مع دائرة الري ويحلف اليمين واذا اهمل المقاول او الملاك اصلاح القنوات وتطهيرها فهناك عقوبات •

ومن مشاريع الارواء مشروع السد الذى انشأه ايبالاتوم ملك لگش على احد الجداول، ثم السد الذي بناه خليفته انتمينا • وتظهر عظمة هذين المشروعين من كمية القار التي استخدمت فيهما ، فقد استعمل في الاول ٢٥٩٢٠٠ لتر وفي الثاني ٢٦٤٩٦٠ لترا كما يذكر النص • وبلغ عدد الآجر الذي استخدم في بناء

الثاني حوالي ثمانية ملايين طابوقة وانشأ اياناتوم قناة ثانية الحق بها خزانا يستوعب كميات من الماء يتصرف بواسطة جدول الى المزارع وسعه خليفته من بعده • وكان مشروع انتمينا ضخما حيث حفر قناة جلب بها الماء من دجلة الى لگش (الغراف) لمسافة حوالي ١٤٠كم وكانت هذه الاراضي تسقى من الفرات قبلا مما يدل على الحاجة الماسة الى الماء في الجنوب • ونقرأ من عصر ايسن ـ لارسا عن بناء احد ملوك لارسا سورا فوق خزان عند فم قناة ، واحتاج السور الى حوالي مليون وثلثمائة الف طابوقة • وربما كانت هذه القناة هي نفسها التي سميت في العصور المتأخرة اسنينيتوم التي كانت تتفرع من الفرات شمال نفر وتجرى جنوبا ويريد الملك الان السيطرة عليها من نقطة خروجها من الفرات • وكان حجم هذا الخزان ١٣٠ الف متر مكعب • كما نسمع عن مجمعات للمياه ، ويذكر نص تنظيف مجمع للمياه لاستخراج الحصى منه ابعاده ٢٤٠ × ٧٢ مترا • ونعرف بان ريم سين كان مهتما في بناء قناة تأخذ الماء من دجلة لحل مشكلة الماء في لارسة •

وهناك ما يدل على ان دراسات اولية كانت تجرى وتخطيطات تمهيدية من اجل شق قناة قبل الاتفاق على الخطة الاخيرة ويستعملون لذلك اجهزة القياس المتوفرة لديهم وانواع الحسابات واحتساب الجهود المترتبة على تنفيذ المشروع • فالنص الخاص بخزان اياناتوم وقناته الثانية يجعل ثقل العمل على العمال المختصين وليس على العاديين •

واتقن العراقيون القدامى منذ العصر السومري القديم عمل السداد لدرء خطر الفيضان كما سدوا الثغرات بالقصب والتراب وشيدوا المسنيات بالطابوق والقار لحفظ ضفاف الانهار من التعرية وجرف تيار الماء • وان البطخات المستعملة الان لسد الثغرات التي يحدثها الفيضان في السداد لابد انها معروفة منذ تلك العصور • والبطخة عبارة عن لفة ضخمة طويلة بعدة طيات محشاة بالقصب والشوك وكل طية تلف بحبال كثيرة مع قصب وسعف

وتربط بعدها قرب الثغرة حتى لا يجرفها تيار الماء القوى • وقد توصع بطخات عدة بالثغرة الواحدة ، وقد تسد الثغرات بحصران القصب والمرادى والحصران •

استوطن العراقيون القدامى على ضفاف الفرات ودجلة • فجميع مدن سومر واكد كانت مشيدة على ضفاف الفرات الاسفل والانهر المتشعبة منه باستثناء بلاد اشور ومنطقة ديالى • وقدم الدكتور سوسة جملة اسباب لذلك فالاراضي الزراعية المنحصرة بين دجلة والفرات جنوبا تنحدر من الفرات باتجاه دجلة ولذا صار من الطبيعي برأيه ان تكون اتجاهات القنوات بنفس الاتجاهات وانحصرت مياه الارواء بالفرات الذي تستمد منه ماءها اضافة الى كون الفرات يجري بين ضفاف منخفضة بانحدار قليل عكس دجلة مما يسهل على الانسان التحكم به واستثمار مائه بسهولة • كما يتوفر في مناطق الفرات طوال السنة الماء حيث تتجمع المياه من كل جهة وتنتشر على طول الدلتا باعماق ضئيلة مما يسهل الري •

ويتميز الفرات بهدوئه وبطء سيره بالنسبة لدجلة مما يجعله اكثر ثباتا من الثاني•ففي اوقات الفيضان تكون المياه بمجرى الفرات اكثر من تلك التيفي دجلة غالبا ، وفي اوقات الفيضان لا تزيد مياه الفرات عن نصف كمية الفيضان بدجلة • اضافة الى أن للفرات منخفضات طبيعية تجرى لها المياه الفائضة كبحيرة الحبانية ومنخفض ابو دبس ومنخفضات جنوب الفرات مما يخفف حدة الفيضان وخزن قسم من المياه الفائضة • ويعزى ويليام ويلكوكس السبب الى ان المياه التي تصل المنطقة الجنوبية من الفرات ، تكاد تكون قد فقدت الطمى الذى تحمله في موسم الفيضان بعد ان تنتشر في الاهوار والمنخفضات الواسعة الموجودة هناك مما سهل للسكان الاعتماد على تلك المياه للرى • وابتداء من الربع الاخير من القرن الرابع ق•م بدأ التحول نحو دجلة وزادت

المستقرات في ديالى السفلى ودجلة السفلى والتي تضاعفت في القرون اللاحقة. وشهدت الفترة منذ بدء السلالة الكلدية تقدما في مشاريع الري وخاصة في ربط دجلة والفرات في القسم الشمالي من السهل .

وقطعت هندسة الرى عند الاشوريين مرحلة كبيرة من التقدم ، فاعمال الارواء التي قام بها سنحاريب كانت مدهشة . فقد اخبرنا عن مشروعه بارواء اربيل وكيف انه حفر ثلاثة انهر في الجبال التي فوق اربيل واضاف لها مياه الينابيع الواقعة على يمين وشمال الانهار وحفر بعدها قناة تصل وسط اربيل. فقد اعاد سنحاريب بمشروعه توجيه مجاري فروع نهر باستورا ثم توجيه مياه الينابيع لها وتشييد قناة لجلب الماء الى اربيل واقام سنحاريب مشروعا ثانيا لايصال الماء بالطريقة السيحية الى نينوى . فانشأ سداعلى مجرى نهرالخوصر الذى يخترق نينوى ويصب بدجلة مقابل الموصل وحول مياهه الى قناة تستمد الماء من امام السد وتسير موازية للنهر غربا حتى بساتين نينوى كما وسع العيون التي تغذى الحوض في شمال نينوى واجراها بقنوات ، تصب اخيرا بالقناة الجديدة التي شيدها . ولارواء مساحات اوسع من الاراضي قام سنحاريب بجر المياه من ينابيع نهر الكومل في جبل بافيان واجراها في قنوات اليه ، ثم شيد سدا في مضيق بافيان لحجز المياه وخزنها امام السد وشق نهرا من امام السد يتفرع من جانب نهر الكومل الغربي قرب قرية خنس وينتهي بالخوصر فنينوى لمسافة تزيد عن خمسين ميلا . وربطت الاودية العميقة التي تعترض مجرى هذا النهر في طريقه الى الخوصر بقناطر من الحجارة واجرى فوقها الجدول ، واضخم هذه القناطر كانت قرب جروانه وهي مشيدة من الحجر وطولها ثلثمائة متر وارتفاعها تسعة امتار وتتألف من ثلاث عشرة فتحة عرض كل منها خمسة عشر مترا وفتحة واحدة في الوسط عرضها ثلاثون مترا مقسمة الى اربع فتحات عميقة في وسط الوادي . ويظهران ان الفتحة الوسطية

اعدت لمرور المياه الصيفية للوادي • وفي المشروع حوالي مليوني حجارة بحجم نصف متر ووزن ربع طن للواحدة •

ولتصريف المياه الفائضة من القناة التي تروى نينوى انشأ سنحاريب كما ذكر بحيرة للاستفادة من هذه المياه • ويجعل الدكتور ســوسة المنخفض هذا قرب تاربيصو (شريف خان قرب نينوى) ويطابقه اخر مع منطقة منخفضة بين دجلة والخوصر وطريق الموصل دهوك ووضعه ثالث على نهر الخوصر قرب قرية الجيلة •

من المشاكل التي جابهها الفلاح العراقي في الجنوب قديما كانت الملوحة في التربة ولم يجابه الفلاح تلك المشكلة خلال الفترات الاولى لان الطبيعة كانت تضمن له استمرار خصوبة التربة الى جانب توفر المياه على الدوام • ولكن هذه الظاهرة الخطرة التي قللت انتاجيـة ارضه اخذت بالزيـادة تدريجيا •

وللملوحة هذه اسباب عدة،مثل ارتفاع مستوى المياه الجوفية التي تكون نسبة الملح فيها عالية وقربها من ظاهر الارض ، وطريقة الارواء غير المنتظم التي تجعل مياه الارواء تتصل بالمياه الباطنية ، فينبعث الملح الى سطح التربة بالجاذبية الشعرية وعدموجود مصارف منتظمة لمياه الارواء المستعملة خاصة وان الماء المستعمل للرى بالعراق يحوي٥٠ـ١٠٠جزء من الاملاح المذابةفي كل مائةالف منه • وبسبب نسبة التبخر العالية بالعراق والتي تصل الى ٩٠ ـ ١٠٠ انج في السنة تترك كميات كبيرة من الملح بالارض • واسباب اخرى هو ورود الماء الى التربة من محلات اعلى مستوى ثم ان كثرة السقي يزيد في تماسك (ثقل التربة) فيتعرقل التصريف وتكثر الملوحة • وقد ظهرت طلائع هذه الظاهرة كما نعرف الان في ملاحظات موظفي المعبد بمنطقة لگش منذ العصر السومري القديم وهناك تنويهات عنه في القطع الادبية مثل ملحمة اتراخاسس (الفائق الحكمة) التي نقرأ فيها (ان الحقول السوداء غدت بيضاء والسهل الواسع قد اختنق بالملح) • وظهر من النصوص المتوفرة الخاصة بزراعـة الحنطة

والشعير تفاقم مشكلة الملوحة تدريجيا في الاراضي • فحوالي ٣٥٠٠ ق٠م كانت الحنطة تزرع بنفس كمية الشعير وحوالي ٢٤٠٠ ق٠م صارت زراعة الحنطة الى الشعير بنسبة السدس لان الحنطة اقل مقاومة بكثير من الشعير الى ملوحة التربة وحوالي ٢٠٠٠ ق٠م صارت زراعة الحنطة قليلة جدا • وقد كانت غلة الحنطة حوالي ٢٤٠٠ ق٠م حوالي ٢٥٣٧و لتر للهكتار الواحد وفي ٢١٠٠ ق٠م هبطت الى حوالي ١٤٦٠ لتراً للهكتار وفي ١٧٠٠ ق٠م صارت حوالي ٨٩٧ لترا للهكتار • وبينت ارقام اخرى ان معدل انتاج الحبوب في نهاية العصر السومري القديم ٢٠٣٠ لترا للهكتار الواحد وهبطت في سلالة اور الثالثة الى ١٣٤و١ لتر للهكتار • وارتفع بذلك معدل حبوب البذر بحوالي النصف عما كان عليه في بداية العصر السومرى القديم • واستمر الهبوط بالانتاج • وصحب ذلك هبوط في مناطق السكنى ومساحات الحقول المزروعة• ففي نهاية الالف الثاني ق٠م والقرون الثلاثة الاولى من الالف الاول ق٠م هناك هبوط معدله حوالي ٤٠٪ في عدد المواقع و ٧٧٪ في الاراضي المستغلة عنها في بداية سلالة اور الثالثة حيث اختفت الكثير من المراكـز الحضرية بسبب الاحوال الجديدة في الزراعة والماء •

وسائل الري

استعمل العراقيون القدامى وسائل شتى لارواء أراضيهم منذ العصور الاولى • فقد استعملوا الداليـة وهي آلـة سقي بسيطة لا تزال مستعملة في منطقة البصرة تتكون من عمود خشبي يقف على مسند فاذا ارتفع رأس من رؤوس العمود نزل الرأس الثاني وهكـذا • وتشد في جانب العمود القصير ثقالة معاكسة ويربط حبل في الجانب الذى يواجه ماء النهر يرتبط فيه وعاء من الجلد • فعندما ينزل الفلاح الذي يديره الوعاء الى النهر ويضع ثقـل جسمه حيث تكون الثقالة يرتفع الوعاء المملوء بالماء ويفرغ ماءه بالساقية التي تدفع الماء الى الحقل ولا ترفع هذه الالة الماء لاكثر من ستة اقدام • وقد

صورت الدالية في ختم من العصر السومري القديم نشاهد فيه العمود والوعاء في نهاية والثقالة في نهاية اخرى ويدير الدالية شخص صور في الختم عاريا • وصورت نفس الآلة في نقش من عهد سنحاريب نراها اكثر تطورا وضبطا من الدالية السومرية • فقد صارت الان على شكل يد منحرفة • ونرى في نفس الصورة داليتين الاولى ترفع الماء من النهر الى ساقية مرتفعة والثانية ترفع الماء من تلك الساقية الى ساقية اخرى اعلى منها •

وهناك الناعور المائي ويعمل بقوة تيار ماء النهر وهو عبارة عن طوق خشبي كبير ربما يصل قطره الى عشرة امتار تربطه بمركزه قطع خشبية كبيرة ربطت بكل احكام حول شجرة ضخمة • ويستند الناعور الى دعامتين تشيدان عادة من الطابوق امام مجرى النهر وتوضع سلسلة من جرار فخارية صغيرة بكل نظام وتربط بحبال قوية على طول دائرة الطوق الخشبي الخارجية • ويعمل الدولاب بقوة تيار ماء النهر حيث يتحرك ويدور باتجاه محوره فتصعد الجرار السفلى وهي ممتلئة بالماء الى اعلى فتصب ما فيها من ماء بساقية حفرت اعلى من مستوى ماء النهر وتدور الالة وتمتليء الجرار وتفرغ ماءها وهكذا • والالة الاخرى الكرد وهي اكثر تعقيدا وتطورا من السابقتين ويرفع بها الماء الى اعلى من منطقة اكثر عمقا وبكميات اكثر فقد كبر الوعاء الموضوع في النهاية • وربما تم ادخاله في العصور الاشورية المتأخرة فقد ذكرت وثيقة بيع ارض زراعية من تلك الفترة بان الالة التي ترفع الماء من النهر يشرف عليها خبير عارف بتشغيلها مما قد يدل على ادخالها القريب وكون العمال الذين يقومون بتشغيلها كانوا قليلين بحيث ذكروا في الوثيقة • ويتألف الجهاز من بكرة كبيرة تستند من جهتيها بعمودين ضخمين غالبا من جذوع النخل او الخشب القوي او بناء ثم وعاء كبير جلدي نهايته على شكل انبوب يتفرغ بواسطته ماء الوعاء الى الساقية بواسطة حبلين يربط احدهما باعلى الوعاء والثاني بنهايته الشبيهة بالانبوب • فبتحرك الحبل الاول على البكرة يصعد

الوعاء وينزله ويرفع الثاني النهاية الشبيهة بالانبوب عند الصعود فيمنع خروج الماء من الوعاء ويوصله الى الساقية حيث يفرغ هناك الماء بتوجيه فتحة النهاية الانبوبية للساقية • وهناك شخص يسوق الحيوان عند صعوده الى الطريق المنحدر حتى ينزل الوعاء الى ماء النهر وعند نزوله لرفع الوعاء الى الساقية •

احوال الاراضي

اختلفت اراء الباحثين المحدثين حول ملكية الاراضي بالعصر السومري القديم فبعض الباحثين الغربيين يعتقد ان الاراضي الزراعية في القسم الاخير منه كانت ملكا لمعبدها وكان اقتصاد دولة المدينة متركزا في المعبد الذى يملك كل شيء • ففي لكش كان معبد الآلهة باأو يمتلك ١١٠٣٣ ايكر من الاراضي• وكانت الاراضي الصالحة للزراعة التابعة للمعبد على ثلاثة اصناف هي اراضي المعبد التابعة للاله والتي تذهب وارداتها الى مصاريف طقوس الاله والمعبد وتشكل حوالي ربع الاراضي الموجودة وتسمى بالاراضي العامة • ثم الاراضي المعروفة بحصة الرزق التي تعطى الى موظفي المعبد • والاراضي التي تؤجر لقاء حصة من المحصول تستقطع عند الحصاد وتتراوح بين الثلث والسدس • والى جانب الاراضي امتلك المعبد البساتين ومناطق الاهوار • وكان لكل معبد كتابه ومسجل اراضيه وموظفون الخ وكان المعبد يقوم بمشاريع الارواء الجديدة وصيانة الموجودة منها ويمتلك الالات الزراعية والحيوانات • وكان للكهنة حصص من الاراضي الممنوحة ايضا • وكانت موارد الاراضي العامة توزع على الافراد بشكل منح وارزاق ونعرف عن موظف امتلك ١٢٠ ايكر من اراضي المعبد ومشرف عنده ١٨٠ ايكر وحتى عن نساء كانت لديهن قطع من الاراضي • وهناك باحثون اخرون يعتقدون ان نظام التملك الفردى سار جنبا الى جنب مع اقتصاد المعبد • فوثائق شروپاك توضح وجود التملك الفردى وحرية الفرد في مزاولة المهنة التي يرتضيها وتجارته وتملكه الاراضي•

وذكر اوروانيمگمينا(اوروكاجينا)العصور السيئة التي سبقت اعتلاءه العرش وحرصه على الرجوع بالاوضاع الى ما كانت عليه بالعصور القديمة عندما كان الافراد يمكنهم التملك هذا طبعا الى جانب ثراء المعابد مما يدل بان الاقتصاد في وقت ما قبل زمانه قد امتاز بحرية التملك الفردي وربما سار الاثنان (الاقتصاد الحر والمعبدي) جنبا الى جنب في بلاد سومر • ففي عهد انتمينا وخلفائه كانت املاك معبد ننگرسو تحت ادارة الكاهن دودو • ويمثل انتقال ملكيـــة الاراضي الى الحكام تحولا مهما في ملكية الاراضي • وتقلصت مساحات الاراضي التي قسمت على المزارعين لاستغلالها كما كانت في السابق وقدر العاملون في المقاطعات الزراعية سواء للحاكم او المعبد ٣٠٪ من السكان •

وعمت حرية التملك الفردي في العصر الاكدي فقد اشـــترى الملك مانيشتوسو جملة ضياع وعقارات دفع عنها تعويضات بالسعر الجارى وقتذاك وزعها على المقربين اليه • ومساحة احدى هذه الاراضي كانت تزيد عن ١٣٠٠ هكتار واخرى مساحتها ٣٦ هكتاراً • وفي سلالة اور الثالثة يظهر ان الدولة منذ سنة حكم الملك شولگي الحادية والعشرين قد سيطرت على الموارد العامة التي منها الاراضي الكثيرة في وقت استمرت به المعابد محتفظة باملاكهـــا السابقة • وكان العصر البابلي القديم زمن حرية اقتصادية وللافراد حرية التملك والتجارة وممارسة المهن الحرة • ولكن الدولة سيطرت على الاراضي التي ضمت نتيجة الحروب • وظلت املاك المعابد على ما هي عليه سابقا • وكانت اراضي الدولة على ثلاثة انماط اراضي الملك نفسه التي يستغلها القصر بموظفين مرتبطين بالملك ثم اراضي الدولة التي تقطع الى افراد الشعب مقابل خدمات معينة يقدمونها للدولة (الايلكو) والاراضي المؤجرة التي تؤجر الى الفلاحين مقابل حصة معينة من المحصول • وتركز اهتمام الملك بالاراضي المقطعة التي كان يمنحها الى مختلف افراد الشعب على اختلاف حرفهم مقابل خدمات يؤدونها للدولة والخدمة في الجيش وحتى الى مجموعة

من العمال يتشاركون في مقاطعة واسعة مشاعة • والى جانب هذا عمت الملكية الفرديةوصار في وسع اى فرد تملك ارض او عقار وتوريثه الى ابنائه • وكانت اغلب رسائل حمورابي الى حكامه تخص تقديم الاراضي الى مختلف خدم الملك اما كمستأجرين يدفعون ايجارا او اقطاعيين مستندين على خدمتهم العسكرية او المدنية وكانت رسائل كثيرة عبارة عن اوامر الى الوكيل باعطاء ارض الى واحد او اكثر بموجب الشروط • وان الطبقة الاكثر عددا هم الذين شغلوا حقولهم مقابل الخدمة التي يقدمونها للملك او الايجار الذي يدفعونه له • وكل من تعطى له ارض قد زود بشهادة تحدد ملكه (وتثبت الاوتاد التي تعين حدودهم) بالمقاطعة • واعتبر الحقل وراثيا في الأستثمار واذا ورثه الابن فتقع عليه واجبات والده للدولة والا فتؤخذ منه الارض •

ولم يكن صاحب الارض حرا في اعطاء قطعته حيث تكون الخدمات المترتبة عليها في خطر من اهمال المالك الجديد • ولدينا امثلة عن استرجاع الملك للاراضي التي اهملها شاغلوها السابقون • وهناك بضع مواد في شريعة حمورابي تخص هذه الاراضي المقطعة منها ما يتعلق بالاراضى المقطعة الى الجنود بصنفيهم المشاة والقناصة ، فمادة تبين ان على الشخص الذى استغل ارضه واوفى بالالتزامات الاقطاعية قبل فترة اسره فعليهم ان يرجعوا له الحقل عند عودته • واذا كان ولده قادرا على القيام بتلك الالتزامات خلال فترة اسره فيعطى الحقل للابن • واذا كان هذا الولد صغيرا لا يتمكن من القيام بواجبات والده الاقطاعية فيعطى لامه ثلث الحقل والبستان حتى تقوم بتربيته • واذا غاب الجندى واستغل اخر الارض وادى الالتزامات الاقطاعية عليها لثلاث سنوات فتعطى للاخير • ومنعه القانون من اعطاء حقله مقابل دين او بيعه او مبادلته او يعطيه لاخر مقابل مسؤولية حتى لو كانت زوجته او ابنته •

وفي نوزى لا يمكن ان تنتزع ارض من مواطن منحتها له الدولة ولا

يمكنه مبادلتها او تحويل ملكيتها لاخر . فالارض نظريا تعود الى الملك الذى يمنحها من يريد عن خدماتهم الاقطاعية . وتكون المنحة والخدمة الاقطاعية متوارثة من جيل لاخر وتبقى الارض بذلك في العائلة ولكن تم الالتفاف حول القانون بطريقة التبني . ففي الوقت الذى تعود به المقاطعة في بلاد بابل الى الدولة عندما لا يكون الشخص الذى اقطعت اليه قادرا على القيام بواجباته او عند وفاته وانعدام وجود من يقوم بالواجبات بعده (برغم وجود امثلة خرق بها القانون) التف سكان نوزى حول القانون بطريقة يتبنى فيها صاحب الارض للشخص الذى يرغب في ان يسلمه ارضه او يتسلم الاول قرضا به شرط يحصل بموجبه المقرض على ارض المدين حتى يرجع له دينه .

وفي العصر الكشي تملكت بعض المدن مقاطعات زراعية واسعة وكذلك القبائل التي استقرت في وسط وجنوبي العراق . وكان الملك احيانا يشترى مقاطعات زراعية من تلك المدن او القبائل ويمنحها لمن يريد . وكان الملوك يمنحون اراض الى موظفيهم وافراد الشعب او الى المعبد وتدون هذه الاقطاعيات على صخور مستطيلة الشكل يتراوح ارتفاعها بين ٣٠ سم والمتر الواحد بقمة مخروطية وقاعدة مستطيلة او بيضوية او مربعة تسمى احجار الحدود (كودورو) تحوى عقد أقطاع الارض من قبل الملك الى المعبد او الموظف او الشخص . ومعظم القسم الباقي منحوتات برموز الالهة (التي وضعت المنحة تحت حمايتها وتقع لعنتها على من يخرق او يعارض المنحة) مقسمة في شرائط الواحدة فوق الاخرى . وفي بعضها نرى الملك مع الشخص الذى يتسلم الاقطاعية او الاثنين سوية امام الاله . وهناك دائما حية ملتفة حول القاعدة او القمة كحامية رمزية للوثيقة . واقدم وثيقة من هذا النوع تحمل اسم الملك كدشمان انليل الاول (حوالي ١٤١٠ – ١٣٨٦ ق.م) . والجديد هو ادخال العقوبات المدنية ضد مخالفي العقد او المنحة . ثم تحديد الاراضي التابعة الى بيوتات معينة او المملوكة لقبائل . وتكشف هذه الوثائق عن قطع كبيرة

من الاراضي قد امتلكت بصورة اجماعية من قبل جماعات فكان لكل قبيلة اقطاعية كبيرة شيدوا فيها مدنا وقرى ولكل مدينة اراضي كما تملكت بعض العوائل الاقطاعيات ايضا ، وقسمت تلك الاقطاعيات الى قطع صغيرة يستغلها الافراد وتكون المقاطعة وراثية للشخص الذى اقطعها له الملك وهو خاضع الى كل ما يفرضه الملك الا اذا استحصل اعفاء تحريريا ،

اما الاراضي البور فانها تكون تحت تصرف اول من يسكنها وتصبح ملكا لمن عمرها ، وقد اعطى الملك ميلي شيپاك ابنته مقاطعة على حدود القطر البحرى على اساس انها قد استحدثت بها مشروعا اروائيا وسدا مما جعلها صالحة للزراعة وشيدت بها ثلاث قرى ، واعفى هذا الملك ابنته (كما ورد في حجر حدود منحتها) عن القطعان والرسوم والسخرة وتصليح القنوات الخ ، واعطى الملك نفسه مقاطعة لوالده اعفاها من الرسوم المفروضة (لا تفرض على ارضه العشور وتقديم بواكير المحصولات ولا يستدعى سكان مقاطعته ولا يعملون على خزان القنوات الملكية او صيانة او تطهير مجرى للقناة ولا يمكن لحاكم اخذ اي فلاح من اراضيه ، ولا يمكن لأحد بأمر الملك ان يقطع خشباً او حشيشاً أو يأخذتبنا او شعيرا او محصولا او عربةاو عدةاو حمارا او رجلا ولايحق لاحد في وقت ينخفض فيه الماء بالقناة ان يدعى مياه القناة الاروائية ولايمكن لاحد ان يأخذ ماء من مجرى سدها ولا يقسم الارواء معه احد ولا يسقى ارضا اخرى منها او يقطع حشيشا ولا يحق لاحد ان يسوق حيوانات الملك او الحاكم على حدودها ولا يعمل علفا من حشيشها او طريقا سواء للملك او للحاكم ولا يمكن لاحد ان يفرض اى ضريبة في المستقبل بامر الملك او للحاكم او ترجع رسوماً قديمة سقطت عن التنفيذ) ،

وينص القانون الاشوري الوسيط على ممارسة اعلان البيع الرسمي للارض بين المالكين وعندما لم يكن اى اعتراض من جهة ثالثة يسجل العقد وتوضع الوثيقة في الارشيفات الرسمية ، وهذا ما هو موجود ايضا في بلاد

بابل ولكن القانون الاشوري اضاف استخدام مناد يعلن ثلاث مرات بصوت عال داخل مدينة اشور وحيث تقع الارض عن شراء الشخص للقطعة ويدعو كل من له حق في تلك الارض ان يبرز وثائقه او تخويله امام المسؤولين خلال شهر واحد • ويقبل اى ادعاء موثق ويلغى البيع • واذا لم يتقدم احد خلال الوقت المعين فيستمر البيع ويسجل رسميا • وظهرت في هذا العصر فئة تمتلك اراضي غير ملزمة باية واجبات • وجماعة اخرى يعملون في اراض اما ان تكون ملكهم او ممتلكة من قبل افراد اثرياء وتقدم الواجبات والالتزامات المفروضة على الجماعة والخدمات عن انفسهم وعن اسيادهم اصحاب الارض وعليهم العمل وتقديم المحصول عينا لاسيادهم • وظهر الان في الشمال والجنوب مسح دقيق للارض يؤكده النص (هو « الملك » قاس الحقل وقدمه الى •••) و (ارسل الملك فقاسوا الحقل) •

ويظهر ان المعبد قد برز ثانية خلال العصر البابلي الحديث كمؤسسة اقتصادية كبيرة وليست كمحتكرة للاقتصاد او الاراضي • فمعبد الربة عشتار في الوركاء كان يمتلك الكثير من الاراضي التي وصلت مشارف بابل • وكان للدولة اراضيها وللملك اطيانه الخاصة وهناك ملاكون كبار وصلتالينااسماء بعضهم • وكان الملاكون يؤجرون اراضيهم غالبا او يعتمدون على العبيد في زراعتها • وفي الحالة الاخيرة يعطي الملاكون عبيدهم قطع اراض صغيرة يعملون فيها اوان يؤجروا هم الاراضي بموافقة اسيادهم • وكان على مستأجرى الاراضي احيانا تطهير القنوات وشق الترع واستمرت القبائل في تملكها الاراضي الواسعة •

الثروة الحيوانية

اظهرت ادلة العصور الحجرية انواعا عدة من الحيوانات في العراق انقرضت بتبدل المناخ فيما بعد • فلقد وجدت في بردة بالكة ادلة عن وجود

الفيل الهندى وفرس الماء والماعز والماشية واسنان وعظام الحمار الوحشي وعظم غزال ولا وجود للفيل الهندى وفرس الماء في العراق الان ٠

وعثر في كهف هزار مرد بمنطقة السليمانية على عظام الغزال الاحمر الذى انقرض الان مع الغزال الاعتيادي والماعز البرى والجبلي ذى القرون الطويلة والذى لا يزال موجودا في بعض المناطق المنعزلة من شمال العراق ٠ وعثر في كهفة شانيدر على عظام حيوانات كبيرة مثل الحصان والحمار والماعز البرى والجبلي والغزال الاحمر وغزال الجبل (الموجود الان في المناطق الجبلية الباردة) ٠

وميزت بين العظام الكبيرة من موقع ام دباغية قرب الحضر نسبة ٦٥٪ تعود الى الحمار الوحشي و ١٥٪ الى الغزال ونسبة قليلة الى الحيوانات المدجنة المعروفة انذاك كالكلب والخنزير والماعز والبقر والضأن ٠ ومن مخلفات العصور السومرية والبابلية نعرف عن وجود البيسون وهو شبيه بالثور مع لحية ٠ اما الانغر الذى نراه في اثار العصر السومرى القديم فان هناك دليلا كافيا من بقايا هياكلها العظمية التي وجدت على كونها حميرا وحشية منقرضة الان تقريبا والتي كانت شائعة حتى القرن الماضي ٠ وذكر زينفون ان هذا الحيوان واسع الانتشار في المناطق التي اخترقها من العراق سنة ٤٠١ ق٠م كما شاهد منه لايارد في اواسط القرن الماضي فذكر سرعته ولونه القريب من الوردى الفاتح وكون العرب يمسكون بصغاره في الربيع ٠

وفي المنطقة بين الفرات ورافده الخابور اصطاد الفرعون المصري طحوطمس الثالث فيلة وطارد مرة عند تلاقي الخابور بالفرات قطيعا من ١٢٠ فيلا ٠ واخبرنا تجلات بيليزر الاول (١١١٢ - ١٠٧٤ ق٠م) بانه قتل عشرة

فيلة في منطقة حران حمل معه.اربعة منها احياء • امـا الاسود فنعرف عن وجودها في العراق حتى خلال القرن الماضي حيث اخبرنا من زار العراق عن مشاهدتهم لها ووصف احدهم الاسد العراقي (اصغر قليلا بالحجم والقوة والشجاعة من اخيه الاسد الافريقي ليست لديه فروة فهو يشبه اللبوءة ومن النادر سماعه يزأر) •

كان الجاموس موجودا منذ العصر السومرى القديم وشكل عنصرا مهما في الحياة الاقتصادية لاعتماد سكان الاهوار عليه • وصورته الكثير من الاختام وقد دجن هذا الحيوان الضخم في منتصف الالف الرابع ق•م مع الثور الاحدب • وان الاثار التي اكتشفت في اوروك تدل على ان الاغنام والماعز والابقار والكلاب كانت مدجنة في الجنوب حوالي ٤٠٠٠ ق•م • ونعرف ان الماعز قد دجن منذ بداية الاستيطان بالمواقع الشمالية وممارسة الزراعة• وكانت الأبقار والاغنام والماعز والحمير تشكل عنصرا مهما في الاقتصاد السومري سواء للحمها أم حليبها ومشتقاته أم لاستعمالها في النقل واعمـال الحقل • وفي نقش بواجهة معبد بموقع العبيد يصور حظيرة ابقار ومصنعا للزبدة من اللبن نرى فيه صورة زريبة اخرجت منها بقرتان وعجلاهما وخلف كل واحدة رجل يحلبها وقد ربط صغيرها امامها لمنعه من الرضاعة ولكي تدر امه الحليب برؤيته • والى اليسار رجل جالس وبيده قمع وامامه رجل يسكب الحليب بواسطة القمع باناء كبير وضـع على الارض • وعلى مقربـة رجل يحرك جرة كبيرة امامه يحرك الحليب الذى فيها لعمل الزبدة والى يساره رجل ثان امامه جـرة لحفظ الحليب المتبقي بعد استخلاص الزبـدة ، وفي افريزين اخرين صور لثيران • كما اكتشف في قصر مارى كثير من القوالب لصنع الجبن • وكانت الماشية والماعز اكثر شيوعا خلال العصور وكانت أسعار

الماشية والماعز تختلف باختلاف عمرها ووزنها وشكلها واختلفت اسعار الحمير بالنسبة الى انواعها واشكالها مما يدل على وجود عدة انواع منها ٠

وليس لدينا ادلة على استعمال الخيل في العصور الاولى برغم معرفتهم لها ٠ وقد ورد ذكر الحصان في عقد من العصر البابلي القديم ٠ ونعرف عن الخيل في ماري واستيرادهم لها من داخل سورية ٠ الا ان عدم ورودها في التشريعات العراقية القديمة او المصادر الاخرى انذاك يدل على ندرتها في العراق ٠ ولكن الكشيين استعملوا الحصان كحيوان نقل وربما ادخلوه في سلاح العربات الحربية واهتموا بالخيل ونسلها ٠ وتعطي نصوص من نفر اثباتات بالخيل واسمائها واسماء اب وام الحصان وحتى اسلافها وورد ذكر البغل لاول مرة كما نعرف الان في زمن نرام سن ٠ اما البعير فقد ذكر لاول مرة زمن تجلات بيليزر الاول وربما يدل معنى الرمزين اللذين استعملا لـه (حمار البحر) بانه ادخل من منطقة الخليج العربي التي عرفته قبل ذلك ٠ اما الدجاج فقد ذكر لاول مرة في القرن الخامس ق٠م وربما كان دخوله من الهند ٠

وحمت القوانين العراقية القديمة الحيوانات ففرض لبت عشتار في قانونه الغرامات على من يسبب الحاق الضرر بالثيران المؤجرة للعمل الزراعي وكانت تختلف باختلاف الجزء المتضرر منه (ثلث قيمته ان كان الضرر قد اصاب لحمة ظهره وربعها ان كان قد اتلف عينه او كسر قرنا له او اضر بذيله ٠ وحددت قوانين اشنونة وحمورابي اجور الثيران والحمير الخ ٠

المراجـع

١ ـ كوردن هستد : الاسس الطبيعية لجغرافية العراق (بغداد ـ ١٩٤٨)

١١ ـ د . سامي سعيد الاحمـد ، العراق القديم ، ج١ (بغـداد ١٩٧٨) ، ج٢ (بغداد ١٩٨٣) .

٢ ـ د . جاسم محمد الخلف : جغرافية العراق (القاهرة ـ ١٩٦٥)

٣ ـ د . احمد سوسـة : تاريخ حضارة وادي الرافديـن ـ الجزء الاول . (بغداد ـ ١٩٨٣)

٤ ـ د . أحمد سوسة : الري والحضارة في وادي الرافدين . (بغداد ـ ١٩٦٨)

٥ ـ فؤاد سفر : اعمال الارواء التي قام بها سنحاريب . سومر مجلـد ٣ ، عدد ١ (١٩٤٧) ص ٧٧-٨٦ .

٦ ـ د . أحمد سوسة : مشروع سنحاريب لارواء منطقة نينوى . مجلة المجمع العلمي العراقي . مجلد ٩ (١٩٦٢) ص ١٦٥ ـ ٢١٠

7- Robert Mc Adams : Heartland of Cities. (Chicago, 1981).

8- Sami Said Ahmed : Southern Mesopotamia in the Time of Ashurbanipal. (The Hague-Paris, 1968).

9- Sami Said Ahmed : "Geography of Southern Mesopotamia in the Seventh Century B.C." The Oriental Geographer, Univ. of Decca, Vol. 10, no. 1 (1966) pp. 15-20.

10- R. Clay : The Tenure of Land in Babylonia and Assyria. Univ. of London. Institute of Archaeology, no. 1, (1931).

11- Th - Jacobsen : Salinity and Irrigation agriculture in Antiquity (Baghdad, 1958).

12- K - Maekawa : Agriculture Production in Ancient Sumer, Chiefly from Lagash Material, ZINBUN, Memoire and

Research Institute for Humanistic. Studies. Kyoto Univ. Vol. 13 (1974).

13- Dr. Howard Nelson : An Abandoned Irrigation System in Southern Iraq. Sumer, Vol. 18 (1968) pp. 67-72.

14- A. Leo oppenheim : On Royal Gardens in Mesopotamia Journal of Near Eastern Studies. Vol. 24 (1965) pp. 328-333.

15- Stanley D. Walters : Waters for Larsa, An Old Babylonia archive dealing with Irrigation. (New Haven, 1970).

16- R. Paepe : Geographical Approach of the Tell ed - Der area in L. de Meyer, H. Gasch and R. Paepe. Tell-ed-Der (Louvain, 1976) pp. 9-27.

الفصل السادس

التجارة

رضا جواد الهاشمي

كلية الاداب ـ جامعة بغداد

تقديم

قادت عمليات التنقيب الاثري في بقايا المواقع والمدن العراقية القديمة لاكتشاف عدد من المواد الاثرية المصنوعة من مواد لا توجد اصلا في الارض العراقية ، ومنها مثلا انواع من الحجارة او الاصداف البحرية او المعادن فكان ذلك الدليل الاكيد الاول على قيام المبادلات التجارية بين المواقع والمستوطنات العراقية وبين المناطق التي تتوفر فيها هذه المواد الاولية .

ومما يمنح موضوع التجارة في العراق اهمية متزايدة ان بعض مواد التجارة المكتشفة وجدت بين بقايا مواقع العصور الحجرية الحديثة ، ويقدر تاريخها بحدود الالف الثامن قبل الميلاد ودلالة هذا الامر ان أهتمام سكان العراق القديم بالتجارة يضرب في اعماق التاريخ القديم وانه اكتسب خلال مسيرته التاريخية الطويلة مزيدا من الخبرات والتجارب في مضمار العمل التجاري فتعددت مناطق المتاجرة وتنوعت مواد التجارة وازداد عدد العاملين

في اوجه نشاطاتها المختلفة ، والاكثر خطورة من ذلك ، انعكاسات العمل التجاري الواسعة ومع مناطق مختلفة على تجربة العراقيين الحياتية .

وعندما نصل في متابعتنا للتجارة الى العصور التأريخية بحدود مطلع الالف الثالث قبل الميلاد تتكشف امامنا بوضوح اكثر الاهمية الكبيرة التي احتلتها التجارة في حياة العراقيين القدماء وفي مجمل نشاطاتهم الاقتصادية ، ويتحول الاهتمام من الطابع الفردي الى الطابع الجماعي المنظم الذي تشرف عليه الدولة ويلقى رعاية واهتمام الزعماء والملوك، فلم يخف الملوك العراقيون عنايتهم بالتجارة الى الحد الذي دفعهم لارسال حملات عسكرية لضمان سلامة طرق التجارة وتهيئة اسباب تدفق المواد الاولية من المناشيء المختلفة .

وليس صعبا معرفة اسباب ازدهار التجارة في تاريخ العراق القديم حيث يأتي في مقدمتها ، عدم توفر المعادن والحجارة والاخشاب التي تعد موادا ضرورية لمجتمعات الصيد والزراعة ، فهي تدخل في صناعة العديد من ادوات الانتاج ، مثلما تعد مواد بناء ضرورية وجيدة ، وهذا ما سعت التجارة الخارجية في العراق القديم الى توفيره للاسواق المحلية . فكانت تجارة النحاس والذهب والفضة والاحجار الصلبة الجيدة وانواع الاخشاب في مقدمة المواد التي استوردها العراقيون .

وكان لزاما على العراقيين توفير سلع ومنتجات ومواد لاطفاء قيمة الواردات المختلفة ، ولم تكن جميع المناطق التي تاجر العراقيون معها بحاجة الى المنتجات الزراعية التي توفرها الارض العراقية الخصيبة ، فيما عدا بعض المناطق مثل الخليج العربي ، الذي يقدر افتقاره قديما الى كثير من المنتجات الزراعية مثلما هو الحال في الوقت الحاضر ، لذلك سعى العراقيون الى تصنيع المنتجات الزراعية او الحيوانية ، ومن ابرزها صناعات النسيج والملابس

،الجلود والزيوت النباتية والخمور وجعلها سلعا تجارية تتكافأ في قيمتها مع اثمان المواد المستوردة •

ان بعض مواد التجارة العراقية المستوردة او المصدرة هي من المواد رخيصة الاثمان مثل الاحجار او الاخشاب او الشعير او النحاس لذلك كانت تتحقق في العملية التجارية الواحدة كميات كبيرة من هذه المواد وذلك لتغطية نفقات الرحلة التجارية اولا ، ولتحقيق الفائدة المرجوة من التجارة ثانيا • وان انسب وسائط النقل لمثل هذه السلع هي وسائط النقل المائية التي تتميز باستيعابها الكبير ورخص تكاليف انتقالها وقد وجدت هذه الوسائط في انهار العراق وفروعها وشبكة القنوات التي خدمت اغراض الري والملاحة النهرية ، افضل الطرق التي انتقلت عليها مواد التجارة المختلفة ووصلت الى جميع المدن والقرى والقصبات العراقية القديمة •

ومما ساعد على تطوير النقل النهري في العراق القديم اضافة الى خصائص نهر الفرات المشجعة للملاحة النهرية ، انه وجد في شواطىء الخليج العربي فرصة جيدة ليمتد بتنقلات وسائطه الى مناطق بعيدة في الخليج العربي ، وربما من خلاله الى شواطيء الهند الغربية والى مراكز حضارة وادي السند •

وهكذا تضافرت مجموعة من العوامل على تشجيع العمل التجاري وتنشيطه وتطويره حتى غدا في بعض مراحل تطوره وازدهاره وجها بارزا من اوجه النشاط الاقتصادي في بلاد وادي الرافدين •

واذا كانت المخلفات الاثرية من مواقع ما قبل التاريخ تساعدنا في معرفة مواد التجارة الخارجية وتقدير مواطنها واستنتاج نشاطاتها فان الاعداد الكبيرة من النصوص المسمارية التي كشفت عنها اعمال التنقيب الاثرية في بقايا المدن والمستوطنات من العصور التاريخية قدمت مزيدا من الدلائل

وسلطت الاضواء على مختلف جوانب النشاط التجاري في العراق القديم ، وعليه يجد الباحث نفسه في وضع متمكن للحديث عن اوجه النشاط التجاري وللادوار التاريخية المتعاقبة •

ولاجل التركيز ، سنعالج على الصفحات القادمة الموضوعات التالية :

١ ـ التجارة الخارجية
٢ ـ التجارية الداخلية
٣ ـ طرق المواصلات ووسائط النقل
٤ ـ طرق المعاملات والقوانين التجارية

التجارة الخارجية

شكلت مواطن المواد الاولية من معادن واخشاب واحجار وهي المواد التي يفتقر اليها العراق مراكز رئيسية في الاتصالات التجارية الخارجية للعراق القديم ، ومن المعروف ان بعض المواد المذكورة في سجلات التجارة الخارجية تتوفر في اكثر من مصدر واحد ، فالنحاس مثلا من بين المعادن التي استوردها العراقيون من الاناضول ومن منطقة الخليج العربي ، ولكن مجموعة الشروط المشجعة للعمل التجاري ، ومنها توفر طرق المواصلات الجيدة ووسائط النقل رخيصة التكاليف ، وانتشار الامن على امتداد طرق التجارة كانت تشجع او تعرقل اتساع التجارة مع هذا المركز او ذاك ، كما كانت الاوضاع العامة في مواطن التجارة الخارجية عاملا رئيسيا في ازدهار المواصلات او عرقلتها أو انقطاعها ، فيرى الباحثون مثلا ، ان تدفق الهجرات الهندية الاوربية على بلاد الاناضول مع اواخر الالف الثالث ق • م وما أحدثته من اخلال بموازين القوى والامن في هذه البلاد تسبب في عرقلة الحركة التجارية الاشورية مع بلاد الاناضول ، بعد ان عاشت لبعض الوقت عصرها الذهبي بحدود القرن العشرين ق • م •

ولكون العراق من الاقاليم الجغرافية المفتوحة ، ولا تعرقل السلاسل الجبلية الشمالية او الشمالية الشرقية حركة الانتقال والعبور لكثرة منافذها الطبيعيـة ، لذلك ازدهرت التجارة العراقيـة الخارجية مع معظم الاقاليم المجاورة • يحتل الخليج العربي ومراكزه التجارية مكان الصدارة والقدم في الاتصالات التجارية العراقية القديمة ، فقد هيأت سواحله الغربية طريقا جيدا امام وسائط النقل النهرية ، فأن ضحالة المياه على مقربة من الساحل ، وكثرة تعرجاته وانتشار عدد من الجزر القريبة منـه ، وتوفر مصـادر المياه العذبة في نقاط معينة على الارض وكذلك في الجزر ساعدت جميعها على اتاحة الفرصة امام وسائط النقل النهرية القديمة للابحار في مياه الخليج العربي صوب مراكزه المختلفة •

كما ان استقراء هذه الامكانيات في الاتصالات يتفق تماما مع دلائل المكتشفات الاثرية في كل من مراكز الخليج العربي القديمة وفي مدن جنوبي العراق وهي تؤكد وثوق الصـلات بين الجانبين منذ فترات مبكرة ترجع بداياتها الى الالف الرابع ق • م •

والراجح ان افتقار منطقة الخليج العربي الى المنتجات الزراعية أو ما يصنع منها، كان عاملا مشجعا يهيء اسباب المصالح المشتركة والمنافع المتبادلة فيما بين العراق والخليج العربي •

ومن بين اقدم الاشارات الى تجارة العراق الخارجية مع الخليج العربي نصوص من مدينة لجش السومرية في جنوبي العراق ، يرجع زمنها لحدود القرن الخامس والعشرين ق • م • تتحدث عن مراكز تجارية نشطة في الخليج العربي منها دلمون ومكان ، وتبدأ النصوص من الفترات اللاحقـة تضـيف الى هذين المركزين اسم مركز تجاري ثالث هو ميلوخا ، فيتفاخر سـرجون الاكدي (القرن الثالث والعشرون ق • م) بانـه جعل مزيدا من السـفن القادمة من دلمون ومكان وميلوخا ترسو في رصيف مدينة اكد •

لقد نجح الباحثون بموجب القرائن والدلائل الاثرية والمدونة من التحقق بتطابق موضع دلمون القديم مع بلاد البحرين ، كما تزداد القناعة بينهم باقتران مگان ببلاد عمان في الاقسام الجنوبية من الخليج العربي ، بخاصة وان مگان وصفت في النصوص المسمارية بانها موطن النحاس وقد تأكد مؤخراً ان عمان كانت من مراكز انتاج النحاس قديما بدلالة اكتشاف العديد من مناطق استخراج النحاس وتعدينه في مناطق الجبال العمانية .

اما ميلوخا ، فأن الدلائل الاثرية المكتشفة حديثا من مراكز الخليج العربي القديمة تزيد من رجحان الرأي الذي يقرنها بمراكز حضارة وادي السند القديمة .

وهكذا يبدو واضحا بان حركة التجارة الخارجية كانت قائمة ومنذ فترات مبكرة بين المدن العراقية وبين مراكز الخليج العربي ومع مراكز تجارية اخرى كان الوصول اليها يتم عن طريق الخليج العربي .

وانهمك العراقيون برحلات تجارية واسعة مع مناطق الخليج العربي منذ الالف الثاني ق . م كما ساهم الخليجيون في ادامة هذه الرحلات وتوسيعها وازدهارها وتنوع موادها في فترة العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق . م) واصبح مصطلح **Alik Tilmun ki** اي « المسافر الى دلمون » مرادفا الى لفظة تاجر عند العراقيين القدماء .

تعرضت تجارة العراق مع الخليج العربي الى بعض الضعف وفتر نشاطها السابق على اثر سقوط سلالة بابل الاولى بحدود عام ١٦٠٠ ق . م وغياب الحكم المركزي وتعرض البلاد الى غزو الحثيين والعيلاميين والكشيين على التعاقب ، فكان ذلك كله سببا رئيسيا لتعثر النشاطات التجارية لبعض الوقت وتحولها الى نشاطات فردية محدودة .

وتتوفر ثانية بعض المعلومات عن مبادلات تجارية بين العراق وبين

دلمون على ايام الكشيين ، ومع ذلك فانها لم تصل بتجارة الخليج العربي الى أيام ازدهارها السابقة مما يرجح تعرض مناشيء المواد التجارية الخليجية الى احوال صعبة ، وربما تكون هجرات الاقوام الهندية التي غمرت حوض وادي السند ومدنه ومراكزه العامرة ، سببا آخر في ضعف النشاط التجاري بين العراق وبين الخليج العربي ، اما الاشوريون ، فقد بذلوا مساع جيدة لتأمين سلامة الخطوط التجارية مع الخليج العربي، وان ادامة بعض الفعاليات العسكرية تؤكد استمرار النشاط التجاري بين الطرفين ، ولكن بسبب قرب بلاد الاشوريين من الاناضول وغربي ايران وسوريا ، ناهيك عن ان هذه المناطق غدت لفترات طويلة جزءا من الامبراطورية الاشورية ، لذلك توجهت اهتمامات التجارة الخارجية للاشوريين صوب هذه الاقاليم ، وبلغت في بعض مراحلها الى مصر •

وشهدت فترة حكم الكلديين (٦٢٦ ــ ٥٣٩ ق • م) ويصطلح على تسميتها بالعهد البابلي الحديث ، متغيرات مهمة على صعيد القوى السياسية العالمية تركت اثرها على مسار خطوط التجارة ومما كان له اثره السلبي على تجارة العراق مع الخليج العربي ومن بين ابرز هذه المتغيرات ظهور الفرس الآريين في ايران وسعيهم لتنشيط طرق التجارة البرية بين الشرق والغرب مع ما مارسوه من ضغوط سياسية وعسكرية على الدولة البابلية ، كذلك لعب ازدهار تجارة القوافل العربية دوره في اضعاف النشاط التجاري البحري في الخليج العربي ، ويرى بعض الباحثين ان مساعي الملك نبونائيد آخر ملوك بابل ، للسيطرة على تيماء وفدك ويثرب وخيبر ، وكلها مراكز واحات واستيطان رئيسية على طريق تجارة البخور الذي يأتي من جنوبي الجزيرة العربية في طريقه عبر هذه العقد الرئيسية الى مدن الشام وموانئها على البحر المتوسط ، لم يكن مبعثه ذلك الامحاولة لتلافي الصدع الذي اصاب اقتصاد الدولة بتعرض تجارة بابل الخارجية الى الضعف والتدهور

وذلك عن طريق احكام السيطرة على طريق تجارة القوافل ، وهي التجارة التي بدأت تنهمك منذ القرن السادس ق • م لابسلع ومنتجات جنوبي الجزيرة العربية فحسب بل بمنتجات الهند ايضا •

ومع كل التدهور الذي اصاب تجارة العراق الخارجية مع الخليج العربي فان بعض السلع والمنتجات والمواد الاولية بقيت تتحرك في نطاق تجارة خارجية محدودة بين مدن جنوبي العراق وبين الخليج العربي •

وتعد محاولات الاسكندر المقدوني في استكشاف طرق الملاحة ومراكز المرافيء والتموين في الخليج العربي ، اخر المحاولات لبعث الحياة في هذه الطريق التجارية العالمية القديمة ولكنها ضعفت بموت الاسكندر في عام ٣٢٣ ق • م • ثم انقطعت تماما بعد نهاية حكم السلوقيين في عام ١٣٩ ق • م ومع ذلك فان شهرة الجرهاء (المدينة التجارية في الخليج العربي) التي يرجع ازدهارها لأواخر القرن الثالث وخلال القرن الثاني ق • م • يكشف عن استمرار اهمية الخليج العربي التجارية وبخاصة في اتصالاته مع بلاد وادي الرافدين وجنوبي الجزيرة العربية •

اما مواد التجارة الخارجية بين العراق وبين الخليج العربي فانها تركزت في تبادل السلع والمنتجات التي يفتقر اليها كل من المركزين •

فقد استورد العراق من الخليج العربي او عبر مراكزه التجارية ، النحاس والاخشاب والاحجار ، وهي المواد الثلاث الرئيسية التي تفتقر اليها الارض العراقية ، بينما تعد مواد اساسية في عمليات البناء والصناعة والزراعة ومعظم الفعاليات الانتاجية للانسان •

وتناولت تجارة العراق الخارجية استيراد السلع والمواد الكمالية مثل العاج والذهب واللازورد وأنواع اخرى من الاحجار الكريمة ، وبعض المنتجات الزراعية ، وبعض انواع الحيوانات والطيور ، ومادة سميت بعيون

السمك ، يرجح انها اللؤلؤ الذي اشتهر الخليج العربي بانتاجه ، وقد وصل بعض هذه المواد مصنعا نذكر من بينها امشاط عاجية اضافة الى وصولها بهيئتها الخام ايضا ، كما ان التحقيق من مصادر بعض المواد التي نقلتها تجارة الخليج العربية ومنها العاج والعقيق الذي يجلب من الهند ، واللازورد من وادي ـ بدخشان في افغانستان ، يؤكد ان الخليج العربي لعب دورا بارزا في تجارة الترانزيت ، وكان طريقا سلكته البضاعة الهندية وبضائع المناطق الاخرى من جنوب غربي اسيا في طريقها الى العراق وسوريا وشواطيء البحر المتوسط .

اما الصادرات العراقية ، وهي المواد التي كانت تجارة العراق الخارجية تطفيء بواسطتها قيمة وارداتها ، فيأتي في مقدمتها المنسوجات والملابس والزيوت النباتية وبخاصة السمسم ، والسمن الحيواني والشعير والجلود والصناعات الجلدية ، فعن طريق هذه المواد الاولية والمصنعة ، وهي مواد يزدهر انتاجها في مناطق العراق المختلفة نجح العراقيون في تغطية قيمة الكميات الكبيرة من النحاس والاخشاب والمواد الاخرى ، فيذكر احد النصوص مثلا ، كمية من النحاس تقدر بحوالي ٧ ـ ٨ طن ، وصلت من تجارة الخليج العربي .

ان حجم المواد التجارية وتوفر طرق المواصلات النهرية شجع على ازدهار النقل بواسطة السفن بين الخليج العربي ، ولا نعرف واسطة اخرى للنقل التجاري بين الطرفين الا ما اشارت اليه المصادر الكلاسيكية من وجود نشاط تجاري عن طريق القوافل بين الجرهاء وبين سلوقية وبابل ، اضافة الى استمرار النقل بواسطة السفن ، وسوف نتعرض الى هذه الوسائط وطرق الملاحة في حديث مفصل على الصفحات القادمة .

تحتل بلاد الشام المقام الثاني من حيث الاهمية في تجارة العراق الخارجية ، فعلى جبالها تنمو اشجار الارز ، وهي الاشجار ذات الشهرة

التاريخية لصلابة اخشابها واستقامة عودها حتى ان العراقيين
الجبال اللبنانية اسم جبال الارز مثلما اطلقوا على جبال طورو
الفضة .

ويرجع اهتمام العراقيين بهذه المناطق من بلاد الشام لفت
نرجع الى القرن الرابع والعشرين ق . م وذلك عندما نقرأ في كتا
الاكدي مؤسس الدولة الاكدية ، اشارات الى غابات الارز و
اضافة الى ماري وابلا وغيرها من المناطق التي منحتها الالهة له
ذكر هذه المناطق في عهد الملك نرام سين حفيد سرجون بسبب ا
التجارية كما يتأكد اهتمام نرام سين من بقايا قصره في تل برا
الفرات .

اما كوديا حاكم لجش (القرن الثاني والعشرون ق . م) ف
التذكارية تؤكد مواصلة العراقيين استيراد اخشاب الارز
وانهم كانوا يقطعونها الواحا وينقلونها الى ضفاف الفرات فيعمل
اكلاكا يدعونها تطفو في نهر الفرات وتصل مع الماء الى المدن ا
الوسط والجنوب مثلما اوصلها كوديا الى مدينته لجش .

وحينما نستعرض الملوك والحكام الذين سعوا للوصول الى
الارز والحصول على الاخشاب منها ، لا ننسى الاشارة الى جلج
بذل جهودا كبيرة لضمان سلامة الوصول الى غابات الارز بقتل
خمبابا واذا ماتعاملنا مع معلومات هذه الملحمة بدلالاتها الرمزية
في التأكيد على اهمية هذه المناطق في تجارة العراقيين الخارجية .

وعلى الرغم من ان اخشاب الارز والسرو كانت من اهم الا
سعى العراقيون للحصول عليها من تجارتهم الخارجية مع بلاد ا
ولكنهم جلبوا ايضا انواعا من الاخشاب والسلع والمواد التي تتوفر
المختلفة منها ، او التي تصلها من بلدان اخرى وبخاصة من مصر و

وعليه فان بلاد الشـام كانت من القنوات الرئيسية في العلاقات العراقيـة مع مصر على وجه الخصوص ٠

ومع ان تجارة الاخشاب مع بلاد الشام لم تنقطع في زمن سلالة اور الثالثـة (القرن الواحد والعشرون ق ٠ م) وفترة العهد البابلي القديم (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق ٠ م) الا انها شهدت منافسة شديدة لها من تجـارة الاخشاب الخليجية واستعادت بلاد الشام مكانتها البارزة في العهد الاشوري وربما اخذ ملوك الاشوريين يكررون اعمال اسلافهم من حكام الدولـة الاشورية القديمة ، الذين سعوا لفرض حمايتهم على لبنان ومناطق الساحل ومن اشهرهم الملك شمشي ادد الاول (١٨١٣ - ١٧٨١ ق ٠ م)

ولم يخف الملوك الاشوريون اسباب حملاتهم العسكرية ورحلاتهـم المتكررة على مناطق بلاد الشام وبخاصة مناطق الجبال اللبنانية منهـا ، حيث يبرز الحديث عن الخشب بالدرجة الرئيسية اذ كـان يؤخذ لاغراض البناء وبخاصة القصور والمعابد التي اكثر الاشوريون من تشييدها مثلما اكثروا من تشييد المدن ، كما كانوا يطلبون بعض الصناعات المشهورة في بلادالشام ومنها صناعة السفن والقوارب وكذلك صناعة الاثاث الخشبي ومنه ماجـاء مطعما بالعاج حيث كان الصناع الفينيقيون من اشهر الفنانين في الحفر على العاج وتؤكد لنا كثرة القطع العاجية المكتشـفة في نمرود (كـالح) والتي نجد قسما منها في القاعات الاشورية من المتحف العراقي ببغداد على مدى استفادة الاشوريين من تجارتهم الخارجية مع سوريا سواء في جلب هـذه الصناعات او جلب العمال والمادة الاولية منهـا ثم صـناعتها في المـدن الاشورية ٠

كما لعبت بعض المدن في بلاد الشام وبخاصـة السـاحلية منها مثل اوغاريت (رأس شمرا) دورا بارزا على طريق تجارة الترانزيت بين اسـيا الصغرى حيث مصادر النحاس والذهب والفضة ، وبين مدن العراق القديم ،

وبالاضافة الى نقل بعض المواد على ظهور الحمير الى مدن اعلى الفرات ثم نواصل السفن نقلها الى مدن وسط وجنوبي العراق فأن قوافل الحمير كانت نشطة في نقل التجارة بين اوغاريت وبين بابل ، وبخاصة في القرنين الرابع والثالث عشر ق • م •

وابتداء من حكم الملك الاشوري تجلات بلاسر الاول (١١١٤ – ١٠٧٦ ق • م) والى زمن الملك آشور بانيبال ، اخر الملوك الاشوريين (٦٦٨ – ٦٣٣ ق • م) وذكر المناطق في بلاد الشام عامة ومناطق الجبال منها بوجه خاص ، لم ينقطع في الكتابات التذكارية او التسجيلات التأريخية للملوك الاشوريين ، حيث يتأكد في ضوء هذه الكتابات مدى الاهمية التي احتلتها بلاد الشام في مجمل النشاط التجاري الخارجي للاشوريين •

ولقد ساعد في تطوير علاقات التجارة الخارجية بين العراق وبين بلاد الشام امتدادات نهر الفرات فبفضل انعطافة الفرات الكبيرة صوب الغرب في اقسامة الوسطى ، فأنه يقترب كثيرا من مناطق الجبال اللبنانية والساحل السوري فعبر مسافة ارضية قصيرة يمكن الانتقال من مدن الفرات العلوية نحو وادي نهر العاصي الذي يقترب بدوره من مدن الساحل ، ومنها مثلا اوغاريت •

كما ان استمرار نهر الفرات في وسط وجنوبي العراق يوصل بمعظم المدن الرئيسية في هذين القسمين الهامين من العراق وهما بلاد اكد وبلاد سومر او بلاد بابل فيما بعد ، لذلك اصبح نهر الفرات عاملا مساعدا على تشجيع الصلات التجارية بين المركزين ومنذ فترات مبكرة ، وكما يخبرنا كوديا فان نقل الاخشاب من بلاد الشام الى العراق كان يقتضي ايصالها الى اطراف الفرات عند كركميش (جرابلس حاليا) او اية نقطة قريبة ، حيث يكون الفرات في اقرب نقاطه بعدا عن الساحل السوري ومناطق الجبال ، ثم تترك هذه الاخشاب لتطفو فوق سطح مياه النهر ، او تشد الى بعضها في

صورة الاكلاك وتنزل مع مجرى النهر في طريقها الى حيث يراد لها الوصول من المدن العراقية المختلفة ٠

ويتأكد لنا دور الفرات من المكانة التي احتلتها مدينة ماري على طريق الاتصالات التجارية بين بلاد الشام وبين وادي الرافدين ، فبفضل النصوص الكثيرة التي كشف عنها المنقبون الفرنسيون في اطلال قصر الملك زمرى لم في مدينة ماري ، تم التعرف على نشاط تجاري واسع كان يمتد من دلمون في الخليج العربي وخلال نهر الفرات شمالا والى حلب ووادي نهر العاصي وصولا الى اوغاريت (رأس شمرا) على ساحل البحر المتوسط وكانت مدينة ماري (وتعرف اطلالها اليوم باسم تل الحريري ويقع على الفرات عند الحدود العراقية السورية) بمثابة محطة رئيسية على امتداد هذا الطريق ، حيث ورث اهلها تجارة القصدير التي كانت من قبل حكرا على الاشوريين ، والقصدير مادة اساسية في صناعة البرونز بعد خلطه مع النحاس ٠

اما بلاد الاناضول فان تجارة العراق الخارجية معها كانت سببا رئيسيا في ازدهار بلاد اشور في عصرها القديم بحدود مطلع الالف الثاني ق ٠ م وعلى الرغم من توفر بعض الاشارات على قيام الصلات التجارية مع الاناضول منذ ايام سرجون الاكدي وحفيده نرام سين ولكنها بلغت اوج ازدهارها على ايام المستوطنات التجارية الاشورية في الاناضول ٠

ولقد ايدت نتائج اعمال التنقيب في مدينة كانيش القديمة (كول تپة) في الاناضول ادعاءات الملوك العراقيين عن نشاطاتهم التجارية الواسعة مع هذه البلاد ٠

وتخبرنا النصوص المسمارية المكتشفة في كانيش، والتي خلفها وراءهم التجار الاشوريون ، عن اوجه النشاطات التجارية وحجمها ووسائط نقلها وطرق التعامل والاسعار وما الى ذلك ، من شؤون تتعلق بهذا النشاط الاقتصادي الهام ومن هذه الفترة المبكرة من تاريخ العراق القديم ٠

وتفيدنا النصوص المختلفة ، ومنها رسائل وعقود ومعاملات مالية ونسخ من قوانين تنظيم العلاقات المالية والتجارية في رسم صورة رائعة لهذه المستوطنة التجارية ، وما يمكننا ان نقوله باختصار عن هذه المستوطنة ونشاطاتها ، ان مجموعة من التجار الاشوريين يقدرون ببضعة الاف سافروا قصد الاقامة المؤقتة في كانيش التي كانت بدورها مستوطنة تجار وسوقا رئيسية للتجارة الاناضولية ، حيث تنطلق منها السلع القادمة من العراق مثلما تتجمع عندها النشاطات الاناضولية المختلفة ، والاشوريون المقيمون في هذه المستوطنة هم من التجار او وكلائهم ومعهم عدد من القائمين على شؤون النقل التجاري بين اشور وبين كانيش •

وكانت قوافل الحمير نشطة تنقل القصدير والملابس بانواعها المختلفة والمنسوجات من اشور الى كانيش لتحصل على اثمانها من الفضة والذهب الذي كان يضاف الى الثروات المتراكمة في بلاد اشور ، حيث نعرف من هذه النصوص عائدات وارباح كبيرة حفظها التجار الاشوريون من اعمالهم في كانيش •

وعلى الرغم من ازدهار صناعة المنسوجات والملابس في اشور والمدن التابعة لها مثل كارانا (تل رماح) فأن اشور كانت تستورد كميات كبيرة من المنسوجات والملابس من مراكز صناعتها الاخرى وبخاصة من سبار ، مثلما عمدوا الى جلب القصدير من مناطق جبال قرة داغ على مقربة من تبريز في ايران ، وينقلونه مع موادهم التجارية الاخرى الى الاناضول ، حيث كان الطلب عليه كبيرا بسبب وفرة النحاس فيها وحاجة النحاس الى القصدير في صناعة البرونز ، وهكذا حقق الاشوريون مع مطلع الالف الثاني ق • م مستويات متقدمة في النشاط التجاري الخارجي ، انعكس اثره واضحا على التقدم السياسي الذي حققته اشور في مطلع العهد البابلي القديم •

ومن الجدير بالانتباه ، ان صلات العراق التجارية مع الاناضول ترجع لفترات زمنية مبكرة جدا فمنذ بدايات العصر الحجري الحديث بحدود الالف الثامن ق • م كانت الحجارة الاوبسيدية ، وهي نوع من الحجارة البركانية السوداء اللون التي يمكن صناعة شظايا حادة جدا منها ، تصل الى القرى الزراعية الاولى في شمالي العراق من محاجره الوحيدة القريبة من بحيرة وان شرقي الاناضول •

والراجح ان الحجارة الاوبسيدية استفادت في طريق انتقالها الى العراق من فروع دجلة وصولا الى منطقة ديار بكر ثم الانتقال الى مدن اعالي ما بين النهرين بين دجلة والفرات • ومما يؤكد مثل هذا الخط للتنقلات التجارية ، انه يوصل الى مناجم النحاس ومصادر الذهب في بلاد الاناضول حيث تعد مناجم Ergani Maden قرب ديار بكر من مصادر النحاس التاريخية ، كذلك يتوفر الذهب عند اطراف الفروع المكونة لنهر دجلة الى الشمال من ديار بكر ، وبمناسبة الحديث عن النحاس نشير الى ان كانيش لم يكن لها دور في تجارته ، والراجح انه كان ينتقل مباشرة الى العراق دون المرور بكانيش • ولكن تجارة النحاس الاناضولية اوجدت منافسة شديدة من تجارة النحاس الاناضولية بخاصة وان الاخيرة كانت تنتقل بوسائط اقل تكليفا واكثر استيعابا من وسائط النقل البرية ، ومع ذلك فان حالة الاوضاع السياسية في مناشيء المواد التجارية من جانب وفي اقسام العراق من جانب اخر لعبت دورها في ازدهار احدى التجارتين على حساب الاخرى •

وعلى العموم فان التجارة المباشرة بين العراق وبين الاناضول التي ازدهرت في مطلع الالف الثاني ، وبالتحديد في القرنين العشرين والتاسع عشر ق • م انقطعت اخبارها ايام الملك حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠ ق • م) حيث كان لقيام الدولة الحثية على انقاض المستوطنات الحاتية الاصلية اثر في تدهور العلاقات العامة والتجارية منها بوجه خاص مع العراق ، لذلك

تحولت التجارة الى سبل غير مباشرة فقد اصبحت مدن شمالي سوريا وثيقة الصلة بخاتوشاش العاصمة الحثية من جانب وبمدن العراق القديم من جانب اخر ، وكانت اوغاريت كما المحنا الى ذلك من قبل واحدة من مراكز تجارة الترانزيت في سوريا •

ولم تكن ايران بعيدة عن متناول النشاطات التجارية الخارجية للعراقيين القدماء • والراجح ان العلاقات عامة والتجارية منها بوجه خاص ، بين بلاد سومر (نقصد بها القسم الجنوبي من العراق) وبين عيلام (سهول نهري كارون وكرخا والجبال المحيطة بهما من الشمال والشرق) ترجع الى بدايات الاستيطان في القسم الجنوبي من العراق بحدود الالف الرابع ق • م •

وتخبرنا اقدم النصوص الادبية المكتشفة من حضارة وادي الرافدين عن نشاط تجاري بين سومر وبين عيلام والمناطق المجاورة لها • فقد وردت في واحدة من قصائد البطولة السومرية المعروفة باسم « انميركار وسيد اراتا » اشارات صريحة الى ان رغبة الملك انميركار ، وهو احد ملوك سلالة الوركاء الاولى ، التي هي واحدة من دويلات المدن في عصر فجر السلالات (٣٠٠٠ - ٢٤٠٠ ق • م) في ضم بلاد اراتا ، لاجل الحصول على المواد الثمينة منها فبلاد اراتا تقع الى الشرق من سومر ويفصلها عن بلاد سومر سبع سلاسل من الجبال وارضها مليئة بالفضة والذهب واللازورد والاحجار الكريمة الاخرى • ولكوننا متأكدين من مصادر اللازورد ، فالراجح ان منطقة عيلام كانت على طريق القوافل التجارية الى مصادره ومصادر العقيق وغيرها من الاحجار الكريمة والذهب والفضة •

كما يبرز القصدير من بين المواد التي اكثر العراقيون استيرادها من ايران وتناوبت اشور وماري الاهتمام بتصديره الى الاناضول ، كما تتوفر دلائل وجود منجم للذهب شمال غرب اصفهان ، وترسبات الذهب قرب همدان ونهاوند •

وكانت المناطق الجبلية شرق وشمال العراق من مصادر العبيد الرئيسية حتى ان العراقيين استخدموا العلامة الدالة على جبل مع علامة اخرى للدلالة على عبد في كتاباتهم .

ومما شجع على ازدهار التجارة الخارجية بين العراق وبين ايران توفر طرق المواصلات البرية فلكون منطقة عيلام سهلية ومفتوحة ، فقد غدت منفذا رئيسيا صوب ايران عامة ونحو الاقسام الجنوبية والجنوبية الشرقية خاصة .

ان امكانية التنقلات عبر عيلام الى الاقسام الجنوبية الشرقية من ايران، وفر امكانية الاتصال بمناطق الهند وافغانستان وربما ابعد من ذلك مع مناطق اواسط اسيا وهو ما يفسر لنا كثرة الفضة والذهب والاحجار الكريمة منذ منتصف الالف الثالث في مدن العراق بكثرة ، لذلك ازدادت اهمية عيلام في سياق النشاط التجاري العراقي لانها على طريق التجارة العالمية ، وربما لعبت مدنها دور الوسيط في تجارة المواد الكمالية الهامة كالمعادن النفيسة والاحجار الكريمة .

ان كثرة المنافذ الطبيعية في امتدادات جبال زاكروس جعل من امر الانتقال عبرها والى اعماقها سهلا وميسورا امام الناس والتجار والجيوش ومن المعروف انه بالاضافة الى ممرات بنجوين وحلبجة ورايات فأن اهم الممرات واشهرها هو ممر خانقين ـ كرمنشاه ـ همدان ، الذي بسبب اهميته وشهرته ، اطلق عليه عالم الاثار هرتسفلد بوابة اسيا .

ان مناطق جبال زاكروس بالاضافة الى نباتها واشجارها الطبيعية وحجارتها الجيدة وبعض المعادن فيها ، فانها من مراكز الرعي الفريدة وكانت المناطق القريبة من بحيرة اورميا شمال همدان من اشهر مناطق تربية الخيول في الالف الاول ق . م ، كما تكشف لنا مسلة شيلمنصر الثالث عن المواد

التي كانت التجارة مع ايران توفرها ، ومنها الجمال ذات السنامين • ومع ذلك فان تاخر هذه المناطق عن ركب الحضارة والتمدن الذي كان يسود معظم اقطار الشرق الادنى القديم يفسر ضعف النشاطات التجارية مع الاقسام الشمالية الغربية من ايران واقتصارها على المركز السياسي والحضاري الوحيد في الاقسام الجنوبية الغربية وهو عيلام •

يجدر بنا ونحن ننهي الحديث عن ابرز مراكز الاتصالات في التجارة الخارجية للعراق القديم • ان تتعرض لعلاقة العراق بمناطق الجزيرة العربية ، وبصرف النظر عن العلاقات الطبيعية المحدودة بين مناطق البوادي وبين المدن العراقية ، فالراجح ان الاتصالات التجارية الواسعة مع مناطق الجزيرة العربية انتظرت الى مطلع الالف الاول ق • م وهو زمن تدجين الابل واستخدامها على نطاق واسع لاغراض النقل • ومن هذه الفترة ايضا تبدأ النصوص العراقية تتحدث عن نشاطات متزايدة في مناطق الجزيرة العربية ، وقد اشرنا في مكان سابق كيف دفعت اهمية التجارة وطرقها في الجزيرة العربية ، بالملك نبونائيد للاستقرار في تيماء لمدة عشر سنوات ، وببذل جهود عسكرية للسيطرة على عقد التجارة في الانحاء الشمالية الغربية من الجزيرة العربية ، وكأنه يريد من خطواته هذه بناء مراكز تجارية ثانية للكلدانيين على غرار مستوطنات المعينيين والسبأيين في مناطق الحجاز او كما فعل التجار الاشوريون مع مطلع الالف الثاني في كانيش بالاناضول •

اما السلع ومواد التجارة العربية التي قصد العراقيون الحصول عليها فيمكننا استنتاجها من الغنائم ومواد الجزية التي فرضها الاشوريون على ملوك وزعماء العرب ، ويأتي في مقدمتها الذهب والاحجار الكريمة والطيوب والنوق والجمال • وربما زاد طلب الاشوريين للجمال ، لانها كانت الواسطة الوحيدة التي اتاحت للاشوريين فرصة التوغل في اعماق الارض العربية •

ولم يتوقف النشاط التجاري العراقي عند البلدان والمراكز المجاورة بل اندفع بعضه الى ابعد النقاط الممكنة ، كما تتأكد لنا المصالح التجارية من تسجيلات الملوك لاعمالهم العسكرية فهي لم تكن لغرض الحرب ، وانما لاستكشاف اسواق او مواطن المصادر الخام والاولية ، فيدعي سرجون الثاني الاشوري (٧٢١ - ٧٠٥ ق • م) انه فتح بلاد مصر المغلقة ليمزج شعبها مع شعب اشور سوية لتقوم وتزدهر التجارة •• وبسبب النشاط التجاري العراقي الواسع في اقسام بلاد الشام المختلفة الذي جلب معه اعدادا متزايدة من التجار ، فقد ترك ذلك صداه في التوراة « اكثرت تجارك اكثر من نجوم السماء » عند حديثها عن الاشوريين (ناحوم ٣ - ١٦) وهكذا كان العراقيون رواد التجارة الخارجية ووضعوا اسسها وطرق التعامل بها والكشف عن موادها وتعيين مسارات انتقالها ، هذا اضافة الى ما لعبته التجارة الخارجية العراقية من دوربارز في تلقيح افكار وتجارب وخبرات الشعوب المجاورة بخلاصة التجربة والفكر العراقيين ، ولنا في انتقال الخط المسماري وكثير من المعطيات الفكرية في العقائد والطقوس والاداب الى شعوب الشرق الادنى القديم ، مثال واضح على ذلك •

التجارة الداخلية

ان حجم المعاملات المالية المكتشفة بين النصوص المسمارية العراقية القديمة ، يكشف بوضوح عن سعة النشاط الاقتصادي عامة ، وعمليات المتاجرة بشكل خاص •

ومما ساعد على حفظ صورة النشاط التجاري العراقي القديم ، ان عائدية جميع الاموال والممتلكات كانت تقترن بوثائق قانونية مدونة نعرفها في صيغة عقود البيع والشراء والقرض والايجار والايداع والمشاركة وغير ذلك من اوجه النشاطات المالية ومع الاقرار ان عددا ليس بالقليل من عقود

التملك او البيع او الاقتراض كانت لمصلحة شخصية مباشرة وليست للاغراض التجارية وبالمقابل فأن نشاطات بعض التجار الواسعة عكستها لنا سجلات هؤلاء التي توثق بصورة جلية مجالات النشاط التجاري ، فبالاضافة الى عمليات البيع والشراء والايجار وعقود الشركات ، فأن بعض السجلات توثق جانبا في التجارة الداخلية يتمثل في عقود القروض المالية وهي التي تدفع من قبل بعض الممولين كرأس مال في الاعمال التجارية •

ومما يساعد على توضيح مديات النشاط التجاري الداخلي مجموعات الرسائل المتبادلة بين التجار انفسهم ، او بينهم وبين وكلائهم وممثليهم ، فهي تتحدث عن نوع الصفقات وحجمها ومناطق انتاج بعض السلع التجارية وكيفية نقلها وما الى ذلك من شؤون ، ومن دلائل ازدهار التجارة الداخلية ، أرتباطها الوثيق بمعاملات التجارة الخارجية ، فان حجم التجارة الخارجية الواسع الذي عرضنا لجوانبه قبل قليل يكشف اولا عن اسواق نشطة في الداخل لاستيعاب المواد المستوردة ، مثلما تعكس ثانيا عن حجم المعاملات التجارية الداخلية التي تهيء سلع التصدير اللازمة لاطفاء قيمة الواردات التجارية •

ولعل في تطور وسائط النقل النهرية واستخدامها الواسع في العراق القديم مايؤكد ازدهار التجارة الداخلية فلكونها واسطة النقل الرئيسية والرخيصة بين المدن العراقية ، فأن المواد المنقولة على ظهرها من حيث نوعيتها وكمياتها واماكن صناعتها او انتاجها ، تكشف بوضوح عن جوانب المبادلات في السلع والمنتجات بين مدن العراق القديم ، وسنقف على بعض التفاصيل عند حديثنا عن وسائط النقل التجارية •

ومما شجع على تطور التجارة الداخلية تنوع الثروات الطبيعية بين مناطق العراق المختلفة ، والذي تبعها احيانا تنوع في الصناعات المحلية ، فقد

كانت لجش مثلا من المراكز الرئيسية لتجارة الاسماك الطرية والجافة المملحة كما كانت مدينة اوما تشتهر بانتاج الدهون العطرية ، وتصدر اعدادا كبيرة من الاغنام والماعز واشتهرت سپار بانتاج النسيج الجيد وتصديره الى المدن الاخرى ، حيث كانت اشور تشترى منه كميات كبيرة لاجل تصديره الى الاناضول . ان هذه الصورة في تخصص وشهرة بعض المدن او المناطق من العراق بانتاج او صناعة سلعة معينة ماتزال حيه في حالة انتاج التمور وصناعة الدبس حيث تشتهر بهما المناطق والمدن الوسطى والجنوبية من العراق ، بينما نجد اسواقا رائجة في الاقسام الشمالية كما بقي القسم الشمالي من العراق ومدنه الرئيسية يصدر خشب الحور (القوغ) الى المدن الوسطى والجنوبية .

ومع ذلك فان صورة الانتاج النباتي والحيواني ، او مايصنع منهما لم تستمر في ملازمتها للمدن فقد ضعف انتاج بعضها وتعرض الى الانقطاع الكلي في فترات اخرى ، بينما برزت مدن جديدة لم تكن معروفة من قبل ويرجع سبب ذلك لعاملين الاول : تبديل النهرين وبخاصة نهر الفرات لمجراهما في القسم الوسطي والجنوبي من العراق ، فأن المناطق التي كان يسقيها الفرات او فرع منه من مدينتي نفر والوركاء ، هي الان وكذلك منذ مدة طويلة مناطق قفراء لا أثر للزرع او الماء فيها . اما السبب الثاني فيتمثل في ازدياد الملوحة في الارض وانتقال الزراعة تدريجيا من الحنطة الى الشعير ، ثم انقطاع زراعة الشعير بسبب انخفاض انتاجية الارض ، ومن الطبيعي ان تترك الزراعة في حالة تقدمها او تخلفها اثر كبيرا على امكانات رعي الماشية ووفرة انتاجها .

وبذلك فترت او انقطعت اخبار المدن الجنوبية التي كانت لها الشهرة السياسية والاقتصادية خلال الالف الثالث ق . م ، ومنها لجش واوما

والوركاء ونفر واور ، مقابل ازدهار مدن الوسط والشمال مثل بـابل واشنونا وماري واشور مع مطلع الالف الثاني ق • م •

ومما يرتبط بشؤون التجارة الداخلية ؛ موضوع الاسـواق وطرق عرض البضاعة ومحلات العرض ، ومع ميل الباحثين لنفي وجود الاسواق ، بالصورة التي عرفتها مدن القرون الوسطى ، في مدن الشرق القديم عامـة ، لكنهم يرون في انعقاد السوق في اماكن معينة من المدينة يمثل صورة السوق الاولى اوانها بداية فكرة السوق فقد كانت الفسحات عند بوابات المدينة او بعض الساحات العامة او عند مداخل المعابد الرئيسـية مراكز جيدة يجتمع عندها الناس يبيعون ويشـترون ويتبادلون شـؤون معاملاتهم الماليـة ويعقدون الصفقات كما يحدث ان تتخصص احدى بوابات المدينة باعمـال البيع والشراء والمتاجرة بسلعة متميزة بخاصة اذا كانت هذه البوابة مدخل القادمين من منطقة توفر هذه السلعة او مادتها الرئيسية التي تصنع منهـا ، لذلك نلاحظ في هذا السـياق العلاقة بين لفظتي « باب » و « حي » او « محلة » في لغة العراقيين القدماء ، فهناك من الاشارات مـا تؤكد وجود اسواق متخصصة في صورة احياء منها سوق للخزافين وسـوق للنسيج والنساجين او سوق للماشية بخاصـة وان كثيرا من الحرف والصـناعات كانت تنجز في البيوت وعليه فيكون الحي السكني سوقا لسلعة او بضاعـة معينة بموجب مهارات او اهتمامات سكان هذا الحي او ذاك •

وكانت هذه الاحياء تخضع لاشراف موظفين حكوميين لجمع الضرائب ولمراقبة الالتزام بالاسعار •

اما مواد التجارة الداخلية فتنوعها يزيد كثيرا من تنوع سلع التجـارة الخارجية ، وتجتمع في قائمة طويلة تضم سلع التجارة الخارجية وفي مقدمتها المعادن او الاخشاب تليها المواد والمنتجات والصناعات المحليـة وهي الزيوت

والشحوم وبعض المواد العطرية وانواع من الاخشاب المحلية والملابس والمنسوجات والاصباغ والقصب والبواري والآجر والحليب ومشتقاته والحبوب والمنتجات الزراعية والحمير والماشية والخنازير والاسماك والسفن والقوارب باشكال وحجوم مختلفة والعبيد والاماء والبيوت والعقارات والاراضي الزراعية والبور • كما شاع بيع وشراء الخيول والجمال في الاسواق الداخلية منذ اواخر الالف الثاني ق • م وبذلك تكشف لنا هذه السلع والمنتجات التجارية عن الاعداد الكبيرة من فئات المجتمع العراقي القديم التي انهمكت بشؤونها سواء في صناعتها وتحضيرها او نقلها او شحنها في وسائط النقل ومنها السفن اوفي تسيير السفن وقوافل التجارة او بيعها وتصريفها لذلك يصدق بعض الباحثين الذين يرون في اهمية التجارة مستوى لا يقل خطورة عن اهمية الزراعة في البناء الاقتصادي للعراق القديم •

وسائط النقل وطرق المواصلات

ان عاملا مهما في تشجيع المبادلات التجارية وتوسيعها وتطويرها يعتمد على توفر وسائط النقل اللازمة والجيدة وطرق المواصلات الطبيعية ، ومما نستذكره بخصوص اهمية طرق المواصلات ما احدثه اهتمام الرومان بطرق المواصلات من ازدهار كبير في شؤون التجارة ومعاملاتها •

فأن انتقال المواد والسلع والمنتجات في الاعمال التجارية يعتمد في الاساس على توفر شرطين رئيسيين اولهما وسائط النقل اللازمة ، ونعني بها تكافؤ نوعية الواسطة مع المواد المنقولة ، ولانعني بذلك انعدام النقل التجاري في حالة عوم توفر الواسطة الكفوءة ولكن في حالة توفرها فانها تدفع الى تشجيع وتطوير المبادلات التجارية وتزيد من حجمها كثيرا ، فمثلا كانت وسائط النقل المائية ، وما تزال الواسطة المثالية لنقل السلع والمواد

الكبيرة الحجم والوزن والرخيصة الثمن ، مثل بعض الحجارة والمعـادن والاخشاب والمنتجات الزراعية ، فهذه الواسطة ارخص وسـائط النقل على الاطلاق واكثرها استيعابا ويمكننا تصور وضع مصـر قبل شق السويس وبعدها ، واثر هذه الطريق على اقتصاد مصر وازدهار تجارتها ، وقد يتعذر نقل انواع من السلع مثل الكتل الحجرية التي استخدمت في صناعة التماثيل والمسلات دون الاعتماد على وسائط النقل المائية ، فقد اصبح ميسورا بفضل وسائط النقل النهرية نقل الكتل الحجرية العملاقة التي يصل وزن بعضها لاربعين طنا الى العواصم الاشورية في نمرود وخرسباد لعمل تماثيل الثيران المجنحة وعليه ففي حالة امكانية استخدامها فانها توفر فرصا افضل لتطوير التجارة وازدهارها .

ويرتبط بالحديث عن السفن والقوارب الحديث عن الممرات المائيـة الصالحة للملاحة من انهار او قنوات او سواحل بحرية قليلة العمق وكثيرة المرافيء والتعاريج . وفي هذا الخصوص فقد قدم النهران دجلـة والفرات وفروعهما وشبكة قنوات الري الواسـعة ، التي خدمت اغراض الملاحـة والزراعة ، خدمة كبيرة لاغراض النقل التجاري وتوسيع افاقـه وتطوير امكانياته .

ومما زاد من اهمية النهرين ، وبخاصة نهر الفرات انهما يمران بغالبية المدن الكبيرة والصغيرة ومعظم القرى والقصبـات في العراق الوسـطي والجنوبي حيث يندر ان تقوم مدينة بعيدة عن مجرى النهر او احد فروعـه اوقناة رئيسية تسقي منه ، فيجعلها ذلك بالضرورة على اتصال وثيق عن طريق شبكة الانهار وفروعها ببقية المدن ومراكز الاستيطان .

وبذلك هيأت الطبيعة للعراقيين طرقا جيدة ودون ايـة تكـاليف في انشائها او صيانتها كما هو الحال في الطرق البرية ، كانت عاملا مشجعا على ازدهار التجارة وتطورها في العراق القديم .

ومما زاد من اعتماد العراقيين على النقل النهري ، اضافة لما ذكر في اعلاه ، ان القسم الوسطي والجنوبي من العراق ، بسبب طبيعتهما السهلية واتنشار شبكة قنوات الري ، وسعة الاراضي الزراعية ، مع احتمال غمر اجزاء منها في موسم الفيضان ، يجعل كل ذلك من امر تشييد الطرق البرية وصيانتها امرا صعبا للغاية ان لم يكن مستحيلا ضمن امكانات العراقيين القدماء •

ومقابل ذلك تستطيع ابسط وسائط النقل النهرية من الانتقال بيسر وسهولة ودون اية خطورة محتملة من اعالي النهر وحتى مصبه في الخليج العربي ، بل اكثر من ذلك ، فبسبب شواطيء الخليج المشجعة للانتقال امام وسائط النقل النهرية فقد امتدت رحلات السفن العراقية الى مناطق بعيدة في الخليج العربي •

ولهذا السبب فقد طور العراقيون وسائط نقلهم النهرية منذ فترات مبكرة من تاريخهم الحضاري ، فان القارب الشراعي الذي يعد صورة متطورة لوسائط النقل النهرية ، عرفه العراقيون منذ مطلع الالف الرابع ق • م وتكشف لنا المفردات المعجمية الواسعة التي حفظتها النصوص المسمارية عن انواع وسائط النقل النهرية وحجومها وسبل تسييرها ومواد صناعتها واساليب بنائها وما الى ذلك من امور تتعلق بهذه الواسطة الهامة في حياة العراقيين القدماء •

ومن بين الامور التي تفيدنا بها المفردات اللغوية والتسميات المختلفة لوسائط النقل النهرية ، ان الانواع المختلفة منها ، انما تكشف عن النشاطات المتعددة التي اعتمدت في انتقالها على النقل النهري ووسائطه المختلفة فقد ميز العراقيون بين سفن نقل الحمولة والبضائع وبين سفن نقل المسافرين وتكشف لنا انواع سفن النقل عن اوجه النشاط التجاري للعراقيين ، حيث نعرف من اسمائها انها كانت تخصص لنقل

الحبوب او الطحين او الخبز او الشعير او الماش او الخضروات او البصل او التمر او الاعشاب او القير او الآجر او اللبن او الحجر او الماشية او اللحوم او الاسماك او الحليب او السمسم او الزيت او الصوف او المنسوجات او التبن او القصب اوالاخشاب ، .... الخ من اصناف المواد والسلع والمنتجات العراقية والراجح بين الباحثين ان بعض هذه السفن كانت تشهد تصميما خاصا عند بنائها او تحويرا في حوضها لتتناسب مع نوع الحمولة التي ستعمل على نقلها فأن سفينة نقل جرار الخمر والزيت تختلف في تصميم حوضها عن سفينة نقل القصب او الاخشاب كما ان السفينة المخصصة لنقل القير لاتصلح لنقل المنسوجات ، ومما يلاحظ على قائمة المواد المنقولة على ظهر السفن النهرية انها جميعا من المنتجات المحلية ، مما تفيدنافي التعرف على اوجه المبادلات التجارية الداخلية وسلعها الرئيسية، ونعود ثانية الى معلومات النصوص والى بعض المشاهد المنحوتة او الصور لنتعرف على بعض الامور التفصيلية المتعلقة بوسائط النقل النهرية في العراق القديم ، حيث تعرفنا هذه المصادر بثلاثة انواع رئيسية من هذه الوسائط فبالاضافة الى السفن والقوارب التي المحنا الى اختلاف اشكالها وحجومها تبعا لوظيفتها فأن العراقيين عرفوا الاكلاك ايضا ، واسمها القديم (كلك) وصنعوا نوعين منها كان الاول منهما على غرار الاكلاك التي كانت مستخدمة في النقل النهري في العراق الى وقت قريب وبخاصة بين الموصل وبين بغداد ، حيث تشد قرب منفوخة الى بعضها لترصف فوقها الواح من الخشب ، غالبا ما تكون من اخشاب الحور (القوغ) الذي يكثر في المناطق الجبلية الشمالية ، ثم توضع فوق المصاطب الاصطناعية الطافية فوق ماء النهر البضاعة او الاشخاص الذين يراد نقلهم .

اما النوع الثاني فهو من نوع العوامات وتصنع من قطع الاخشاب المشدودة الى بعضها او من لفات من القصب والبردي تشد الى بعضها ايضا ،

وبذلك تشكل عوامة يمكن الانتقال عليها والراجح ان العوامات كـانت تستخدم للنقل البسيط وللمسافات المحدودة .

اما الشكل الاخير من اشكال وسائط النقل النهرية فهي القفة وهي واسطة نقل اشخاص وحمولات لمسافات محدودة كانت كثيرة الاستخدام في المناطق القريبة من بغداد الى وقت قريب واقدم اشارة مدونة الى القفة وردتنا في قصة ولادة سرجون الاكدي مؤسس الدولة الاكدية (٢٣٥٠ ق . م) حيث يذكر النص بأن الكاهنة ـ اينتوم وهي ذات مرتبة عالية كانت قد حملت سرا بسرجون ، لان مثلها من الكاهنات كان محرما عليها الزواج والانجاب لبعض الوقت .. ولما ولدته وضعته في سفط وهو سلة من القصب ذكر اسمها في النص بصيغة « قفة » ورمتها في النهر ، والقصة لها شبه كبير بقصة ميلاد النبي موسى .

اما القفة فتصنع على غرار سلة القصب ، او هي سلة كبيرة تطلى بالقير من الخارج والداخل لمنع تسرب الماء الى داخلها ، وكانت تستخدم في النقل النهري للمسافات القصيرة الى وقت قريب جدا .

ونستطيع اخيرا في ضوء حمولات السفن والاعداد الكبيرة المستخدمة في النقل النهري في العراق القديم ، ان نقدر حجم المبادلات التجارية واهميتها في البنية الاقتصادية العراقية القديمة .

فقد كانت حجوم السفن تتراوح مابين ٥ ـ ٣٠٠ كور ، وتحفظ لنا المآثر المدونة المقاسات التالية :ـ ٥ ، ١٠ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٦٠ ، ١٢٠ ، ١٥٠ ، ٣٠٠ كور ، حيث يكشف لنا هذا التفاوت في حجوم السفن عن الاغراض المتعددة التي كانت تؤديها الملاحة النهرية ، واذا ماعرفنا بان الكور وحدة قياس للحجوم تعادل حوالي (٦٣ و ٢٥٢) لترا ، فتكون معدلات حمولة السفن القديمة بموجب مقاساتنا المعاصرة تتراوح مابين نصف طن (٥٠٠)

كغم ، والى ما يزيد عن ٢٥ طنا (٠٠٠ و ٢٥ كغم) وهي معدلات حمولة تقرب كثيرا بين مستويات حمولة السفن التقليدية التي كانت تستخدم في دجلة والفرات الى زمن قريب ، كما لا يزال بعضها نشطا في مناطق الاهوار وشط العرب في جنوبي العراق .

كما تجدر الاشارة في ختام حديثنا عن وسائط النقل النهرية ان استخدام السفن لم يقتصر على نقل السلع والمواد والمسافرين وانما وظفت للاغراض العسكرية ، وبخاصة عند أحتدام المعارك في جنوبي العراق ومنطقة الخليج العربي ، كما نعرف ايضا عن استخدام القوارب في الصيد ايضا وبخاصة في صيد الخنازير الوحشية التي تكثر في مناطق الاهوار في جنوبي العراق ، ومما يلاحظ على قوارب صيد الخنازير ان لها مقدمة عالية تحجب الصياد والملاح من خطر هجوم الخنزير عليهما .

واخيرا فان كلمة ملاح التي اصبحت لفظة شائعة فيما له علاقة بالنقل النهري او البحري . وتعني المشرف على تسيير القارب او السفينة ، فأن اصلها عراقي سومري جاء من تركيب لفظتين هما « ما » وتعني قارب باللغة السومرية « ولاخ » وتعني يدفع ، وهي تسمية العمل الاصلي الذي كان يقوم به الملاح في مناطق الاهوار ، ولا يزال يقوم به لحد وقتنا الحاضر حيث يدفع القارب بواسطة ذراع خشبية طويلة تعرف بالمردى يغرسها في ارضية الهور ، وهو في مقدمة القارب ، ثم يدفع القارب بالنسبة الى موضع ارتكاز المردى مستفيدا من طوله ، ومن تحركه هو من مقدمة القارب الى نهايته ، ثم يسحب المردى من موضعه ويتقدم ثانية الى مقدمة القارب ليعيد العملية ، وبتكرارها تسير الواسطة في مياه الاهوار الراكدة فالملاح اذاً هو دافع القارب او مسيره ومنه جاءت لفظة الملاح الشهيرة في وقتنا الحاضر .

قدمت وسائط النقل النهرية خدمات جليلة للنقل التجاري في داخل

العراق ، وبسبب انعطافة الفرات صوب الغرب في قسمه العلوي من جانب وخصائص الساحل الغربي للخليج العربي الذي يتيح امكانية الملاحة امام وسائط النقل النهرية ، من جانب اخر ، فقد جعل ذلك وسائط النقل النهرية تساهم الى حد ما في تعزيز العلاقات التجارية الخارجية ، وبخاصة مع سوريا والخليج العربي ، ولكن مجالات التجارة الخارجية الاخرى انما اعتمدت في تنقلاتها واتصالاتها على امكانيات النقل البري ٠

يبرز الحمار في مقدمة حيوانات النقل ، ومن المؤكد ان العراقيين استخدموه على نطاق واسع لاغراض الحمل والنقل قبل استخدام الحصان والجمل بفترة طويلة ، ومن المؤكد ايضا ان تجارة العراق الخارجية مع بلاد الاناضول في مطلع الالف الثاني ، استفادت من الحمار في نقل المعادن والمنسوجات بين اشور وبين كانيش (كول تپة) وغيرها من المراكز في بلاد الاناضول ٠

وتتوفر معلومات عن قوافل تضم الواحدة ما يقارب مائتي حمار وكان المشرفون على القافلة وحراسها والعاملون على خدمتها يستلمون اجورا على اعمالهم من اصحاب البضاعة ، ونقلت احدى القوافل مازنته احد عشر طنا من القصدير من اشور الى الاناضول ٠

وكان الحمار واسطة النقل الرئيسية عند الاموريين في بلاد الشام ايضا ، وبخاصة سكان مملكة ماري ، وخدم كثيرا في التنقلات بين مدن الفرات وبين المدن السورية الداخلية منها والساحلية كما كانت قوافل الحمير تنقل التجارة من بلاد بابل الى مدن بلاد الشام او من خلالها الى الاناضول وكانت بعض السلع والمواد الغذائية تنقل على ظهور الحمير من اوغاريت (رأس شمرا) على ساحل البحر المتوسط وعبر وادي العاصي الى نهر الفرات حيث تنقل البضاعة بعدئذ بطريق النهر الى المدن العراقية او ان تذهب بالطرق البرية مباشرة الى مدن وسط وجنوبي العراق ٠

اما الحصان فقد تأخر استخدامه في العراق الى حدود منتصف الالف الثاني ق . م وشاع استخدامه بعدئذ من قبل الاشوريين ولكن اقتصر استخدامه للاغراض العسكرية لصنف الفرسان وصنف المركبات ، وبخاصة الملكية منها بينما ظل استخدامه للنقل التجاري محدودا بل نادرا في تاريخ الحضارة العراقية القديمة ، ولا تفوتنا الاشارة الى استخدام الخيل على نطاق واسع لاغراض الصيد او رياضة الصيد التي كانت متعة الملوك والافراد .

اما الابل ، فقد عرفها العراقيون منذ فترات مبكرة تقدر بحدود الالف الرابع ق . م ولكن يشك كثيرا في ان الدمى التي تصورها تنقل الينا صورة ابل مدجنة ، فالراجح بين الباحثين ان تدجين الابل تأخر الى اواخر الالف الثاني ق . م .

وعلى العموم فان استخدام الابل في النقل التجاري لم يطغ على وسائط النقل التجارية التقليدية المعتمدة في العراق القديم ، ولكنه فتح امام التجارة الخارجية للعراقيين افاقا جديدة لم تكن معروفة من قبل الا في حدود ضيقة ، فقد خدم الجمل النقل والمبادلات التجارية بين العراق وبين مناطق البوادي واعماق الارض في اقسام الجزيرة العربية لذلك ليس غريبا ان نبدأ بسماع اخبار العرب وبلادهم منذ مطلع العهد الاشوري بحدود القرن التاسع ق . م فلم يكن ذلك سببه عدم وجود هؤلاء او ارضهم ولكن وسائل الاتصال بينهم وبين الآشوريين كانت مقطوعة ولنفس الاسباب ايضا بدأ الاشوريون يكثرون من حملاتهم على مناطق الجزيرة العربية ، بخاصة وانها اثمرت في الحصول على مواد واموال ثمينة جدا كالذهب والاحجار الكريمة وبسبب

شيوع استخدام الابل في النقل التجاري عبر فلوات الصحراء العربية اصبح في ميسور التجارة العربية ان تصل الى مناطق الشام والعراق واطراف مصر ، وتبلغ من الشهرة والاهمية ما بلغته منذ القرن السادس ق • م بحيث دفعت زعيم اعظم دولة انذاك ، وهو نبونائيد زعيم بابل للاستقرار في تيماء لمدة عشر سنوات وهي عقدة رئيسية على طرق القوافل العربية •

ومنذ الالف الاول ق • م يبدأ ذكر الابل يتردد في الغنائم والجزية وفي اعمال البيع والشراء ، وحتى في شؤون النقل التجاري والعسكري •

اما العربات ذات العجلات ، فعلى الرغم من كونها من المبتكرات العراقية القديمة ، حيث يرجع تاريخ نموذج اول عربة بعجلات اكتشفت بين المخلفات الاثرية العراقية الى حدود مطلع الالف الرابع ق • م ، ومع ذلك فأن استخدام العربات للنقل ظل محدودا جدا ، وتشير بعض الشواهد الى ان نوعا من العربات التي تجرها الثيران كانت تستخدم لدراسة الحبوب عند الحصاد او للنقل المحدود جدا ، فمثلا هناك ما يفيد بان العربات كانت تنقل المواد من ارصفة الموانيء النهرية الى مخازن المواد والغلة في احياء المدينة وهي لا تبعد عادة كثيرا عن النهر في مدن العراق القديم •

ان السبب الرئيسي وراء ندرة استخدام العربات ، هو حاجتها الى طرق مهيأة لسيرها ، واذا ما اخذنا بنظر الاعتبار طبيعة المدن العراقية القديمة التي تمتد على شواطيء الانهار والقنوات وتحيطها وتتخللها شبكات قنوات الري والحقول والبساتين هذا اضافة الى الارض الغرينية ، عرفنا بالتالي مقدار الصعوبة التي ترافق تهيأة طرق معبدة ومعها عدد لا يستهان به من الجسور والقناطر لمسيرة العربات ، كما تستلزم هذه الطرق عادة امكانات كبيرة لمواصلة صيانتها وحمايتها ، ومقابل كل هذه الصعوبات والتكاليف الباهضة التي يتطلبها امر فتح الطرق البرية ، تبرز الانهار والقنوات كطرق

طبيعية بديلة تصل لجميع المدن والقرى والقصبات ، لذلك ندر استخدام العربات للنقل ، وبقي استخدامها مرتبطا ببعض الاحتفالات والطقوس الدينية ، او لاستخدامات القادة والملوك في المعارك كما فعل الاشوريون •

لا نعرف كثيرا عن الاجراءات التي كانت ترافق نقل البضائع والسلع التجارية ولكن من الامور المؤكدة انها كانت تنقل في صورة قافلة كلما ازداد عدد حيوانات نقلها ، ازداد رجالها وجمالها ، مما يمنحها فرصا افضل للوصول بسلام وامان الى اهدافها • وكانت القوافل تسير في طرق شبه معلمة تمر بعدد من المحطات على الطريق ، كما انها تقصد بعض المدن الرئيسية في طريقها الى مناطق ابعد ، وبالتالي تكون هذه الطرق خاضعة لحماية الدولة او ان الطريق يمر بمناطق يرتبط اصحابها بتحالفات مع اصحاب القوافل • وتشير التحالفات السياسية التي نعرف بعض تفاصيلها بين دول العهد البابلي القديم ، الى اهميتها في خدمة حركة التجارة والنقل التجاري بين هذه الممالك •• ومع ذلك فأن الاشارات الى تعرض القوافل لاعمال سرقة ومخاطر في الطريق تتردد في اكثر من موضع في رسائل التجار ووكلائهم • وحتى بين زعماء المدن والدول ، وكانت القوافل التجارية تدفع نوعا من الرسوم الى الزعماء المحليين للمناطق التي تضطر لعبورها او تنقل اليها تجارتها ، وعندها تنال الحرية والحماية وتستفيد من الخدمات المتوفرة على الطرق وبخاصة الآبار •

ويتردد على لسان بعض الملوك الاجراءات التي اتخذوها والاعمال التي انجزوها ليجعلوا طرق التجارة سالكة وامنة ومريحة ، فكان بعضهم يقوم بجولات تفتيشية ويبث نقاط الحماية من قلاع وتحصينات ، ويوفر للقوافل واصحابها اماكن للراحة ربما على غرار خانات المسافرين في القرون الوسطى والاهم من ذلك كله انهم كانوا يؤكدون على قطع دابر الفساد واللصوصية في هذه الاماكن كما ان هذه الاماكن وهي دور استراحة

المسافرين والتجار كانت تخضع باستمرار لرقابة الحكومة ، والراجح انها كانت تدار من قبل النساء فتذكر احدى مواد قانون حمورابي بانه اذا ثبت ان صاحبة الحانة اوت هاربا من وجه العدالة او خارجا عن القانون فأنها تقتل لان عملها لا يعني التستر على مجرم فحسب بل ربما يجعل ارواح وممتلكات الاخرين الذين ينزلون عندها في خطر •

وتكشف لنا مقدمة قانون اورنمو (مؤسس سلالة اور الثالثة ـ حوالي ٢١٠٠ ق • م) عن حرص الدولة على حماية السفن التجارية وجعل مرساها في موانيء المدن امنا ومحميا •

وعلى العموم فأن الحكومات العراقية القديمة التي اولت شأن التجارة عظيم اهتماماتها وبلغ بها الامر الى حد تثبيت الموازين والنوعية والاجور ، ولم تغفل عن رعاية طرق التجارة وفرض الامن على عقدها وتسهيل انتقالها لانه بعكس ذلك تتعرض التجارة الى الضعف والضمور • وهذا امر يصعب تصوره في بنية الاقتصاد العراقي القديم ، فقد كانت التجارة ، وكما عرضنا لبعض جوانبها ، جانبا حيويا وهاما في اقتصاد المجتمع وحياة العراقيين القدماء •

المعاملات التجارية وقوانينها

يبرز في المقام الاول عند الحديث عن المعاملات التجارية وقوانينها السؤال عن طبيعة الاعمال التجارية ، وعلى الرغم من أن الاعمال التجارية تمثل قطاعا اقتصاديا في البنية الاقتصادية العامة للمجتمع ، ولكن بسبب خصوصية ومتطلبات العمل التجاري الخارجي فقد استمرت هيمنة الدولة على النشاطات التجارية لفترة اطول • ففي الوقت الذي نجد فيه حالات نشاط اقتصادي خاص منذ القرن الرابع والعشرين ق • م من خلال اشارات

اصلاحات اوركاجينا ، نجد ان هيمنة القصر والمعبد على شـؤون التجارة الخارجية تستمر الى زمن سلالة اور الثالثة (٢١٢٠ ـ ٢٠٠٤ ق ٠ م)

ولكن ذلك لم يمنع وجود بعض النشاطات التجارية الخاصـة وعلى نطاق محدود ، وفي حدود اعمال التجارة الداخلية ، لان عددا ليس بالقليل من العقود يسجل معاملات البيع والشراء والقرض والايجار وهي دلالة على ازدهار التعامل الاقتصادي بين الافراد اضافة الى استمرار المعبد او القصر اوممثل الدولة «دمقار» (في البابلية) في تنفيذ مثل هذه الاعمال الاقتصادية ٠

ولكن هذا الوضع الذي كانت له الهيمنة على تركيب الاقتصاد العراقي عامة ، والتجاري منه بشكل خاص اخذ بالتغير مع مطلع الالف الثاني ق ٠ م، وغدت الانشطة الاقتصادية المختلفة تتحرك لصالح القطاع الخاص اكثر من تحركها لصالح القطاع الحكومي او العام ٠

لذلك كان لزاما على مشرع قانون اشنونا وعلى حمورابي ان يهتما في قانونيهما بشؤون المال والمعاملات المالية والتجارة والعقود بين الاشخاص وما الى ذلك من امور تنظم العلاقة المالية والقانونية والحقوق والواجبات لاطراف الاعمال الاقتصادية من بيع وشراء وقرض وايجار وشركة ومساهمة وغير ذلك من اعمال ٠ لذلك تجتمع المواد التي تعنى بهذه الانشطة في قانون حمورابي في حوالي مائة وعشرين مادة قانونية من مجموع المواد الاصلية البالغة حوالي ثلاثمائة مادة قانونية ٠ ان بلوغ عدد هذه المواد الى حد النصف يكشف عن اهمية هذه القطاعات في البناء الاقتصادي كما يكشف ايضا عن الاعداد المتزايدة من الناس الذين شاركوا بالمعاملات الاقتصادية المختلفة ومما يدعم هذه الفرضية نسبة العقود والمعاملات المالية المكتشفة بين نصوص هذه الفترات ، فهي تصل الى حوالي ٩٠ ٪ من عدد النصوص المكتشفة في اي موقع ، وهذه المعاملات المالية ، مع فرز العدد القليل منها الذي يخص

مصالح ذاتية مغلقة ، كشراء بيت لاغراض السكنى ، فأن معظمها لاغراض تجارة داخلية او خارجية او استثمار رؤوس اموال او قروض لاجل الربح وغير ذلك من النشاطات الاقتصادية •

كان محور النشاطات التجارية في العراق القديم شخص يعرف باسم « دمقار » ، ومعناه العام تاجر ، ولكن معلومات النصوص الاقتصادية التي تتعلق باعماله وكذلك مواد قانون حمورابي التي تتعرض له تكشف عن شخصية متميزة في مجمل النشاط الاقتصادي العراقي القديم ، تزيد اهميتها كثيرا عن صورة البائع المتجول التي في اذهاننا للتاجر القديم وهو يتجول بين المدن والقرى ويعرض سلعا وموادا يجلبها من اماكن اخرى ، وبسبب اهمية هذه الشخصية في شؤون التجارة والنشاطات الاقتصادية والمالية الواسعة ، افرد له الباحث الهولندي ليمانز دراسة خاصة تناولت اعماله ومكانته الاجتماعية في فترة العهد البابلي القديم • ونعرف في ضوء هذه الدراسة ان « دمقار » كان تاجرا ومرابيا وصرافا ووسيطا ومشرفا ومشاركا برأس المال ووكيلا عن تجارة الحكومة •

ونظرا لكون التجارة عملا اختصاصيا يحتاج الى مهارة ومعرفة بشؤونها واعمالها ، وبخاصة التجارة الخارجية لذلك اوكلت الحكومات القديمة شؤون نشاطاتها التجارية الى مجموعة من هؤلاء التجار ، يقومون بادارة النشاطات التجارية المختلفة لصالح القصر ، وبالمقابل فقد تمتعوا بامتيازات وحقوق اجتماعية واقتصادية تفوق الناس الاخرين وذلك ما منحهم الشهرة الكبيرة في تاريخ النشاط التجاري في العراق القديم ، فان قانون حمورابي يميزهم بصراحة عن غيرهم بالحقوق والواجبات ، وهي شروط تفضيلية تنسحب فائدتها لصالح الدولة التي يعمل الدمقار لصالحها •

وقد تتوسع نشاطات « دمقار » التجارية فيقوم ببعض الاعمال لصالحه

الخاص اضافة الى اعمال الدولة ، وبذلك فانه كان يوكل امر تنفيذ جانب من اعماله الكثيرة بوكلاء له يساعدونه على تصريف شؤون اعماله الاقتصادية المختلفــــــة •

ومع جميع اوجه النشاطات الاقتصادية والمالية لهذه الفئة من التجار فان ابرز مهمــاتهم تتمثل في نشــاطهم التجاري الخارجي ، حتى ان بعض الكتابات توحي كأن التجارة الخارجية كانت حكرا عليهم ، أي لصالح الدولة التي يمثلها « دمقار » في النشــاط التجاري ، والراجح جدا ان مستلزمات التجارة الخارجية من رؤوس اموال كبيرة ومواد وسلع ومنتجات وشروط حماية ورعاية لم تكن لتتهيأ الا في امكانات الدولة ، لذلك نشط ممثلوها من التجار في مثل هذه الاعمال او على الاقل ان اعمالهم تطغى على بعض الاعمال الخاصة الصغيرة المتفرقة ، ولكن « دمقار » قد ينفذ جانبا من التجارة الخارجية لصالحه الخاص ، وتتوضح رحلات هؤلاء التجــار الى الخارج من مضامين المواد (٣٢ ، ٢٨١ ، ٢٨٢) من قانون حمورابي ، فهي تشير الى ما يحتمل ان يصادفه التاجر في رحلته والموقف القانوني من ذلك وبخاصة فيما له علاقة بشراء العبيد من الخارج •

وصحيح جدا ان جانبا من اهتمام الدولة بالتجارة يرجع لرغبتها في الحصول على ما تدره التجارة من ارباح ولكن جانبا اخر مؤكدا يتمثل في رغبة الدولة بتوفير مستلزمات البناء الحضاري من مواد وسلع ومنتجات عن طريق التجارة الخارجية ، بخاصة وان الحكومات العراقية القديمة تنفي عن نفسها صفة المحتكر المتلاعب بالسوق وبالاسعار وذلك من خلال الاشراف الدقيق على الاسعار والنوعية واخضاع المتلاعبين بهما الى طائلــة القانون ، وبذلك فان ملوك وزعماء العراق القديم يعكسون من خلال مواقفهم هذه وعيا عاليا بمصالح الدولة والمجتمع •

فنجد المادتين الاولى والثانية من قانون مملكة اشنونا تتوجهان لتحديد

الاسـعار فتنص المادة الاولى من القانون المذكور على تثبيت اسـعار المواد التالية : الشعير والزيت النقي وزيت السمسم وشحم او دهن الخنزير وزيت النهر والصـوف والملح والنحـاس المصفى وكانت الاسعـار تثبت عادة على اساس ما يعادلها من الفضة وزنا وهو ما سنتحدث عنه بعد قليل •

واضح من قائمة المواد المذكورة ان بعضها كان من بين المواد المستوردة وهو النحاس والاخرى من مواد الانتاج المحلي ، وعليه فلا فرق في التسعيرة سواء كانت المواد مستوردة او محلية •

كما نلتفت من اشارة القائمة الى سعر النحاس المصفى وسعر النحاس الاعتيادي غير المصفى ، الى حرص المسؤولين في التأكيد على النوعية حيث نعرف تأكيدا لهذا الامر الهام في قانون حمورابي ، فلم يكتف القانون بمراقبة النوعية وانما اكد على وحدة الاوزان ، فاذا ثبت التلاعب بالموازين ، كأن يقرض التاجر بوزن خفيف ولكنه يطالب عند الاستلام بوزن ثقيل فتنص المادة (١٠٨) من قانون حمورابي على تغريم التاجر المتلاعب كامل مبلغ الصفقة المالية •

فبالاضـافـة الى تعيين العراقيين لوحدات قياس للاوزان وللاطوال وللحجوم ولكن مع ذلك فقد بقيت بعض الاختلافات قائمة في حدود المقياس الواحد وسبب ذلك قدم النشاطات الاقتصادية ومعاملات البيع والشراء ، وكذلك قيام وحدات سياسية مختلفة بحيث ارست كل منها تقاليدها الخاصة بالمقاييس والمكاييل ، ولهذا نلاحظ تأكيد القوانين والتي تمثل رغبة الحكومة المركزية في اشاعة وحدة المقاييس تبعا للوحدة السياسية التي جمعت ابناء الوحدات السياسية المختلفة في اطار دولـة واحدة • فقد عرف العراقيون المن الكبير والمن الصغير (المنا او المن : وحدة وزن بابلية تساوي « ٦٠ » شيقل وتعادل حوالي نصف كيلو غرام تقريبا) وكذلك الشيقل الكبير والشيقل

الصغير وقد صنع العراقيون حجارات للاوزان نحتوها على شكل بطة واحيانا على شكل اسد ويبدو انها كانت متوفرة عند العاملين في حقلي البيع والشراء ، لذلك كان يصار الى التأكيد على اوزان رسمية نفهمها من اسمائها « وزن الدولة » او « مقاييس باب المدينة » حيث تتذكر كيف ان باب المدينة او المحلة كان تعبيرا عن السوق في مدن العراق القديم ، وكيف انها كانت خاضعة لاشراف حكومي ، وكذلك « مقاييس مردوخ » والاكثر شيوعا « مقاييس شمش » • ويقودنا الحديث عن ضبط الاوزان الى الميزان في العراق القديم ، فان حجارات الوزن التي كشف عنها باعداد ملحوظة في بقايا المدن والمواقع القديمة والتي يمكن مشاهدة نماذج منها في المتحف العراقي ، حيث نصادف حجارات كبيرة يزيد وزنها عن عشرة كيلو غرامات مقابل حجارات صغيرة لا يزيد وزن الواحدة منها عن بضعة غرامات ، كما يحمل بعضها وزنها الرسمي فهي دلالة قوية على وجود الميزان الذي نعرف ايضا الفعل الدال عليه ، وزن ، يزن (شقالو) في اللغة الاكدية ومنها جاءت لفظة شيقل وهي وحدة قياس للاوزان ومع هذا كله فان اعمال التنقيب لم تكشف لنا عن نموذج او جزء من اقسام الميزان ولا نعرف صورته على احد المشاهد المعروفة لدينا من النتاجات الفنية من العراق القديم لحد الان •

اما اسس التعامل عند العراقيين وقد توفرت بعض التلميحات الى ذلك من قبل ، فنقول ان الاساس الاول فيها هو المبادلات العينية بين المواد المختلفة ، ومع تطور المعاملات المالية والتجارية ، وسعة اعمال البيع والشراء وجد القوم ضرورة الاتفاق على سلعة وسيطة سهلة النقل والحمل لتكون اساسا لتقييم السلع المختلفة بموجبها• وقد لعبت الحبوب وبخاصة الشعير وكذلك التمر والطحين كسلعة وسيطة ، ولكنها جميعا لاتمنح المرونة التي احتلتها الفضة كسلعة وسيطة فيما بعد ، فهي بسبب غلاء ثمنها ، يكفي حمل كمية محدودة منها لشراء سلع ومواد كثيرة كما انها قابلة للتجزئة

ببساطة ، ويمكن جمع الاجزاء ثانية دون ان تفقد المادة من وزنها ونوعيتها او خصائصها ، وبذلك استقر العراقيون على اعتماد الفضة وزنا ، اساسا لمعاملاتهم المالية وعمليات تجارتهم وبيعهم وأرباح قروضهم وغير ذلك وفي امور التجارة الخارجية كانت المبادلات على الرغم من تقييم اثمانها بموجب الفضة ، ولكن دون وجود الفضة فعلا ، فمثلا يبعث تاجر من العراق بسلع ومواد مجموع اثمانها ما يعادل (٥) منات و (٢٠) شيقلا من الفضة وهو يطلب ان يحصل مقابلها على النحاس من الخليج العربي ، ولان « من » الفضة يساوي (١٠) منات من النحاس فسيكون وارد التاجر ما وزنه (٥٣) منا من النحاس وهكذا يتم حساب السلع والمواد على اساس قيمتها مقابل الفضة ، دون الحاجة الى الفضة في العمليات المالية مباشرة ولكن الفضة في قطع موزونة كانت تدخل احيانا في عمليات البيع والشراء او ان تكون على شكل قضبان يقتطع منها وزنا مايحتاجونه في احدى العمليات ، ومن الطبيعي ان يثار التحفظ بخصوص نوعية الفضة ومقدار نقاوتها ، مثلما هي الحال في بقية المعادن ، لذلك ولاجل السيطرة على نوعية ونقاوة معدن الفضة باعتباره اساس العمليات الاقتصادية والتجارية ، اصدر الاشوريون اقراصا دائرية من الفضة رسموا عليها صورة شمش او عشتار وكانت باوزان ثابتة وهم بعملهم هذا وضعوا اللبنات الاولى في طريق النقود وضرب المسكوكات ، وقد اخذ الليديون سكان اسيا الصغرى بحدود القرن الثامن ق • م هذه الفكرة عن الاشوريين ، واخذو يصدرون قطعا معدنية باوزان ثابتة وعليها صورة الملك اومايرمز اليه مع شعارات لها علاقة بالدولة •

وبذلك كانت بداية المسكوكات في تاريخ المعاملات المالية ، ويرجع تاريخ اقدم ضرب للمسكوكات في ليديا الى القرن السابع ق • م ومنهم اخذ اليونان والفرس صناعة المسكوكات ، وانتقلت بعدئذ عن هؤلاء الى مناطق المعمورة المختلفة •

اشرنا من قبل الى ان عددا ليس بالقليل من مواد قانون حمورابي خصص للمعاملات التجارية او للمعاملات المالية المختلفة التي تستهدف التجارة فأن (١٢٠) مادة قانونية ، من المادة السادسة وحتى المادة مائة وستة وعشرين تتعلق بشؤون الاموال عامة ، فمنها مايتطرق الى الجرائم التي تقع على الاموال ، وبخاصة منها الاموال المتمثلة بالعبيد واخرى تتناول موضوع الاراضي والعقارات ، وبعضها يتطرق الى شروط الاتفاقيات التجارية وتثبيت حقوق الاطراف المشاركة في العمليات التجارية كما تتطرق مواد اخرى الى القروض والودائع المالية ، كما ان مواد اخرى تتعلق بشؤون التجارة بصورة غير مباشرة ، فهناك مثلا مواد تتعلق بتعيين اجور الاشخاص والحيوانات ومسؤولية الاضرار التي تلحق بهم نتيجة العمل . ويمكننا ان نجد اهتماماً بالالتزامات المالية للاشخاص حتى في قوانين الاحوال الشخصية فمثلا تنص احدى المواد على عدم تحمل الزوجة مسؤولية ديون زوجها ان كانت هذه الديون قد ترتبت عليه قبل زواجهما وعلى العكس سيتحملان سوية التبعات المالية لكليهما بعد الزواج .

ان هذا الحجم الكبير لقوانين المال والتجارة ، يؤكد تقدم التنظيمات في حياة العراقيين القدماء ، الذين ماكان بمقدورهم تحقيق التقدم الحضاري الذي انجزوه دون هذه المستويات المتقدمة في تنظيم العلاقات الاقتصادية والاجتماعية .

لقد اشرنا من قبل الى ان جانبا من نشاطات التاجر تمثلت بمساهماته برأس مال التجارة دون الاشتراك بها فعلا ، وبالتالي فقد يدفع المال بصيغة القرض او بصيغة المشاركة ، وتعالج بعض المواد من قانون حمورابي ، الخلافات التي قد تنشب بسبب القروض التجارية ، حيث يلاحظ ان اسلوب حسم الخلافات في حالة القروض التجارية يختلف عن الاسلوب المعتمد في حسم خلافات القروض الاعتيادية (المواد ١١٣ - ١١٩) ، وهذا يؤكد

خضوع المعاملات المالية الخاصة بالتجارة الى اساليب تنظيمية تختلف عن مثيلاتها في جوانب النشاط الاقتصادي الاخرى .

ونعرض في ضوء القوانين ان نسبة الفائدة في القروض التجارية التي تتناول الحبوب هي ٣٣,١/٣٪ بينما تكون ٢٠٪ للفضة ولايجوز للتاجر منح قرض بفائدة تزيد عن النسبة الرسمية ، ويعني هذا ان تقنيم المواد المقرضة كان على اساس الحبوب او الفضة وبالتالي تختلف نسبة الفائدة في الحالتين .

ويؤكد القانون على ضرورة احاطة الاعمال المالية باطار قانوني هو العقد المكتوب الذي يحظى عادة بتوقيع الشهود . ومما يلفت الانتباه في عقود المتاجرة هذه ان المدين يحق له دفع مبلغ القرض باية سلعة او مادة تتوفر لديه ، كما يحق له طلب تأجيل دفع الدين ، ومن الواضح تماما ان هذه المرونة في حالة التأخر عن دفع الديون او تنوع الاموال عند الدفع ، سببها الحرص على سلامة المدينين في عقود المتاجرة لانهم يمثلون التجار الفعليين الذي يسافرون لتحقيق الرحلات التجارية وهم دون شك فئة متخصصة ومتمرسة على العمل التجاري وربما يتقن بعضهم لغات اقوام اخرى يتاجرون معها ، وعليه فلا يعقل ان يعطل دور هذه الفئة الهامة بسبب تأخرها عن دفع ديونها ، فأن الارباح الكبيرة التي تحققها التجارة ، وبفضل هؤلاء التجار ، تسبب في منحهم شروطا تفضيلية في العقود ، وان تأخرهم عن دفع الديون سببه تعرض احدى رحلاتهم التجارية لبعض الصعوبات ، والتي من الراجح جدا انها ستعوض خسارتها وتحقق ربحا كبيرا ، كعادة الرحلات التجارية ، في سفرتها الثانية او الثالثة .

ومن صيغ التعامل التجاري في العراق القديم نظام اقامة الشركات التجارية بين مجموعة من التجار يشارك بعضهم برأس المال فقط بينما يتولى الاخرون تنفيذ الرحلة التجارية ، ويقرر القانون ان الخسارة والربح

يتقاسمها الطرفان سوية ، ويبدو واضحا ان رحلات التجارة لمثل هـذه الشركات كان صوب مناطق وبلدان تحتاج الى خبرة ودراية لاتتوفر الا في عدد محدود من التجار ، حيث تتذكر بهذا الخصوص مجموعة التجـار المتخصصين برحـلات الخليج العربي حيث كـانوا يعرفون بمصطلح Alik-Tilmun « المسـافر الى دلمـون » لذلك كـان اصحاب رؤوس الامـوال يشاركون التجار بمناصفـة الارباح ، بينما كانوا يرسـلون تجارتهم مع عمال يدفعون لهم بعد تحقق الرحلة التجـارية وتحقق الربح اجورا مقطوعة ، فهي في هذه الحالة من الاتفـاقيات التجـارية ، رحلات تجارية مضمونة الربح في الغالب ، ومثلها في الرحلات الداخلية حيث يستطيع أي شخص ان ينقل كمية من المواد او السلع من مدينـة لاخرى وربمـا يسلمها الى شخص معين ويعود بالبضاعة البديلة او سعر المواد التجاريـة ، لذلك فانه في حالة تعرض الرحلة او البضاعة الى أي خطر فانـه سيتحمل الخسارة التي تعرضت لها الرحلة التجارية .

وعلى العموم فأن النشاطات التجارية المتعددة والواسعة خلقت صيغا تنظيمية في علاقات القائمين على شؤونها او في العلاقات المالية بينهم ، يصعب احيانا تحديدها بالمفاهيم المعاصرة ، وستبقى التجارة في انعكاسـاتها على المستوى الحضاري العام ، وجها مشـرقا من اوجـه التقدم الذي احـرزه العراقيون القدماء .

المصـــادر

١ ـ طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ج (١ ـ ٢) طبعة ثانيـة منقحة بغداد ـ ١٩٥٥ ٠

٢ ـ طه باقر : مقدمة في ادب العراق القديم ، بغداد ـ ١٩٧٦

٣ ـ د ٠ سامي سعيد الاحمد : العراق القديم ٠ الجزء الاول ، العراق حتى العصر الاكـدي ٠ بغداد ، ١٩٧٨ والجزء الثاني ٠ العراق حتى نهـــاية العصر البابلي القديم ٠ بغداد ، ١٩٨٠ ٠

٤ ـ د ٠ عامر سليمان : القانون في العراق القديم ، ج ١ ، الموصل ١٩٧٧ ٠

٥ ـ هاري ساكز : عظمة بابل ٠ ترجمة د ٠ عامر سليمان ٠ ١٩٧٩ ٠

٦ ـ صموئيل نوح كريمر : من الواح سومر ٠ ترجمة طه باقر ، طبعة مصر ٠

٧ ـ ليو اوبنهايم : بلاد مابين النهرين ٠ ترجمة ســعدي فيضـــي عبدالرزاق ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨١ ٠

٨ ـ جورج كونتينو : الحياة اليومية في بلاد بابل وآشـــور ٠ ترجمـــة ســـليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ـ ١٩٧٩ ٠

٩ ـ رضا جواد الهاشمي : « الحجارة الاوبسيدية واصول التجارة » مجلـة ســـومر ، بغداد ـ ٢٨ ، ١٩٧٢

١٠ـ رضا جواد الهاشمي : « العرب في ضوء المصادر المسمارية » مجلة كليـة الاداب ، بغـــداد ٢٣ ، ١٩٧٨ ٠

١١ ـ رضا جواد الهاشمي : « تاريخ الابل في ضوء الكتابات القديمة والمخلفات الاثرية » مجلة كلية الاداب، بغداد ٢٣ ملحق ، ١٩٧٨ ٠

١٢ ـ رضا جواد الهاشمي : « النشـــاط التجـاري القديم في الخليج العربي واثاره الحضارية » مجلة المؤرخ العربي ، بغداد ، ١٢ ، ١٩٨٠ ٠

١٣ـ رضا جواد الهاشمي : المدخل لاثار الخليج العربي ٠ منشورات مركـز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ١٩٨٠ ٠

١٤ـ رضا جواد الهاشمي : « المقومـات الاقتصـــادية لمجتمع الخليج العربي القديم » مجلة النفط والتنمية ، بغداد ٧ ـ ٨ / ١٩٨١ ٠
١٥ ـ رضا جواد الهاشمي : « الملاحة النهرية في العراق القديم » مجلة سومـر ١٩٨١/٣٧ ٠

16- Larsen, M.T. : Old Assyrian Caravan Procedures Istanbul-1967.

17- Leemans, W.F. : The Old Babylonian Merchant. Leiden, Brill 1950.

18- Leemans, W.F. : Foreign Trade in Old Babylonian Period Leiden, Brill. 1960.

19- Oates, D. : Studies in the Ancient History of Northern Iraq. London. 1968.

20- Driver, G.R. and Miles, John. C : The Babylonian laws-vol. I-II. Oxford. 3rd Edition 1968.

21- Iraq (Journal of the British School of the Archaeology in Iraq-Baghdad) 1977. Part 1-2.

(وهو عدد خاص ينقل الاعمال الكاملة لاحد المؤتمرات المتخصـــصة عن التجـــارة القديمـــة) ٠

الفصل السابع

صناعة التعدين

د. وليد الجادر
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

بعد ان اصبحت التجمعات السكانية في العراق متمكنة من تدجين الحيوانات والنباتات ومتمكنة كذلك من الاستقرار في القرى الزراعية التي كان لعمليات التصنيع دور مهم في بلوغ العديد منها مرحلة المدنية ، تمكنت هذه التجمعات من معرفة استخدام المعادن في الصناعة وكان شيوع هذا الاستخدام هو الذي يعرف بالتعدين •

والتعدين في العراق القديم يعني تمكن الافراد من صناعة ادواتهم من المعادن وهي آنذاك العدد الخاصة بالزراعة والعدد الخاصة بها كالمحاريث والفؤوس اضافة الى الادوات اليومية ومنها المنزلية ثم العدد الحربية • ولقد كان استخدام هذه الادوات في الحياة اليومية في المجتمع المدني الدافع لتسمية الفترة بعصر المعادن وهي تبدأ في العراق في اوائل الالف الرابع قبل الميلاد وتسمى ايضا بفترة حضارة العبيد المتأخرة •

ويرتب الباحثون في تاريخ الحضارات القديمة في العالم وفي العراق

بشكل خاص مراحل استخدام المعادن حسب تسلسل شيوع اســتخدامها فسموها عصر النحاس ويليه عصر البرنز ثم عصر الحديد .

هذا مع العلم ان معادن اخرى معاصرة لهذه المعادن تقريبا كالقصدير والرصاص والذهب والفضة استخدمت ايضا .

لقد كانت فترة شيوع استخدام المعادن في العراق القديم وما صاحبها من تخصصات لازمة لانجاز عمليات معقدة لا تعتمد فقط على توفر المواد الاولية اللازمة لمثل هذه الصناعة بقدر اعتمادها كذلك على ايجاد وسائل محلية مضافة تتركز على تطويع هذه المواد وتصنيفها . وجرت هذه العمليات ممهدة لعمليات متطورة اخرى مثل التدوين والاستقرار المدني والري الزراعــي وتوسيع عمليات التبادل التجاري والاهتداء الــى اختراع دولاب الفخار وتطوير العجلات وما صاحب كل هذه التحولات من تطور آفاق الاقتصاد والفكر بكافــة مجالاته . اضافة الى تطوير التنظيمات الاجتماعية والادارية والسياسية .

لقد كان العصر البرنزي الذي تبع فترة اكتشاف النحاس وسبيكة البرنز عصر التقدم التقني الذي صاحب نشأة المدن ، حيث نتعرف على مرحلة جديدة توضحت فيها اختلافات طبقات المجتمع وتطورت علــى اكتاف المتخصصين منهم العلوم العقلية ومنها بوجه الخصوص الرياضيات والفلك والطب .

ان الاهتمام بدراسة مثل هذه المجالات وبلوغها نسباً مــن التعمق والتخصص اجاز التعبير عنها بما هو متعارف عليه بالعلوم النبيلة . ولقد كان الفضل الاول في تطوير هذه العلوم وايصالها للعالم الى المتمكنين من المبدعين الاوائــل من السومريين .

لقد كانت بداية شيوع استخدام النحاس في العراق ولاول مرة على شكل ادوات حربية ومنها رؤوس الحراب ويبدو ان استخدامه كان في اول

الامر بشكله الطبيعي وذلك بطرقه بدون تسخين ٠ اما عملية صهر النحاس فقد عرفت منذ عصر جمدة نصر اي في حدود نهايات الالف الرابع قبل الميلاد ٠

وان طرق النحاس وهو بارد لايؤدي الى تنقيته بل الى تكسره مثل تكسر الاحجار اذا رغب الانسان في صناعة الادوات او الآلات منه ٠

وفيما بعد عرفت عملية الصهر التي يبدو انها كانت مرحلة تجريبية مهمة وخطوة هامة في طريق التطور الحضاري واعتبرت عملية الصهر مرحلة كبيرة مؤثرة في تسريع عمليات التطور الحضاري وفي العراق بالذات ٠ ان معرفة العراقيين بهذه المرحلة من التطوير في هذا القطاع الصناعي الهام الذي امكنهم من التوصل الى اذابة النحاس واتخاذه باشكال وحجوم عديدة وبواسطة ما يعرف بالقوالب المفتوحة ثم التوصل الى ما يعرف بالقوالب المغلقة التي تصنع من اكثر من قطعة واحدة تعتبر هذه مرحلة هامة جدا واستخدمت الطريقة الاخيرة في عمليات صب التماثيل من المعادن ومنذ عصور فجر السلالات ٠

وتوضح لنا مضامين الكتابات المسمارية عمليات السباكة بالشمع المذاب حيث يصنع نموذج من الشمع يغلف بالطين لتشكيل القالب من الخارج ثم يسكب المعدن في داخل القالب ليذوب الشمع ويأخذ شكله من المعدن ٠

ان هذه العمليات كانت مألوفة عند السومريين والاكديين والبابليين والآشوريين ووفق اساليب وتنظيمات متطورة ودقيقة حيث كانت تذكر كميات المواد الاولية اللازمة لكل عملية مع ذكر اوزان المعادن المخصصة لكل نموذج ٠

والجدير بالملاحظة هنا شهرة المتخصصين في اشتغال معدن النحاس بالاصطلاح تابيرو ومنه اشتقت تسميات في اللغات الحثية والعبرية لتشير

الى نفس المعنى • كذلك عرف المتخصص في اشتغال البرنز ومشتقاته في العراق القديم بمسميات متنوعة فهو عند السومريين اورود URUD وعند الاكديين سپارو وايرو • وتشير كلمة سپارو الى معدن النحاس ايضا ومنها كلمة الصفر في العربية التي ما تزال مستخدمة حتى اليوم •

ويعني اسم مدينة سپار (ابو حبة الواقعة في ناحية اليوسفية) مدينة البرنز•والجدير بالملاحظة ايضا ان الاصل السومري للنحاس والبرنز اشير اليه بكلمة زابار ZABAR كما تشير كلمة URUDU السومرية الى علاقة مع اسم مدينة اريدو المعروفة • ويترجم اسم مدينة بادتبيرا المعروفة اليوم بتل المدينة بانها جدار المتخصصين بالتعدين •

وتكون نفس الكلمة السومرية اورودو جزءاً من التعبير الاكدي الذي يعني اسم نهر الفرات حيث سمي بـ (پراتم) او (اوردتم) أو (اوروتم) Purattum, Urud - tum , Uruttum وقد يكون سبب التسمية الاخيرة ارتباط منابع نهر الفرات وقربها من مناطق مناجم النحاس في تركيا • كذلك يمكن ان يكون احتمال اصل كلمة اورودو السومرية اشارة الى المعدن الخام ، مع العلم ان العلامة الصورية الاولى للنحاس هي على شكل منجم • ويوجد النحاس ايضا بشكل طبيعي كمعدن نقي كما يتوفر على شكل مركبات متعددة حيث يكون ممزوجا بمعادن اخرى •

واكثر اشكال النحاس شيوعا الملاكايت او كربونات النحاس الذي يسحق ويستعمل كطلاء اخضر اضافة الى استخدامه كمصدر للنحاس المعدني • ومن كربونات النحاس الاخرى التي تستخدم في الطلاء الازوريت • هذا اضافة الى اوكسيد النحاس وكبريتاته • وهنالك ترسبات كثيرة غنية بالنحاس في معظم قارة آسيا •

ولقد ذكرت الكتابات المسمارية النحاس مميزة لانواعه فهناك النحاس الثقيل والمطروق والمصبوب كذلك تذكر نفس الكتابات النحاس المتوسط الجودة والخالص والنحاس الخام والمؤكسد وتشخص نوعا من النحاس بكونه ذهبيا ويراد به اللمعان الذي يظهر وكأنه من الذهب • وكان هذا النوع الاخير من النحاس نادرا وورد وزنه بالشقل الذي يعادل ٨٫٤ غراما من وزننا الحالي بدلا من وزنه بالمنا التي تعادل٥٠٠ غرامات من وزننا الحالي• كذلك عرف هذا النوع بانه « ابو النحاس » و « النحاس التيزاب » •

والمعروف ان العراقيين القدماء ومنهم السومريون بشكل خاص عرفوا مصادر عديدة للنحاس والمعادن الاخرى فاضافة الى المتوفر القليل محليا كان النحاس يجلب من دلمون (البحرين) وكانت الاخيرة سوقا معروفة لهذا المعدن عند منتصف الالف الثالث قبل الميلاد وذلك باستخراجه من منابعه المتنوعة ومنها تلك الواقعة في الاقسام الشمالية الشرقية من شبه جزيرة العرب• وكان النحاس المستورد من هذه البقاع قد صنف بنحاس دلمون تمييزا عن النوع الاخر المعروف بنحاس قبرص • ولقد جلب السومريون من نفس المصدر (دلمون) الفضة والذهب حيث كان يتوفر في مناطق الساحل الشرقي للبحر الاحمر وبشكل خاص في مناطق السبأيين • والجدير بالذكر هنا نعت السومريين لمكان او مجان وهي عمان الحالية بانها جبل النحاس علما بوجود موضع يسمى بجبل المعدن ولا يزال فيه بقايا آثار الحفائر القديمة لاستخراج النحاس منه •

ومن وسط وشرق شبه جزيرة العرب جلب تجار البحرين لحساب السومريين والاكديين الاحجار الكريمة وبعض انواع الاحجار المستخدمة في البناء وفي صناعة التماثيل وذلك مقابل ما كان ينقله الاخيرون اليهم من الشعير والحنطة الجيدة والسمن المعطر •

وتبدو تفاصيل أحد النصوص جديرة بالذكر هنا لما تتضمنه من

نسب الكميات المتبادلة وحجومها ووحدة القياس من معدن الفضة في مثل هذا التبادل :

« لو ــ مسلمتا ونيكسيسا ــ بنا الشريكان اللذان تسلما من اورننماركا ما يعادل حاليا ١٥٠٠ كغم من الزيت و ٣٠ قطعة منسوجة قيمت كلها بما يعادل كيلوغراما واحدا من الفضة وذلك مقابل شراء نحاس من دلمون (البحرين) وحين وصولهما سالمين جلبا معهما ما يعادل ١٩٠ كغم من النحاس مقابل الكيلو غرام الواحد من الفضة ٠ مع حساب قيمة النقل ب١/١٩٠ من قيمة الفضة ٠ والملاحظ ان هذه الكمية كانت قد جلبت من شمال عمان عن طريق وبواسطة تجار البحرين ٠

والمعروف ان التجار من السومريين وغيرهم من العراقيين القدماء كانوا في خدمة الدولة والمعبد وبنفس الوقت كانت لهم حرية ممارسة تجارة خاصة بهم وكانوا قد تميزوا على اعتبار كونهم شريحة اجتماعية اقتصادية مهمة في المجتمع العراقي والبعض منهم كان يحمل القابا منها لقب تاجر معبد « أوتو » في اور ٠

ومن هؤلاء من كان متخصصا في مهنة التجارة ومفرداتها ويشار للبعض منهم بانهم كانوا من المعدنين ولقد كان لهؤلاء التجار دور مهم في نشر معالم الحضارة السومرية وخاصة من خلال رحلاتهم المستمرة الى مناطق الخليج العربي وشمال سورية وتركيا ٠

وعرف الاكديون نحاس مناطق كيماش **Kimash** التي تقع عند المرتفعات الواقعة جنوب كركوك (ولعلها مناطق جبال حمرين) اضافة الى استيرادهم للنوع المعروف من مناطق جبال طوروس ٠ كذلك كانت مناطق بوغازكوى وكول تبه في تركيا من المصادر الاخرى التي استورد منها العراقيون النحاس ومنه النوع الذي يوصف بالنحاس الاسود وهو الاوكسيد المشوب

ببعض خليط النحاس والرصاص والنيكل وكان الاخير يصفى للتخلص من خاماته وهو مايدعى بالخبث . كذلك يذكر النحاس المستورد من مناطق الخابور .

وكان استيراد النحاس من قبل التجار الاشوريين من مناطقه المعروفة آنفا في تركيا . وذكر ان كمياته المستوردة من قبل هؤلاء التجار كانت تصل في المرة الواحدة الى خمسة اطنان من اوزاننا الحالية . وتذكر تفاصيل القوافل التجارية التي كانت تقوم بنقل الحمولات على الحمير والبغال والعربات أنها كانت تعرف خطوط سيرها وتعرف ايضا مناطق وقوفها واجور القائمين بنقل هذه الحمولات . وكانت مثل هذه العمليات التجارية منتظمة عند الاشوريين بشكل خاص وكانت هنالك بيوتات ذات طابع اقتصادي ومالي وتعرف الواحدة منها بـ (بيت كاريم) bit - Karim بالاكدية . وكان اصحاب هذه الدائرة المالية يستوفون نسبة محددة من المواد المستوردة مقابل الخدمات العديدة التي تشمل كذلك ادخال هذه المواد الى البلاد وتسهيل مهمات ايصالها الى الوسطاء من التجار او الى الحرفيين المتخصصين من الحرفيين مباشرة او حفظها في مخازن متخصصة كانت معروفة في مناطق عديدة .

وكانت عمليات تنظيم الاستيراد من المواد المختلفة وبشكل خاص النحاس والفضة والذهب والمواد الاخرى تتم مقابل اوزان محددة من الفضة او انواع اخرى من المعادن والمصنوعات المحلية ومنها الانسجة والملابس وكانت عمليات تنظيم الحسابات الخاصة بالاستيراد والتصدير بين الاشوريين ووكالاتهم التجارية في تركيا تتم كل اربعة اشهر .

البرنز

البرنز هو خليط ناتج من مزج النحاس والقصدير ، وقد يمزج النحاس بنسبة عالية جدا مع معادن اخرى كالرصاص والانتيمون او الزرنيخ الا ان

خليط النحاس مع القصدير يكون اجود انواع البرنز بعكس خلطه مع الرصاص . ويرى البعض في نسبة القصدير ومعادن اخرى مع النحاس كالنيكل والحديد بانها شوائب بينما يرى بعض اخر ان خلط مايقل عن نسبة اثنين بالمائة يعتبر طبيعيا .

والمعروف ان عملية اختراع البرنزقد حدثت في العراق وعلى نطاق واسع ومنه وصلت عن طريق البحر المتوسط الى مناطق بحر ايجة واوربا .

ولقد اجتهد العراقيون القدماء في سبيل الحصول على معدن القصدير غير المتوفر بكثرة محليا وذلك من مناطق وجوده في عربستان وعيلام وتركيا . والقصدير يوجد عادة على شكل اوكسيد وهو عبارة عن رمل قاتم ثقيل ولايبدو معدنيا ، وتوجد رواسبه في ارمينيا والعراق خاصة في المنطقة الشمالية والشمالية الشرقية . ومن اشهر مناطقه مرتفعات قنديل التي تعتبر جزءا من منطقة الدفع الداخلي لجبال زاكروس . كذلك توجد رواسبه في اقسام من جبال شمال وشمال غرب ايران .

وكانت تحركات العراقيين في سبيل الحصول على الكميات اللازمة من هذا المعدن لتطوير صناعة المعادن عندهم واحدة من الدوافع التي مكنت حضارتهم من الوصول الى بعض جزر البحر المتوسط ومنها قبرص حيث تكثر رواسبه في أراضيها .

واعتبر القصدير في العراق نادر الوجود وكان استيراده اللازم والضروري ليس بالسهل . واعتبر كذلك ذا تكلفة اقتصادية واقرب الى ان يكون من المواد الغالية الثمن . ومع ذلك فقد كان يذكر بكثرة في القوائم الخاصة بتجهيز المواد الاولية للورشات المتخصصة بالتعدين وبالذات بتصنيع البرونز ومنذ العصر السومري الاول . والجدير بالملاحظة ان نسبة خلط القصدير مع النحاس لجعله قويا ظلت متقاربة ولاتتجاوز في متوسط الحد الاعلى الـ ١٠٪

هذا على الرغم من ان تحليل قطع برنزية ترجع فترة صناعتها الى مرحلة النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد قد أشار الى ان نسبة القصدير فيها حوالي ٢٪ .

وتذكر تفاصيل نص سومري من « تلو » كيفية الحصول على ثلاث قطع مصنوعة من البرنز بلغت زنتها مايعادل ٥٦٠ غراما وهي عبارة عن اناء ومرآة وابرة . وذكر انه تم خلط مايعادل ٥١٢ غراما من النحاس النقي مع ٨٤ غراما من القصدير . وذكر ان الفرق بين مجموع وزن القطع البرنزية والمواد الاولية المميزة وهي معدنا النحاس والقصدير والبالغة ٣٦ غراما ذكر انه « أكِلَ » بالنار NE. KU

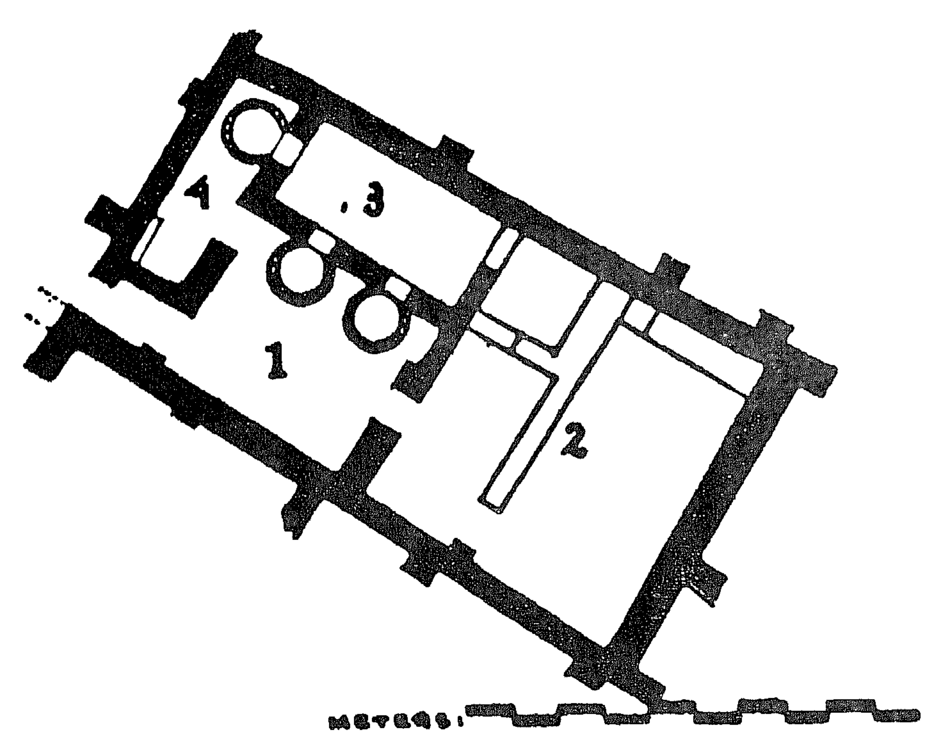
والمعروف ان عمليات الصهر المتتالية كانت كذلك لازمة للحصول على المعدن بشكله النقي . وبالنسبة لنسب الخلط السابقة الذكر نستوفي من مضمون النص اضافة اربعة غرامات من مادة الانتيمون او الزرنيخ وذلك من اجل تصعيد عملية الصهر وتسهيل عملية التخلص من الشوائب .

ومن المعروف ان كورة التسخين Kûru الخاصة باذابة المعدن كانت تتكون من طبقتين : في الاولى وهي السفلية كان موضع شعل النار وفي الثانية يوضع خام المعدن. ومثل هذه الكور تشابه كُوَر شيّ الفخار المكتشفة بكثرة وهي تشبه ايضا الكور المستخدمة لنفس الاغراض حتى اليوم .

ولقد سبق اكتشاف اربع عشرة كورة خاصة بشي الفخار في مدينة اور وحدها وكلها من عصر الوركاء اي من حدود نهايات الالف الرابع قبل الميلاد . ويذكر المنقب ليونارد وولي نموذجا منها ويصفها بانها موقد دائري الشكل قطره ٩٠سم وعمقه ٣٥سم وهو مسقف بالطابوق وفي السقف عملت

ثقوب لمرور النار الى القسم العلوي او الثاني بقطر ١٠سم ماعدا الثقـــب الوسـطي الرئيسي المعمول بقطر ٤٥سم ٠

ووجدت قنوات صغيرة في اطراف الفزن توصل الى هذه الثقـــوب والهدف منها ايصال تيار الهواء الخارجي ٠ وتختلف مثل هذه الافران عـــن مثيلاتها عند البابليين والاشوريين الا ان الافران والكور الخاصة بصهر المعادن تكون اشبه بورش كبيرة ، ومن تفاصيل نموذج تم الكشف عنه في مدينة لارسا (سنكرة) يتضح ان الكورة عبارة عن بناء متكامل مزود بساحـة مفتوحة على غرفة مستطيلة الشكل ومن الغرفة تتوزع ثلاثة افران دائريـة تطل من الجهة الثانية على غرفتين اخريين ٠



ورشة تعدين تحتوي على كور ومرافق من بينها مخـازن من مدينة لارســا (سنكرة)

والمعروف ان درجة الحرارة اللازمة لصهر معدن النحاس هي ١٠٨٥ درجة مئوية والحديد ١٥٣٠ درجة مئوية .

ولم تكن الكور السومرية والعراقية القديمة بشكل عام وخاصة تلك التي تستخدم الخشب او الحطب كافية لايصال الحرارة الى مثل هذه الدرجات ولهذا فقد كانت تذكر عمليات النفخ اللازمة لاتمام عملية ايصال الحرارة إلى الدرجة اللازمة لعملية الصهر وكانت هذه العملية مألوفة حين استخدام الفعل (نَفَخَ) وذلك باسلوبين: النفخ بواسطة المنفاخ الجلدي المزود بانابيب فخارية . والنفخ بواسطة الفم وذلك من اجل تزويد النار بالمزيد من الاوكسجين اللازم للاشتعال ومن ثم رفع درجة الحرارة . وتذكر كميات من نواة التمر كانت مجهزة لتوضع فوق المعدن لغرض تصعيد درجة الحرارة . وكانت تعرف نماذج متنوعة للبودقات المخصصة لمثل هذه العمليات ومنها المصنوعة من الطين. كذلك تذكر نصوص اخرى كميات الفحم النباتي المجهزة لاتمام عمليات الصهر وتفيد هذه المادة للحيلولة دون التأكسد علما ان عملية الاختزال كانت معروفة منذ الالف الثالث قبل الميلاد .

وتذكر نصوص اخرى خاصة بتعدين الفضة وتنقيتها نسب الخسارة التي تنتج من عمليات الصهر لمزائج الفضة التي كانت تسبب خسارة كوزن ضائع . وكانت مثل هذه النسب تحتسب بالصورة النموذجية التالية :

٢٥ منا و ٢٢ شقلا تفقد ٢٥ شقلا .

و ٤٢،٥ منا من الفضة المصفاة ومنان من الراسب تغدو معا

٤٤،٥ منا من الفضة التي ضاع منها (منا) واحد في الصهر .

ويبدو هنا ان الفضة قد صفيت مرتين من اجل الحصول على نوعية من الفضة الخالصة . وحيث يذكر في نص اخر مكرس لتفاصيل تصفية الفضة،

كميات الخسارة على مرحلتين : الاولى من جراء الصهر ، حيث معظم الرصاص يتأكسد الى اول اوكسيد الرصاص الذي يتطاير في درجة حرارة متوسطة واما المرحلة الثانية فان المعادن المؤكسدة تلحم بالاذابة سوية مع اول اوكسيد الرصاص في درجة حرارة اعلى من تلك المستعملة في المرحلة الاولى حيث يجري امتصاصها وتعرف الثانية هذه بالبوتقة الحقيقية .

الملاحظ ان وحدة الوزن المحددة بالمنا تتألف من ستين شقلا ويتألف الشقل من مائة وثمانين حبة والحبة كان يقصد بها حبة الحنطة وتسمى باللغة الاكدية بنفس التسمية العربية واحيانا كانوا يستخدمون كلمة قمحة .

الذهب والفضة

من الذهب والفضة استخدم العراقيون القدماء صناعات متعددة منها التماثيل والاسلحة والادوات ولاسيما الادوات المنزلية الخاصة اضافة الى حلي الزينة وخيوط الملابس والانسجة ، وقد عملت بعض نماذج من الرقم التذكارية من الذهب والفضة .

وكان هذان المعدنان من المواد الاولية اللازمة لصناعات مكملة اخرى ولقد اجتهد العراقيون وبشكل مستمر في سبيل الحصول عليهما سواء عن طريق المقايضة او عن طرق اخرى بما في ذلك الجزيات . ولقد تميز السومريون باستيراد الذهب من مناطق ملوخا ومناطق خاخوم بترابه او على شكل كتل صخرية وعرفوه بالتعبير كوشكين وعرفه الاكديون بلفضة خراصو . ويقال في العربية (خرص) التي من معانيها حلقة من الذهب او الفضة . كذلك سمى الكنعانيون الذهب خرص وسماه العبريون خروص واليونان خروسوس والانكليز كريسالس او خريسالس Chrysalis . كذلك عرف الاكديون

والاشـــوريون اســـتيراد الذهب والفضـــة مـــن تركيا وبشـــكل منتظـــم وذلك مقابل منتوجات اكدية وبابلية واشورية • هذا اضافة الى حصولهـــم على الذهب من مناجمه المعروفة في مصر القديمة وعلى شكل مقايضة أو على شكل هدايا ولفترات طويلة • وتذكر احيانا كميات تصل الى مايعادل عشـــرة كيلوغرامات باوزاننا اليوم مرسلة عن طريق القائم بالاعمال المصـــري في العـــــراق •

اما بعض ما يذكر عن مصادر حصول الاشوريين على الذهب فهي كثيرة جدا فاضافة الى مايصلهم من هدايا من ملوك مصر فقد حصل الاشوريون على الذهب بشكل جزيات مفروضة على الاقوام المجاورة وخاصة بعض اقـــوام الاناضول • وتذكر كميات كبيرة اخرى مثل حصول الملك الاشوري سرجون من منطقة موشكي على ١٨ تالينت من الذهب و ٢١٠٠ فضة • والمعروف ان التالينت الواحد يتألف من ستين منا اي انه يعـــادل (وزنة) ومما يذكـــر من حوليات تجلاتفليزر الثالث حصوله مرة على جزية تـــرد فيها الارقـــام التالية ١٠ تالينت من الذهب و ١٠٠٠ من الفضة •

ومن عهد اشور ناصر بال تذكر نفس الكمية اضافة الى ١٠٠ تالينت من الحديد • وتسلم الملك اسرحدون من حزقيال ١٠ منا من الذهب و ١٠٠٠ قطعة مـــن الاحجار الكريمة • وفي عهد سنحاريب تم استلام ٣٠ تالينت مـــن الذهب و ٨٠٠ تالينت من الفضة من ملك اليهود • اضافة الى ذكـــر كميات اخرى استلمت من مدن الكنعانيين وممالك سواحل البحر المتوسط الشرقيـــة الاخـــرى •

وذكر ان تجلاتبليزر الاول واشـــور ناصر بال الثاني وشلمنصر الثاني كانوا يتسلمون من بلاد نمخار كل عام اواني من البرونز والفضة والذهب اضافة الى ٢٠ منا من الفضة

واستخدم السومريون ثلاثة انواع من الذهب ، فبالاضافة الى النوع المشخص بالذهب بصفة مطلقة فقد استخدموا التعابير التي تشير الى الذهب الاحمر والذهب النقي • وكان الاختلاف بين هذه الانواع يعتمد على نسب خلطه بالمعادن الاخرى وخاصة مع النحاس والفضة أو مع الاثنين سوية • ولقد عرفوا الالكتروم المزيج من الذهب والفضة وبشكل مألوف • وتشخص الكتابات المسمارية مسميات اخرى للذهب حسب مظهره وبعد خلطه مع هذه المعادن وهكذا يذكر الذهب الابيض والاخضر والذهب الصافي والذهب من النوعية الجيدة •

ولقد اعتبر المعدنان الذهب والفضة من المعادن النبيلة التي استخدمت كمقياس لتقييم الاشياء وتحديد مايقابلها من البضائع وتحددت اوزان الذهب مثل الفضة وذلك بوحدة الوزن المعروفة بالشقل الذي يساوي ٨و٤ غرامات كما اسلفنا ذكر ذلك ، والمعروف ان التسمية مشتقة من نفس الجذر الثلاثي الذي اشتقت منه كلمة مثقال في العربية ، وكذلك بالحبة التي تكون من اجزاء الغرام الواحد كما هو الحال في اوزانها اليوم •

وبالنسبة للفضة فكما هو الحال بالنسبة للذهب عرف العراقيون القدماء انواعا ودرجات متباينة من الفضة ضمنها الفضة النقية او الصافية او المصقولة واللماعة والقوية او الصلبة • وكانت الفضة تصاغ في اشكال عديدة مثلها مثل الذهب والباقي منها كان يتخذ على شكل قطع تحدد اوزانها وتقاس بالشقل ايضا •

واختلفت قيمة الفضة مقابل المعادن الاخرى حسب الفترات والعهود في العراق القديم فكانت عند السومريين بنسبة واحد من الفضة مقابل ١٣٠ من النحاس ، وعند البابليين كانت بنسبة واحد من الفضة مقابل ١٤٠ من النحاس ، وعند الاشوريين كانت نسبة الفضة الى الذهب ١ الى ١٠ •

ومن خلال تفاصيل نص مسماري من مدينة اشور نستوضـــح مستوى بعض الاسعار من الالف الاول قبل الميلاد ونجد ان ما يقابل شقلا واحدا مـــن الفضة كان يكفى لشراء حوالي ستة كيلوغرامات من الصوف ومقابل نفس الكمية او الوزن من الفضة كان يمكن شراء ٢ كور من الحبوب اي حوالي ٣٠٠ كيلو غرام او لتر • علما ان الكور الواحد ومضاعفاته واجزاءه كانت وحدة قياس المكاييل ومنها الحبوب بشكل خاص وكذلك الســوائل وغيرها ونسميه اليوم بالكـــر •

لقد كانت عملية استخدام الفضة كوحدة قياســ متعارف عليها فـــي العراق القديم ولفترة تزيد على الالفي عام ظاهرة جديرة بالدراســــــة والتحليـــل •

فالمعروف ان استخدامها بهذه الخاصية منذ عهد سلالة فاره (شروباك) أي في حدود منتصف الالف الثالث قبل الميلاد وظلت وحدة القياس بهـــذا المعدن بوزن محدد وهو الشقل الذي يسمى بالسومرية كن GIN .

هذا الى جانب اتخاذ النحاس وحدة قياس ثانية وبوزن او وحدة قياسية اخرى هي المنا التي تعادل وزن ٥٠٠ غرامات من اوزاننا الحالية تقريبا •

وكانت اوزان الفضة قد اتخذت على شكل قطع تستخدم في التداول التجاري بمثابة العملة • وكانت هذه الاخيرة تختم بعلامة مميزة وكان يحضر صهر مثل هذا النوع في حالته هذه والمخالف كان يعرض نفسه لطائلــــــة العقوبات •

وكانت هذه القطع المخصصة لمثل هذا النوع من التداول تخلط مع نسب معينة من معادن اخرى بصورة تصبح النتيجة غير مفضلة في الصياغة والصناعات الاخرى من اختصاص المعدنين •

وتشير الكتابات السومرية في طورها الاول بالعلامة التي تعني شـــام SHAM متضمنا عملية الشراء والثمن • كذلك تذكر اشارات اخرى في نصوص اشورية الى استخدام القطع النقدية من عهد حكم الملك الاشوري سنحاريب حيث يذكر في معرض عمل تمثال من البرنز تفاصيل خاصة بتقطيع قطع من وزن نصف شقل سميت برؤوس عشتار •

اما معـــدن الحديد فقـــد كـــان مـــن المعادن المهمـــة في الصناعة واولى استخداماته كانت في صناعة الاسلحة والادوات وهو في هذا الجانب افضل من البرنز واشد صلابة • ولم يتمكن العراقيون القدماء من توصيل صناعتـــه الى قطاع البناء والهندسة وربما كان لندرة وجوده آنذاك وتأخر شيـــوع استخدامه حيث لا يتعدى ذلك بداية الالف الثاني قبل الميلاد • يضاف الى ذلك عدم امكانية العثور على هذا المعدن بشكل نقي الا في حالاته في بعض الصخور البازلتية حيث يكون على شكل ذرات صغيرة • ويبدو ان ارتبـــاط علاقته بالسماء كان في حالات الحصول عليه بشكله الصافي او النقي • فـــان النيازك التي تسقط من السماء تتكون في معظمها من الحديد •

ولقد ذكر السومريون الاصطلاح آن ـــ بار ، AN - BAR مشيريـــن به الـــى ان آن تعني الســـماء وبار تعني الحديـــد ويترجم الاصـــطلاح بمعدن السماء او المعدن ـــ النيزك • وسموه ايضا البار ـــ كالBAR - GAL ويراد به ان يكون المعدن المعظم •

وعلى الرغم من ورود هذه الاشارات بوضوح في الكتابات العراقيـــة القديمة : السومرية والاكدية والتي تؤكد معرفتهم لهذا المعدن الهام منـــذ حدود الالف الثالث قبل الميلاد ، فلم يتم العثور على نماذج مقنعة وعديدة تدل

على شيوع استخدام السومريين له ، هذا على عكس ما نجده عند الآشوريين الذين استفادوا بشكل كبير من هذا المعدن وخاصة في تطوير عدة جيوشهم وحركاتها وفي صناعة العربات وبعض انواع الأسلحة وعرفوه باسم بارزيلو Parzillu الذي يقابله الاصطلاح السومري AN. BAR .

وفي الواقع ان الاشارة الواضحة التي تربط المعدن بالسماء وبالنيازك الساقطة على الارض وتشخيص العراقيين القدماء لمثل هذه الظاهرة يمكن ان تؤكد معرفتهم لهذا المعدن مع فترة اشارتهم له في الكتابات السومرية ، هذا علما بأن نتائج تحليل بعض الادوات المصنوعة من قبل الاخيرين اثبتت انها تحوي نسبة حوالي ١٠٪ من النيكل الذي يتوفر في الحديد عادة بنسبة ٥٪ على الاقل بالنسبة للحديد النيزكي ،

والمعروف ان مصادر الحديد الرئيسية هي فلزاته ومنها أكاسيد الحديد والهمتايت وهو خام الحديد الاحمر واوكسيد الحديد المائي الاصفر ،

وتوضح نتائج التنقيبات الاثارية المستمرة المزيد من المعلومات الوثائقية الخاصة بتفاصيل الحرف والصناعات العراقية القديمة وفي موضوعنا هذا اماطت التنقيبات اللثام عن استخدام واسع للمعادن من عصر جمدة نصر ، وان المتبقي والمكتشف حتى الان يدل بوضوح على مراحل التطور التي بلغها الحرفيون من المتخصصين في الصناعات المعدنية على نطاق واسع بضمنها تلك المتميزة بالصناعة التي توضح براعة تقنية وتحسسا جماليا ، ولقد زودتنا المقابر الملكية في اور وحدها بمجموعات كبيرة ومتنوعة مصنوعة من الذهب والفضة والاحجار الكريمة النادرة والصدف والقواقع اضافة الى نماذج الاسلحة والخوذ الحربية والالات والادوات الموسيقية ، كذلك اشتهرت صناعة التماثيل للالهة والملوك من الذهب والفضة والنحاس

والبرنز وكانت مثل هذه التماثيل توضع في المعابد وبعضها في مداخل المعابد ومن النماذج الاخيرة وجدت ثيران كبيرة من الفضة في معبد نابو في بورسيبا .

وعملت نماذج عديدة من العدة الحربية من المعادن اضافة الى ان نماذج مصغرة لقلاع حربية وتفاصيل ابنية تم انجازها من البرنز وخاصة عند الاشوريين . وعرف الاخيرون تلبيس بعض بوابات مدنهم المصنوعة من الخشب بصفائح معدنية من البرنز مزينة بموضوعات مألوفة في النحت البارز الاشوري واهم هذه النماذج بوابة مدينة بلوات الاشورية كذلك تم تلبيس الاعمدة بالصفائح المعدنية .

وتذكر النصوص المسمارية المتخصصين من الحرفيين الذين كانوا يعملون تحت اشراف الملوك مباشرة وتتناول مضامين الرسائل الخاصة بانجاز اعمال صب التماثيل او صناعة موضوعات كبيرة مهمة منها تفاصيل على درجة كبيرة من الاهمية الوثائقية لما تحويه من معلومات عن أسماء الصناع وعلاقاتهم الخاصة بالطبقة الحاكمة بفعل تخصصهم الدقيق وحاجة السلطة لهم كذلك الحال في صلاتهم مع المعبد وطبيعة العمل وما هو واجب منه او بالعكس . وفي نص رسالة اشورية من الفترة المتأخرة ما يوضح جانبا من هذه التفاصيل وطبيعة التحاور « وبعد ذكر لكمية من الذهب تزن حوالي ثلاثة كيلوغرامات ونصف من النوعين المصفى وغير المصفى ذكر انها في مخزن البيت ـ الورشة التابع لرئيس الحرفيين » ويناشد كاتب الرسالة الملك ان يسمح بالبدء في عمل تمثال الملك والملكة الام ويأمر سيد القصر وامين البلاط بفتح الذهب حيث ان العمل في بداية هذا الشهر يكون مفضلا وان يسلموا الذهب الى الفنانين الحرفيين ليبدأوا العمل .

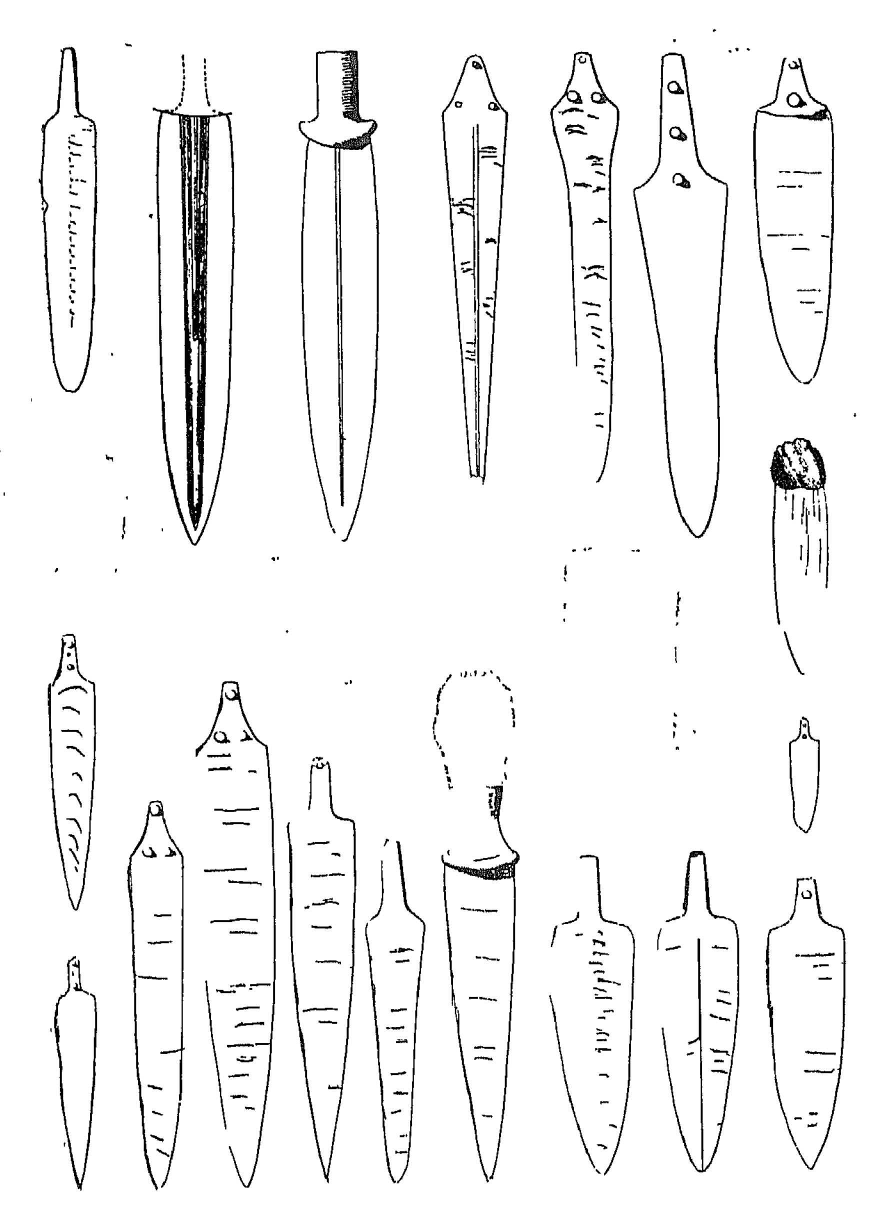
والطريف ان الاله ايا المعروف بكونه سيد المعرفة كان رمزا لمثل هذه الصناعات الخاصة بالمعادن . وكان معدن الذهب ينسب ايضا الى الاله انليل وكان المتخصص في صياغة الذهب والفضة يسمونه كوتيمو المأخوذ من السومرية KU - DIM .

ويبدو انه كانت هناك ترانيم خاصة تردد لبعض المعبودات وتصاحب الاعمال الخاصة بصناعة تماثيل الالهة من المعدن لوضعها في المعابد ومما يذكر من هذه الترانيم :

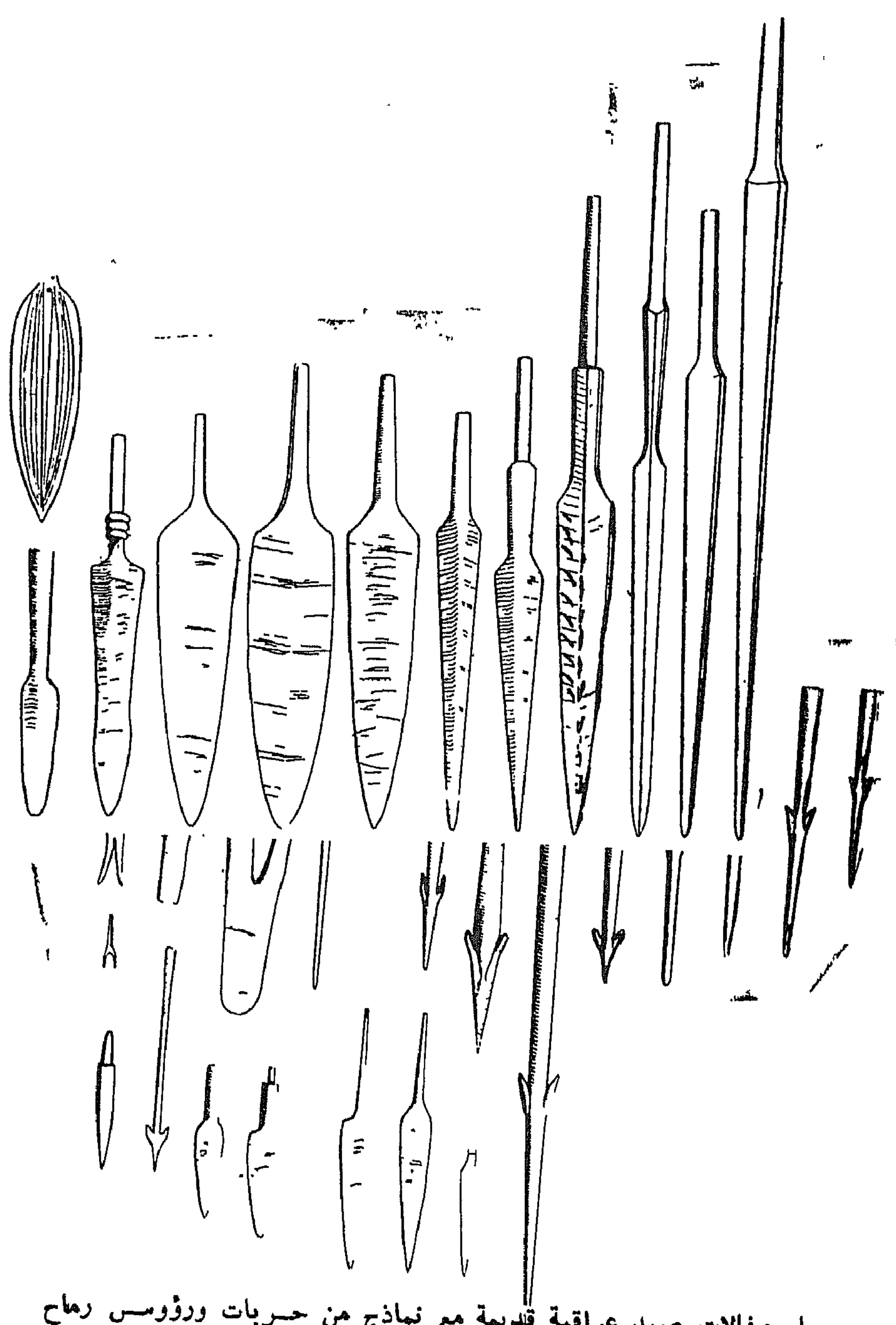
سبع حبات من الفضة
سبع حبات من الذهب
سبع حبات من البرنز
سبع حبات من الرصاص
سبع حبات من النحاس

ومن تفاصيل رسالة اخرى نجد ذكر ما يلي :

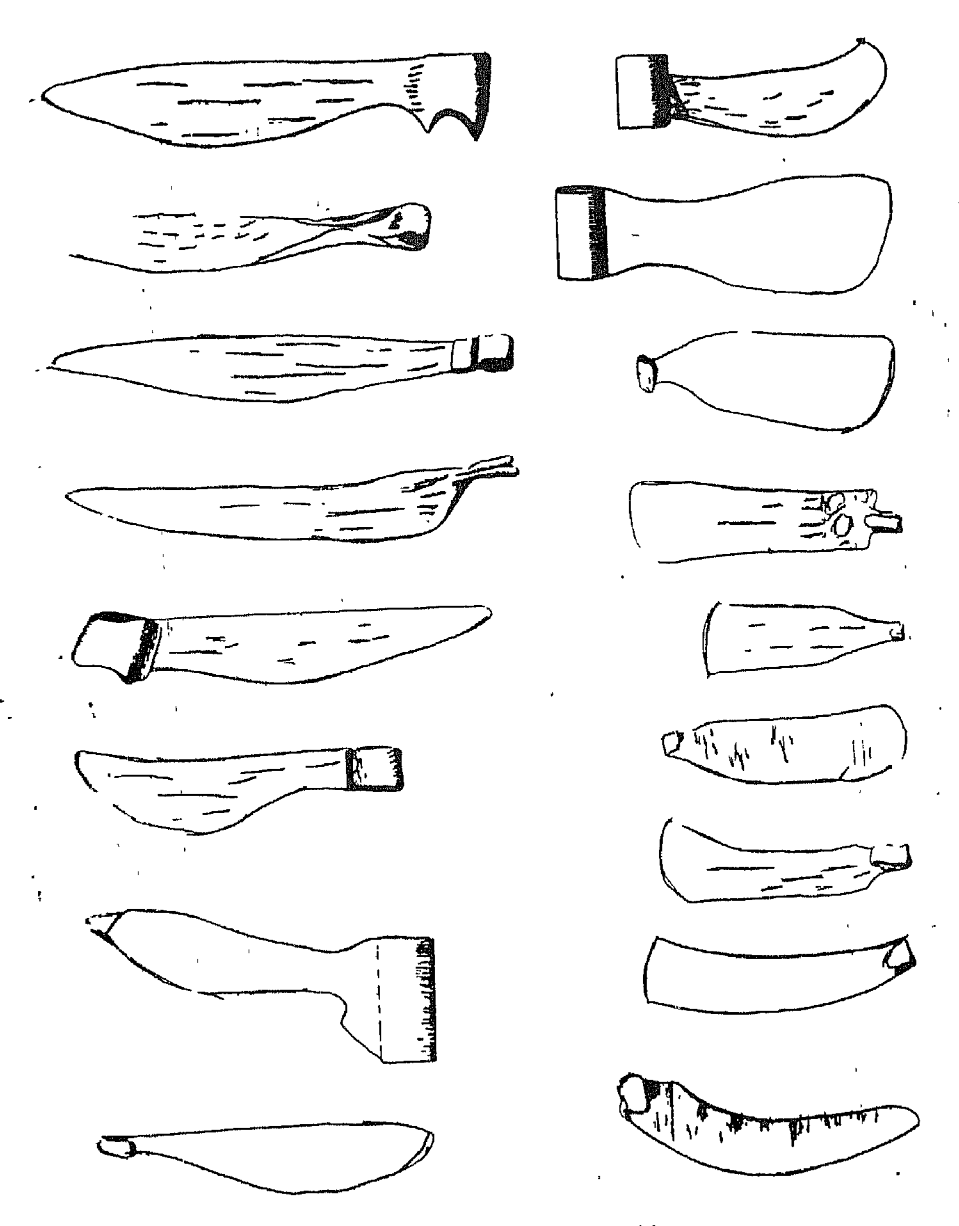
اما ابواب المعبد فقد عملتها من خشب السرو ذات العطر الطيب وزينتها بشرائط من الذهب . وغلفت بالذهب مسطبة الاله اشور سيدي . وفي الغرفة الخاصة بالمصائر والصومعة المقدسة : مرقد آشور ، حيث يحدد مصير السماء والارض ، فقد شيدها اجدادي الملوك من الطابوق المغلف بالفضة . واعدت بناءها وغلفت الطابوق بحوالي ٦٠ كيلو غراما من الفضة المذابة (eshmaru) وفي داخل الغرفة هذه وضعت تمثالي في وضعية توسل الى الالهة وصلاة من اجل حياتي ووضعت تمثالا آخر الى اشور بانيبال ولدي ووريثي .



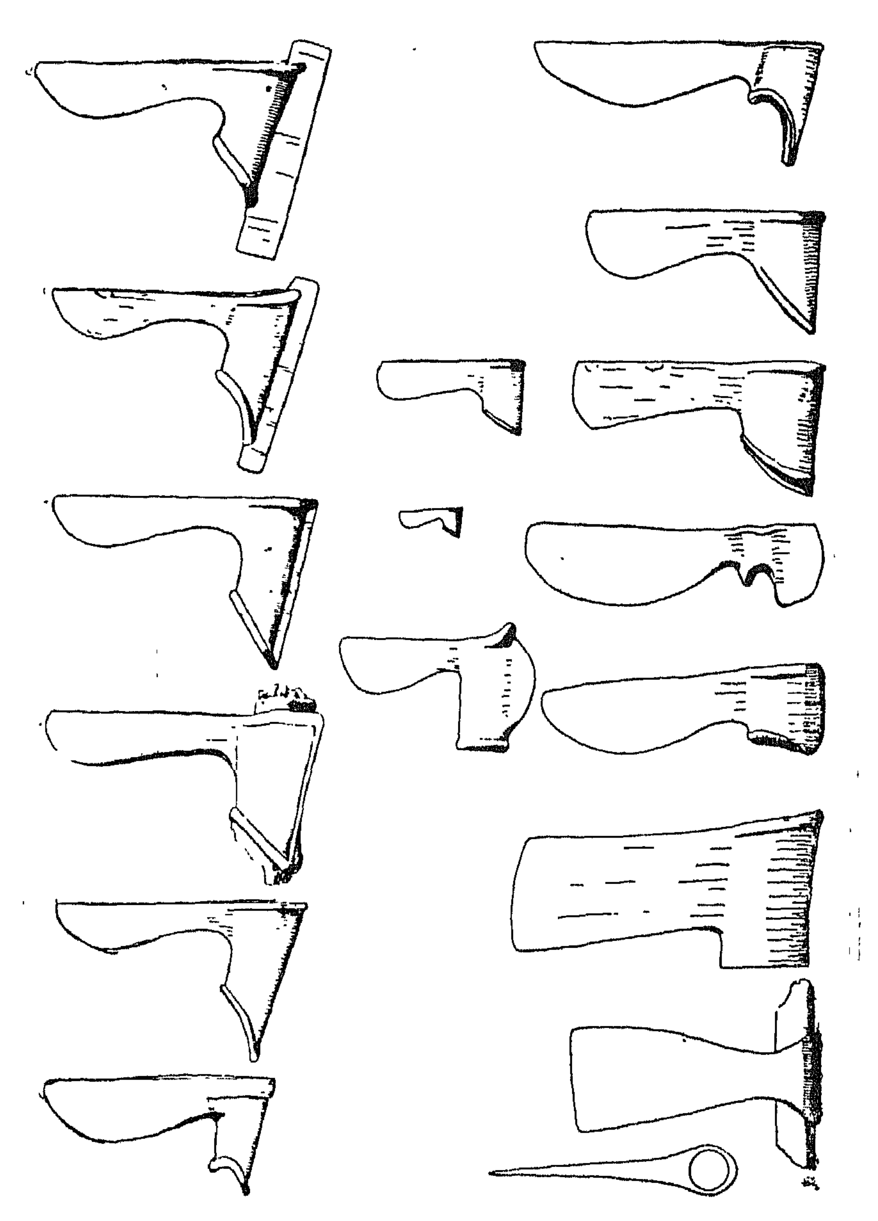
نماذج من السكاكين والخناجر التي كانت من استخدامات
العراقين القدماء وخاصة السومريين منهم



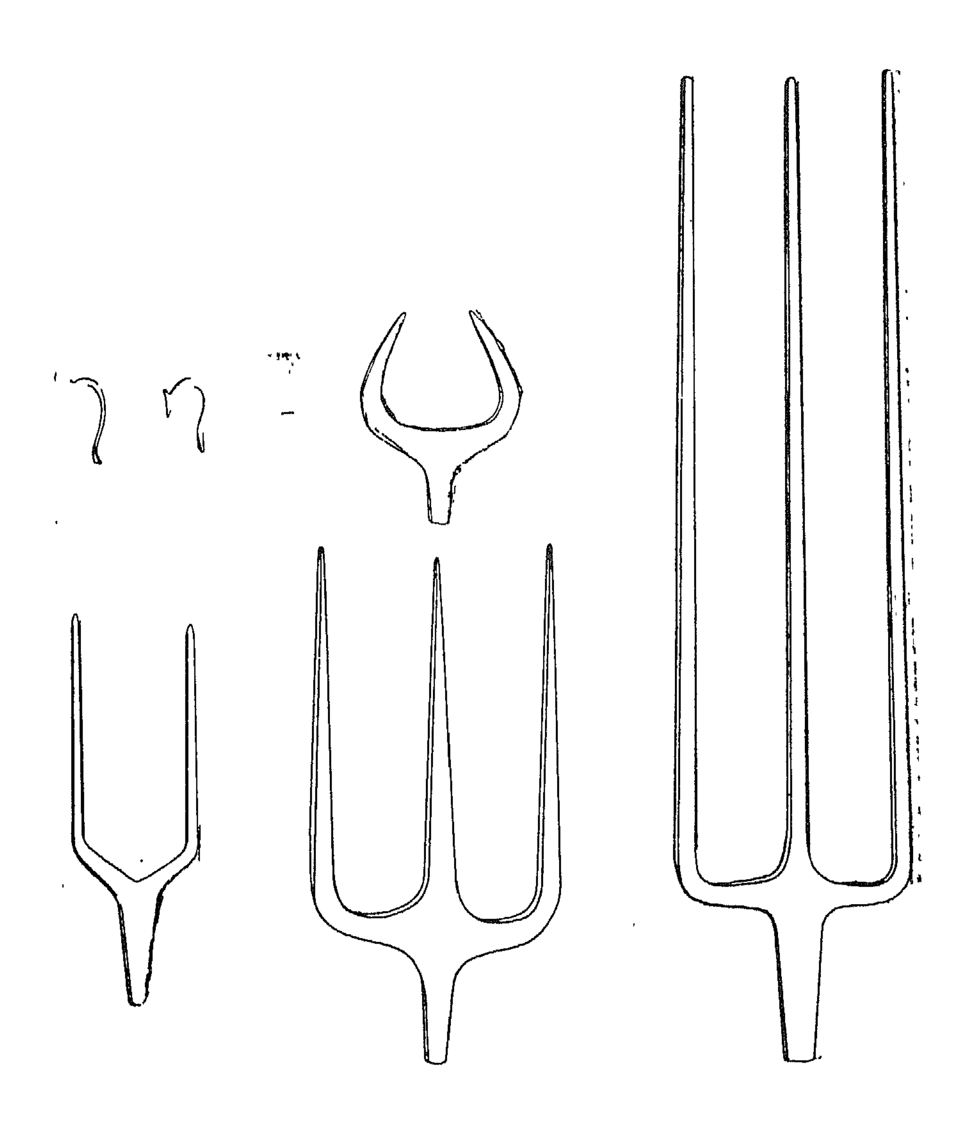
سهام وفالات صيد عراقية قديمة مع نماذج من حـربات ورؤوس رماح



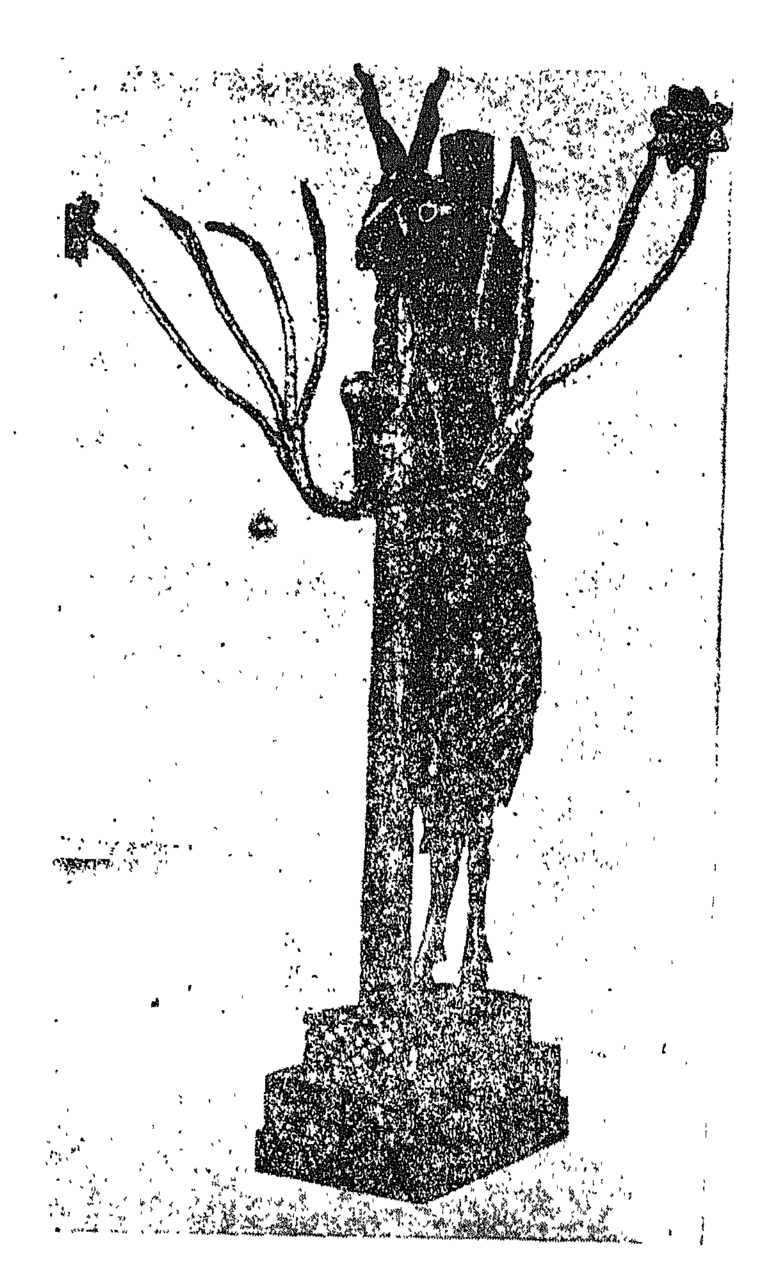
نماذج من الفؤوس النحاسية



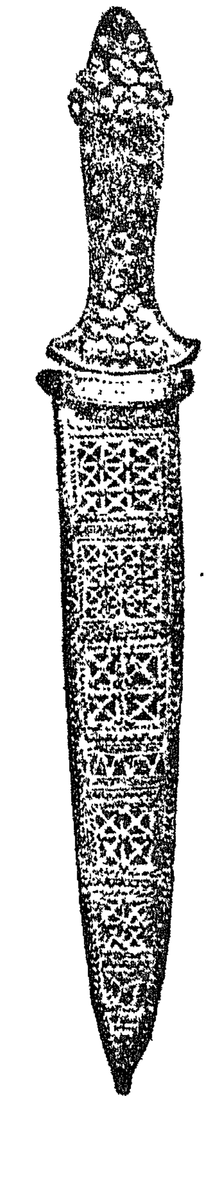
نماذج من الفؤوس البرنزية



نماذج من فالات الصيد



نموذج مجسم من الذهب واللازورد والصدف يمثل عنزة على رمز لشجرة من الذهب



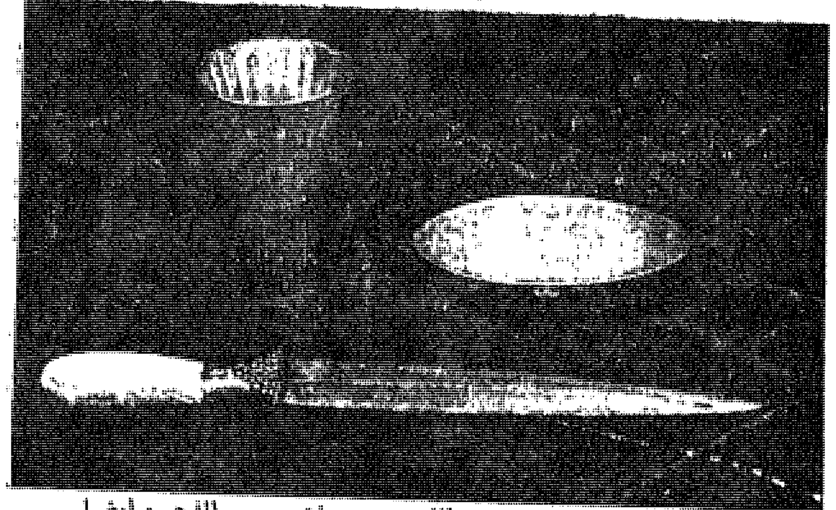
خنجر من الذهب وغمده
مزين بتخريم دقيق



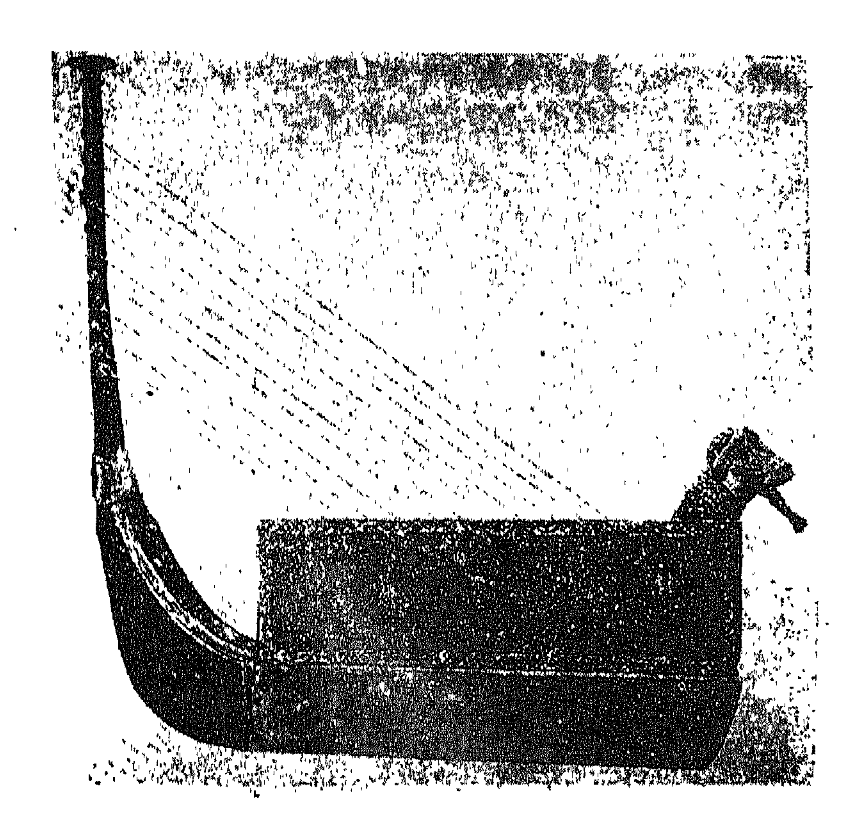
من قطع الصدف المستعملة
في تطعيم القيثارات



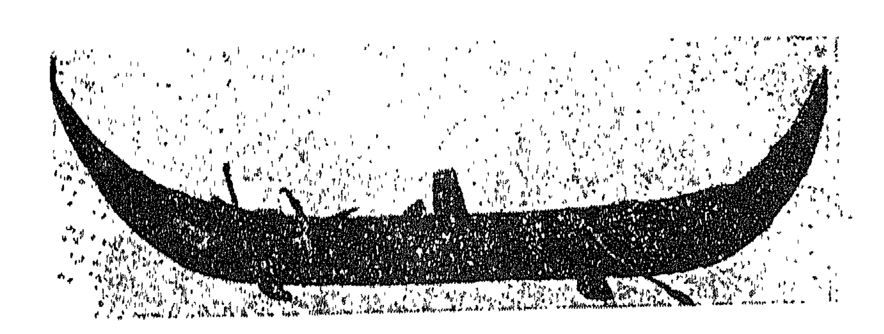
(خوذة من الذهب)



طاســة وكأس مضلع من الذهب مع خنجر من الذهب ايضا



من نماذج القيثارات السومرية



نموذج قارب من الفضة



راس تمثال من البرنز بالحجم
الطبيعي يرجح انه يعود الى سرجون الاول ملك اكد

المراجــع

Limet, . Le Travail du métal au pays de Sumer au temps de la 3'Dynastie d' Ur. Les Belles Lettres, Paris. 1960.

Dossin, G. Le nom du Cuivre en Sumérien. In : Bull. Académie royale de Belgique. 1952.

Forbes, R.J. Studies In Ancient Technology. Vol. VIII, Leiden. 1964.

Levey. Martin. Chemistry And Chemical Technology In Ancient Mesopotamia. Netherlands. 1959.

Leemans, W.F. The Old Babylonian Merchant, his business And Social Position. Leyde. 1950.

Oppenheim, L. The Seafaring Merchants Of Ur. In : JAOS. 74 (1954).

Falkenstein, A. La cité - Temple Sumérienne. In : Cahiers d'Histoire Mondiale. I. (avril), 1954.

De Genouillac, H. Inventaire des tablettes de Tello conserveés au Musée Impérial Ottoman. Paris. 1910 - 1921.

Scheil, V. Mémoires de la Délégation (France) en Perse. XIV.

Van Loon, M.N. Urartian Art. Its Distinctive Traits in The Light Of New Excavations. Istanbul - Netherlands. 1966.

Luckenbill, D. The Annals Of Sennacherib, OIP. II. Chicago 1924.

Garelli, P. Les Assyriens en Cappadoce. Bibliotheque Archéologique et Historique de l'Institut Français D'Archéologie d'Istanbul. XIX Paris 1963.

Contenau, G. La Magie chez les Assyriens et les Babyloniens Paris. 1947.

Tosi, M. Journal Of Oman Studies. I (1976).

Woolley, L. The Antiquaries Journal. XI (1931).

Muhly, J. D. The Copper OX - Hide Ingots And The Bronze Age Metals Trade In : IRAQ. XXXIX. Part. I. (1977).

Muhly, J. D. Supplement To Copper And Tin (Hamden. Conn. Trans. of the Conn. Academy of Arts and Sciences. Vol. 46 (1976).

الفصل الثامن

العلوم والمعارف

د. فاروق ناصر الراوي
كلية الاداب - جامعة بغداد

المبحث الاول

تدوين التاريخ

ان ما يجعل من التأريخ علما هو طريقة البحث او منهج الباحث الذي يعتمد اساسا على الوثائق التي لا يمكن بدونها ان يكون هناك تأريخ . فبواسطة تلك الوثائق يستطيع المؤرخ التوصل الى مجموعة منظمة ومنتظمة من المعلومات عن مسيرة تأريخ القوم او الاقوام وارتباط بعضها ببعض وذلك من اجل التوصل الى معرفة القوانين او الظواهر العامة التي حكمت حركة تطور المجتمعات وذلك لتعليل ظواهر حياته الحاضرة لانها وليدة الماضي ، ومن خلالها ينظر الى المستقبل الذي سيكون وليد الحاضر .

سبقت الاشارة الى أن ما يصل الينا من وثائق تخص المعارف والعلوم لا تمثل اولى المحاولات فجذور المعارف تمتد الى ابعد من اختراع الكتابة فان اللغة هي التي مكنت الانسان من نقل

خبراته الى الاجيال اللاحقة ، وهذا ما ينطبق على معارف العراقيين بـ «التاريخ» وذلك عبر تناقلهم الاخبار والاحداث ومحاولة تفسيرهم لها او على الاقل تبريرها • ولاثبات ذلك نقول بالرغم من مرور آلاف السنين علـى اختراع الكتابة الا ان العديد من الامم ظل يستخدم النقل الشفوي للقصص التأريخية والملاحم البطولية وغيرها • ويمكن ان نورد العديد من الامثلة في هذا المجال وبخاصة ما يتعلق بملحمة گلگامش والالياذة والاوديسا في الادب اليوناني والوقائع الحربية الروائية عن المآثر العربية او ما يعرف بـ «ايام العـرب» التي رويت شفاها • وقبل البدء بعرض معارف العراقيين عـن التأريخ وطرق تدوينه نجد لزاما ذكـر شيء ما حول كلمة « تأريخ » فاللغويون العـرب ينسبون الكلمة الى اهل الكتاب من عبرانيين وسريان والباحثون الاوربيون يذهبون الى ان اول من اطلق تسـمية « التأريخ» (History) هو المؤرخ اليوناني الشهير هيرودوتس (الذي دون في حدود منتصف القرن الخامس قبل الميلاد) وقصد هيرودوتس بكلمة التأريخ التحري وتسجيل احداث الماضي وروايتها • ويرى المرحوم الاستاذ طه باقر ان التأصيل الصحيح لمادة أرّخ يؤرخ بمعنى « عين الزمن وحدوده » ومنها تأريخ وتوريخ وانها من المفردات الاكديـة warḫum او arḫum ومنها وردت كلمة تأريخ لتعني تحديد الزمن •

وكان من بين ابرز الانتاجات الفكرية العراقية القديمة هي كتابة التأريخ ، وموقف المؤرخ العراقي القديم من الحدث التأريخي وكما يقـول الاستاذ شبايزر فان المؤرخ العراقي القديم اعتبر التأريخ « نتاجا لعوامل سابقة عليه ، وقوة فعالة في الحاضر وفعلا لتشكيل المستقبل » • ويرى الاستاذ سارتون بان العراقيين الاوائل لم يحسبوا انفسهم محدثين في الحضارة ، بل وارثين لتراث ماضٍ مجيد ، وهم اول المبتكرين لفكرة مرور الانسان في عصر ذهبي، معتمدا في ذلك على ما ورد في احد الاساطير التي قام بترجمتها الاسـتاذ كريمر والتي تورد ما يلي :

« في تلك الايام لم تكن الحية في الوجود ، ولم يكن العقرب ، ولم يوجد الضبع ولا الاسد ، ولم يكن الكلب الوحشي ولا الذئب ، لم يكن خوف ولا هلع ، ولم يكن للانسان من غريم » .

« في تلك الايام كانت ارض الشرق ، موضع الخير العميم وموضع الاحكام العادلة » « وكانت بلاد سومر ذات اللسان الواحد المنسجم ، هي البلاد العظيمة التي نبعت منها احكام الامارة » « وكان الشمال ، الارض المحتوية على كل ما يحتاج اليه وكانت بلاد الغرب آمنة مطمئنة » كان الكون جميعه، والناس كلهم، يمجدون انليل بلسان واحد ». ومع ايماننا بأن منهجا علميا في تفسير وتقييم الحدث التأريخي لا نجده الا في وقت متأخر الا ان العراقيين القدماء كانوا السباقين في العديد من مجالات العلم والمعرفة وبضمنها « الحس التأريخي » أي الاهتمام بتدوين الاحداث المهمة ومحاولة تفسيرها .. ولفهم هذا الحس التأريخي وطريقة تدوينه لابد لنا من ايراد الامثلة . فمن ادب العراق القديم الذي ربما يعود بتأريخه الى عصور قبل التاريخ ، نقرأ في ملحمة گلگامش ما يلي :

« هو الذي رأى كل شيء فغني بذكره يا بلادي
وهو الذي عرف جميع الاشياء وافاد من عبرها
وهو الحكيم العارف بكل شيء
لقد أبصر الاسرار وكشف عن الخفايا المكتوبة
وجاء بانباء ما قبل الطوفان ...
لقد سلك طرقا بعيدة متقلبا ما بين التعب والراحة
فنقش في نصب من الحجر كل ماعاناه وخبره .. »

وفي مكان اخر من نفس الملحمة نقرأ الابيات التالية :

« ابحث عن اللوح المحفوظ في صندوق الالواح النحاسية ..
وافتح مغلاقه المصنوع من البرونز ..

واكشف عن فتحته السرية
تناول لوح الحجر اللازورد وأجهر بتلاوته ٠٠ »

كما ان اترا خاسيس بطل قصة الطوفان البابلية لم يفكر في اعتى واحلك الظروف بشيء اكثر من تفكيره بايصال « الكلمة » الينا فاشار على اهـل سبار (ابو حبة ـ قرب اليوسفية) بدفن ما بحوزتهم من كتابات لكي لا تضيع « الكلمة » بعد ان يغمر الطوفان بلاد بابل ٠٠

وهكذا حفظوا « الكلمة » للعائدين بعد الطوفان ليقيموا معابدهـم ودورهم من جديد وليشيدوا بكل اعتزاز بابل ، ولحسـن الحظ فان تلك « الكلمة » التي كتبوها بقيت محفوظة كما هي على الطين الخالد لبلاد وادي الرافديـن ٠

ولعل ما يعرف بقوائم الملوك (King Lists) وبخاصةٍ قائمة الملوك السومرية ، كانت من ابرز المصادر التي عرفتنا بفهـم العـراقيين القدماء للتأريخ ٠وزودتنا تلك القوائم باسماء الكثيرين من الملوك وسنوات حكمهم وفي بعض الاحيان اسماء عواصمهم ٠ ولم تخلُ مثل تلك القوائم من الاشارة الى احداث تأريخية وبخاصةٍ تلك الاحداث المتعلقة بالحروب والانتصارات ٠ فكان ينص في قائمة الملوك السومرية مثلا على ضرب مدينة ما او بلد مـا بالسلاح ونقل الملوكية الى مدينة او بلد آخر ٠ وبالرغم مـن ذهاب بعض الباحثين الى ان العراقيين القدماء لم يعرفوا حدثا تأريخيا فاصلا يمكن بموجبه معرفـة مدى عمق الامتداد التأريخي لهذا البلد ، الا اننا نرى وبكل وضوح ان كاتب تلك القوائم يشير الى « الطوفان » باعتباره الحدث الفاصل ما بين السلالات التي حكمت قبل حدوثه والسلالات التي جاءت بعـده ٠ وتجدر الاشارة الى ان العديد من الامور المتعلقة بهذه القائمة لا تزال غامضـة ، وكمثال على ذلك نشير الى الارقام الكبيرة لسني حكم بعض الملوك وعدم ذكر بعض السلالات الحاكمة ٠٠٠ وكل ما نستطيع قوله بهذا الخصوص هو

ان سني الحكم الكثيرة ربما تخص سلالات وليس الحاكم المذكور فقط ، اما بالنسبة لاغفالها ذكر بعض السلالات التي عرفناها من خلال التنقيبات الاثرية فيمكن ان يكون السبب هو ما كان قائماً من عداوة او حروب بين تلك السلالات والسلالات التي جاءتنا منها تلك القائمة • وبالرغم من كل هذا وذاك تبقى هذه الوثيقة الخاصة بتدوين التأريخ الاولى من نوعها في العالم •

وعلى صعيد آخر فان ما وردنا من قوائم ملوك العصـور اللاحقة ، الاكدية والبابلية والاشورية يشير بكل وضوح الى تقدم هذه المعارف حيث مكنتنا تلك القوائم من معرفـة الاحداث الرئيسية التي وقعت ابان حكم كل ملك حيث اشتق اسم تلك السنة من ذلك الحدث وبالتالي الوصول الى تدوين الاحداث ، فاذا اراد احد الملوك معرفـة اعمال من سبقه من الملوك فما عليه الا ان يقرأ قائمة سني حكمه التي تتضمن عادة اعماله الحربية وانتصاراته واعماله العمرانية وهداياه الثمينة للمعابد والكوارث التي المت به او ببلاده وما الى ذلك من احداث هامة •

وعند الحديث عن معرفـة العراقيين بالتأريخ فلا بد لنا من الاشارة ايضا الى بعض الاعمال العمرانية وبخاصة المعابد التي بقيت لقرون عديدة علـى نفس المخطط واستطاع الاثاريون الكشف عن معابد قد اعيد تشييدها عـدة مرات ففي اريدو وغيرها من المدن العراقية القديمة يمكننا ان نتتبع بناء معبد لاكثر من عشرين طبقة بنائية ، ولعدد أكبر من ذلك باسماء ملوك او حكام قاموا باعادة تشييد او ترميم هذا المعبد او ذاك • وهذا ان دل على شيء فانما يدل على شعور العراقي القديم بالفكرة الرمزية للتأريخ • وما دمنا بصدد الحديث عن تخليد بعض الملوك لاعمالهم العمرانية فلا بأس اذن من ذكـر شيء عن الوثائق التي وضعت بالاصل لخدمة هدف محدد وهو التأريخ • هناك بعض الملوك الذين لم يكتفوا باعادة البناء لمعبد ما بل التحري عـن

اسسه الاولى « تاريخه » ومعرفـة ما اصابه من تجديد على ايدي الملوك السابقين لـه .

فالملك شيلمنصر الاول الذي حكم بلاد اشور خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد يخبرنا عن اصل بناء أحد المعابد في اشور قائلا بان ذلك المعبد قد شيد على ايدي اوشيبا (Ushipa) واعيد بناؤه من قبل ايريشوم الاول واعيد بناؤه ثانية بعد ١٥٩ سنة من قبل شمشمي أدد ورمم من قبله اي شيلمنصر الاول بعد ٥٨٠ سنة من بنائه الاول ، ولعل مـن الطريف ذكـره ان الملك أسرحدون يخبرنا في كتاباته الخاصة بترميم المعبد نفسه باسماء ملوك آخرين قد قاموا بترميم وتجديد هذا المعبد وانه قام بنفسه بترميم المعبد المذكور بعد ٥٨٠ سنة ايضا من الترميم الذي قام به شيلمنصر الاول .

اما اشور بانيبال فيخبرنا عن واقع احداث سابقة لعصره باكثر من الـف عام فنقرأ في حوليات هذا الملك المنتصر : « اما الالهة نانا (عشتار) Nanā التي كانت غاضبة لمدة ١٦٣٥ سنة والتي اجبرت على الاقامة في عيلام ، البلد الذي لا يليق بها ، فانها عندما اسمتني هي والالهة الاخرى من آبائها لحكم هذه البلاد اعانتني على اعادتها الى مكانها الاصلي وبهذه الكلمات خاطبتني : اجل انه آشور بانيبال الذي سيخرجني من عيلام المذنبة وسيدخلني الـى (اي ــ انا) E-AN-NA وهكذا عمدت على جلب هذه الالهة واعادتها الى الوركاء مكانها الخالد وفي معبد اي ــ خليانا E. ḫilianna الذي تحبه » فاشور بانيبال يخبرنا هنا وبكل وضوح عن احداث الغزو الهمجي الـذي تعرضت له البلاد ابان حكم الملك العيلامي كوتر ــ ناخونتي الذي نهب العديد من الدور والقصور الموجودة في المدن العراقية وبخاصة مدينة الوركاء .

وتأتي بنفس الاهمية او ربما تزيد اعمال ومدونات الاثاري العراقي الاول الملك نبونائيد الذي يخبرنا بانقضاء ٣٢٠٠ سنة بين وضـع حجر الاساس لترميم معبد شمش في سپار من قبل الملك الاكدي نرام سين وبين حجـر

الاساس الذي عمله لنفس الغرض .. ومن الطريف ذكـره ان العاملين في مشروع احياء مدينة بابل عثروا على صندوق يحتوي على ثلاثة نصوص أسطوانية الشكل مكتوبة بالخط المسماري احدها يعود الى الملك نبونائيد يخبرنا فيه انه وجد كتابات ملك آخر ووضعها مع كتاباته وبالفعل فبقية النصوص تعود الى الملك نبوبولاصر .

وتجدر الاشارة ايضا الى فكرة العراقي القديم عن النظرة المستقبلية للتأريخ . وما دمنا بصدد الحديث عن الملك نبونائيد فنستشهد بكلام هذا الملك وبنفس النص الوارد ذكره اعلاه بانه اذا ما تهدم البناء واراد احد الملوك اعادة بنائه فعليه ان يحتفظ (ذلك الملك) بكتابات نبونائيد مع كتاباته وان لا يغير فيها وستحل عليه بركـات الآلهة . اما اذا حرّف كتاباته فستنزل عليه وعلى ذريته اللعنات وسوف تسخط عليه الالهة .. والحق ان نبونائيد لم يكن اول من قال بذلك بل سبقه العديد من الملوك العراقيين ومنذ العصر الاشوري القديم وبالتحديد من زمـن الملك ايريشوم السالف الذكـر .

وتتوضح اهمية دراسة التأريخ من قبل العراقيين القدماء من خـلال اهتمامهم بالمكتبات والارشيفات وتنظيمها وفهرستها ، فالملك اشور بانيبال صاحب اكبر مكتبة معروفة ارسل الى عماله على بعض المدن ومنها بورسپا بان يرسلوا اليه كل ما هو مفيد من نصوص قديمة دينية او كتابات علـى الحجر او ماينفعه في حكمه او شؤون قصره . ومكتبة آشور بانيبال ذاتهـا حفظت لنا استنساخات من نصوص سومرية واكدية وبابلية قديمـة وذات مواضيع متنوعـة . وما عثر عليه في مكتبة بيت الكاهن في اشـور مـن استنساخات لقوانين حمورابي يمكن ان نوردها كمثال اخر علـى اهتمام شريحة اخرى من المجتمع العراقي القديم بهذا الحس التأريخي .

ومن النصوص المهمة التي امدتنا بمعارف العراقيين عن التأريخ نصوص العرافـة (Omen Texts) فبالرغم من ارتباط هذه النصوص بالامور الدينية

والسحرية احيانا الا ان البعض منها يتضمن مادة تأريخية خالصة وبخاصة تلك النصوص التيَ تحتوي على اشارات عن سقوط ملك ما وارتقاء العرش من قبل ملك اخر • او تلك التي تحدثنا عن انتصارات بعض الجيوش وعن دحـر الغزاة •

ومن الكتابات التقليدية التي ترينا بوضوح اهتمام العراقيين القدامى بالتأريخ ، الرسائل ، بخاصة الرسائل الملكية المقدمة للآلهة ، ففي هذه الرسائل كثيرا ما يخبرنا الملوك عن اعمال قاموا بها سواءً كانت اعمال حرب وانتصارات او أعمال شرور قام بها الغزاة • ولدينا رسائل كثيرة من هذا النوع ومن فترات مختلفة ، ومن بين هذه الرسائل رسالة من ماري • قدمها الى الالـه الامير يسمخ ـ ادد وفيها يذكر لنا هذا الامير الاجيال الثلاثة التي سبقته على حكم ماري • ويعتقد البعض من الباحثين بان ذلك كان تقليدا يمارسه الاموريون في تقديم الشكـر او طلبا لمغفـرة الذنـوب وتلبية الرغـبات وانتقلت هذه العادة الى الآشوريين بواسطة اشمي ـ داكآن وشمشي ـ ادد•

وبالرغم من الصبغة الدينية التي تحاط بها مثل هذه الرسائل الا ان البعض منها يخبرنا باحداث تأريخية كاملة • وخير مثال يمكننا ان نسوقه في هذا المجال رسالة الملك الاشوري سرجون الثاني الى الالهة • ومن الطريف ان هذه الرسالة قـد امدتنا وبشكل كامل تقريبا باحداث الحملة الثامنة لهذا العاهل الآشوري الشهير • وتأتي بعد ذلك بالاهمية رسالة سبقتها بقرن من الزمان رفعت الى احد الالهة من قبل الملك الآشوري شمشي ـ ادد الخامس •

وعن النظرة الموضوعية لتسجيل التأريخ ، فيمكن ان نورد العديـد من الامثلة وبخاصة تلك التي تتمثل بكتابات الملوك الذين يحاولون تبرير فشلهم في عمل ما أو نسبة ذلك الى نقمة الالهة،وهذا ما ذكره لنا الملك نبونائيد حول تخريب بابـل من قبل الملك الآشوري سنحاريب وتبريره لهذا الحدث

بغضب الاله مردوخ كبير آلهة بابل عليها ولكونها تستحق هذا الخراب ، ومن الطريف ذكره ان مثل هذا التصور يمكن تتبعه الى ازمان سبقت حكم بونائيد بعشرات القرون وبالتحديد الى العصور السومرية والاكدية .

وننتقل الان الى الكتابات النذرية . ففي البدء احتوت مثل هذه الوثائق الهامة كلمة او بضع كلمات او عبارة شكرا للاله او الآلهة لمعبد ما .

الا انه سرعان ما تطورت مثل تلك النصوص واخذت تكتب وبشكل تفصيلي عن طبيعة المناسبة ، ونخص بالذكر من هذه الكتابات ما دون على بعض الآنية و التماثيل والمسلات بالاضافة الى المسامير والمخاريط والمواشير التي تدون حدثا واحدا . ولعلنا لا نجازف ان اشرنا في هذا المجال الى المواثيق والمعاهدات المبرمة فيما بين ملوك العراق القدامى او بين احدهم وملك اخر من البلدان المجاورة فكل الوثائق اعلاه تتحدث عن تدوين تأريخ حدث واحد . وهذا النوع من التواريخ يمكن ان نصفه بتأريخ احداث سياسية لابد من تدوينها .

وتبقى نصوص الحوليات (Annals) الملكية أي ذكر الحوادث عاما بعد عام عند تدوين اخبار الملوك ، احد ابرز الشواهد على اضطلاع العراقيين بمعرفة التأريخ وتدوينه . ويمكننا ان نتتبع تأريخ مثل هذه المدونات الى ايام حكم الملك السومري انتمينا فلم يخبرنا هذا الملك عن المعارك التي دارت بين دولة لگش واوما فحسب بل استعرض لنا في مدوناته احداث سبقت عهده بما لا يقل عن اربعة اجيال ... ولقد تطور هذا الاسلوب التأريخي الى ان وصل مرحلة نضجه ابان حكم السلالة الآشورية الحديثة . وخلف لنا الآشوريون نصوصا مطولة تخص اعمالهم الحربية والعمرانية . اضافة الى ذلك توصل الآشوريون الى ما يعرف بالتأريخ التعاصري (Synchronistic History) الذي هو عبارة عن استعراض لتأريخ الاحداث

الهامة التي وقعت في بلاد آشور وما يعاصرها من احداث في بــلاد بابل ، وتناولت مثل هذه المدونات تأريخ حكم ملوك آشورين وبابليين منذ العهدين الآشوري والبابلي القديمين .

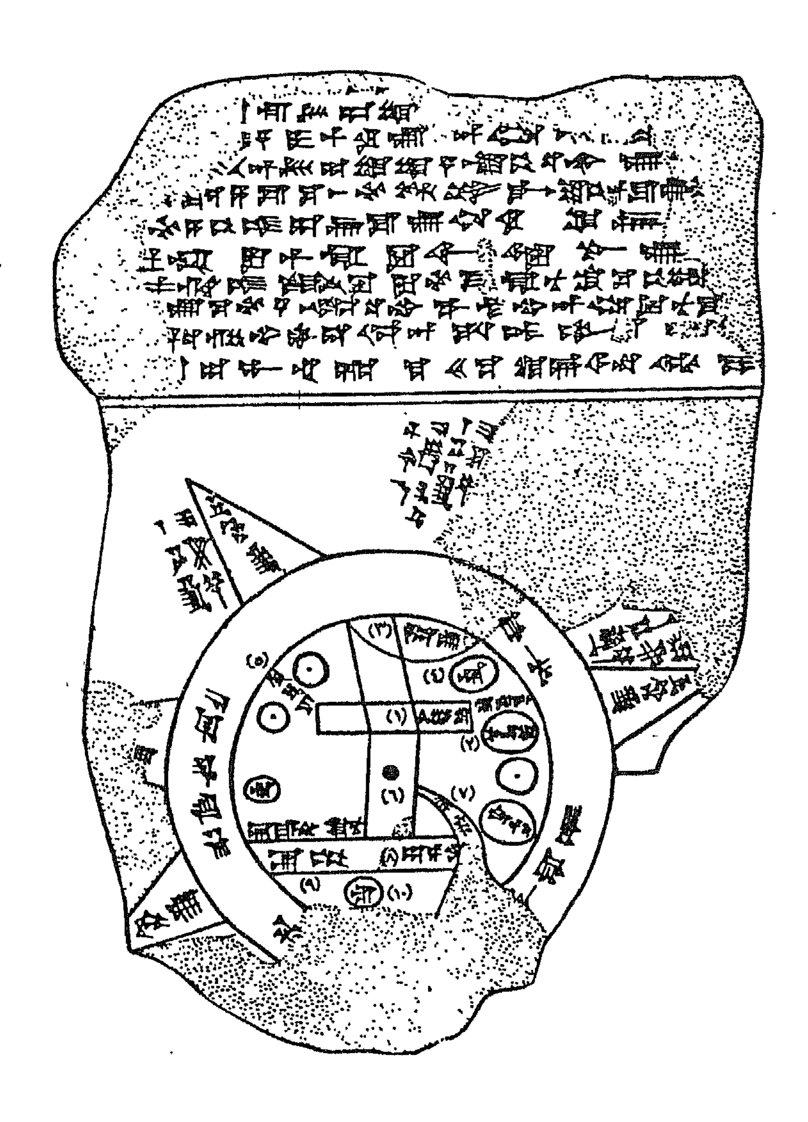
وخلف لنا الكتبة البابليون ، نوعا آخر من المدونات التأريخية المعروفة بكتب الاخبار Chronicles امدتنا هذه الكتب بمعلومات لاحداث هامة يعود قسم منها الى القرن الثامــن عشر ق.م اما احداثها فتصل بنا الى العهــد السلوقي ، وطريقة هذه الكتب الاخباريــة في تدوين الحوادث ، هي ذكــرها عاما بعد عام ، على غرار ما عمل بــه المؤرخون اليونان والرومان والعرب . وتجدر الاشارة الى اهتمام العديد من الباحثين الاوربيين بهذا الموضــوع ومنهم وايدنر Weidner وجاد Gadd وايزمن Wiseman وجريسون Grayson وقد جمع الاخير كل النصوص الخاصة بكتب الاخبار الآشورية والبابلية ونشرها في كتابه الموسوم Assyrian and Babylonian Chronicles سنة ١٩٧٥ .

وقبل انهائنا الحديث لابد من اشارة الى المستوى الراقي الذي وصل اليه العراقيون القدماء في مجال البحث التأريخي على يد برحوشا Berossus الذي عاش في القرن الثالث ق.م . ابان حكم الغزاة السلوقيين . ألف هذا المؤرخ العراقي كتابا عن تأريخ بلاد وادي الرافديــن منذ الخليقة والطوفان الى عهد الاسكندر (٣٣١ ق . م) . وللاسف الشديد لم يصل الينا من هذا الكتاب سوى شذرات في كتب المؤرخين اليونان والرومان، واخيرا لابد من القول بان الوثائق التي اشرنا اليها سالفا قد احتفظت بمعان تأريخية غنية .. ونحن نعتقد ان مراجعة موضوعية للكتابة التأريخية العراقية ستجعل من « كتب الاخبار » الآشورية والبابلية سابقة تأريخية على ما انجزه هيرودوتس وجعل منه أباً للتأريخ ..

المبحث الثاني

الجغرافية

من دراستنا للنصوص المسمارية المكتشفة في بلاد وادي الرافـديـن تصادفنا معلومات جغرافية غزيرة يمكنها ان تكون اساس « علم الجغرافية » فكما هو معروف كان للعراق القديم علاقات تجاريـة قديمة تمتد بجذورها الى عصور ما قبل التأريخ وغطت تلك العلاقات مناطـق وبلدان قاصـية ودانية . فمن اواسط آسيا الصغرى شمالا الى الخليج العربي والجزيـرة العَربية جنوبا ، ومن موهنجو دارو في وادي السند وبلاد فارس في الشرق . الى بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط وبعض الجزر فيه ومصر وليبيا وغيرها من البلدان الافريقية في الغرب وكثيرا ما تناولت النصوص المسمارية طـرق المواصلات البرية والمائية وامدتنا بتسميات للبحار والانهار والمدن والقرى الواقعة على تلك الطرق . ان بعد الامصار التي اتصل بها العراقيون وفي جميع الاتجاهات يكمن في تصورهم لبابل كمركز للعالم بأسره وخير مثال يمكن ان نسوقه في هذا المضمار الخارطة الآتية :



(١) بابـل
(٢) بلاد آشور
(٣) جبـال
(٤) مدينة
(٥) بلاد

(٦) نهر الفرات
(٧) فرع من الفرات
(٨) الهـور الـذي يصب فيه نهـر الفرات

(٩) القنـاة التـي تصب في البحـر المحيط
(١٠) بلاد البحر

التي تمثل العالم القديم • فالعالم بنظرهم عبارة عن دائرة تشتمل على بلاد بابل وبلاد آشور تحف بهما الجبال من الشمال والاهوار من الجنوب ، ويحيط بهذه الدائرة المحيط وعلى اطرافه رسمت مثلثات ربما تمثل بعض الجزر او الطرق البعيدة الى سلكها بعض الملوك في حملاتهم العسكرية •

تناولنا في المبحث السابق وباسهاب معارف العراقيين القدماء بعلوم التدوين التأريخي • ولا مجال للشك في أن كتبة التأريخ كانوا على معرفة بالجغرافية • فالمعلومات الواردة في المدونات التأريخية سرعان ماكثرت خلال العهد البابلي القديم مما تطلب بعض التوضيحات والشروح لذلك فقد زودنا الكتبة العراقيون القدامى بالعديد من النصوص المعجمية Lexical Texts التي احتوت على قوائم للبلدان والاقاليم والمدن • وربما استخدمت تلك القوائم كدليل للرحلات التجارية او للامور الادارية او العسكرية •

ان ارقى ما وصل اليه الكتبة العراقيون القدامى في هذا المجال ، النصوص التي تخص فتوح البلدان • وقد اشتهر العديد من الباحثين الذين فكوا رموز تلك النصوص وحاولوا تفسيرها ومن اشهرهم الاساتذة ايرنست وايدنر Ernst Weider والبرت كوتسه A. Goetze و أ • ك • كريسون A.K. Grayson وغيرهم •

ويبقى النص المتضمن ثبتا بفتوحات الملك الاكدي سرجون خير مثال على ذلك • فنطالع في هذا النص بعد تدوين اسماء البلدان والمدن التي فتحها وحركته من مدينة الى اخرى ما نصه : « مسيرة ١٢٠ ساعة مضاعفة بين منابع الفرات وبلاد ميلوخا ومگان • الحدود التي فتحها سرجون ملك

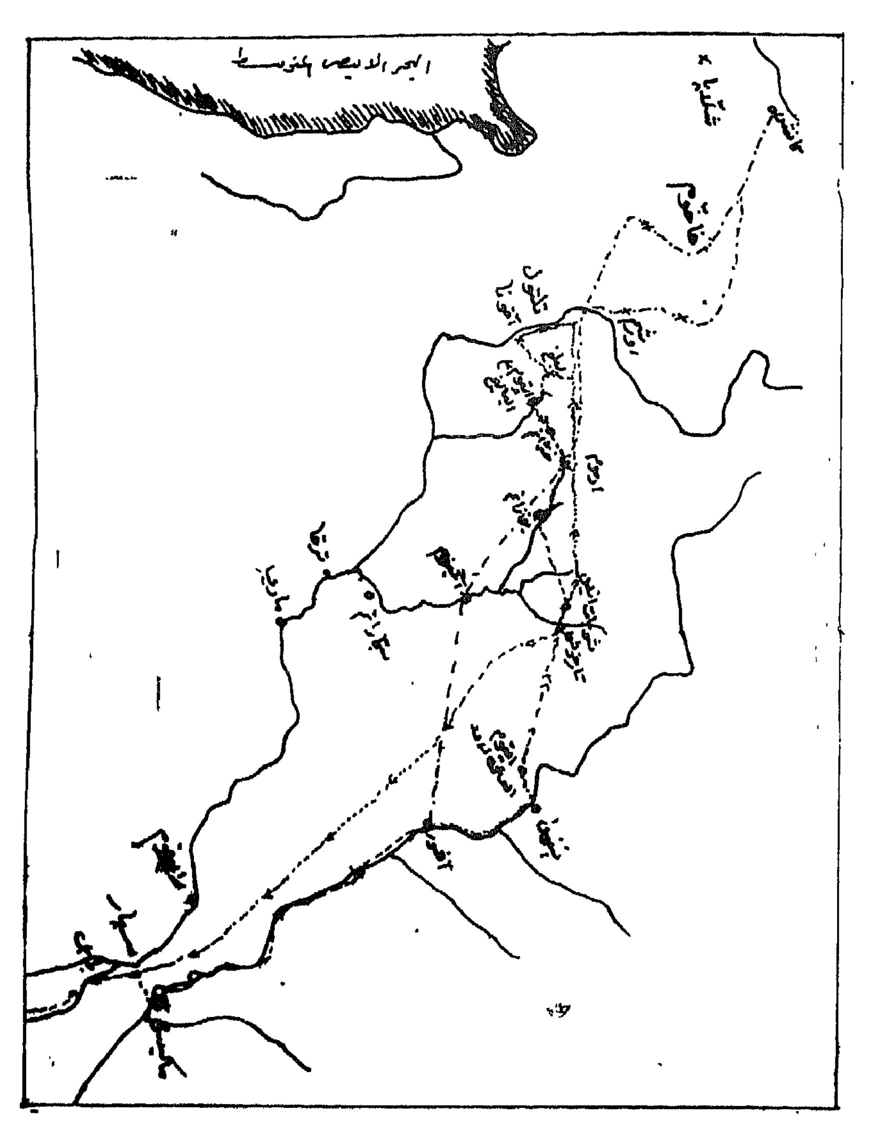
العالم ، عند سيطرته على كل البلاد المغطاة بالسماء . الحدود التي حددها بالقياسات التي ثبتها » . وبعد ذلك يدون الكتبة ثبتاً بابعاد حدود كل بلد وكمثال على ذلك « ٩٠ ساعة مضاعفة(*) مساحة بلاد عيلام، ١٨٠ ساعة مضاعفة مساحة بلاد اكد » . وبعد ذلك يخبرنا النص بالحدود العامة وتخصيص بعض البلاد المجاورة لها ومن ذلك ذكره للبحر العلوي A. AB. BA elīti (البحر المتوسط) وبعض البلدان عبر ذلك البحر . والبحر السفلي A. AB. BA šaplīti (الخليج العربي) مقترنا بدلمون (البحرين) ومكان (عمان) ويمضي فيخبرنا بالاقاليم من الشرق الى الغرب .

ويأتي بنفس الاهمية النص المتضمن مسيرة جيش من لارسا (سنكره) الى بلاد آشور . نقرأ في هذا النص ان الكاتب دوّن عدد الايام التي يستغرقها الجيش في مسيرته من مدينة الى اخرى . فمثلا من بابل الى سپار (ابو حبة قرب اليوسفية) مسيرة خمسة أيام . ومن سپار الى دور أپل — سين (قرب ديالى) مسيرة عشرة ايام ... الخ ويستمر النص ليخبرنا بالوصول الى بلاد آشور والمسافات فيما بين مدنها ومن ثم العودة بطريق آخر الى لارسا :

ومن الناحية الطوبغرافية فان العراقيين القدماء قد اهتموا بالجبال والصحارى والمسطحات المائية والانهار والبحار ودونوا قوائم باسمائها . اضافة الى ما تركه لنا بعض الملوك من منحوتات تصور تلك الجبال والاهوار والانهار وغيرها . وخير مثال على ذلك نراه من خلال المشاهد المرسومة على مسلة النصر لنرام — سين والنحت البارز على جدران قصر آشور بانيبال ... وكذلك الخارطة الطوبغرافية التي عثر عليها في مدينة نوزي

---

* المقصود بالساعة المضاعفة الساعة البابلية التي كانت تساوي ضعف زمن الساعة الحالية . وتقدر المسافة التي يستطيع الانسان قطعها في الساعة البابلية حوالي فرسخين (= ١٠ر٨ كم) وبذلك تساوي مسافة ١٢٠ ساعة مضاعفة ١٢٩٦ كم .



مقياس ١ : ٣٥٠٠٠٠٠

- - - الطريق الذي يمكن تتبعه

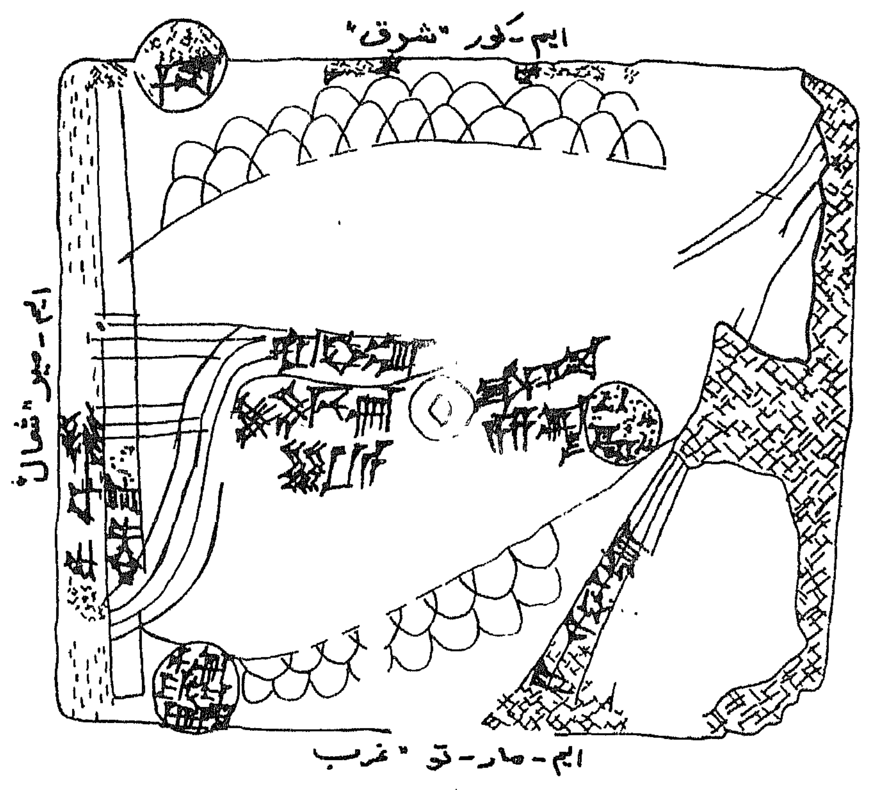
..... الطريق غير مؤكد

-.-.- الطريق المعروف والواصل الى كبدوكيا

● المواقع المعلومة

× مواقع المدن غير المؤكدة

قرب كركوك وتظهر عليها الجبال والانهار والطرق وبعض المدن واسوارها ومن ابرز ما جاءت به هذه الخارطة هو تحديد الاتجاهات الاربعة التي لم تظهر على الخوارط الا في وقت متأخر :

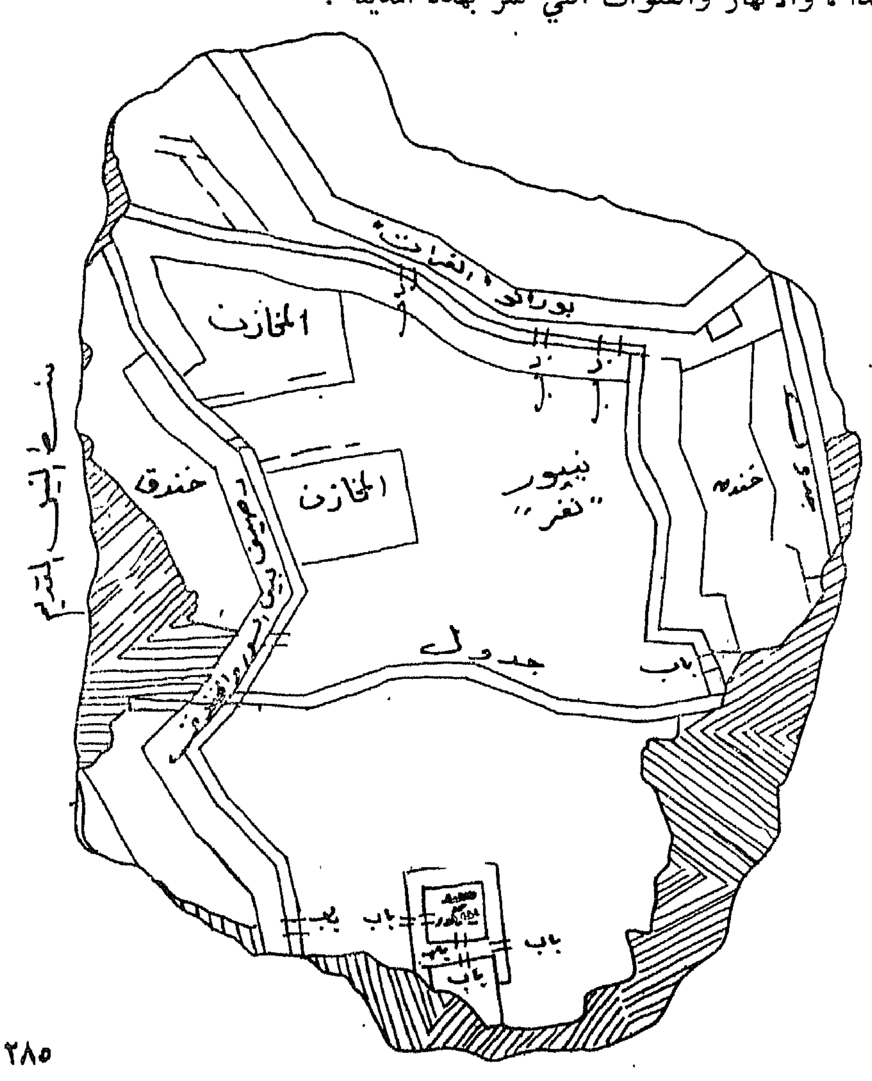


اما بخصوص تخطيط المدن فلا مجال للشك في قصب السبق للعراقيين القدماء الذين اهتموا ببناء « المدن » منذ عصور قبل التأريخ ومطلع فجره . ودليلنا على ذلك أقدم القرى والمدن واكثر من ذلك عثور المنقبين على خوارط من العهد البابلي القديم لمدينتي نفر وسپار .

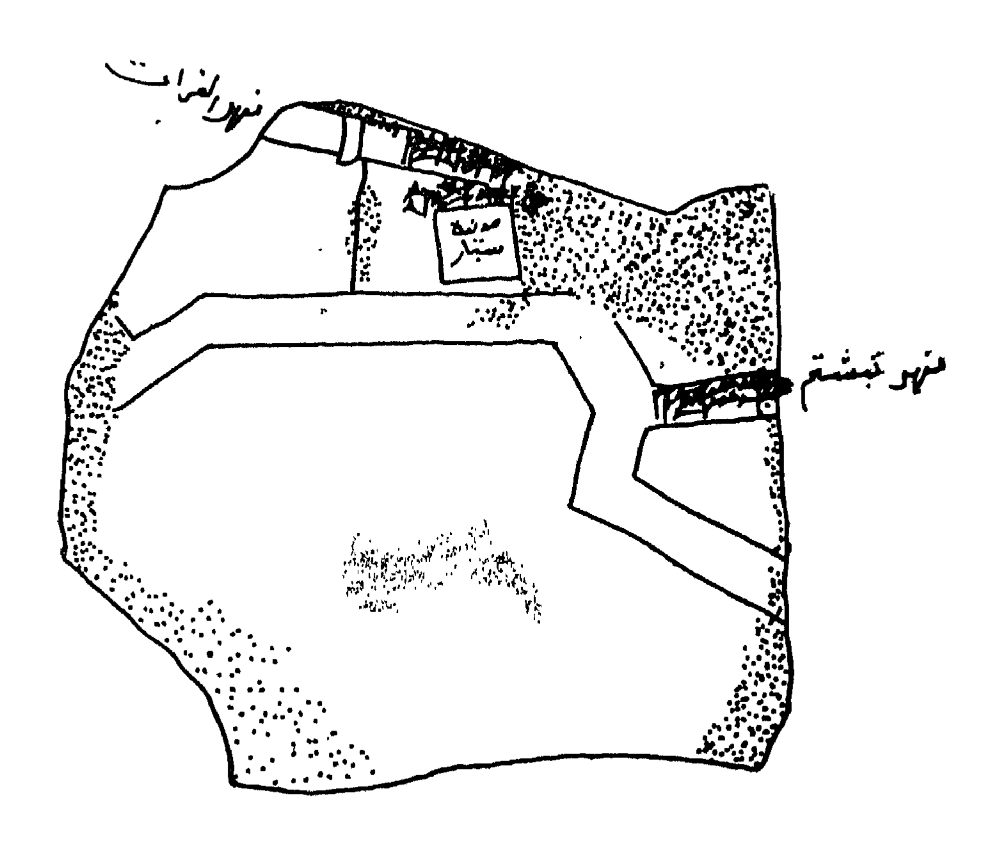
تمثل الخارطة الاولى الجزء الشرقي من مدينة نفر القديمة ، ويظهر على هذه الخارطة اسم مدينة نفر واسم نهر الفرات واسماء القنوات والجداول التي تمر بها اضافة الى بعض المعالم الرئيسية فيها مثل معبد أي ــ كور

E. KUR والمخازن والسور والبوابات والخنادق المحيطة بالسور ... ومن الجدير ذكره ان البعثـة الامريكية التي عملت في هذه المدينة قد اعتمدت هذه الخارطة للكشف عن العديد من المرافق البنائية :

اما الخارطة الثانية فتمثل مدينة سپار . عثر على هذه الخارطة خلال التنقيبات التي قام بها هرمز رسام (١٨٨١ ــ ١٨٨٢) . ويظهر على هـذه الخارطة سور مدينة سپار المستطيل الشكل ، والذي ما يزال قائما الى يومنا هذا ، والانهار والقنوات التي تمر بهذه المدينة :

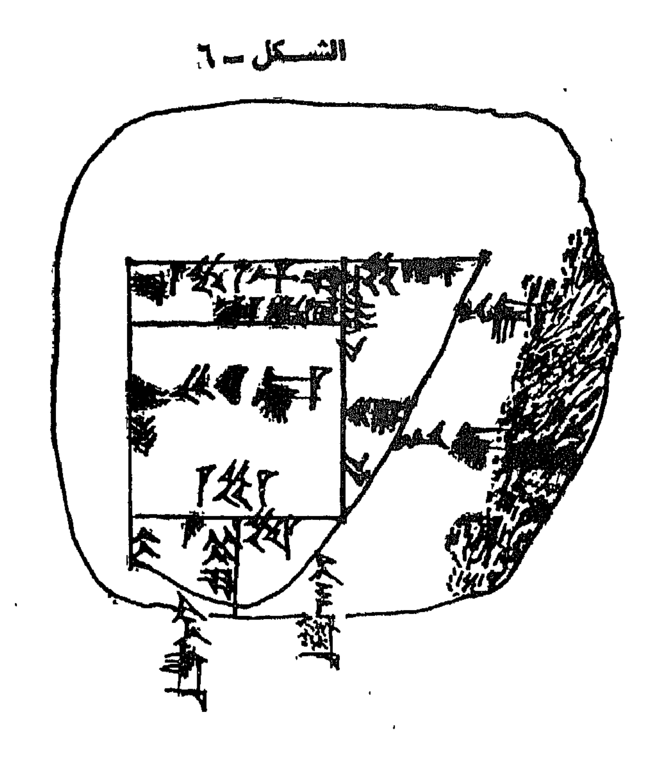


وما دمنا بصدد الحديث عن الخرائط لابد من ذكر بعض الشيء عن ما توصل اليه العراقيون في مجال رسم خرائط بمساحات الحقول وموقع كل



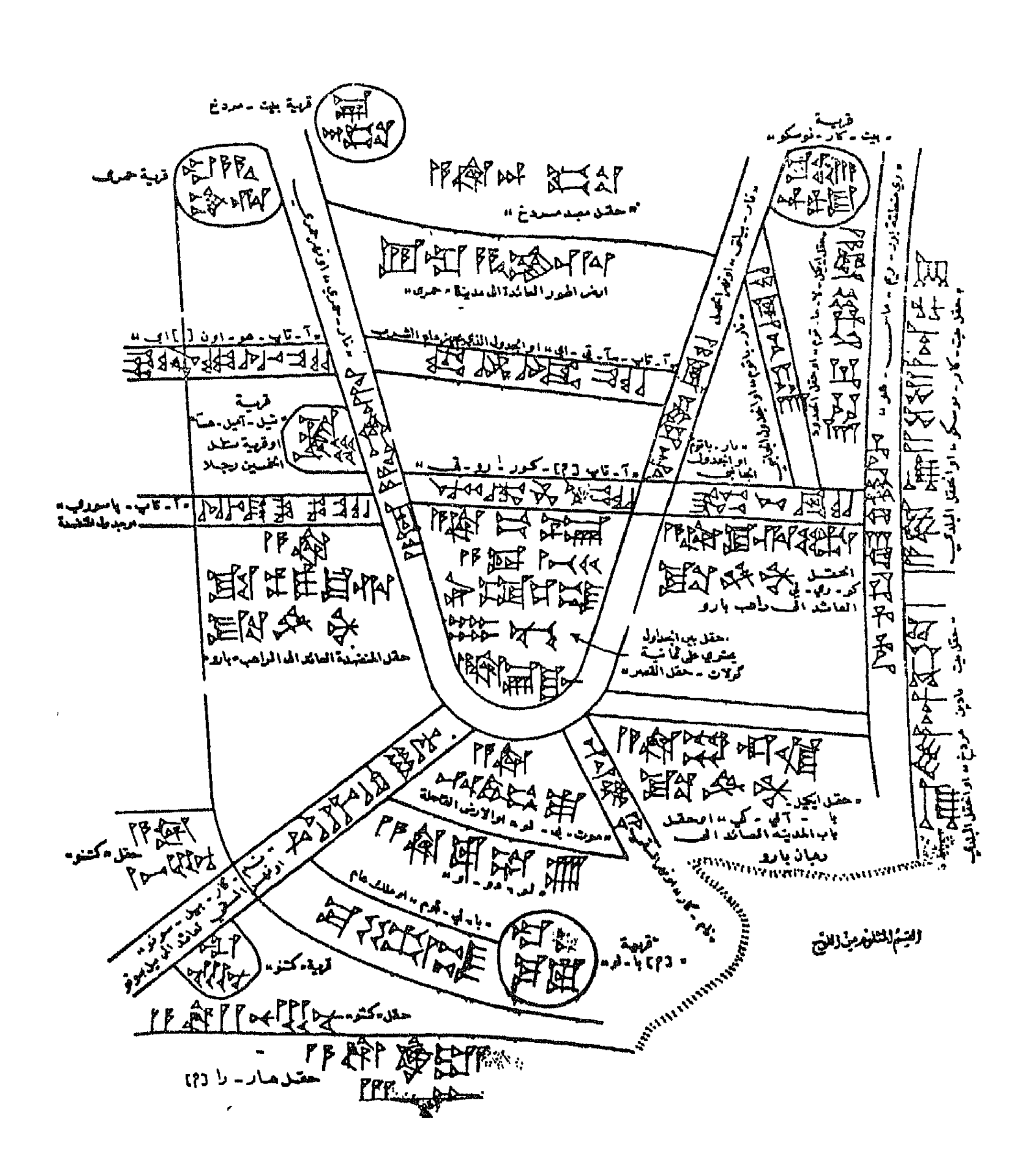
منها بالنسبة لجيرانه . والخوارط التالية تمثل هذا الابتكار خلال عهـــود مختلفة . الاولى من عهد سلالة اور الثالثة ، والثانية من العهد البابلي القديم والثالثة من العهد البابلي الحديث (الاشكال ــ ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) .

الشكل – ٦

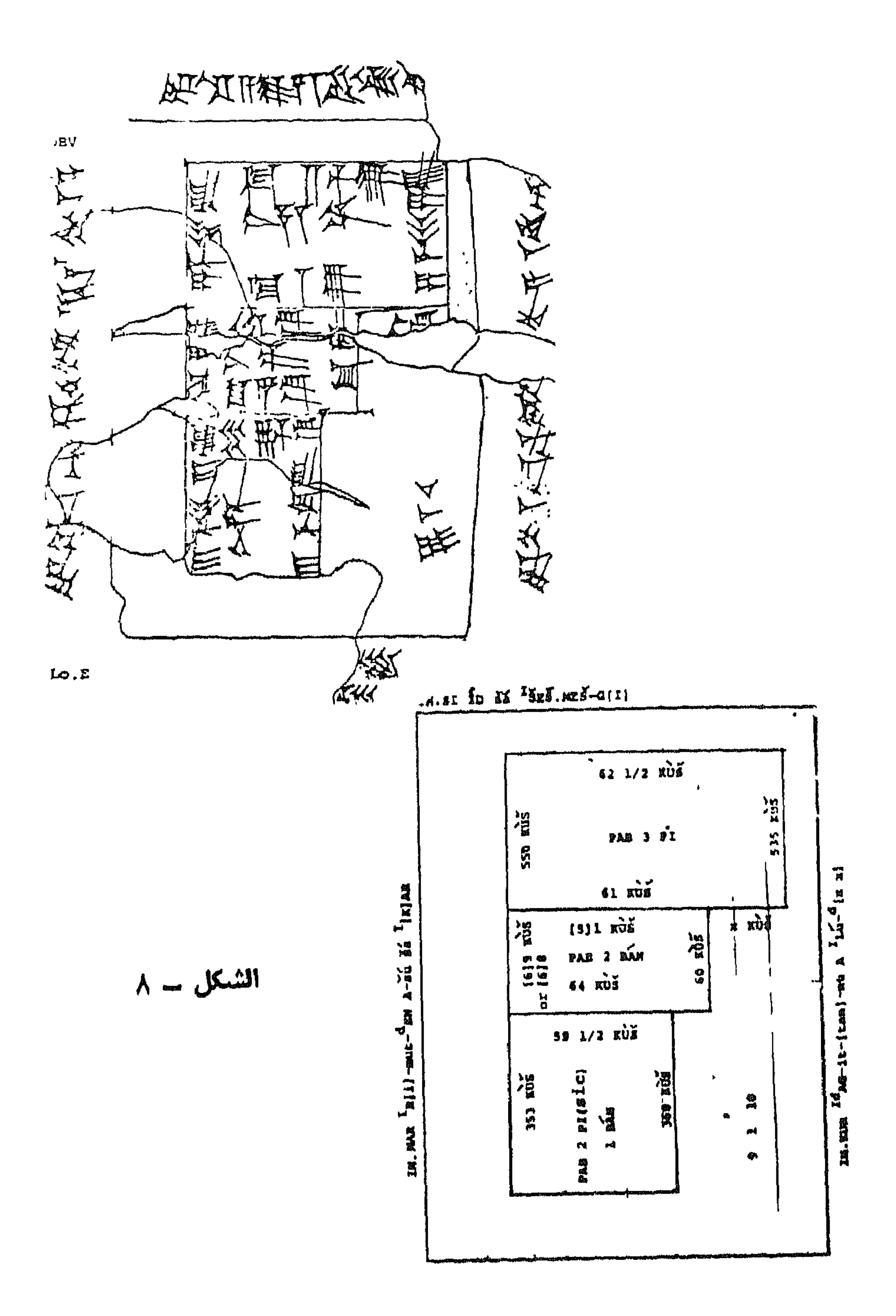


خارطة لحقل رسمت من قبل احد
المساحين العراقيين القدماء
عليها تاريخ السنة الثانية من حكم الملك
بور سين من سلالة اور الثالثة

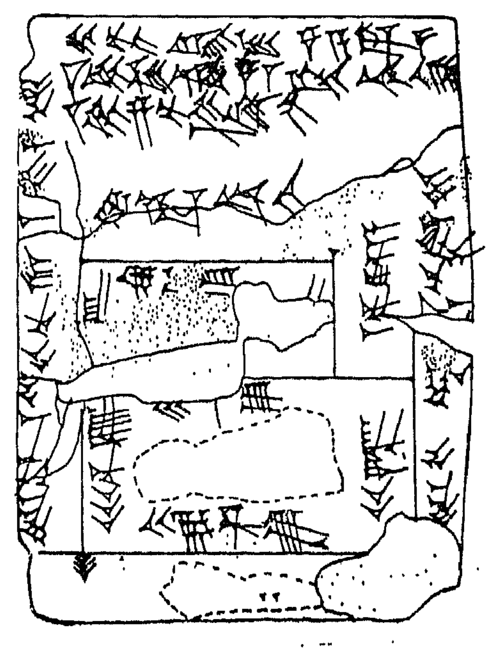
استنسخت عن F. J. Stephens مجلة JCS



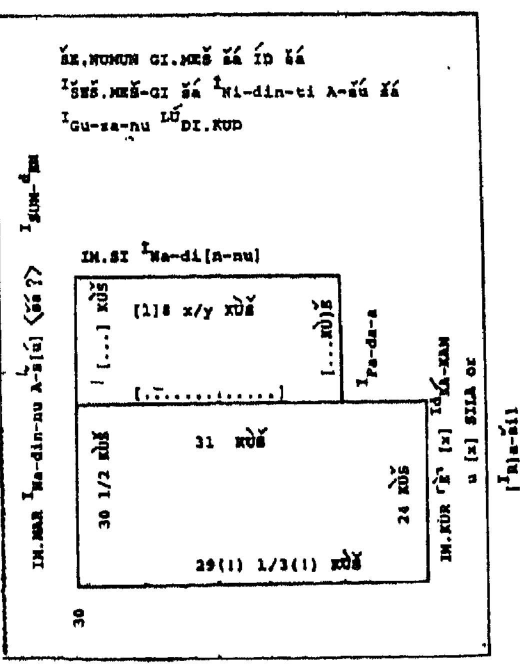
الشـــكل ـــ ٧



الشكل ـ ٨



الشـكل ـ ٩



ŠE.NUMUN GI.MEŠ šá ÍD šá
I ŠEŠ.MEŠ-GI šá I Ni-din-ti A-šú šá
I Gu-za-nu LÚ DI.KUD
IM.SI I Na-di[n-nu]
[1]8 x/y KÙŠ
31 KÙŠ
30 1/2 KÙŠ
24 KÙŠ
29(!) 1/3(!) KÙŠ
30

واذا ما اردنا الحديث بخصوص الجغرافية الاقتصادية ومعارف العراقيين القدامى واهتمامهم فيها تبرز امامنا امثلة كثيرة ومتعددة • من ابرزها تحديد المواقع التي ترد منها البضائع المستوردة وتسمية بعض السلع باسماء تلك المواقع كما في قولهم نحاس مكّان (عمان) • وكما اسلفنا القول فان من مقومات الجغرافية الاقتصادية تحديد طرق المواصلات اضف الى ذلك النشاطات التجارية وصولا الى تأسيس بعض المراكز التجارية في الاناضول وغيرها ، أضف الى ذلك ماالحصته القوانين العراقية القديمة •

اما في مجال معارفهم بالمناخ فخير مثال على ذلك هو ما خلفه لنا العراقيون من نصوص تخص مواعيد الزرع والحصاد او ما يعرف « بكتاب الفلاحة » ومعارف العراقيين بما يعرف بالانقلاب الشتوي والصيفي •••

خلف لنا الكتبة العراقيون مدونات عديدة تخص المجتمعات البدوية والحضرية وقوائم باسماء القبائل والاقوام والشعوب الا انهم لم يتوصلوا الى بحث ما يعرف بجغرافية الاجناس • اما في مجال الجغرافية الحضارية فخلف لنا العراقيون مدونات كثيرة تخص بعض الصناعات وبخاصة صناعة صناعة النسيج والزجاج وسبك المعادن وصياغتها • وفي مجال هندسة الري فالمخلفات الاثرية خير شاهد وبخاصة مشاريع ارواء اربيل ونينوى وكركوك وغيرها ، والتي قام بها الملك الآشوري سنحاريب •

يتضح مما تقدم ان العراقيين القدماء كانوا اول من وضع اسس العلوم الجغرافية بفروعها المختلفة والتي اخذها عنهم اليونان والرومان والفرس والهنود وغيرهم من الاقوام •

المبحث الثالث

الرياضيات والفلك

اعتاد الباحثون في تأريخ العراق الحضاري عند تعرضهم للنتاجات الفكرية ، ان يتناولوا القصص والملاحم او طبيعة النظم السياسية والادارية والقانونية وتطورها • كما أن اولئك الباحثين غالبا ما أكدوا على النزعة الاسطورية التي تلازم النتاجات الفكرية ، ومع ذلك فان معظم مباحثهم تؤشر حقيقة التطبيقات التجريبية على ارض الواقع التي تؤشر بدورها مناهج علمية صحيحة ، ولكن تفسير نتائجها بقي حبيس الفكر الاسطوري •

وعلى الرغم من ذلك فأن العلوم والمعارف التجريبية تؤدي بمرور الوقت الى موقف فكري نظري مجرد وبخاصة في العلوم الرياضية بعيدا عن التأويلات الاسطورية • وعليه فان العلوم الرياضية العراقية القديمة تعد النتاج الفكري المتميز باسلوب علمي ، الذي لو ساد في بقية المعارف لقاد العراقيين حتما الى فكر فلسفي نظري يعلل العديد من الامور بشكل مجرد • وعلوم الرياضيات من الافرازات الطبيعية لجوانب التطور الاقتصادي الاجتماعي والفكري في بلاد وادي الرافدين ، وعلى الرغم من كون خطواته

الاولى تقترب من المعارف التجريبية ، لكنه حقق بعدئذ خطوات في غاية التقدم والابداع صوب اكتشاف مجموعة من الحقائق العلمية التي افرزتها التأملات النظرية المجردة •

وباختصار يمكننا التأكيد بان ما حققته العلوم الرياضية لا يقل اهمية عن غيرها من جوانب الفكر والادب ، ولعلها تزيد بقية العناصر الحضارية خطورة لانها تنفي عن الحضارة العراقية القديمة صفة الفكر المثالي او الاسطوري ، وتكشف عن توجهات علمية نظرية سبقت معارف اليونان والهنود في هذا الشأن بعشرات القرون •

وعليه ، فان حضارة تمتلك مثل هذه المقومات حرية بمواجهة كل التحديات وفي كل الظروف والاوقات • ومما يؤكد ديمومة الحضارة العراقية القديمة ان علوم الرياضيات شهدت فترات اخرى من الازدهار بعد فتراتها الذهبية الاولى في العهد البابلي القديم (بحدود القرنين التاسع عشر والثامن عشر ق • م) وذلك في اثناء فترات الاحتلال الكشي والاخميني والسلوقي • ويشهد على ما ذهبنا اليه كتاب ومؤرخون معاصرون لفترة ازدهار الرياضيات في العراق • وهم من الكتاب والمؤرخين اليونان الذين المحوا الى قصب السبق والتقدم الذي حققه العراقيون في مجال الرياضيات والفلك •

دراسة النصوص الرياضية

بات من المعروف ان فك رموز الخط المسماري وترجمة العديد من المدونات التي جاءتنا من حضارة بلاد وادي الرافدين قد تم بعيد سنة ١٨٥٠ ، وان الآلاف من الرقم قد دخلت في حوزة المتاحف الاوربية في الثمانينات من القرن الماضي ، الا ان الباحثين في علم الآشوريات لم يشخصوا أي نص رياضي • يستثنى من ذلك النص السومري المتضمن قائمة باعداد •

كما قدم الاستاذ الفرنسي الشهير في مجال علم الرياضيات ثيورو ـــ دانجان Thureau-Dangin قائمة للعلامات الخاصة بالارقام وبعض الكسور .
ثم زاد الاهتمام بالرياضيات العراقية القديمة في مطلع القرن الحالي واهتم الباحثون بشكل واســع بهذه العلوم في الثلاثينات منه . ومن بين اشهر العلماء المشتغلين في هذا الحقل الاستاذ الالماني نويكيبوير D. Neugbauer وساكس A.J. Sacks اعقبهم في الاهتمام بهذا الحقل من علوم العراقيين استاذنا المرحوم طه باقر والاستاذ كوتســه والاستاذ برونز E.M. Bruins والاستاذ البريطاني ساكز Saggs والعالم السويدي فرابيرك J. Friberg

أضافة الى العشرات من الباحثين الاخرين الذين اهتموا بالرياضيات العراقية القديمة . ان دراسة النصوص الرياضية القديمة على جانب كبير من الصعوبة من حيث فرز دلالات العلامات المسمارية او مــن حيث المعرفــة التفصيلية بعلم الرياضيات . ويبرز من بين اهم الصعوبات التأريخ الطويل للمعارف بالرياضيات التي يمكن ان تمتد الى بداية وجود الانسان لان العدد جزء اساس من اجزاء الكلام . وتعزيزا لما ذهبنا اليه هناك آثار عظمية تحتوي على حزوز بارقام مختلفة يمكن ان يعود تأريخها الى حوالي ثلاثين الف سنة مضت . والذي يزيد في صعوبة دراسة النصوص الرياضية القديمة هو ندرة الوثائق الرياضية التي تشكل عاملا اخر في الابتعاد عن تناول هذه النصوص. فبالرغم من وجود مئات الآلاف من الوثائق والنصوص المسمارية الا ان حصة الرياضيات منها تكاد لا تتجاوز اربع مائة وثيقة . ولكن اعمال التنقيبات الحديثة التي تجريها المؤسسة العامة للآثار والتراث في مواقع شتى ، واعمال جامعة بغداد في سپار ، قدمت نصوصا جديدة في الرياضيات ، مما يجعلنا نحن الباحثون امام مسؤولية علمية وتأريخية ، وهذا مــا دأبت عليه منذ بضــع سنوات . وعلى الرغم من كل الصعوبات فحري بنا حمــل رســالة الآباء

والاجداد ، وازاحة ركام الحيف الذي يلحقه البعض بمعطيات حضارتنا وبخاصة في توجهاتها العلمية • وبذلك نضيف موقفا متحديا لكل المحاولات التي تستهدف امتنا وعطاءها الحضاري التأريخي المتواصل • فلم تكن حضارة العراق القديم شامخة بفنها وادبها وتنظيمها وقوانينها فحسب ، وانما تعزز شموخها بعلومها ومعارفها التجريبية ، وليست الممارسات الفكرية في مجال الرياضيات والجبر او العمارة والري او التطبيب وتحضير الادوية ، او رصد معالم الطبيعة من انهار واشجار وحيوانات الا امثلة واضحة على العمق والاصالة في حضارة وادي الرافدين •

أدوار الوثائق الرياضية

اعتاد الباحثون في حقل الرياضيات البابلية التأكيد على دورين من ادوار تأريخ العراق القديم • الدور الاول يتمثل بالعهد البابلي القديم (في حدود القرن العشرين والى القرن الخامس عشر ق•م) • والثاني متمثلا بالاحتلال السلوقي (اواخر القرن الرابع والى منتصف القرن الثاني ق • م) ونحن بدورنا لا نشك في رقي وازدهار علم الرياضيات في هذين الدورين الا ان المباحث الحضارية الحديثة قد اضافت في السنوات القليلة الماضية معلومات جديدة مهمة عن الرياضيات في فترات اخرى • فبالرغم من اهتمام بعض العلماء ومنهم لنكدون Langdon وثيورودانجان ، بالرياضيات السومرية وجذورها ، الا ان الفضل في اشاعة دراسة النصوص التي لها علاقة بالرياضيات يعود الى معهد الرياضيات في السويد وبخاصة الى الاستاذ فرايبرك الذي كتب الكثير من الابحاث الموسومة « الجذور الاولى للرياضيات البابلية » "The Early Roots of Babylonian Mathematics" وبموجبها استطاع هذا الباحث في سنة ١٩٧٩ من التوصل الى ان معارف العراقيين في مجال علوم

الرياضيات يمكن ان يمتد تأريخها الى بداية نضج الحضارة العراقية في حدود ٣٠٠٠ ق٠م ٠

من خلال ما تقدم يمكننا ان نقول بان عصر فجر السلالات والعهود التأريخية التي تبعته وبالتحديد العهد الاكدي وعهد سلالة اور الثالثة يمكن ان تكون الاساس الذي بني عليه علم الرياضيات والذي ازدهر في العهد البابلي القديم ٠ ومثل ذلك يمكن ان يقال ايضا عن إهمية النصوص الآشورية الحديثة والبابلية الحديثة بالنسبة لعهد الاحتلال السلوقي ٠ يبقى املنا قائما في الكشف عن نصوص رياضية اخرى ومن فترات تأريخية أخرى يمكن ان تلقي الضوء على تطور هذا العلم عبر العصور باجمعها ٠

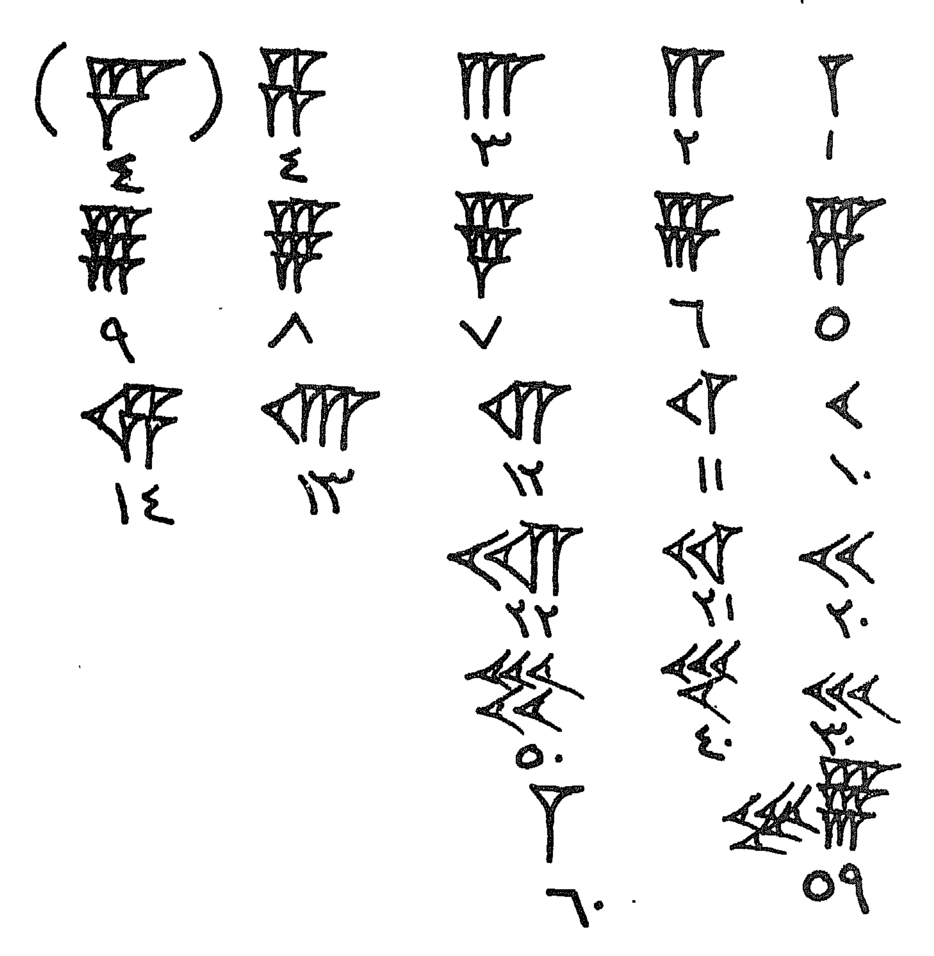
نظام العدد

سبق وان ذكرنا بان معرفة الانسان بالعدد يمكن ان تمتد الى بداية ادراكه وتحديده بلغة ما ٠ فالعدد جزء اساس في كلام ايـة لغة من لغات العالم باجمعه ، وانه ليس بالشيء المفاجيء لنا أن نجد العدد علـى اقـدم الوثائق الصورية المعروفة والتي يرقى زمنها الى اكثر من خمسة آلاف سنة ماضية ٠

كان السومريون يستخدمون النظام العشري في العد ، كاستخدامنا له اليوم في كتابة الاعداد ، الا انهم استخدموا الاساس الستيني ايضا وبخاصة عند كتابتهم الاعداد ٠ ويعتقد البعض من العلماء بان النظام العشري قـد استخدم قبل النظام الستيني وان السومريين قد ابتدأوا كتابة اعدادهم به ٠

استخدم العراقيون القدامى نوعين من العلامات في كتابة الاعـــداد شكل مخروطي واخر دائري ٠ وعند استمرار التدوين وتطور الخط المسماري

استخدم العراقيون علامتين احداهما للواحد والثانية للعشرة
فبتكرار الواحد نحصل على اثنين والجدول التالي يبين كيفية كتابة الارقــام :



ويكررون مرتين ايضا للحصول على ١٢٠ وتسعة مرات للحصول على رقم ٥٤٠ اما اذا بلغوا ٦٠٠ فيكتبونها بنفس علامة العشرة
وهكذا فان الرقم كان يشير الى ١ أو ٦٠ أو ٣٦٠٠ او ٢١٦٠٠٠ ....

الخ . اما الرقم ﹤ فيمكن ان يمثل الرقم عشرة أو ٦٠٠ أو ٣٦٠٠٠ ٠٠٠ الخ . ويمكن التعبير عن قراءة الارقام ومعرفة قيمتها بالشكل الذي يعرفنا بان 𒁹 يمكن ان يقوم مقام الرقم ١ أو ٦٠ أو ٦٠×٦٠ أو ٦٠×٦٠×٦٠ .الخ.

اضف الى ذلك ان 𒁹 يمكن ان يعني ايضا $\frac{١}{٦٠}$ او $\frac{١}{٦٠}$ × ٦٠ .. الخ .

وهكذا فان معرفتنا بقيمة العدد 𒁹 يتحدد من سياق المسألة الرياضية او موقع العدد المذكور في الجدول الذي يرد به .

ولكون العدد ٦٠ يقبل القسمة على العديد من الارقام كالواحد و ٢ و ٣ و ٤ و٥ و٦ .... الخ . وبذلك أشاروا الى الكسور المختلفة من ناتج القسمة فالربع كتب بالرقم (١٥) والثلث بالرقم (٢٠) والخمس بالرقم (١٢) والثلثان بالرقم (٤٠)

اما كتابة الارقام من ٦٠ الى ٩٩ فيعبر عنها البابليون بالاشكال التاليـة :

سبعون أي ٦٠ + ١٠ = ٧٠
ثمانون أي ٦٠ + ٢٠ = ٨٠
تسعون أي ٦٠ + ٣٠ = ٩٠
خمسة وتسعون أي ٦٠ + ٣٠ + ٥ = ٩٥
تسعة وتسعون أي ٦٠ + ٣٠ + ٩ = ٩٩

اما المائة فكتبت في الشكل التالي اي ٦٠ + ٤٠ = ١٠٠ واحيانا كتبت بالعلامة التي تلفظ mé مي أي مائة . وكان البابليون احيانا يكتبون العدد ١٠٠٠ بالعلامات أي ١٠ × ١٠٠ .

المرتبة العددية وكيفية كتابة الارقام

تدين حضارتنا الحديثة للعراقيين القدماء بالعديد من جوانبها ومن ذلك مبدأ المرتبة العددية اي تحديد موقع الاعداد بالنسبة لقيمها وفيما اذا كانت من الآحاد او العشرات او الالوف كما في نظامنا العشري • فالمعنيون من الكتبة العراقيين ميزوا بين الرقم واحد 𒁹 والرقم ٦٠ 𒁹 بكبر الحجم ، الا ان ذلك لم يدم فترة طويلة •

ومن الطرائف التي تروى بخصوص المرتبة العددية والتي طالما رواها المختصون بالرياضيات العراقية القديمة ، هي ان الملك الآشوري اسرحدون (٦٨٠ — ٦٦٩ ق • م) قد استخدمها للاغراض السياسية • ففي زمن والده سنحاريب الذي هدم بابل نتيجة تحالفها مع العيلاميين وغيرهم تنبأ كهنة معبودها الرئيسي مردوخ باستمرار خرابها لمدة سبعين سنة 𒁹𒌋 • الا ان اسرحدون اراد ارضاء البابليين واستمالتهم فادعى بان الاله مردوخ امر بقلب الرقيم والمباشرة بترميم المدينة وتجديدها بعد ١١ سنة 𒌋𒁹 •

لم يعرف العراقيون القدماء المرتبة الخالية او الصفر الا في عهد الاحتلال السلوقي حيث كتب على شكل 𒑱 او 𒑱 والذي لم ينضج استعماله الا على أيدي الرياضيين العرب •

ان عدم وجود الصفر زاد في تعقيد قراءة قيم الارقام وغموضها احيانا • فالعدد 𒁹𒁹𒐏 يمكن ان يعني ٢ × ٦٠ + ٤٠ = ١٦٠ او :

$$٢ + \frac{٤٠}{٦٠} = \frac{٢}{٣} ٢ \text{ أو حتى } ٦٠ \times ٦٠ + ١ + \frac{٤٠}{٦٠} = \frac{٢}{٣} ١ \; ٣٦٠$$

••••• الخ • ولإزالة مثل هذا الغموض عمد الكتاب البابليون الى كتابة

مراتب العدد متباعدة فالرقم [cuneiform] يعني ٦٠×٦٠+٥٩ = ٣٦٥٩ أما اذا كتب بهذه الصورة [cuneiform] فيعني ٦٠×٦٠+٥٠×٦٠+٩ = ٦٦٠٩ •

ومن الجدير ذكره ان استخدام نظام المرتبة العددية والفواصل فيما بين الأرقام لم يستخدم الا في النصوص الرياضية • اما النصوص الاقتصادية فتكتب بشكل مبسط فالعدد ١٣٠ يكتب بالشكل [cuneiform] أي ١×١٠٠+٣٠ = ١٣٠ والرقم ٨٠ = [cuneiform] أي ١×٦٠+٢٠ = ٨٠ ... الخ •

اما سبب اختيار العراقيين للنظام الستيني فيرجعه العلماء الى طبيعة نظام القياسات والاوزان التي كانت لديهم اضافة الى تقسيمات ساعات الليل والنهار وتقسيم السنة الى أشهر وايام • ثم ان القوى الستينية بقيت الى يومنا هذا في تقسيمات الدائرة وسهولة استخدام هذا النظام بالنسبة للارصاد الفلكية وما الى ذلك ... كل هذا اضافة الى ما جئنا على ذكره عن مرونة هذا النظام وخصائصه المتميزة على النظام العشري عززت من مكانة السلم الستيني الذي اخذت به العديد من الامم كاليونان والهنود •

العمليات الحسابية وانواع النصوص الرياضية

عرف العراقيون القدامى عمليتي الجمع والطرح • فعبروا حينا عن جمع رقم مع آخر بوضع a-na بين الرقمين ، اما طرح رقم من آخر فقد استخدموا الكلمة السومرية LAL بين الرقمين ، وعلى الرغم من وجود هاتين العلامتين او الكلمتين لعمليتي الجمع والطرح فغالبا ما كان الكتبة يجرون العمليتين عقليا ودون شرح لهما •

واستخدم العراقيون القدماء الكلمة a-rá بين رقمين للدلالة على

عملية الضرب ومن الجدير بالذكر أن الكتبة العراقيين تركوا لنا العديد من جداول الضرب التي كانت تستخدم كتمارين للطلبة او جداول مطولة للضرب والتي ربما استخدمت كمراجع لهم ٠

اما عملية القسمة فكانوا يجرونها بطريقة طريفة ، فاذا ارادوا ان يقسموا عددا على ١٥ ضربوا ذلك العدد في $\frac{١}{١٥}$ وغالبا ما كانوا يحصلون على قيمة معكوس الاعداد من جداول معدة لهذا الغرض ٠ ويمثل لنا الاستاذ طه باقر العملية بشكل رمزي $\frac{أ}{ب} = أ \times \frac{١}{ب}$ ٠ ومن المعروف ان الكتبة العراقيين عرفوا جواب القسمة وقربوه الى ثلاثة كسور ستينية ٠ ومن الكلمات الحسابية المهمة SU. NIGIN اي المجموع العام للاعداد ٠ ومصطلحات اخرى مثل IB. SI « الجذر التربيعي » BA. SI اي « الجذر التكعيبي » وغير ذلك من الكلمات والمصطلحات الخاصة بالنسب الثابتة واسماء الاشكال الهندسية وابعادها وكيفية الحصول على مساحاتها وحجومها ٠

وغني عن البيان ان معظم النصوص الرياضية جاءتنا من مدارس الكتبة وكان اكثرها عبارة عن تمارين للطلبة ٠ تقسم هذه النصوص الى صنفين اساسيين ، الاول جداول رياضية مختلفة والثاني يخص مسائل جبرية وهندسية متنوعة ٠ ربما استخدمت الجداول الرياضية « كمصادر » اولية للكتبة كي يستخدموها عند اجراء حساباتهم اليومية ٠ وأشهر تلك الجداول جداول معكوس الاعداد الصحيحة أي التي تنتهي دون تقريب واخرى بالاعداد التي تنتهي فيها القسمة حيث زودونا بنتائجها مقربة الى ثلاثة كسور ستينية ٠

وجاءتنا ايضا مجموعة كبيرة من النصوص الخاصة بجداول للضرب وعملوا ايضا جداول لمربعات الاعداد ومكعباتها وجداول أخرى بلوغاريتمات بعض الاعـــداد •

اما المسائل الرياضية فتخص الكثير من المواضيع • منها ما يخص مسائل بالهندسة المستوية والمجسمة ، ومعادلات آنية ومعادلات خطيـــة من الدرجة الثالثة •• حلت بطرق جبرية او حسابية • ومن الجدير بالتنويـــه ان تلك المسائل لم تحل بشكل رمزي ، فالكتبة العراقيون القدامى حلوا تلك المسائل بشكل عملي واقرنوا مسائلهم مثلا : بحفر قناة او بايجاد العدد اللازم مـــن طابوق لبناء جدار ، أو مساحة حقل •• على ان العلماء المتخصصين بموضوع الرياضيات القديمة كثيرا ما كانوا يؤكدون على الصبغة النظريـــة لمثل تلك المسائل مقرنين اياها بما اخذ عليه العلماء العـــرب وغيرهم من المسلمين • ولاثبات ماذهبوا اليه يورد الباحثون بعض الامثلة ومنها المثال التالي المأخوذ عن كتاب الاستاذ ساكز The Greatness that was Babylon :-

جمعت المساحة وضلع المربع : ٤٥

ضع (في حسابك) الرقم ١ ، كوحدة (معلومة)

وقسمه الى نصفين : ٣٠

اضرب ٣٠ × ٣٠ : ١٥

اضف ١٥ الى الـ ٤٥ : ١

هذا هو مربع الـ ١

اطرح العدد ٣٠ الذي ضربته بنفسه جانبا

(و) من ١ (بقي) : ٣٠ ، (وهو طول) ضلع المربع •

واذا ما عرفتم قيم الاعداد الواردة اعـــلاه بالنظام الستيني يمكن ان تكون المسألة كما يلي :

فال $٤٥ = \frac{٤٥}{٦٠} = \frac{٣}{٤}$ و $٣٠ = \frac{٣٠}{٦٠} = \frac{١}{٢}$ و $١٥ = \frac{١٥}{٦٠} = \frac{١}{٤}$

وهكذا فالمسألة يمكن وضعها بالشكل التالي :

مساحة المربع + احد اضلاعه = $\frac{٣}{٤}$

خذ المعامل كوحدة (لقياس الطول) معلومة .

نصّف° الواحد = $\frac{١}{٢}$

ربع ال $\frac{١}{٢}$ = ١

جذر ١ = ١

١ — $\frac{١}{٢}$ = $\frac{١}{٢}$

واذا ما عبرنا عن هذه المعادلة بالرموز الحديثة بنتج الآتي :

$س^٢ + س = \frac{٣}{٤}$

$س^٢ + س + (\frac{١}{٢})^٢ = \frac{٣}{٤} + \frac{١}{٤}$

$(س + \frac{١}{٢})^٢ = ١$

$س + \frac{١}{٢} = \sqrt{١} = ١$

اذن $س = ١ - \frac{١}{٢} = \frac{١}{٢}$

أ ــ نماذج من الجداول الرياضية

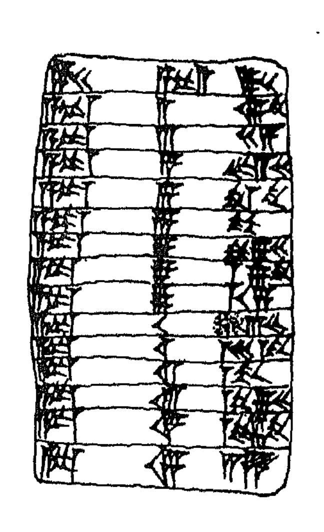
بعد ان انتهينا من عرض العمليات الحسابية والقينا بعض الضوء على انواع الجداول الرياضية ، ومن اجل ان يكون القارىء على بينة من امر تلك الجداول ، فلابد من عرض بعض النماذج منها :

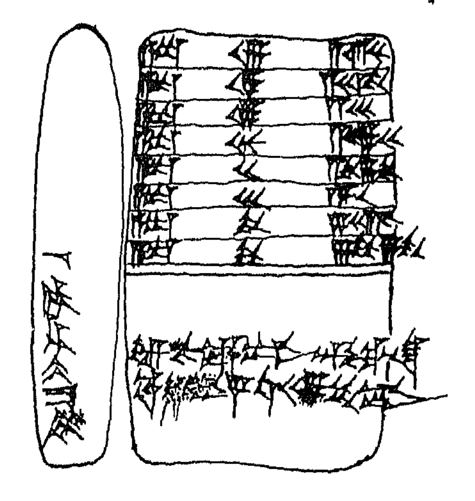
١ ــ جداول معكوس الاعداد ــ الجدول التالي يمثل النموذج الشائع لدى الكتبة العراقيين القدامى مستخدمين بطبيعة الحال النظام الستيني :

العدد	معكوسه	العدد	معكوسه
٢	٣٠	٤٥	١ر٢٠
٣	٢٠	٤٨	١ر١٥
٤	١٥	٥٠	١ر١٢
٥	١٢	٥٤	١ر٦ر٥٠

٢ ــ جداول الضرب :

ان النماذج التي سنقدمها في هذه الفقرة هي من نوع نصوص الجداول الرياضية التي تتناول جداول ضرب الاعداد ... فقد كانت جداول الضرب المعروفة سابقا تقف عند الرقم (٥٩) وهو رقم لا يتناسب مع حجم الاعمال والنشاطات الاقتصادية الواسعة التي اشتهر بها العراقيون وكان الامل قائما في اكتشاف جداول اخرى تصعد بالرقم الى مراتب اعلى ، وهذا ما حققه لنا واحد من هذه النصوص حيث يمتد جدول الضرب فيه من رقم ١ × ٥٠٠ والى ٥٠ × ٥٠٠ .





30 and 1 30 = 30 × 1 30 = 30 × 1 = 30

2 1 = × 2 1 = × 2 = 60

3 1 30 = × 3 1+30 = × 3 60+30 = 90

18! and 14 4.12 = 18 × 14 240+12 = 18 × 14 = 252

15 4.30 = × 15 240+30 = × 15 = 270

16 4.48 = × 16 240+48 = × 16 = 288

Rev.

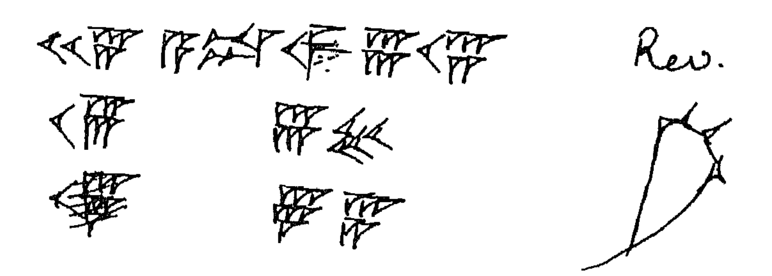
22.30 a-rá 1 22.30 = 22½ × 1 = 22½

2 45 = × 2 = 45

3 1.7,30 = × 3 = 1.7½ = × 3 = 67½

4 1.30 = × 4 60+30 = × 4 = 90

5 1.52.30 = × 5 60+52½ = × 5 = 112½



25 a-rá 15! 6.15 = 25 × 15 360+15 = 375

16 6.40 = × 16 360+40 = 400

17! 7.5 = × 17 420+5 = 425

٣ ــ جداول بالجذور التربيعية :

كان العراقيون القدامى يستخرجون الجذور التربيعية من جداول مربعات الاعداد ووجد العديد من هذه الجداول المنظمة بالشكل التالي :

$1\text{-e } 1 \text{ íb-si}_8$	مربع ١ = ١
$4\text{-e } 2 \text{ íb-si}_8$	مربع ٢ = ٤
$9\text{-e } 3 \text{ íb-si}_8$	مربع ٣ = ٩

ويمكن ان تستمر مثل هذه الجداول في ايجاد جذور او مربعات اعداد كبيرة مثل الرقم :

$1,14,49\text{-e } 1,7 \text{ íb-si}_8$	مربع ٦٧ = ٤٤٨٩

٤ ــ جداول بالجذور التكعيبية

ترد هذه الجداول على النحو الآتي :

$1\text{-e } 1 \text{ ba-si}_8$	أي مكعب ١ = ١
$8\text{-e } 2 \text{ ba-si}_8$	مكعب ٢ = ٨
$27\text{-e } 3 \text{ ba-si}_8$	مكعب ٣ = ٢٧

وبطبيعة الحال يمكن ان تتضمن مثل هذه الجداول ارقاماً عالية .

٥ ــ جداول بالجذور التربيعية والتكعيبية معا :

ومنها الجدول التالي :

٢^١	= ٢	٢	٤
٢^٢	= ٤	٣	٨
٢^٣	= ٨	٤	١٦
٢^٤	= ١٦	٥	٣٢
٢^٥	= ٣٢	٦	٦٤
٢^٦	= ٦٤	..... الخ	

كما وجدت جداول أعداد فسر بعضها الباحثـون بكونها جـداول لوغاريتمات وأخرى بكونها جداول بالأعداد الفيثاغورية .

عرف العراقيون القدامى العديد من الجداول الاخرى الخاصة بالاوزان والمكاييل ومساحات المربعات والمستطيلات ... الخ ولا مجال لاستعراضها جميعا . ولا يفوتنا في ختام هذا المبحث التأكيد على اهمية تلك الجداول في تعميق الفكر الرياضي العراقي القديم واضفاء الصبغة الجبريـة والاتجاه الجبري التجريدي لذلك العلم . والاهم من كل ذلك تمكين الرياضيين من وضع مسائل هندسية وجبرية سنأتي لاحقا على استعراض البعض منها .

ب ـ نماذج من المسائل الرياضية

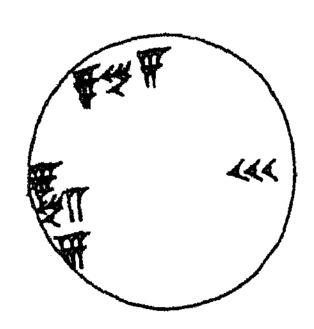
قبل الولوج في استعراض المسائل لابد من التنويه بان العراقيين القدامى لم يستخدموا الرموز والاشارات الجبرية كما في الجبر الحديث ، ولكنهم حلوا مسائلهم بالطرق الجبرية الخطابية ، أي اقران المسائل الجبرية والهندسـية بالمال والربح الذي ينتج عنه او بالحقل وامكانية تقسيمه الى اشكال مختلفة او بالعصا (للاستعاضة عـن الاسطوانة) ... الخ وتمكن العراقيون القدامى من حل المعادلات الاسية والخطية والآنيـة من الدرجة الاولى المحتوية على مجهول واحد او عدة مجاهيل . ومعادلات اخرى من الدرجة الثانية والثالثة وغيرها من المعادلات المشابهة او المطابقة احيانا لما نعرفـه الان من مسائل الجبر الحديث .

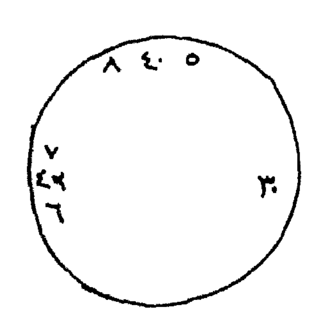
اما في مجال الهندسة فخلفوا لنا على الواح الطين الخاصـة بالمسائل الرياضية العديد من الاشكال الهندسية ، وكانوا على معرفة بكيفية ايجاد مساحة المربعات والمسـتطيلات وشبه المنحرف والمثلثات القائمـة الزوايا والمتساوية الساقين وصولا الى سبقهم في نظرية فيثاغورس . كما استطاعوا قياس حجوم العديد من المجسمات كالاسطوانة والمخروط والمخروط المقطوع

والهرم الرباعي المقطوع وغيرها • وفيما يلي بعض النماذج لمثل ما تقدم ذكره من مسائل رياضية •

١ ـ من المسائـل الرياضية البسـيطة والطريفة مسألة عن كيفية تعلـيم القاسم المشترك الاصغر للطلبة •

وقد رتب « المعلم » الارقام على قرص من الطين كالآتي :





فالرقم ٤٠ هو القاسم المشترك الاصغر (المضاعف المشترك البسيط) بين الرقمين ٥و٨

الرقم ٤٢ يمثل القاسم المشترك الاصغر للرقمين ٧و٦ •

اما الرقم ٣٠ فيمثل بالتأكيد القاسم المشترك الاصغر بين الرقمين ٥و٦ •

والمهم في هذا الرقيم هو توضيحه بكيفية استجواب الطلبة ومحاورتهم على اساس فكر رياضي •

٢ ـ معادلة من الدرجة الثانية تتضمن ادخال مجهول مساعد •

ربعت زيادة طول مستطيل على عرضه وطرحتها من المساحة فنتج ٢٠ر٨ فاذا كان الطول ٣٠ فما هو عرض المستطيل ؟ •

ربع الـ ٣٠ فيكون الناتج ٠ر١٥ واطرح ٢٠ر٨ ينتج ٤٠ر٦ نصفا لطول ٣٠ فتحصل على ١٥ ربع الـ ١٥ تحصل على ٤٥ر٣ اضفـ ٤٥ر٣ الى ٤٠ر٦

فتحصل على ٢٥ر١٠ خذ الجذر التربيعي لـ ٢٥ر١٠ فتحصل على ٢٥ اطرح الـ ١٥ من ٢٥ فتحصل على ١٠ اطرح الـ ١٠ من ٣٠ فيكون ٢٠ وهو مقدار عرض المستطيل ٠

ومن تحليل وتفسير استاذنا المرحوم باقر نقرأ ما يلي :

اذا فرضنا ان طول المستطيل ط والعرض ع فيكون وضع المسألة بحسب النص ط ــ ع ــ (ط ــ ع) ٢ = ٢٠ر٨ ٠

وط بحسب الفرضية = ٣٠ ٠

ومن هاتين المعادلتين نحصل على : ٠

٣٠(٣٠ ــ ط ــ ع) ــ (ط ــ ع) ٢ = ٢٠ر٨ ٠

اي ٠ر١٥ ــ ٣٠ (ط ــ ع) ٢ = ٢٠ر٨ ٠

وبجبر المعادلة اي نقل الحدود المتشابهة من طرف الى طرف آخر بتغيير اشاراتها نحصل على :

(ط ــ ع) ٢ + ٣٠ (ط ــ ع) = ٠ر١٥ ــ ٢٠ر٨ = ٤٠ر٦ ٠

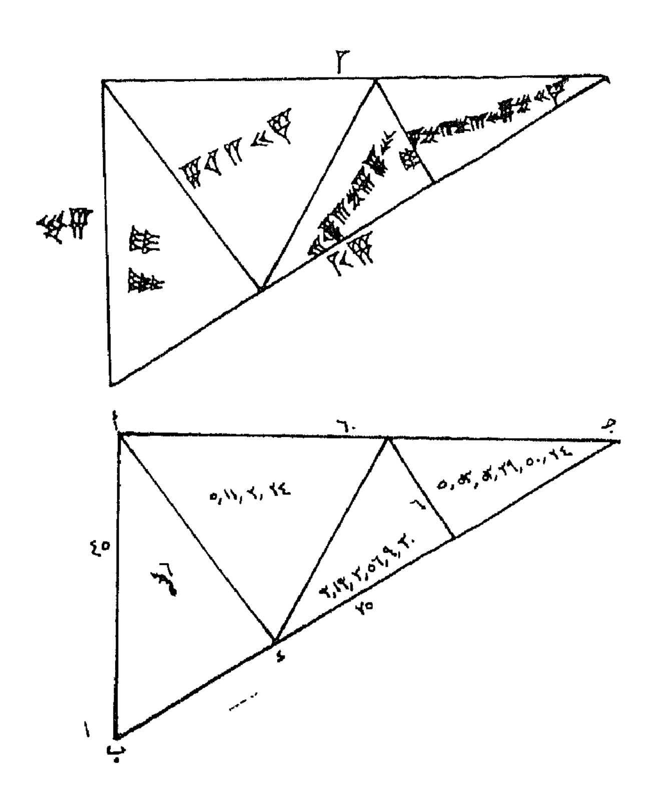
وهنا يدخل الرياضي القديم مبدأ المجهول المساعد فيفرض ان ط ــ ع مجهولا نفرضه س فيكون وضع المسألة :

س^{٢} + ٣٠س = ٤٠ر٦ ٠

٣ ــ مبدأ تشابه المثلثات (نظرية فيثاغورس)

ويبقى اللوح الرياضي الهندسي الذي عثر عليه في تل حرمل خير مثال على تقدم علم الرياضيات في العراق القديم ٠ ولا مجال هنا لعرض كل مايتضمنه هذا الرقيم ٠ فقد رسمت في اعلى هذا اللوح صورة مثلث قائم الزاوية ، قسم داخل هذا المثلث الى اربعة مثلثات صغيرة ٠ وقد اعطى الكاتب ابعاد المثلث المذكور ومساحات المثلثات الصغيرة ودون تحت هذا الشكل الهندسي

نص القضية وكيفية حلها . ادناه صورة المثلث المذكور والابعاد بالارقام المكتوبة بالمسمارية . وصورة اخرى بترجمة للارقام .



ويوجز الأستاذ طه باقر حل المسألة بالمعادلة التاليــة :

ب د = $\sqrt{\dfrac{\text{ا ب}}{\text{ا جـ}} \times ٢ \times \text{مساحة المثلث ا ب د}}$

وبالارقام المعطاة ب د = $\sqrt{\dfrac{٤٥}{٦٠} \times ٢ \times ٨ر٦}$ = ٢٧

٤ ــ وكانوا يحسبون مساحة شبه المنحرف بضــرب الارتفاع بنصف

مجموع القاعدتين السفلى والعليا • وكانت هذه المعرفة سببا في تمكنهم من معرفة المبدأ المعروف بالتناسب والتوازي والدساتير لحل ذلك •

٥ ــ وكانوا يستخرجون حجوم بعض الاشكال المجسمة بضرب مساحة القاعدة بالارتفاع ومن ذلك ايجادهم لحجوم الاشكال المنشورية • كما انهم كانوا على بينة من ايجاد حجم الهرم المربع والهرم المربع المقطوع واوجدوا الدستور الخاص بايجاد حجم المخروط المقطوع بضرب نصف الارتفاع في مجموع مساحتي القاعدتين السفلى والعليا •

ويمكن تمثيل الدستور بالرموز التالية :

اذا ماعرفنا ان ح = الحجم و ع = الارتفاع ، وأ ، ب ضلعا القاعدتين المربعتين العليا والسفلى للهرم فان الدستور الذي عرفوه كالآتي :

$$ح = ع \times \left(\left(\frac{أ+ب}{٢}\right)^{٢} + \frac{١}{٣} \left(\frac{أ-ب}{٢}\right)^{٢} \right) \quad •$$

والمسائل كثيرة على ايجاد حجم المخروط المقطوع •• وقد عثر على سلسلة من المسائل الخاصة به مكتوبة على رقيم كبير عثر عليه في تل حداد بمنطقة حمرين •

الفلك

بدأت المباحث الاثارية الاهتمام بعلم الفلك او كما يسميه العلماء العرب « علم النجوم » او « علم الهيئة » بعد سنة ١٩٢٧ اي بعد ان تمكن المتخصصون بالرياضيات العراقية القديمة من حل رموز بعض النصوص المسمارية الخاصة بعلم الفلك • وتتكرر احيانا أسماء نفس الباحثين في الرياضيات ، وذلك بسبب العلاقة الوثيقة بين الموضوعين • فعلم الفلك ارتبط ارتباطا مباشرا بعلم الرياضيات وبخاصة في العهود المتأخرة من تأريخ

العراق القديم .. أما أسس هذا العلم واصوله ومبادؤه فيمكن ان تعـود الى عصور قبل التأريخ . وخير مثال يمكن ان يعزز ماذهبنا اليه ماورد في قصة الخليقة التي تمتد جذورها الى تلك العصور :

في العلى عندما لم يكن للسماء اسم بعد ...
وفي الاسفل عندما لم يكن للارض اسم بعد ...

صنـع مردوخ منازل للالهـة
خلق الابراج ، ثبتها في اماكنهـا
حدد الازمنة ، جعل السنـة فصولا
ولكـل شـهر من الاشـهر الاثني عشر ثلاثة ابراج (المجموع ٣٦)
حدد الايام بابراجها .
ثبت برج « نيبرو » (المشتري ، كوكب مردوخ) .
فلايجهل نجم عمله ولابرج وظيفته
في الوسط ثبت السمت
والى الشرق والغرب فتح بوابة (انليل وأيا)
وسلط القمر (اله القمر) على الليل
وجعلـه زينـة في الليـل
به يعرف الناس موعد الايام
في بدء الشهر يطـل القمـر
يحـدد الاسبـوع
وبعـد اسبوعـين وفي نصـف الشهـر
يواجه الشمس ، يكـون بـدرا
ينحسر ضوء الشمس عن وجهه ــ يصفر
يدركه المحاق ، يعود ثانية الى الارض .

ادوار النصوص الفلكية

لقد ازدهرت الدراسات الفلكية في العراق القديم في نفس فترات أزدهار الرياضيات ، حيث تعد فترة العهد البابلي القديم والفترة السلوقية من فترات الازدهار الرئيسية ، ولكن ذلك لم ينف الاهتمام بالدراسات الفلكية عن الفترات الاخرى ، ولكن بدرجات متفاوتة .

لقد حاول البعض من الباحثين المغرضين الصاق الصبغة الاسطورية او الخرافية على معارف العراقيين في هذا المجال وذلك من خلال تأكيدهم على ان منشأ علم الفلك من التنجيم . لكن الابحاث الحديثة أكدت بأن التنجيم ربما كان من النتائج الثانوية لعلم الفلك الذي نشأ اساسا لتنظيم الوقت والتقويم . والذي ساعدهم على توسيع معارفهم التجريبية الفلكية وتطويرها والوصول بها الى مرحلة علمية متقدمة ، هو اعتمادهم العلوم الرياضية ــ التي لامجال للشك في رقيها ــ في ارصادهم .

وقبل البدء بتناول انواع النصوص الفلكية لابد من الاشارة الى مكانة علم الفلك العراقي القديم وعلمائه عند المؤرخين اليونان والرومان وغيرهم . واذا ماستطاع العلماء اليونان والرومان وغيرهم طمس تفوق ورقي علوم الرياضيات العراقية القديمة وعدم ذكر علمائها فالظاهر انهم لم يستطيعوا عمل شيء من هذا القبيل ازاء الارصاد المطولة التي خلفها العراقيون القدماء فاشاروا كثيرا الى الكلدانيين والاشوريين وبعض المبرزين منهم فيهذا المجال .

اصناف النصوص الفلكية

قسم الباحثون النصوص الفلكية بشكل اولي الى نوعين ، الاول ويشتمل على المسائل الفلكية ، والثاني عبارة عن جداول وازياج فلكية .

وفيما يلي تعريف باهم انواع النصوص التي امدتنا بمعارف وعلـــوم العراقيين القدامى في الفلك :

١ ــ نصوص التنجيم لاغراضـ الفـأل (Astrological Omens)

يعود تأريخ البعض من هذه النصوص الى الفترة الاكدية ولكن معظمها جاءنا من العهد الكشي • وقد رتبت هذه النصوص على شكل مسلسلات ومـــن اشهرها مايعرف بـ Enuma Anu Enlil « عندما كان آنو انليـــل » ومنها المثال التالي :

اذا وقع خسوف في اليوم الرابع عشر من شهر سيفان ، وكان القمـــر معتما عند الجانب الشرقي من فوق ، ومنيرا عند الجانب الغربي من اسفل ، وهبت ريح شمالية في ليلة الرصد الاولى ولكنها خفت عند منتصف ليلـــة المراقبة فسيحدد القمر ذو العتمة على الجانب الشرقي من فوق وذو النور على الجانب الغربي من تحت •••• مصير مدينة اور وملكها •• فسيواجه ملـك اور المجاعة وسيكون عدد الموتى كبيرا ، اما ملك اور فسيثور عليه ابنه ،ولكن ذلك الابن الذي سبب الثورة ضد ابيه ، سيقبض عليه الاله شمس وسيموت لكونه عاقا لابيه • وسيتولى ابن اخر للملك ــ ومن غير المطالبين بالملكيـة ــ عرش (اور) •

٢ ــ التنجيم للنبوءات Judical Astrology

ويعتمد العارف به على الارصاد الفلكيـــة او الجداول الرياضيـــة ذات الاغراض الفلكية • ومن خلاله يمكن ان يتنبأ العرافة بالمستقبل القريب للملك أو البلاد وبخاصة مايتعلق بأمور الحصاد أو الفيضان أو الغزو أو المجاعـــة •••• الخ كما في المثال التالي :

اذا حلت الشمس موقع القمر ، فان ملك البلاد سيثبت على العـرش •

واذا حلت الشمس فوق او تحت موقع القمر ، فان اسس العرش ستكون متينة وامنة وسيكون الملك عادلا ٠ واذا كانت الشمس والقمر غير مرئيتين فسيتحلى الملك بالحكمة الواسعة ٠

عند اقتراب زحل من موقع القمر ، وزحل هو نجم الشمس ، فسينتج الآتـــي :

انه طالع حسن للملك ، فالشمس هي نجم الملك ٠

اذا حدثت هزة ارضية في شهر نيسان ، فستثور البلاد على الملك ٠

٣ ـ ارصاد كوكب الزهرة وبعض الكواكب الاخرى

واقدم ماجاءنا من هذه النصوص يعود الى فترة العهد البابلي القـديم وبالتحديد زمن امي ـ صدوقا حيث زودنا الكتبة البابليون بسلسلـــة ارصاد لكوكب الزهرة عند ظهورها وقت غروب الشمس وشروقها وطول مدة اختفائها ٠ وتمكن البابليون بواسطة تلك الارصاد من معرفة دورة ظهور كوكب الزهرة خمس مرات في نفس المواضع من السماء كل ثماني سنوات ٠ ومن الجدير ذكره في هذا المجال ان هـذه النصوص كانت المفتاح لتعريف الباحثين بالتأريخ التعاصري وايجاد التواريخ المضبوطة لحكم الســلالات العراقية وتعاقبها ٠

٤ ـ النصوص الاسطرلابية

وجاءتنا من العهد البابلي القديم والعهـود اللاحقـة وبخاصة فترة الحكم الكشي ، وهذه النصوص عبارة عن خوارط فلكيـــة ٠ تتضمـن كل خارطة من هذه الخوارط دوائر ثلاث متداخلة ومقسمة الى ٣٦ قسما وكل قسم من تلك الاقسام يحتوي على ارقام يرتبط الواحد منها بالاخر مـــن

الناحية الحسابية .. ولا يزال الباحثون غير متأكدين من السبب الداعي لصنعها أو الغرض الذي صنعت من اجله .

٥ ــ النصوص الخاصة بطرق (دروب) الكواكب

جاءتنا مستنسخات من عهود مختلفة اقدمها من العهد البابلي القديم .

وتعرف السلسلة التي تضم هذه الطرق او الدروب بـ mul APIN وفيها تثبت ثلاثة طرق لكل كوكب او جرم سماوي ، وهي عبارة عن وصف مقتضب للاجرام ويعزوها البعض من الباحثين الى كونها خرافات .

٦ ــ نصوص رصد الخسوف والكسوف

يتفق الباحثون وبضمنهم P.J. Huber على ان اولى تلك الأرصاد المنتظمة لايرقى زمانها الى اكثر من ٢١ ايلول ٧٤٨ق . م ولكنه يؤكد على ان احدث تأريخ لاولى تلك الارصاد لايمكن ان يكون بعد ٢٠ آذار ٧٣٩ق. م . اما آخر الارصاد فيثبت زمنه اما بـ ٣١ كانون الاول ٣١٦ ق.م أو ٩ تموز ٣٠٧ق . م . وهذه الارصاد عبارة عن تقاويم فلكية Astronomical Diaries . وبطبيعة الحال هناك ارصاد من هذا النوع استمر بعد هذا التأريخ ولكنها وجدت على نصوص اخرى متفرقة . واخرها على حد قول الاستاذ ساكز يعود الى تأريخ ٧٥ للميلاد وفي ختام حديثنا عن الخسوف والكسوف ننقل اليكم احد الامثلة الشائعة :

« اذا خسف القمر في اليوم الرابع عشر من شهر تموز ، فهو نذير للملك الكوتي : سوف يسقط الكوتيون بالمعركة وتتحرر البلاد » .

٧ ــ النصوص الخاصة بكبس السنوات

بالرغم من وجود بعض الصدف التي بموجبها كبس البابليون بعض

سنيهم الا ان الاستاذ نويكيور يعتقد بان كبس السنة لم يتم بشكل منتظم الا بعد سنة ٥٠٠ق • م الا ان سارتون يؤكد بان ذلك كان معروفا منذ فتـــرة اور الثالثة وفترة حكم حمورابي ودليله وجود الشهر الثالث عشر في رسائل حمورابي فالسنة البابلية سنة قمرية أي أن عدد أيامها يساوي ٣٥٤ يوما أي أنها تقل عن السنة الشمسية التي تساوي ٣٦٤ ¼ يوما • وكان العراقيـــون القدماء قد توصلوا الى معادلة مفادها أن كل ٢٣٥ شهرا قمريا تساوي ١٩ سنة شمسية فاضافوا سبعة شهور كبيسة تكرر كل ١٩ سنة • والجدول التالي يمثل احـــد هذه النصوص ، فارقام الحقل الاول تمثل السنوات الكبيسة ، ونكبس السنة الاولى عند منتصفها بينما السنين الاخرى تكبس عند نهاية العام :

السنوات الكبيسة		
١	٢	٥
٣	٤	٨
٦	٧	
٩	١٠	
١١	١٢	١٣
١٤	١٥	١٦
١٧	٨١	١٩

ويمثل هذا الجدول دورة ١٩ عاما او السنوات التي يجب ان يضـــاف اليها الشهر •

خلاصة المباديء التي اضطلع بها فلكيو العراق القديم

استطاع العراقيون القدماء رصد العديد من الظواهر الطبيعية وكانـــت ارصادهم اطول الارصاد في جميع الحضارات • وتمكنـــوا مـــن استخدام

الرياضيات الراقية في حساب دوراتها ، ومن ابرز نتاجاتهم الفلكية معرفتهم بان الشمس هي مركز الكون والاجرام السماوية الاخرى • كما انهم ادركوا اثر القمر على عملية المد والجزر • ويعتقد معظم العلماء بان البابليين هم اول من اوجد النظرية الكوكبية او القمرية التي مكنتهم من تحديد زمن ظهور الهلال في اول كل شهر قمري • ويؤكد الاستاذ نويكيور بان حساب حركة القمر هو من بين احسن الانجازات في العصور القديمة ويمكن اقرانها باعمال علماء الفلك من اليونان والرومان • ومن الشائع ان العراقيين هم اول من استطاع تقسيم السنة الى فصول وكانوا على علم بالاعتدال الربيعي ووقت حصوله في نيسان وفي ذلك قالوا :

« في اليوم السادس من شهر نيسان
يتساوى النهار والليل
ست ساعات نهارا وست ساعات ليلا » •
(الساعة البابلية تساوي ضعف الساعة الحالية)

وقسم العراقيون السنة الى ١٢ شهرا واضافوا شهرا آخر كل ثلاث سنوات • وكانوا يضيفون هذا الشهر ، اما في الشهر السادس ،اي عند موسم الحصاد ، أو في الشهر الثاني عشر اي موسم جني التمور •

وغالبا ماكانت اسماء شهورهم مقترنة بحصاد القمح او جنيه او حفظ المحاصيل او يقرنون البعض منها باسماء أعيادهم الدينية • ومن اسماء اشهرهم الشائعة الآتي :

١ ـ نيسانو **Nisannu** لاحظ ان بداية السنة او رأس
٢ ـ ايـارو **Ayaru** السنة عند العراقيين القدامى هو

٣ ــ سيمانــو	Simanu	شهر نيسان •
٤ ــ دوزو ــ تموز	Duzu	
٥ ــ آبــو	Abu	
٦ ــ اولولو	Ululu	ــ وعند هذا الشهر يضاف شهر
٧ ــ تشريتو	Tašritu	آخر يسمى كن ــ در Kin. dir
٨ ــ ارخسمنا	Arahsamna	او كن ــ ٢ ــ كم Kin-2-kam
٩ ــ كسليمو	Kislimu	او كن ــ آ Kin-a
١٠ ــ طيبيتو	Ṭebetu	
١١ ــ شباطــو	Šabaṭu	
١٢ ــ ادارو		ــ وعند هذا الشــهر يضيفون شهرا آخر كل ســت ســنوات يسمونه شي ــ در Še-dir او در ــ شي dir-še

وبالرغم من معرفتهم بالاسبوع واقامتهم الاحتفالات في بداية كل شهر وفي اليوم السابع منه وفي منتصفه وفي اليوم الاخير منه ، الا انهم كانــوا يعودون الى اليوم الاول من الاسبوع عند بداية كل شهر جديد •

ومما يعزى الى معارف وعلوم العراقيين الفلكية ما يعــرف بالبروج الاثنــي عشر Zodiac • واطلقوا عليها اسماء حيوانية او آدمية او خرافية كما نطالعها في العديد من المجلات في يومنا هذا • وقسموا كل برج منها الى ٣٠ درجة لتطابق ايام الاشهر المثالية •

ويتفق الباحثون في هذا المجال بان للعراقيين القدامى قصب السبق في معرفـة قياس المسافات الواقعة بين النجوم الثابتة .

ومن المراكز الرئيسية لرصد الكواكب يرد في النصوص المسمارية اسم اربيل والوركاء وبابل وسپار . ولا يوجد ما يؤيد معرفة العراقيين بالتلسكوب بالرغم من عثور الآثاريين على عدسات من حجر الكرستال . وعلى اية حال وكما كررنا ، فان رقي هذا العلم وانجازاته كانت بسبب تطبيق النظريات الرياضية . على انه يجب التنويه بان العراقيين كانوا على معرفـة ببعض الآلات والادوات التي ربما ساعدتهم ايضا ومنها ما يعرف بالساعة المائيـة والساعة الشمسية او المزولة .

ويؤكد البعض من العلماء على ان العراقيين كانوا على بينة من القطب المغناطيسي . وكان على شكل نصف كرة مقعرة ، وكرة صغيرة ثانية معلقـة في وسطها تعكس ظلا من الداخل ، حيث مكنت حركـة هذا الظل ، الراصد العراقي القديم ، من تتبع حركـة الشمس وبالتالي امكانية تحديد الانقلاب الصيفي والشتوي . وقد اخذ اليونان هذه الطريقة وطوروها .

وفي ختام هذا المبحث لابد من الاشادة بالمستوى الراقي الذي وصل اليه العراقيون في رصدهم للعديد من الكواكب وبخاصة كوكب الزهرة . حيث شاع استخدام ارصادهـم تلك مـن قبل مشاهـير العلماء اليونان والرومان ... وتجدر الاشارة ايضا الى ان العراقيين القدامى ربما كانوا

ينشدون الشـواب من جراء اهتمامهم برصد الظواهر والكواكب وهذا ما يمكن ان نستشفه من التذييل الذي يتركونـه عند نهاية كـل رقيم خاص بالارصاد ، حيث يقول الراصد « بأنه كتب الرقيم او استنسخه من اجل عمر مديد ومن اجل حفظ ذريتـه من كل سوء ومن اجل ثباته متعافيا متشافيا » .

المبحث الرابع

العلوم الطبية

قبل البدء بالحديث عن العلوم الطبية والمعارف المرتبطة بها لابد من التنويه عن محاولة المؤرخين اليونان وغيرهم تضليل الاجيال اللاحقة عن حقيقة ومكانة العلوم الطبية العراقية القديمة • حيث اختلقوا القصص الغريبة بهذا الخصوص وورد جزء منها على لسان كبيرهم هيرودوتس الذي قال « بان العراقيين يخرجون مرضاهم الى الشوارع لانهم لا يمتلكون اطباء • فالناس الذين يمرون بالمرضى يقدمون النصائح ، اما من خلال تجربتهم لدواء قد شفاهم ، او من خلال معرفتهم باحد ما قد تعافى لتناوله دواء معين ، وكل المارة يسألون دون استثناء » • لا شك بان هذه العبارة تبين انسانية وعطف العراقي على اخيه ، الا ان المقصد منها هو تشويه حقيقة المستوى العلمي الذي وصل اليه العراقيون القدامى واسدال الستار على معارفهم المتقدمة التي لم يستطع اليونان التوصل اليها الا بعد عشرات القرون •

ويعود الفضل لعلم الآثار الذي مكن العلماء من الكشف عن زيف مثل هذا الادعاء وغيره • حيث تم العثور على العشرات من الرقم الطينية التي دونت لنا معارف الاسلاف بالطب وغيره من المعارف المرتبطة به •

وبالرغم من ارتباط العلوم الطبية بالعرافة والسحر فذلك يسحب جذور المعارف الطبية الى عصور ما قبل التأريخ . فالمدون منها والذي يؤكد لنا سمو هذا العلم يمكن ان يعود الى الالف الثاني ق.م وخير دليل على ذلك ما جاء في قانون حمورابي الشهير الذي ميز بين الطبيب والجراح والبيطري وحدد اجور كل منهم . والاكثر من ذلك فالقانون يعين العقوبات التي تقع جراء الاخطاء المهنية والتي قد تصل الى قطع اليد . ونحن لا نشك بان المعارف الاولى جاءت نتيجة للتجربة والخطأ والصواب في معالجة بعض الامراض بواسطة الاغذية أو الاعشاب او ما شابه ذلك .

فالغريزة الانسانية للدفاع عن النفس ودفع الاذى عن الاقربين قد دفعت الانسان ومنذ القدم الى تجربة ما تجود به الطبيعة من نبات وحيوان واحجار أو معادن بالاضافة الى ممارسة الطقوس الدينية والسحر . اضف الى ذلك كله رصده لحركات وافعال بعض الحيوانات في معالجة نفسها . وبتكرار التجارب وباكتشاف علاقة نبات ما أو مادة معدنية او حيوانية بشفاء مرض وبتعميم تلك الخبر وتبادلها ، وصل الى نتائج افضل في المعالجة والشفاء . وبظهور التدوين وانتشاره زادت معارف الانسان المتعددة ومن بينها معارفه بالطب الذي وصل الى مرحلة راقية ابان العهد البابلي القديم شانه شأن بقية العلوم الاخرى التي ازدهرت في هذه الفترة والفترات اللاحقة . والذي عجل برقي هذا العلم في العهود الآشورية والبابلية الحديثة هو سهولة الاتصال بالامم الاخرى وتبادل الافكار وتطوير التجارب الناجحة واشاعتها كي يستفيد منها العدد الاكبر من الناس الذين هم عماد حياة اية دولة .

وعلى الرغم من اهتمام البعض من علماء الآشوريات في نهاية القرن الماضي وبداية هذا القرن بالعلوم الطبية الا ان الدراسات المستفيضة في هذا المجال لم تظهر الا بعد النصف الثاني من هذا القرن .

ادوار النصوص الطبية

فيما عدا معرفتنا بالاصل السومري للفظة طبيب الاكدية وهي , nsa والتي تشعرنا بأن السومريين قد ميزوا بينه وبين المعزم أو الساحر ašipu فأن معلوماتنا عن الطب ومعارفه محدودة جدا من الفترات السومرية الاولى • ففي كل الادوار التأريخية وفي معظم النصوص ان لم يكن جميعها يعزى المرضى الى هذا او ذاك من الآلهة او الارواح الشريرة • ولقد خص العراقيون الطب ببعض الآلهة ومنهم ايا ، اله الماء • وحامية الطب الالهة كولا واله الطب ننآزو d NIN.A.ZU« سيدة العارف بالماء » ننكيزيدا الذي يرمز له بالحية الملتفة على العصا الذي ما يزال يستخدم شعارا لجمعيات الطب والدواء في العالم •

ولكن الفترة الاكدية والى نهاية سلالة بابل الاولى أي في حدود ٢٤٠٠ ــ ١٥٠٠ ق•م زودتنا بالقليل من النصوص ومن مختلف المدن الآشورية والبابلية اضافة الى بعض النصوص التي جاءتنا من مدن حثية • وتجدر الاشارة الى ان ما وصلنا عن فترة العهد البابلي القديم من نصوص وبخاصة النصوص القانونية والمعجمية ينم على رقي العلوم الطبية في هذه الفترة شأنها شأن العلوم الاخرى وماتزال الاعمال الآثارية تزودنا بنصوص طبية مهمة ، وخير مثال على ذلك ما عثر عليه حديثا في تل حداد في منطقة حمرين •

ويمثل العهد الكشي والى نهاية العصر الآشوري الحديث عصر الازدهار بالنسبة للعلوم الطبية حيث جاءتنا منه مئات الرقم • وعثر على القسم الاكبر من هذه النصوص بين مخلفات مكتبة الملك العظيم آشور بانيبال ، فشكرا لجهود « صاحب الاسمرين » ، السيف والقلم الذي اوصل الينا مفاخر الاسلاف في هذا المجال وغيره من مجالات العلم والادب • ومن اجل ان نكون دقيقين في تقسيمنا للنصوص لابد من التنويه بكون معظم تلك النصوص

عبارة عن استنساخات سومرية واكدية وبابلية قديمة وآشورية • وبالاضافة الى ذلك عثر العلماء على نصوص طبية كثيرة في مدينة آشور •

وساهم العهد البابلي الحديث بمجموعة من النصوص البابلية الحديثة والمتأخرة وهي قليلة العدد بالمقارنة مع النصوص الآشورية او نصوص مكتبة آشور بانيبال •• ومعظم هذه النصوص استخلص من الوثائق المسمارية الخاصة بالفأل والتعاويذ التي هي عبارة عن استنساخات من رقم تعود لازمان اقـدم •

انواع النصوص الطبية

من المعروف ان تقسيم النصوص الطبية بشكل كامل وواضح مايزال مجال البحث ، وخير مثال يمكن ان نسوقه في هذا المجال هو عدم الاتفاق بين العلماء على معاني العديد من المصطلحات الطبية الواردة في النصوص •
وعلى اية حال فهناك بعض الباحثين الذين اخذوا على عاتقهم هذه المهمة حيث يمكن في ضوء نتائج جهودهم أن نورد الانواع التالية :

١ ـ الوصفات الطبيـة

وهي من اقدم انواع النصوص الطبية التي وصلتنا لحد الان • يعود تأريخها الى فترة سلالة اور الثالثة أي نهاية الالف الثالث ق•م ومن الغريب ان هذه النصوص من الناحية العلمية ترقى على ما يماثلها من نصوص متأخرة لكونها لم تذكر اي شيء عن المعزم او الساحر او دورهما في تنفيذ الوصفات الطبية •

وفيما يلي اقتباسات لبعض هذه النصوص :

« بعد سحق جذور النباتات (المنصوص عليها) مع القير المجفف الذي

يؤخذ من النهر ، ومزجه بالجعة ، يدعك المكان المصـاب بالزيت ويوضـع (الدواء) على شكل كمادة » •

« بعد سحق بذور النباتات (المنصوص عليها) تمزج مع الجعة ، ومن ثم يشربها المريض » •

وفي وصفة اخرى يشار على المريض بأخذ العديد مـن « الادوية » النباتية الاصل مثل التين المجفف « وادوية » مستحضرة من املاح مختلفة يشار عليه بان يقوم بتسخين المواد ومن ثم مسح المكان المصاب بالمزيج » •

ويستنتج الباحثون من هذه الوثيقة التي تضمنت العديد من الوصفات الطبية ، ان العراقيين القدامى كانوا على معرفـة بالادوية النباتية والمعدنية وانهم استخدموها باشـكال مختلفة خارجيا كالكمادات والدعك بالزيت وداخليا كالجرع والحقن وما الى ذلك • وهناك المئات من النصوص الخاصة بوصفات طبية جاءنا معظمها من مكتبة اشور بانيپال وقسم آخر من اشور وبعض المدن الحثية تعود للقرن الثالث عشر ق • م ونصوص قليلة من عهـد الحكم الكشي ونصوص محدودة من فترة العهد البابلي القديم • وقد تضمنت وصفات تتألف من مواد نباتية كالجذور والبذور واللحاء والاوراق والفاكهة والاغصان ومن اكثر المواد الطبية شيوعا الثوم وعرق السوس ومئات اخرى من انواع الاعشاب التي جاءتنا على شكل قوائم معجمية او خلال الوصفات الطبية • كما انهم استخدموا الادوية الحيوانية بما فيها البانها ولحومها وحتى فضلاتها • واستخدموا ايضا الطيور على مختلف انواعهـا كالبوم والنعام والصقر والغراب والدجاج • ومن استخداماتهم في الادوية الاصداف واكثرها شيوعا صدفة السلحفاة • هذا اضافة الى انواع الاملاح والاحجار والمعادن ، ولعل معرفتهم بالكيمياء هي التي مكنتهم من استخلاص الادوية من بعض المعادن والاملاح • كما انهم ميزوا بين الدواء بشكل عام والدواء المجرب ،

اي الشافي . ومن الطريف ذكره في نهاية هذا المبحث انهم اهتموا بأكل المريض واشاروا عليه بالابتعاد عن بعض المأكولات وننقل المثال الآتي :

« على الذين عندهم مرض في اعينهم عدم أكل الكراث او الكزبرة ، وعلى الذيـن يشكون الما في آذانهم عدم تناول الباقلاء ..... » .

٢ ـ نصوص التشخيص والانذار

لاشك ان الطب وبخاصة في العصور التأريخية قد ارتبط ارتباطا مباشرا بأمور السحر والعرافة والتعزيم لذلك فان معظم النصوص القديمة التـي وردتنا ، وتخص الطب ، كانت اما نصوصا سحرية او وثائق خاصة بالعرافة Omen Texts او رقما خاصة بالرقى والتعاويذ Incautation Texts وهذا شيء ليس بالغريب لان الاعتقاد السائد لدى العراقيين القدماء هو ان المرض سببه استحواذ الالهة او الشياطين على المريض . على اننا يجب ان ننوه هنا بان العراقيين القدامى كانوا على بينة من نوعين من السحر ، الاول ذلك السحر المضر المؤذي الذي يمارس من قبل المشعوذين وقد حرمته القوانين ، امـا الثاني فهو السحر النافع ويمارس مـن قبل رجال الديـن او ما يمكن ان نطلق عليهم المعزمين وكانت ممارسته مقدسة وهدفه الحماية . على ان معرفة المرض وتشخيصه كانت تتم من قبل الطبيب ويستدل على ذلك من خلال ورود التذليل القائل « بان المريض لم يشف من قبل الطبيب او المعزم » أو « امـا الساحر فله ان يعمل ما يشاء » . وباختصار فان للمعزم دوراً كدور الطبيب النفساني في شفاء المرض وعلى حد قول الاستاذ عبداللطيف البدري فـان الطبيب قد عززت مكانته وجعلت « ممارسته اكثر واقعية باضافته ما يرفع من حالة المريض النفسية علما منه ان المريض المتفائل المملوء بالامل أكثر احتمالا للمرض وأقرب الى الشفاء من المتخاذل امام رهبة المرض » .

ومن ابرز النصوص في هذا المجال سلسلة عثر عليها في مكتبة آشور

بانيبال كما عثر على كسر منها في بوغازكوي الحثي وغيره من المدن ٠ وتتضمن اربعين فصلا وفيما يلي استعراض لاهم ما جاء به :

الفصل الاول والثاني عبارة عن نصوص فأل خاصة بالمعزم القادم لزيارة المريض ونقتبس منهما الآتي :

« اذا رأى المعزم كلبا اسود او خنزيرا اسود ، فسيموت المريض »

« اذا رأى المعزم خنزيرا ابيض ، فسيعيش المريض » ٠

« اذا سقطت افعى على فراش المريض ، فسيشفى ذلك الرجل المريض »

« اذا سقطت عقرب على مريض فانه سيموت في اليوم العاشر » ٠

« اذا لازمت عقرب من غير انقطاع وسادة مريض فان مرضه سيتركه » ٠

ودون الجزء الثاني من هذا المسلسل على ١٢ وثيقة مسمارية وخصصت هذه الوثائق لدراسة الاعراض التي تطرأ على اجزاء الجسم الظاهرة وقد قسمت حسب ظهور الاعراض على الاعضاء المرئية من الجسم ٠ ومن المفيد التنويه ان هذه النصوص قد اهتمت بمسألة التشخيص اكثر من اهتمامها بالمرض او نوعه ٠ وفيما يلي بعض الامثلة :

« اذا صرخ رجل مريض بغير انقطاع ، جمجمتي ، جمجمتي ، فانها يد الاله » ٠

« وواذا ما اشتد الالم في الجهة اليمنى ، فانها يد الاله ادد » ٠

« وواذا ما اشتد الالم (حرفيا الضرب) في رأسه ونفث دما ، فانها يد التوأمين ، وسيموت » ٠

« وواذا ما تألم من رأسه ، واحمرت عضلات حاجبيه ويديه ورجليه واخذت تحرقه ، فان ذلك يد احد الالهة ، وسيعيش » ٠

« واذا ماغطت جسمه البثور الحمراء من رأسه حتى قدميه ، وكـــان جســمه ابيض فلقد اصيب عند جماعه بامرأة ، يد الاله سين » •

« اذا كان حاجباه ابيضين ولسانه ابيض ، فان مرضه ســيطول لكنه سيشفى » •

« اذا كانت رقبته تستدير بغير انقطاع نحو اليسار وكانت يداه وقدماه متدليتين وكانت عيناه شاخصتين نحو السماء ومفتوحتين وكان زبده يسيل ويشخر وفقد وعيه واخذ يهذي فان ازمته هذه هي (النوبة الشديدة) وانها يد الاله ســين » •

« اذا كانت رقبته تؤلمه وكان يطلب الماء باستمرار فانها يد الالهة عشتار وانه مصاب برقبته وسيموت » •

اما الجزء الثالث من هذا المسلسل الطبي فكتب على عشرة رقم • ومن الطريف ان الكاتب صنف تدرج المرض بالاستناد الى بقائه يوما واحدا او يومين او ثلاثة ، او خمسة عشر يوما او اذا ما دام المرض شهرا او شهرين او اطول ، ومن ذلك نقتبس الآتي :

« اذا استمر المرض اربعة ايام وبقي المريض يضع يده على بطنه (من شدة الالم) وكان وجهه مصفرا فانه سيموت » •

« اذا بعد اربعة او خمسة ايام ظل يعرق فسيخف المرض » •

« اذا كان مريضا لخمسة ايام وكان جلده مصفرا وعيناه محمرتين فانه سيموت » •

« اذا كان مريضا لخمسة أو عشرة ايام وليس هناك حمى او عرق انها يد الالــه سين انه سيموت » •

وهكذا يستمر الكاتب في تشخيص المرض وانذار المريض الى نهاية هذا الجزء •

ويبحث الجزء الرابع الذي يضم عشرة رقم ايضا في الخدر وعدم القدرة على الجماع والهذيان والحالات النفسية كاختلال العقل والصرع ••• وفيما يلي امثلة مأخوذة من هذا الجزء :

« اذا كان يتلعثم في كلامه فان هذا الرجل قد قدم له طعاما مسحورا ليمرضه » •

« اذا ••• اعتراه واذا كان يتكلم باستمرار مع نفسه ويضحك لسبب او دون سبب فانه يعاني من مرض الحب وان ذلك سواء بالنسبة للرجل والمرأة » •

« اذا كان الرجل مصابا بالتهاب شديد لدرجة ان لا يستطيع ان يرتاح وكان بصدره خراخر عند السعال وبه زيادة على ذلك انطلاق في بطنه فانه مريض » •

« اذا كانت اعضاؤه مشلولة وكان ينزف دما فانه مصاب من الخلف وانه سيموت » •

ونكتفي بهذا القدر من الامثلة عن هذا الجزء لننقل الى الجزء الخامس والاخير والذي كتب على ست الواح ويتعلق بأم المستقبل او المرأة الحامل والوليد أو ما يمكن ان نطلق عليه ، وحسب رأي الدكتور كمال السامرائي بمعارف العراقيين القدامى « بالامراض النسوية » • وما يلي مقتطفات من هذا الجزء : « اذا كان اعلى جبين المرأة الحامل لامعا بالبياض فان الجنين الذي تحمله سيكون بنتا وستكون غنية » •

« اذا كان طرف انف المرأة الحامل متورما من الناحية اليسرى واكثر اسودادا فان الجنين الذي تحمله سيموت •••• وسيحيا » •

« واذا كان وجهها احمر فان الجنين الذي تحمله بنت » •

« اذا كانت حلمتا ثديي امرأة حامل مصفرة فانها ستسقط ما في رحمها » •

« اذا كانت حلمتا ثديي المرأة الحامل منكمشتين فانها لن تتم اجل حملها » .

« فاذا زال هذا عنها ستتم اجل حملها »

« اذا كان هذا قاتم السواد فانها حامل بولد » .

« واذا كان احمر اللون فانها حامل ببنت » .

« اذا اخذ الطفل الثدي ولكنه لم يشبع وظل يصرخ فانه مجروح داخليا » .

٣ ـ النصوص الطبية التي تجمع بين التشخيص والوصفات

كما اسلفنا القول فان العراقيين القدماء عرفوا نوعين من الوصفات ، الادوية المجربة ، والوصفات المتنوعة التي جئنا على ذكرها في المبحث السابق فالوصفة المجربة بالضرورة ارتبطت بعدد من الامراض وهذا قاد الكتبة الى تدوين التشخيص والوصفة او العكس على رقم منفصلة . وخير مثال في هذا المجال ، التآليف الطبية التعليمية التي غالبا ما شملت ثلاثة اعمدة من الكتابة يخص الاول منها اسماء الاعشاب المجربة ، والعمود الثاني يتناول ذكر اسماء المرض اما العمود الثالث فيدرج فيه الكاتب او الناسخ الطريقة الموجزة لتحضير واعطاء الوصفة للمريض : ـ « الصبر ، دواء لمعالجة المرارة ، يفتت ويدق ويسخن ويوضع فوق اللسان ويشرب قبل الفطور مع الزيت المصفى » « اذا كانت معدة رجل حارة ولا تقبل طعاما ولا شرابا يأخذ بذور الطرفاء ويمزجها مع العسل وخثرة اللبن ويأكلها ويشفى » « للتخلص من حرارة المعدة اسحق الادوية السبع ، البيان والقصب الحلو ... والحلتيت والتمر وزيت التربنتين وبعد ان تصفى تنقح بالجعة وتسخن بالفرن ثم تصفى بعد تبريدها . وتضيف عليها قشور الشعير وتصب عليها ماء الورد وتضع ذلك في شرجه فيشفى » .

وهذا مثال لشفاء احد امراض الرئتين :

« اعد اناء كبيرا وقوم جوانبها بعجين الحنطة ، واغلِ الشراب المخمر فوق النار ، وضع خلاله انبوب قصب ودعه يستنشق البخار بحيث يضرب رئتيه ويشفى » •

٤ ـ ما يخص الطب في شريعة حمورابي

تعد شريعة حمورابي من اعظم الوثائق التي امدتنا بمعلومات طبية خاصة عن قوانين الجراحة عند العراقيين القدماء • فمن بين مئات الرقم الطينية التي تعنى بالعلوم الطبية لا توجد سوى كسرتين تخص الجراحة ،الاولى ربما تخص ازالة « الماء الازرق » من العين ، والثانية ربما تتعلق بعملية ازالة الجزء الملتهب من احد العظام ونقرأ فيها « اذا كان المرض قد وصل الى داخل العظم فعليك ان تكشطه وتزيله » •

فالمواد ٢١٥ ـ ٢٢٣ من قانون حمورابي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق • م) تعد من اقدم القوانين الطبية في الوجود ، وتبين مدى المكانة المرموقة التي يحتلها الطبيب في المجتمع العراقي القديم • وفي نفس الوقت ترينا مدى صرامة العقوبات التي يمكن ان ينالها الطبيب المهمل • فالمادة ٢١٥ من قوانين حمورابي تنص على « اذا اجرى جراح عملية كبيرة لنبيل من النبلاء بمبضع من البرونز ، وانقذ حياة النبيل ، او اذا فتح محجر عين نبيل من النبلاء بمبضع من البرونز وأنقذ عين النبيل ، فيأخذ عشرة شيقلات من الفضة اجرة له ، اما اذا تسبب في موت ذلك النبيل او في تلف عينه فتقطع يد الجراح » وتنص المادة ٢٢١ على « اذا جبر جراح عظم نبيل من النبلاء ، او انه عالج عضلا ملتويا فشفاه ، فعلى المريض ان يدفع خمسة شيقلات من الفضة اجرة الجراح » اما في حالة كون المريض من الطبقة العامة او من العبيد فيكون الاجر اقل من ذلك • ومن الطريف ذكره ان المادتين ٢٢٤ و ٢٢٥ من

قوانين حمورابي تتعلق بالطب البيطري وتنص الاولى على « اذا اجـــرى جراح بيطـــري عملية كبيرة على ثور او حمار ، وانقـــذ حياته ، فيدفـــع مالك الثـــور او الحمـــار الى الجـــراح البيطـــري ٦/١ شـــيقل من الفضة اجرة له » اما المادة الثانية فدون فيها الاتي « واذا اجرى عملية كبيرة علـــى ثور او حمار وتسبب عن ذلك الموت ، فانه يعوض مالك الثور او الحمـــار بمقدار ربع ثمنه » •

٥ ـ الرسائل ونصوص اخرى متفرقة

تميزت بعض المراكز الحضارية العراقية عن غيرها في مجال العلـــوم الطبية ومن تلك المراكز مدينة نفر ومدينة ايسن وآشور ونينوى وبورسبا ، كما تميز العراق على غيره من البلدان القديمة في هذا المجال • وكنتيجـــة لمكانة العراق القديم في العلوم الطبية ارسل العديد من الملوك الرسائـــل طلبا لهذه الخبرة للاستفادة منها في بلادهم بشكل عام ولمعالجة حاشياتهـــم الملكية بشكل خاص • فعلى سبيل المثال لا الحصر عثر على رسائل بهـــذا الشأن مرسلة من مملكة ماري الى اشور • يرقى زمن هذه الرسائل الـــى حدود القرن الرابع عشر ق • م وقد اكـــدت تلك الرسائل على ان الاطبـــاء العراقيين القدماء كانوا ذوى مكانة عظيمة ونستشف منها بان الاطباء كانـــوا يرفعون الى درجات اعلى نتيجة لخدماتهم الجليلة في البلدان المجاورة والقاصية كما مكنتنا تلك الرسائل من معرفة بعض الشيء عن طبيعة تنظيم وترتيب الاطباء استنادا لمراتبهم العلمية كرئيس الاطباء **rab âsi** كما كان الطبيب ملزما باداء القسم او يمين الولاء الذي يمكن مقارنته بما عليه الحال الان من قسم الاطباء بعدم خيانة المهنة والوطن •••

وامدتنا النصوص المسمارية الحثية بمعلومات عن وجود اطباء ومعزمين عراقيين في البلاط الحثي في حدود القرن الثالث عشر ق•م كما امدتنا رسائل

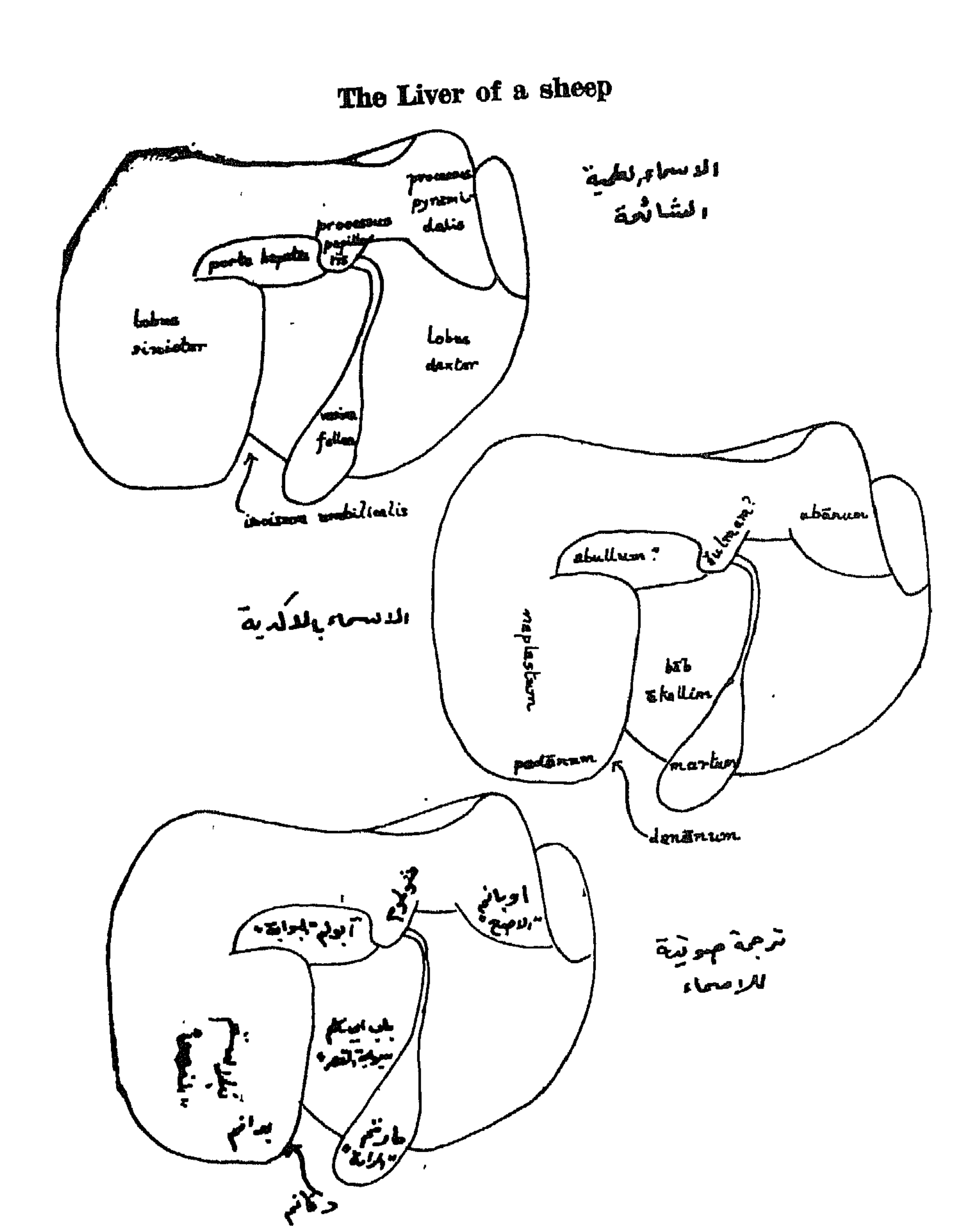
تل العمارنة بمعلومات عن تواجد الاطباء العراقيين القدامى في البلاط المصري ايضا .

ومن خلال بعض الرسائل من عهد الحكم الكشي يستشف وجود مراكز أو ما يمكن تسميتها بالمستشفيات لعلاج مغنين ومغنيات احد المعابد في نفر . كما نعرف أيضا عن وجود مجلس للاطباء معترف به في بلاد اشور . وينقل البعض عن سترابون وجود كليات للطب في بورسبا والوركاء .

وكما اسلفنا القول فان العصر الاشوري الحديث يمكن ان يعد العصر الذهبي بالنسبة للعلوم الطبية العراقية القديمة .

ويظهر من خلال كل ماتقدم ان العراقيين القدماء عرفوا الطب ومارسوه كما عرفوا تشخيص العديد من الامراض وشخصوا الاعضاء التي يصيبها المرض أيضا من ذلك تسمياتهم لمرض العين والمعدة والفم والاذن والاسنان والامراض الصدرية والتناسلية والامراض النسوية والتوليد والجلدية والامراض النفسية او معرفتهم بالجراحة وبخاصة جراحة العين والكسور ومعرفتهم بالتشريح وبخاصة تشريح الكبد (كما في الشكل التالي) واقسام القدم وغير ذلك من المصطلحات الخاصة بالتشريح . اما معارفهم بالادوية وتعدد مصادرها النباتية أو الحيوانية والمعدنية وتلك المستخرجة من الاملاح ومن تراكيب كيمياوية اخرى فواضح كل الوضوح من خلال ذكر المئات من قوائم الاعشاب والنبات والاملاح والاحجار .... الخ .

The Liver of a sheep



المبحث الخامس

الكيمياء

اكدت المباحث الاثارية على قدم معارف العراقيين القدماء في التكنولوجيا والكيمياء وتم ذلك من خلال دراسة المخلفات الاثرية التي تم العثور عليها في اعمال التنقيبات الواسعة التي جرت في العراق ابان النصف الثاني من القرن الماضي وبداية هذا القرن واستمراريتها الى الوقت الحاضر • واذا كان متعذرا على الباحثين تتبع الجذور الاولى لبعض المعارف والعلوم وبخاصة العقلية منها ، نظرا لعدم تدوينها ، فان ذلك لاينطبق على المعارف التقنية والعلوم الكيميائية التي وضعت بذورها منذ عصور قبل التأريخ • وعندما اخترعت الكتابة واتسع وازدهر التدوين في مطلع الالف الثاني ق • م واخذ اهل المعرفة يوثقون معلوماتهم التكنولوجية والكيميائية وغيرها من العلوم لحفظها للاجيال القادمة ، انتقلت هذه المعارف الى مراحل متقدمة اخرى في طريق صيرورتها علوما نظرية •

وعلى الرغم من ملازمة تلك المعارف التقنية والعلوم الكيميائية لتطور الحضارة واتساع المدن بالاضافة الى تكوين اولى الامبراطوريات في التأريخ الا ان ذلك لايعني بان هذه المعارف والعلوم هي السبب الرئيسي او حتى اهم الاسباب التي ادت الى نهوض الحضارة ، فالفضل يعود ايضا الى العمل

والتنظيم والاهتمام بالوقت والكتابة والحساب والمقاييس والاوزان وما الى ذلك ... وباختصار فان المعارف التكنولوجية وعلوم الكيمياء العراقية القديمة كانت احد الاسباب المهمة في نهضة الحضارة العراقية القديمة .آخذين بنظر الاعتبار ماذهب اليه الاستاذ طه باقر وغيره من الباحثين في كون المعارف العلمية او التقنية ظلت في دائرة المهارات الصناعية او الاساليب الصناعية وبخاصة عمليات اذابة وصب وسبك بعض المعادن ومزجها لتكوين معادن مركبة او مزيجة كالبرونز وصناعة الزجاج والتزجيج وغير ذلك .

ان المتتبع لعصور قبل التأريخ يرى وبكل وضوح حقيقة تقدم العراقيين على غيرهم في مجال رفد الحضارة الانسانية بعدد لايحصى من المظاهر الحضارية .

فعلى سبيل المثال لا الحصر فان العراقيين عرفوا استخدام النار منذ اقدم العصور وأول من ابتكر صناعة الفخار الملون واول من عرف مكانة المعادن والاحجار وعملوا على الاستفادة منها في مجالات كثيرة .

وفي نهاية الالف الرابع ومطلع الالف الثالث توصل العراقيون القدماء الى صناعات معدنية غاية في الدقة ومن ذلك تنقية النحاس وصهره من الزنك او القصدير وصبه باشكال مختلفة واستخدامه لاغراض متعددة . هذا بالاضافة الى مزجهم الفضة والذهب وسبك ذلك وصبه في قوالب لعمل عدد كبير من التماثيل والالات والادوات المختلفة وخير شاهد على ذلك ماتم العثور عليه في المقبرة الملكية في مدينة أور . وعلى الرغم من دور المعبد وبخاصة كهنته في مثل تلك الصناعات ومحاولتهم اضفاء الصبغة الطقوسية الدينية او السحرية عليها ، الا ان حل رموز مدوناتهم اكد كون العراقيين القدماء عمليين واصحاب منهج في عملهم الذي سادت فيه الممارسة العلمية لصناع ماهرين ووصولا في أواخر عهودهم التأريخية القديمة الى تطور ملحوظ في الجانب النظري لهذه العلوم التكنولوجية والكيميائية . وتجدر

الاشارة هنا الى عدم اغفال كون المعرفة التكنولوجية والكيميائية غير مشاعة بين الناس وتميزت الكتابات المسمارية الكميائية بالسرية وصولا الى اعتبارها من الاسرار الخفية او من عمل الالهة ، حيث استخدمت الضحايا والقرابين لانجاح بعض العمليات الكيميائية لصنع الزجاج . والاكثر من ذلك ان نصوصا تكنولوجية او كيميائية قد ذيلت بالآتي :

« دع المُلَقّن (للصنعة) يريها للمُلَقَّن ولا يراها غير الملقن ، انها تخص الاشياء المحرمة للالهة العظام » .

مصادرنا عن الكيمياء

على الرغم من صعوبة حل رموز الكتابات المسمارية الخاصة بالتكنولوجيا والكيمياء ، والتي لم يتناولها الباحثون المتخصصون الا بعد منتصف العقد الثاني من هذا القرن ، فهناك العديد ممن استهوتهم مثل هذه النصوص وأنصرفوا لدراستها .

وقد تناولت المباحث الإثارية في مجال التكنولوجيا والكيمياء المصادر الاساسية . وطرقت البحوث ثلاثة اتجاهات الاول خصوا به الاجهزة والالات المستخدمة في علم الكيمياء وكيفية استعمالها واغراضها . اما الاتجاه الثاني فخصوا به الكتابات المسمارية الخاصة بتصنيع بعض المعادن مثل الزجاج والتزجيج . وتناول الثالث جرد النصوص المسمارية بشكل عام والتركيز على كل مايمت بصلة الى التكنولوجيا وعلم الكيمياء . كما ان الباحثين اعتادوا على تناول المعادن بانواعها والمركبات المختلفة في مباحث منفصلة ، وهذا ماسنقوم به لاحقا . ومن ابرز المصادر الثانوية التي اعتمدها الباحثون كتابات الاقوام المعاصرة كالمصريين والحثيين ، وما كتبه العلماء اليونان والرومان والعرب المسلمون .

الاجهزة الكيميائية

استخدم العراقيون القدماء العديد من الاوعية والمدقات والهاوسات والمطاحن ولم يصلنا عبر اعمال التنقيبات الا القليل من تلك الاوعية والآلات . اما ذكرها في النصوص المسمارية وبخاصة في القوائم المعجمية فكثير جدا . والاتي عرض سريع لبعض الالات والاوعية والافران ...

١ - المدق والهاون

استمر استخدام المدق والهاون الحجري عبر عصور طويلة خصوصا عند تحضير الالوان في صناعة الفخار في العصور القديمة ، فالى وقت قريب كنا نشاهد المدقات والهاونات الحجرية في القرى العراقية . وتم العثور على نماذج من هذه المدقات والهاونات في العديد من المواقع الاثرية مثل تبه كاوره واريدو . وتستخدم مثل هذه الاجهزة لاغراض تجزئة المادة الى اجزاء صغيرة او سحقها جدا وصولا الى طحنها وبخاصة اذا ماازيد اذابة المادة بالماء او محلول ما . ولدينا امثلة كثيرة حول سحق الزجاج لعدة مرات قبل الحصول على الزجاج النقي . او دق وسحن عدد من المواد لتكوين وصفة طبية وما الى ذلك .

٢ - المطاحن

وعملت من حجر شديد الصلابة ووجد العديد من النماذج لها وعلى مر العصور وباحجام مختلفة ، فالكبيرة منها ربما استخدمت للطحن اما الصغيرة فنظرا لخفة وزنها فربما استخدمت للسحق . وكانت مؤلفة من حجرين مستديرين شديدي الصلابة . وفي منتصف الحجر السفلي محور يدخل في ثقب في مركز الحجر العلوي . وتسكب الحبوب او المواد المسحوقة في هذا الثقب فتطحن ويخرج دقيقها من بين الحجرين عند محيط دائرتيهما ويدار الحجر العلوي بواسطة مقبض خشب مثبت في وجهها العلوي . والظاهر من خلال النصوص ان عملية الطحن كانت تمارس من قبل النساء كما هي عليه الحال في يومنا هذا عند اهل القرى .

٣ ـ انواع الاوعية والدوارق

عرف العراقيون القدماء صناعة أشكال متعددة من الآنية والاوعيـــة الفخارية منذ الالف السابع ق ٠ م وبالتحديد خلال الفترة الحضارية المعروفة باسم حسونة ٠ وتطورت صناعة الفخار بعد ذلك التأريخ ووصولا الـــى زخرفته وتلوينه بلون واحد او عدة الوان ٠ وازدهرت صناعة الفخار وتعددت انواع الآنية خلال الالف الرابع ق ٠ م حيث تم ابتكار دولاب الفخـــار وتعددت مجالات استخدام الاوعية ٠ وتجدر الاشارة هنا الى ان الاوعية الحجرية بقيت تستخدم جنبا الى جنب مع الاواني الفخارية شأنها شـــأن الاوعية المصنوعة من الخشب او الجلد التي للاسف لم تصلنا نماذج منهـا خلال عمليات التنقيب ٠ ونستدل على وجودها من الكتابات المسمارية فقط٠ اما الاواني المصنوعة من المعدن فقليلة ومنها ، ماهو مصنوع من النحاس او البرونز او الفضة او من electrum مزيج الفضة والذهب ٠ وباختصـــار فان العدد الاكبر من الاوعية المستخدمة للاغراض الكيميائية او تكنولوجيتها انما عرفناه من خلال النصوص المسمارية ٠

وعلى اية حال فقد كشفت التنقيبات الاثرية عن العشرات من أشكـــال الآنية كالدوارق والجرار المختلفة الانواع والحجوم ٠ اما اغراض استخدامها فكان للتسخين وبخاصة تلك الانية المستديرة القعر ، وللتخزين وتكون عادة كبيرة وذات فوهات كبيرة ايضا ٠ كما شاع ومنذ عصور قبل التأريخ استخدام المصفاة واواني الترشيح ، وبالرغم من وجود هذين النوعين الاخرين مـــن الاواني الا ان الاستاذ ليفي يؤكد استخدام قماش الصوف او الشعر لهـــذا الغرض ٠ كما عثر المنقبون على آنية اكدت معرفـــة العراقيين بالتكنولوجيا والكيمياء ومنها الانية المستخدمة في عمليات الاستخلاص والتصعيد والتقطير٠ هذا اضافة الى معرفة العراقيين باجهزة قياس الحجوم ، وكانت عبارة عـــن

دوارق صغيرة وكبيرة وعثر المنقبون على نماذج لبواتق فخارية وبوتقة نحاسية من نوزي تشبه البواتق المستخدمة في عصرنا •

٤ ـ **قوالب الصب**

عثر المنقبون على عدد من القوالب معظمها فخارية وعدد قليل من القوالب الحجرية • ويشرح العلماء طريقة اخرى للقوالب وذلك « بصنع نموذج للآلهة المراد صنعها من الشمع ثم تغليف النموذج بالطين واخيرا فخره• بذلك ينصهر الشمع ويتخلص منه ويبقى النموذج الفخاري للآلهة المراد صنعها من السبائك المختلفة • وفي المتحف العراقي والمتاحف العالمية الاخرى نماذج كثيرة لآلات معدنية متنوعة •

٥ ـ **الوقود والافران**

أستخدم العراقيون العديد من انواع الاشجار والشجيرات والحشائش والاعشاب ، وسعف النخيل كمادة للوقود ولا يزال البعض من صناع الجص والفخار يستخدمون مثل هذا الوقود • ومن خلال الخبرة الطويلة للعراقيين القدماء كانوا يستبعدون استخدام الاخشاب او الحطب الذي يكون دخانا عند قيامهم بعمل الزجاج •

واستعمل العراقيون القدماء الكانون وعرفوه باسم kinūnum ، اي الموقد البسيط والذي ما يزال يستخدمه البدو بشكل واسع وهو اصغر انواع المواقد • وقد عثر على العديد من النماذج خلال اعمال التنقيبات ومنذ عصور قبل التأريخ • ويأتي بعد ذلك من ناحية شيوع الاستخدام التنور حيث لاتكاد حفريات اثرية تخلو منه • ويزخر المتحف العراقي والمتاحف العالمية الاخرى بانواع متعددة من المواقد المتنقلة ، يعود القسم القليل منها الى عصور قبل التأريخ ، واجمل النماذج التي وصلتنا تعود الى العهد البابلي القديم والوسيط ٢٠٠٠ ـ ١٥٠٠ قبل الميلاد اضافة الى النماذج الاخرى التي

عثر عليها في مدينة نوزي (قرية تاركلان قرب كركوك) في حـــــدود القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد • والنماذج بشكل عام امـــا مخروطيـــة ناقصة او اسطوانية الاشكال وغالبا ما تعمل من طابقين وتتخلل جدرانها الثقوب او الفتحات للتهوية • وهناك فتحة كبيرة نسبيا عند القاعدة لادخال الوقود اما الافران الكبيرة الثابتة فربما لاتختلف عن مايعـــرف بالكور وبالاكدية kûrum وعـرف المنقبـــون والمختصـون بالكتابات المسمارية انواعا من هذه الكور فمنها المقبب او المقبب ذو الفتحات عنـــد القاعدة ومنها ذو الاقواس او غير ذلك من الاسماء • ولا اجد نفسي مبالغا ان قارنت بين الكورة والاتون ومعمل الطابوق الصغير في يومنا هذا وما كانت عليه الحال في العراق القديم بالنسبة لانواع الافران • وللأسف الشديـــد ما نزال نجهل الشيء الكثير عـن طبيعة تلك الافران في العـراق القـديم وبخاصة افران الصاغة والحدادين وغيرهم •

بعض العمليات الكيميائية

عرف العراقيون القدماء العديد من العمليات الكيميائية كصناعة الفخار وتلوينه واذابة وصب المعادن كالنحاس والفضة والذهب ومن ثم الحديد • ولم يكتفوا بذلك بل اخذوا يمزجون بعض المعادن للحصـول على معادن جديدة اقوى كالبرونز والالكترم وحـاولوا بنجاح تلوين بعض الاحجار لمحاكاة الاحجار الثمينة المستوردة فلونوا حجر الصوان بواسطة بعض المعادن او أكاسيدها وبخاصة السلكات كما انهم عاملوا بعض الاحجار بالنار لزيادة بريقها وعمليات اخـرى مكنتهم في نهاية الامر من صـنع الزجاج والتفنن بالتزجيج وصولا الى درجـة تمويـه بعض الاحجار الرخيصة وجعلها كأحجار اللازورد وارسال كميات من هذه الاحجار الى ملوك الحيثيين والمصريين دون ان يكتشفوا طبيعة هذه الاحجار الا بعد مضي وقت طويل • وتمكن العراقيون القدماء في مطلع الالف الاول ق•م من كربنة Carbonization الحديد واستغلاله

في صنع الاسلحة الثقيلة والخفيفة • كما عرفوا فن تمويه الزجاج بالذهب مما يشير الى معرفتهم ببعض الحوامض • ويعتقد العالم كامبل تومبسون بـان العراقيين القدماء ابتكروا الثقاب من الكبريت • واستغلوا معارفهم الكيميائية هذه وصولا الى انهم استخرجوا المركبات العديدة مثل ملح الامونيا والزئبق والرصاص الابيض وغيره • ومكنتهم هذه المعارف العلمية من استخراج انواع كثيرة من الادويـة • وفيما يلي بعض الامثلة على عمليات كيميائية عثر المنقبون على اجهزة ربما كانت تستخدم لغرض القيام بها : ـــ

١ ـ التقطير

حدد الباحثون منشأ اولى اجهزة التقطير بحوالـي ٣٥٠٠ ق•م وذلك بعد عثور المنقبين على جهاز متطور للتقطير في موقع تبه كاوره • اما الدليل اللغوي على معرفـة العراقيين القدماء بالتقطير فيعود الى فترة العهد البابلي القديم • وتم التعرف على ذلك من خلال الوصفات الخاصة بصنع العطور وبخاصة « ماء الورد » •

وجهاز التقطير عبارة عن وعاء مخروطي الشكل ذو حافتين ، الاولى داخلية اقيمت بشكل مستقيم مع البدن وترتفع نحو الاعلى بمستوى الحافة الخارجية• اما الحافة الثانية فبرزت نحو الخارج عن سطح البدن من الخارج مكونة قناة بينها وبين الحافة الداخلية الاولى • ويقرن الباحثون هذا الجهاز باجهـزة التقطير المعروفة عند العرب المسلمين •

وموجز طريقة استخدام هذا الجهاز هو تكرار عملية غلي المحلول او الماء او الزيت وامتصاص ما يتكثف من بخار في اعلى الوعاء بواسطة قطعة قماش بين الحين والاخر •

٢ ـ الاستخلاص

وتتم هذه العملية بواسطة نفس الجهاز المذكور اعلاه وذلك بوضـع

المادة الحيوانية او النباتية في القناة الموجودة بين الحافتين اخذين بنظر الاعتبار ان الحافة الداخلية فيها عدة فتحات نافذة الى داخل الاناء ، وبعد وضع كمية من الماء او الزيت في داخل الدورق وبعد تغطية الوعاء يبدأ بتسخين الجهاز والعمل على تبريد الغطاء بين الحين والاخر وبذلك تتكثف الابخرة وتنزل بالقناة فتذيب جزءا من المادة المراد استخلاصها وتنساب الى داخل الاناء وتكرر العملية عشرات المرات الى ان يشبع الماء او الزيت بالمادة المراد استخلاصها •

٣ ـ التصعيد (التسامي)

وتتم هذه العملية الكيميائية باستخدام جهاز مشابه لاجهزة التقطير والاستخلاص • الا ان وعاء التصعيد (التسامي) اكبر وذو قناة اوسع بالاضافة الى عدم وجود فتحات في الحافة الداخلية • وطريقة استخدام هذا الجهاز تتم بوضع المادة المراد تصعيدها او تساميها داخل الوعاء وتسخن هناك • وتكثف الابخرة المتصاعدة عند ملامستها لسطح الغطاء الداخلي البارد وتتجمع داخل القناة • ثم يصار الى جمع السوائل المقطرة من القناة بواسطة ملاعق خاصة • ويبرد الغطاء بين الحين والاخر او ربما يصار الى ابعاد الجهاز كله عن النار وتعاد العملية وتكرر عدة مرات •

ويؤكد الاستاذ كامبل تومبسون ان العراقيين القدماء قد اتقنوا عملية التصعيد (التسامي) وميزوا بين مركبات ثقيلة وأكاسيد طيارة وعرفوا كيفية استحصال الامونيا من سخام نار الروث • كما ويرجح الاستاذ تومبسون ان معرفتهم تلك قادتهم الى اكتشاف المتصعد الاحمر من كبريتيد الزئبق الذي مكنهم من اكتشاف الزئبق •

الصناعات الغذائية

اشتهر العراقيون القدماء بصناعات غذائية متعددة كصنع الجبن والخاثر

والقشدة والقيمر وغير ذلك من مشتقات الالبان التي نعرفها في يومنا هذا • وبالرغم من استخدام الحليب ممزوجا مع بعض المواد الاخرى كوجبة للطعام، الا ان العراقيين استخدموه بشكل اوسع في الوصفات الطبية واغلب الظن انهم كانوا يحولونه الى منتجات اخرى لحفظها الى فترات اطول والطريقة المستخدمة لذلك وبخاصة بالنسبة للجبن او الدهـن تتمثل في تعبئة تلك المنتجات في قرب معمولة من جلود أو معد الحيوانات يمكن ان تفرغ من الهواء بعد كل استعمال ويعاد ربطها وتعليقها • وما تزال بعض القـرى العراقية وبخاصة في المنطقة الشمالية تعمد الى استخدام نفس هذا الاسلوب في حفظ الجبن •

اما اللحوم على اختلاف انواعها كلحم الضأن أو البقر أو الماعـز او الاسماك فكانت تحفظ اما بواسطة التمليح والخزن في الجلود بعد ان تضاف اليها بعض التوابل ، او التقديد أي التجفيف بالشمس ومن ثم الحفظ وكانت هذه الطريقة بل وبقيت الى وقت قريب هي الطريقة المثلى لحفظ انواع معينة من الاسماك في المناطق الجنوبية من العراق •

اما المشروبات فكثيرة ومنها النبيذ الاحمر والنبيذ الابيض اللذان صنعا من بذور السمسم والفواكه المختلفة • ولعمل النبيذ كان العراقيون ينقعون التمر والتين والزيت والخميرة بالماء ويضيفون اليه التوابل وبعض العطور بالاضافة الى رحيق العسل • وبعد التخمير يصفى ويعطر ثانية بالعطر المناسب وحسب الامكانية المادية للعائلة او حانات الشرب •

والمشروب المنعش والمفضل لدى العراقيين القدماء هو الجعة بمختلف انواعها • وتحضر الجعة بتنقيع الشعير اولا في الماء ثم تسخينه بدرجة معتدلة لتنشيط الانزيمات الضرورية للتخمير ، ثم يجفف الشعير بالفرن ويفصل عنه النشاء والقشور بواسطة الغربال • وتعاد عملية تنقيع الشعير وتنقيته ومن ثم يرفع ويترك ليخمر • وما دام الشعير لا يحتاج الى الكثير من العناية لحفظه

فيمكن ان تجرى العملية في أي فصل من فصول السنة • ونعرف عن عشرات الانواع من الجعة واسعارها المختلفة طبقا الى طريقة التنقيع والسحن والمزج والتخمير والتحلية والتعطير وغير ذلك من العمليات التـي تجرى عليها • وهناك مشاهد فنية جميلة ترينا عملية صنع الجعة وطرق شربها المختلفة وجدت منقوشة على الاختام الاسطوانية ومنها الشكل الآتي :



اما الفواكه فكانت كثيرة ومنها التمر والتين والمشمش والاعناب والتفاح وغير ذلك من الانواع فتحفظ بواسطة التجفيف • ولا نعتقد بان التمر يحتاج الى الكثير من اجل حفظه • اما الفواكه الاخرى فتعصر وتلف بشكل لا يسمح للهواء بان يحدث عملية التخمير غير المطلوبة • اما الخضروات وعلى اختلاف انواعها فكانت تجفف بالشمس • واما بذور بعض النباتات والتوابل فكانت تطحن بمطاحن خاصة وتحفظ في جرار •

من كل ما تقدم يمكننا ان نؤكد ان العراقيين القدماء كانوا على مستوى جيد في معرفة بعض التقنيات التي تدخل في بعض الصناعات ومنها عمليات التسخين والطحن ، والسحن ، والمزج ، والتكثيف ، وضبط درجات الحرارة، بالاضافة الى معرفتهم بعدد لا يحصى من انواع الآنية وانواع النباتات التي تمكنوا بواسطتها من الحصول على الالوان ومزجها لايجاد الوان اخرى • ومزج الاعشاب والبذور لاستخلاص ادوية متعددة •

الدباغة وصناعة الجلود

عرف العراقيون القدماء العديد من انواع الحيوانات كما استطاعوا تدجين عدد كبير منها واستخدامها في مجالات متعددة من حياتهم اليومية • فأكلوا لحومها وشربوا البانها وغزلوا ونسجوا اصوافها واوبارها وشعرها • والاهم من ذلك بالنسبة لنا في هذا المبحث هو استخدامهم لجلودها في عمل الاحذية والحقائب المختلفة وحافظات لبعض اسلحتهم مثل السيوف والخناجر والسكاكين او عملها كخوذ حربية او دروع او سروج لخيولهم او ملابس لهم• وقبل استخدامها وحتى تهيأ الجلود للاستخدام كانت تمر بعمليات متعددة بدءاً من سلخها وحفظها وتعطينها او ازالة الشعر او الصوف منها وبشرها بضربها ودباغتها وانتهاءً بعملية صبغها وتلوينها • ويدخل ضمن هذه الصناعة العديد من العمليات الكيميائية • فبعد السلخ وتفسخ وتأكسد المواد البروتينية

تغطس الجلود في مياه مشبعة بالاملاح ومن ثم اخراجها وتجفيفها وتنظيفها وحفظها . وتجرى عليها بعد ذلك عملية البشر او الضرب لتنظيفها جيدا ولاكسابها الليونة وبعد ذلك حفظها في مخازن لفترة الى ان تسهل عملية ازالة الشعر منها بتأثير البكتريا .

وتمر الجلود بعمليات اخرى كتغطيسها باليوريا واملاح الامونيا الى ان تتفسخ ومن ثم تحك بشرتها الخارجية مرة اخرى بالسكاكين لازالة الفضلات وجذور الشعر . ولازالة الانتفاخات والعمل على تجانس سطح الجلد يعملون على ضربها وبشرها مرة اخرى ومن ثم دباغتها . وغالبا ما تتم دباغة الجلود اما بواسطة الزيوت او الشحوم وتضرب وتطرق الى ان تزال جزئيات الماء من الجلد وينفذ الدهن الى المسامات لكسبه الطراوة اللازمة . وهناك طريقة اخرى للدباغة بواسطة الاملاح المعدنية . فأستخدم الشب غير النقي المحتوى على شوائب الحديد المفيدة في عملية الدباغة مخلوطا مع مواد دباغية اخرى ككبريتات الصوديوم . اما الطريقة الدباغية الشائعة الاخرى والتي يمكن ان نراها حتى يومنا هذا فهي استخدام المواد النباتية في الدباغة كالعفص وقشور الرمان وغلاف ثمرة البلوط والسماق والطحين وعمل ذلك على شكل محلول ووضعه والجلد في جرار خاصة للدبغ .

الدهن الحيواني وصناعة الزيوت والشمع

عرف العراقيون القدماء ومنذ عصور قبل التأريخ انواعا متعددة من الدهون الحيوانية والزيوت النباتية كزيت السمسم وزيت الخروع وغيرها . وغالبا ما كانوا ينقعون البذور في الماء ومن ثم يكبسونها ويعصرونها لاستخراج الزيوت . وترك لنا الكتبة العراقيون انواعا لا تحصى من الزيوت بالاضافة

الى عدد كبير من انواع الدهون الحيوانية ومنها دهن الكلى ، وذهن عين الخروف ودهن العصفور ، ودهن عظم الغزال ودهن الحية السوداء ودهن الثور ودهن السمك ودهن الاسد ... الخ اما الشمع فغالبا ما كانوا يستخرجونه من اوراق الاشجار ويستخدمونه في عمل النماذج المراد صبها بالمعادن كما عرفوا شمع العسل .

صناعة النسيج والصباغة والالوان

كان العراق القديم مركزا تجاريا وصناعيا وقد اشتهر ومنذ القدم بصناعة انواع كثيرة من الاقمشة والالبسة وزودتنا النصوص المعجمية بعشرات الاسماء للاقمشة والالبسة وبطرق صناعتها وصباغتها . منها المصنوعة من اصواف مختلفة الانواع او من الكتان او شعر الماعز على اختلاف انواعه. ولصناعة مثل تلك الاقمشة والالبسة كان العراقيون يقومون اولا بتنظيف الصوف او الغزل ومن ثم قصره وصباغته وتثبيته وبعد ذلك تحويله الى غزول ونسجه او حياكته . ويقصر الصوف او الشعر بواسطة حفر خاصة وتضرب ومن ثم تجفف بالشمس التي تساعد على القصر . وبعد ذلك ينقع الصوف بالجعة ويسخن تدريجيا بواسطة اناء نحاس على نار هادئة وتضاف الصبغة ويحرك الصوف بهدوء كي تأخذ الصبغة شكلا متجانسا وبعد ذلك تضاف اليه المواد المثبتة للاصباغ كالعفص والبلوط وقشور الرمان وقلف الاشجار والزيوت الطيارة . ويمكن ان تثبت الصبغة ايضا بواسطة الاملاح المعدنية كالشب والترتر (الليمندوزي) مضافا الى املاح الامونيا . وعرف العراقيون عددا من الالوان ومنذ عصور قبل التأريخ وبخاصة تلك الالوان البراقة الموجودة على فخاريات تلك العصور والتي يزخر المتحف العراقي بانواعها الكثيرة كما عرفوها في صنع البستهم واقمشتهم في العصور اللاحقة .

ومن تلك الالوان الاسود الذي استخرج من اكاسيد الحديد الممزوج مع السماق او من مزج الشب بالعفص ، وتجدر الاشارة هنا الى معرفة العراقيين باملاح الامونيوم او الشب الابيض واملاح الحديد أي الشب الاسود ، اما الصبغة الحمراء فكانت تستخرج من اشجار البلوط او من تفاعل اكاسيد الحديد في محلول قاعدي ، اما اللون الازرق فاستخرج بواسطة الصودا الكاوية او الجير النهري ، اما اللون الاصفر فمصدره الزعفران والكركم ،

وقد استعمل الارجوان في صبغ الالبسة والاقمشة المختلفة ، والمعروف ان هذه المادة تستخرج من حيوان صغير يعرف باسم موركس ترونكولوس يعيش في صدفة كالحلزون وله تحت رأسه غدة تحتوي على مادة الصبغ فاذا استخرجت هذه المادة وعرضت للشمس فانها تتلون تباعا باللون الاخضر فالازرق فالاحمر فالارجواني وكان الكنعانيون يصطادون الموركس بالشباك والسلال ويستخرجون الغدد من الحيوان وهو حي لان اللون يفسد بعد الموت ،

وينبغي تمليح الغدد وطبخها لفترة من الزمن ومن ثم تعريضها للشمس ليتحول لونها الى اللون القرمزي ، هذا اضافة الى معرفتهم بعدد اخر من الالوان التي يمكن ان تستخرج من الالوان السالفة الذكر او من مزج بعضها بالبعض الاخر او من خلال معاملة البعض منها بالنار ،

المطهرات والصابون

صنع العراقيون القدماء الصابون المعمول من الطينخاوة واصماغ الاشجار ، كما يعتقد البعض من العلماء ان العراقيين القدامى قد انتجوا

الصابون المستحضر من الزيوت النباتية والقلويات المعالجة باضافة الكبريت او المواد الصمغية • كما ان الاستاذ ليڤي أشار الى امكانية صنع الصابون الحقيقي او المعروف بالصابون البارد ، او شبه المغلي الذي تظل فيه المواد التي تتضمن الغليسرين والماء ، في حالة متخثرة او سائلة • ان عملية الصابون البارد أو شبه المغلي تطبق طبعا ، في صنع الصابون من الزيوت الصابونية الجاهزة • ويضمن زيت الخروع هذه المتطلبات • وثمة دليل ما على ان الصابون كان يفصل عن الغليسرين بعملية الترسيب الملحي •

المبحث السادس

الحيوان والنبات

دون العراقيون القدامى أسماء مئات الانواع من الحيوانات المدجنة والوحشية والطيور على الرقم المعجمية ووصلتنا نصوص تحتوي على قوائم مطولة في هذا المجال منذ عهد سلالة اور الثالثة وازداد عـددها في الالف الثاني قبل الميلاد وبلغت ذروتها في العهد الآشـوري الحديث • ومن تلك الحيوانات ما أنقرض وجوده في العراق ومنها ماهو باق الى يومنا هذا • كما زودتنا النصوص الاداريـة والكتابات الملكية والرسائل بعدد كبير من اسماء الحيوانات الغريبة عن بلدنا في ذلك الوقت جاء بها الملوك كغنائم او ارسلت لهم كهدايا من مناطق مختلفة • كما ان النقوش والاعمال الفنية حفظت لنا العديد من تلك الحيوانات والطيور • ومن اكثر الانواع شيوعا في النصوص المسمارية الاسود والضأن والماعـز والابقار والجمال والخيول والكلاب والحمير والبغال والغزلان وعشرات الانواع من الاسماك •

اما الطيور فكثيرة وتعد بالمئات وبخاصة الطيور المذكورة في القوائم المعجمية والتعليمية • ومنها الديك والدجاج والبط والنعام والسنونو والغراب والعصفور بانواعه المختلفة والبلبل والحجل والكوركي والدراج والنسر والصقر والعقاب • ومن الجدير بالذكر ان نصوص تل حرمل زودتنا باكثر من

(٢٧٠) نوعا من الطيور • كما تجدر الاشارة الى اكتشافنا لرقيم في مدينـة

سپار ، يتضمن (٧٠) نوعا من الطيور مع رقم عديدة تعود لتاجر مما يدل على تعلق العراقيين القدماء بتربية ورعاية الطيور وربما رصد حركتها . وعلى الرغم من معرفتنا بعدد لا بأس به من تلك الطيور والحيوانات فما نزال نجهل معنى اسماء العديد من الحيوانات والطيور الواردة بتلك القوائم .

ومن الطريف ذكره في هذا المبحث ان الحثيين خلفوا لنا رسالة مكتوبة بالخط المسماري تتضمن وصفا بتدريب الخيول يوما فيوم وساعة فساعة تقريبا، والى بلوغها ستة اشهر ، حيث اختيرت احسن الخيول ، وبدأ المدربون بتخفيض وزنها بواسطة قطع العلف عنها وتعريقها ومن ثم تدريبها على السير والعدو اشواطا تزداد بالتدريج خببا او رهوا ، واطعامها وسقيها في أوقات منتظمة وبكميات مقدرة ومعينة ، فيخلط التبن مع العلف ، لتسهيل المضغ الجيد . وعلى الرغم من عدم العثور في العراق على مثل هذه الرسالة الا ان الاستاذ سارتون يؤكد معرفة العراقيين بطرق تربية الحيوان ، ويمكن ان ندعم رأيه ايضا بما ورد في نصوص نوزي التي تسبق الرسالة الحثية بحوالي مائة سنة ، من معلومات عن الخيول واشارات عن تضريبها وتدريبها . اضافة الى قائمة باسماء الخيل واسماء نسبها عثر عليها في نفر وتعود الى عهد الحكم الكشي .

اما في مجال معارف العراقيين بالنبات وطرق رعايته فالحديث عنها طويل ومتشعب ويمكن ان تحتل لوحدها مجلدا خاصا ، فالاستاذ كامبل تومبسون زودنا بقاموس يتألف من (٤٠٥) صفحات بانواع النبات والحشائش والاعشاب والعليق والشجيرات والاشجار وما الى ذلك . كما اتحفنا الاستاذ المرحوم طه باقر بمقالات قيمة في النصوص التي اكتشفت بعد ذلك وبخاصة نصوص تل حرمل ومحاولته اقران اسمائها باسماء ماورد في كتب العلماء العرب المسلمين هذا اضافة الى ما زودنا به الاستاذ لاندزبيركر وغيره من

المشتغلين في حقل النصوص المعجمية • ومن اشهر انواع الاشجار ، النخيل والصفصاف والطرفاء والغرب واشجار الفواكه واللوزيات •••• الخ •

النخلــــة

اشتهر العراق وما يزال بزراعة الشجر المبارك النخيل ، وقد خلف لنا العراقيون القدماء كتابات مطولة عن النخيل وانواعه واوصافه ومنتجاته ، كما تناول الباحثون النخلة بالعديد من المقالات والكتب التي تكشف بدورها عن غزارة المصادر القديمة في الموضوع •

سمى العراقيون القدماء النخل باسم كشمار **gišmmar** او **gišimmaru** وهو يقرب من لفظة « الجمّار » كما عرفوه باســم ثمره أي التمر **suluppu** وقد دلت المخلفات الآثارية من عصور قبل التأريخ في العراق على معرفــة العراقيين بهذه الشجرة وغيرها من خلال المتفحمات التي اكتشفوها • ويؤيد ذلك ويدعمه وجود العلامــة الصورية الخاصة بالنخل على أقدم الرقــم الطينية التي يرقى زمنها الى حوالي نهايــة الالف الرابع وحتى منتصف الالف الثالث ق•م • وبتقدم الزمن وزيادة التدوين كثرت الاشــارات الى النخل وانواعه وما يمكن ان يعمل منه • وكان العراقيون يقدسون هذه الشجرة العظيمة لما تقدمــه لهم من منافع حتى ان المؤرخ سترابو قال بحقها في معرض حديثه عن اهل العراق « تجهزهم النخلة بجميع حاجاتهم ما عدا الحبوب » وقال بلجريف Palgrave بأنها « خبز البلاد ، ومادة الحياة وعماد التجارة »، على حد ما اورده لنا الاستاذ طه باقر في مقالته الموسومة « دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية » • واهم ما يدلنا عن اهمية النخل بالنسبة للعراقيين القدماء ، تخصيص بضع مواد قانونية تتعلق بزراعته ورعايته في قوانين حمورابي ذائعة الصيت • فالمادة ٥٩ من هذا القانون تنص على دفع نصف « منا » من الفضة كغرامة تترتب على قاطع شــجرة النخل • ونص

المشرع في المادة (٦٠) على اقتسام محصول النخل مناصفة بين مالك الارض والبستاني بعد اربع سنوات من قيام الاخير بغرس النخل • اما المادة ٦٤ من قانون حمورابي فتذكر لنا « اذا اعطى رجل بستانه لبستاني لتلقيحها ، فعلى البستاني ما دام الحقل بيده ، ان يعطي لصاحب البستان ثلثي محصول البستان ويستلم هو الثلث الاخر » •

عرف العراقيون القدماء طريقة تكثير النخيل بواسطة « التال » وهي الطريقة المثلى لتكاثر النخل ويعمل بها في العراق الحديث • ومن الطريف ذكره ان العراقيين القدماء اطلقوا نفس الاسم على الفسيلة اي tālu « تالة » والراكوب rukkubu • كما قارن العديد من الباحثين بين المسافات التي تترك بين نخلة واخرى في العراق قديما وحديثا فوجدوها متقاربة او تكاد تكون متطابقة • وتشير بعض النصوص المسمارية الى ما تنتجه النخلة الواحدة من التمر فتعطي ارقاما كبيرة كالرقم (١٠٥) كيلو غرامات او اكثر وهذا يدل على العناية الفائقة بهذه الشجرة المباركة •

سبق وكررنا ان العراقيين القدامى قدسوا هذه الشجرة المباركة حتى ان بعضهم ومنذ عهد سلالة اور الثالثة أطلق على أبنائه من اسمائها • ومن المآثر المشهودة للعراقيين القدماء معرفتهم بانواع كثيرة من النخل تعدت الخمسين نوعا •

كما تشهد النصوص المعجمية على معرفتهم باجزاء النخلة وطرق العناية بغرسها ورعايتها • فعرفوا القلب libbu « اللب » والجذع والسعف واوراقه كما وصفوا لنا النخل استنادا الى مكان تواجده او عمر النخلة كالتالة tālu اذا كان عمر النخلة اربع سنوات ، وهناك صفات تشير الى نوعية التمر وجودته • ومن الكلمات شائعة الاستعمال في عراق اليوم « التبلية » اي ما

يستخدمه الفلاح عند تسلقه لاشجار النخل ، وهي نفس الكلمة الاكديــة tubalâ وتمر « الشيص » بالاكدية šisûtu و « الكرماط » بالاكدية gurummadu و « الليف » laptu و « الرطب » raṭbu وغير ذلك .

وفي ختام هذا البحث نؤكد ما اسلفنا ذكره حول فوائد النخل والتمر حيث ذكرت له (٣٦٥) فائدة في احد النصوص البابلية المتأخرة . وفي نص من تدمر عدد العرب التدمريون (٨٠٠) فائدة لنخل تدمر .

وعرف العراقيون القدماء الدبس dišbu واستخرجوا انواعا متعددة مــن الخمور القوية مثل « خمر التمر » والخمر المستخرج من الجمار . اما استخدامات النخل ومنتوجاته في عمل الوصفات الطبية فكثيرة ، حيث استخدم التمر والزيت كلبخة لشفاء الاورام والرضوض . ومن الوصفات الشائعة خلط قمــع التمرة مع العسل والزيت لاشفاء بعض الامراض الصرعية .

وخلط نقيع التمر مع ماء الورد لمعالجة المعدة . وضمت وصفة طبية لشفاء عسر التبول بشرب نقيع التمر والحليب . كما استخدم مسحوق النوى وماء الورد لمعالجة بعض امراض العيون . ان ما ذكر في هذا المبحث ما هو الا شذرات قليلة وباستطاعة من يريد الاستزادة مراجعة الكتب المذكــورة في مصادر هذا الفصل .

البحث السابع

المعادن والاحجار والأملاح

يصف لنا الاستاذ فوربز Forbes مكانة المعارف الاولى بالمعادن والتعدين بقوله « ان علم المعادن احد الخطوات الحضارية العظيمة في تأريخ البشرية ، ولكنه ليس الخطوة الرئيسية لتقدم البشرية » . ويستطرد القول ويؤكد على اننا يجب ان لا نبالغ باهمية المعدن للمجتمعات القديمة .... لان تطور « علم المعادن » كان بطيئا ولا يوجد شك في ان المعادن لم تكن افضل من الحجارة ، واستغرق الانسان ردحا طويلا من الزمن لحين توصله الى صنع البرونز الذي هو بطبيعة الحال افضل من الحجر المصقول وشظايا الصوان . وعلى اية حال فالمعادن اثرت في الاقتصاد القديم لان المعدن ساعد بشكل ملحوظ على ظهور المدن وربما تكوين الامبراطوريات القديمة » .

وعبر دراسة مستفيضة « لعلم المعادن » وارتباطه بعلم الآثار استطاع هذا العالم التوصل الى ايجاد تسميات جديدة ، تخدم الآثاريين وعلماء التعدين وغيرهم ، تخص تقسيم العصور القديمة ومراحل تطورها ، فمن التسميات التقليدية أي عصور الحجارة ، والنحاس ، والبرونز ، والحديد توصل الى الآتي :

١ ــ مرحلة المعادن المحلية كاحجار ....

٢ ــ مرحلة المعدن المحلي (المطروق او المقطوع والذي يشمل نحاساً وذهباً وفضة والحديد النيزكي) .

٣ ـ مرحلة خام المعادن (أي من خام المعدن الى مزج بعض المعادن بشكل اولــي) وشملت هذه الفترة معادن الرصاص ، والفضة ، والنحاس، والانتمون ، والقصدير والبرونز والصفر (النحاس الاصفر) •

٤ ـ مرحلة الحديد (اي الحديد المحضر بشكل اولي ، ومن ثم سبك الحديد وحديد الصلب) •

وعلى اية حال ففي الكثير من الحالات نعجز عن تحديد زمن اختراع ما او حتى كيف توصل الانسان اليه • وعلى سبيل المثال لا الحصر فنحن لا نعرف الزمــن الفاصل بين استخدام الانسان للطين وبين صناعة اولى الاوانــي الفخاريــة •

ولعل اللغة لعبت دورا أساسياً في نقل ما توصل اليه السلف عن طريق الكلام المباشر •••• اما اختراع الكتابة فادى الى حفظ الخبرات وتطويرها لا بل حتى ايجاد نظرة مستقبلية لتلك الخبرات • ووصلنا العديد من النصوص المسمارية التي قدمت لنا الدليل القاطع على معارف العراقيين القدامــى بالمعادن والاحجار والاملاح ••• فيحدثنا الاستاذ كامبل تومبسون عــن « الجيولوجي الآشوري انه بالتأكيد عرف درجة صلابة الصخور وتحديــد انواعها » • وقد أستنتج ذلك من أقتران الحجر الصلب بالعلامات التي تعني حجر اللازورد •

ويستطرد العالم كامبل تومبسون القول « الجيولوجي الآشوري كــان على بينة بما يعرف بالاستخدام السحري للمرجان الابيض كرقية (او تعويذة) مع مسحوق الحديد والنحاس ، وذلك لتقوية اواصر المحبة ، وبوصف ادق يمكن اقران ذلك بالحديد الممغنط والحديد المحشو بتعويذ الحب ، على حد قول الاستاذ تومبسون • وهذا يقودنا للاعتقاد ان للآشوريين علماً بانجذاب بعض المواد بعد دلكها بمادة اخرى » •

اكدت لنا المباحث الآثارية والنصوص المعجمية معرفة العراقيين القدماء بمئات الانواع من الاحجار وعشرات الانواع من الاملاح والمعادن • وكامثلة يمكن ان نورد اسماء الاحجار التالية : حجر السماء ، ومنه احجار مؤنثة ومذكرة ، (احجار املاح) الشب الابيض والاسود ، حجر الخفاف او الزجاج البركاني المسامي الذي يستعمل في عملية صقل الآلات والادوات • ويجب ان ننوه هنا عن امكانية معرفة انواع متعددة منحدرة من نفس الحجر وذلك من خلال وجود صفة التذكير والتأنيث التي تطلق على الحجر الواحد • كما عرفوا العقيق الاحمر ، وحجر الصوان ، وحجر الشذر او الفيروز • وحجر العقيق الاحمر • وهناك نوع من الاحجار يدعى بحجر العين ومن المعادن عرف العراقيون الآتي :

الذهب ، والذهب الاحمر ، واوراق الذهب ، والفضة ، والفضة النقية والنحاس ، والبرونز ، والتنك ، والنحاس الملغم ، والصفر ، والحديد ، والحديد الممغنط ، والحديد النيزكي او حديد النار ، والرصاص •

ومن الاملاح والمركبات عرفوا الآتي :

ملح الطعام ، والملح المستخرج من النهر ، وملح الجبال ، ونترات البوتاسيوم الابيض والاسود والمغسول وغير المغسول ، وكاربونات الصودا ونترات البوتاسيوم • والبورق ، والطين ، والجص ، والكبريت ، وكبريت الانهر ، والكبريت الاسود والاصفر • والقار ، والقار النهري • وهناك انواع لا تحصى من الاحجار كالاحجار المستخدمة لعمل التماثيل واحجار البناء ، واحجار اخرى كثيرة تتعلق بنعوت الالهة واكثر انواع الاحجار شيوعا الآتي :

حجر العين اليمنى وحجر عين الطير واليشب وهو حجر كريم اخضر مائل الى السواد وحجر العقرب وحجر السمك وحجر العشرين ، اي حجر الطلق او البوطرة •

مراجع الفصـــل الثامن

١ ــ ابو الوفاء البوزجاني ، علم الحساب العربي ــ « حساب اليد » ، تحقيـق دكتور احمد سعيدان ، الاردن ، ١٩٧١

٢ ــ اوبنهايم ، ترجمة سعدي فيضي عبدالرزاق ، بلاد ما بين النهرين ، وزارة الثقافة والاعلام ، ١٩٨١

٣ ــ د ٠ احمد سوسة ، العراق في الخوارط القديمة ، مطبوعات المجمع العلمـي العراقي ، ١٩٥٩

٤ ــ جورج كونتينو ، ترجمة سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي ، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٧٩

٥ ــ جورج سارتون ، ترجمة د ٠ مصطفى الامير واخرون ، تاريخ العلم ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٧ ٠

٦ ــ هنري وليم فردريك ساكز ، ترجمة د ٠ عامر سليمان ، عظمة بابل ، موجز حضارة بلاد وادي الرافدين القديمة ، جامعة الموصل ١٩٧٩ ٠

٧ ــ دكتور وليد الجادر ، « الطب البابلي والاشوري » ، مقالة مترجمة عـــن الاستاذ لابات ، سومر ، ٢٤ ، ١٩٦٨ ص ١٩١ ــ ٢٠٦ ٠

٨ ــ دكتور وليد الجادر ، « صناعة الجلود في وادي الرافدين » ، سومر ، ٢٨ ، ١٩٧٢ ، ص٢٣٣ ــ ٢٣٩ ٠

٩ ــ طه باقر ، مقدمة في ادب العراق القديم ، جامعة بغداد ، ١٩٧٦ ٠

١٠ ــ طه باقر ، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد ١٩٧٣ ٠

١١ ــ طه باقر ، موجز تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضـارة العربية الاسلامية ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠ ٠

١٢ ــ طه باقر و د ٠ عبدالعزيز حميد ، طرق البحث العلمي في التاريخ والاثار ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠ ٠

١٣ ــ طه باقر و د ٠ فاضل عبدالواحد و د ٠ عامر سليمان ، تاريخ العــــراق القديم ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠ ٠

١٤ ــ طه باقر ، ملحمة كلكامش ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٧٦

١٥ ــ طه باقر ، مقالات متعددة في سومر ، ٨ و ٩ وما يتبع ٠

١٦ ــ الدكتور ياسين خليل ، العلوم الطبيعية عند العرب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠

١٧ ــ الدكتور ياسين خليل ، الطب والصيدلة عند العرب ، جامعة بغداد ،١٩٧٩

١٨ ــ الدكتور كمال السامرائي ، الامراض النسوية في التاريخ القديم واخبارها في العراق الحديث ، الموسوعة الصغيرة ، ٩١ ، ١٩٨١

١٩ ــ مارتــن ليفي ، ترجمة د ٠ محمود فياض المياحــي واخرون ، الكيميــاء والتكنولوجيا الكيميائية ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ ٠

٢٠ ــ محمد بن موسى الخوارزمي ، كتاب الجبر والمقابلة ، تقديم وتعليق د ٠ علي مصطفى مشرفه و د ٠ محمد مرسي احمد ، دار الكاتب العربي للطباعــــة والنشر فرع مصر ، ١٩٦٨ ٠

٢١ ــ مرغريت روثن ، ترجمة د ٠ يوسف جي ، علوم البابليين ، وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٠ ٠

٢٢ ــ مجموعة من الاساتذة والباحثين ، العراق في التاريخ ، وزارة الثقافــــة والاعلام ، بغداد ، ١٩٨٣ ٠

٢٣ ــ د ٠ سامــي سعيد الاحمد ، « الطب العراقــي القديم » ، سومر ، ٣٠ ، ١٩٧٤ ، ص٧٩ ــ ١٣٦ ٠

٢٤ ــ عبدالاله الديوهجي ، « خوارزميات من التراث القديم وعلاقتها بالبرمجة ولغاتها » بغداد ، ١٩٨٠ ٠

٢٥ ــ د . عبداللطيف البدري،التشخيص والانذار في الطب الاكدي،مطبوعات المجمع العلمي العراقي ، ١٩٨٠ ٠

٢٦ ــ د ٠ فاروق ناصر الراوي « الرياضيات : احد اهم المظاهــر الحضاريــة في العراق القديم » الندوة الوطنية العلمية للمؤسسة العامة للاثار والتراث بغداد ، ١٩٨٣ ٠

٢٧ ـ د . فاروق ناصر الراوي ، « التحدي الحضاري للامة » الندوة الفكرية الثانية في فكر الرفيق القائد صدام حسين ، ١٩٨٤/٥/٥ .

٢٨ ـ د . فاروق ناصر الراوي « الاعتداء والايذاء » سومر ، ٣٨ ، ١٩٨٢ .

٢٩ ـ د . فاضل عبدالواحد علي و د . عامر سليمان ، عادات وتقاليد الشعوب القديمة ، جامعة بغداد ، ١٩٧٩ .

٣٠ ـ د . فاضل عبدالواحد علي « طرق العرافة في النصوص المسمارية » ، مجلة كلية الاداب ، ٢٥ ، ١٩٧٦ .

٣١ ـ د . فرج حبه ، « الكيمياء وتكنولوجيتهـــا » ، سومر ، ٢٥ ، ١٩٦٩ ، ص ٩١ ـ ١١٣ .

٣٢ ـ رضا جواد الهاشمي ، نظام العائلة في العصر البابلي القديم ، بغداد ، دار الاندلس ، ١٩٧٠ .

33. Adamson, P.B., "Anatomical and Pathological Terms in Akkadian", JRAS, 1974-1981.

34. Civil, Miguel, "Prescriptions médicales sumériennes" **RA**, 54, 1960, pp. 57-72.

35. Dangin, F. Thureau, **Textes Mathématiques Babyloniens**, Brill Leiden, 1938.

36. Driver, G.R. and Sir Miles, J.C. **The Babylonian Laws**, 2 Volumes, Oxford, 1968.

37. Ellison, R., "Some Thoughts on the Diet of Mesopotamia from c. 6000-3000 B.C." **Iraq**, 45, 1983.

38. Forbes, R.J., **Metallurgy in Antiquity**, Brill Leiden, 1950.

39. Friberg, J., **Methods and Traditions of Babylonian Mathematics; Au Old Babylonian Cataloque with Equations for the Square and Circle**, Department of Mathematics, Chalmers University of Technology and the University of Göterborg, Sweden, 1979.

40. Friberg, J., "An Annotated Bibliography of Works on Babylonian Mathematics", op. cit., Sweden, 1980.

41. **Friberg, J.**, The Early Roots of Babylonian Mathematics, op. cit., Sweden, 1979.

42. Goetze, A., "An Incantation against diseases", **JCS**, 9, 1955, pp. 8-18.

43. Goetze, A., "An Old Babylonian Itinerary", **JCS**, 7, 1953, pp. 51-72.

44. Grave, M. Ch. De, **The Ships of the Ancient Near East; (c. 2000-500 B.C.)**, Leuven, 1981.

45. **Grayson, A.K., Assyrian and Babylonian Chronicles**, New York, 1975.

46. Grayson, A.K., "The Empire of Sargon of Akkad", **AFO**, 25, 1974-77, pp. 56-64.

47. Hartman, L.F., and Oppenheim, A. Leo, **On Beer and Brewing Techniques in Ancient Mesopotamia**, Baltimore, 1950.

48. Hyrup, J., **Babylonian Algebra from the Viewpoint of Geometrical Heuristics**, Sweden, 1982.

49. Huber, Peter J., "Babylonian Edipses Observations 750 B.C. to O", Harvard University, 1972.

50. Labat, R., **Traité akkadien de diagnostics et pronostics médicaux**, Paris and Brill Leiden, 1951.

51. Leemans, W.F., **Foreign Trade in Oid Babylonian Period**, Brill Leiden, 1960.

52. Landsberger, B., **The Date Palm and its By-products according to the Cuneiform Sources**, Graz, 1967.

53. Langdon, S., **Babylonian Menologies and the Semitic Calendars**, London, 1935.

54. Meyer, Léon De, **Tell Ed-Dēr, Sounding at Abū Habbah (Sippar)**, Leuven, 1980.

55. Moore, H., "Reproductions of an Ancient Babylonian Glaze", **Iraq**, 10, 1948, pp. 26-33.

56. Moorey, J.R.S., (editor), **The Origins of Civilization,** Wolfson College.

57. Lectures 1978, Clarendon Press, Oxford, 1979.

58. Nemet-Nejat, K.R., **Late Babylonian Field Plaus in the British Museum** Rome, 1982.

59. Neugebauer, O. and Sachs, A., **Mathematical Cuneiform Texts, AOS,** 29. New Haven, 1945.

60. Neugebauer, O., **The Exact Sciences in Antiquity,** Harper and Brothers, New York, 1962.

61. Oppenheim, A. Leo, **Letters from Mesopotamia,** University of Chicago Press, 1967.

62. Oppenheim, A. Leo, **Glass and Glass making in Ancient Mesopotamia,** New York, 1970.

63. Oppenheim, A. Leo, "On the Observation of the pulse in Mesopotamia Medicin", **Orientlia** 31, 1962, pp. 27-33.

64. Pritchard, J.B., **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament,** Princeton University Press, 1955.

65. Raux, J., **Ancient Iraq,** Penguin Books, 1964.

66. Roaf Michael, "Counting in Cuneiform", Gonville and Caius College, Cambridge, 1979.

67. Sachs, A.J., "A Late Babylonian Star Catalog", **JCS,** 6, 1952, pp. 146-150.

68. Saggs, H.W.F., **Everyday Life in Babylonia and Assyria,** B.T. Batsford Ltd., London, 1965.

69. Saggs, H.W.F., **The Greatness that was Babylon,** Sidgwick and Jackson, London, 1966.

70. Saggs, H.W.F., "A Babylonian Geometrical text", **RA,** 54, 1960, pp. 131-146.

71. Speiser, E.A., "The Idea of History in the Ancient Near East", in R. C. Denton, **Ancient Mesopotamia, AOS**, 38, **YUP**, New Haven Oxford University Press, 1955.

72. Thompson, R. C., **A Dictionary of Assyrian Chemistry and Geology**, Clarendon Press, Oxford, 1936.

73. Thompson, R. C., **A Dictionary of Assyrian Botany**, London, 1949.

74. Thompson, R. C., "Assyrian Medical prescriptions for Diseases of the Stomach", **RA**, 26, 1929, pp. 47-92.

75. Townend, B. R., "An Assyrian Dental Diagnosis", **Iraq**, 5, 1, 1938, pp. 82-85.

76. Wiseman, D. J., **Chronicles of Chaldaean Kings**, London, 1956.

الفصل التاسع

جوانب من الحياة اليومية

د. فاروق ناصر الراوي

كلية الاداب - جامعة بغداد

توطئـــة

حفل تاريخ العراق القديم بالكثير من الانجازات الثقافية والعلميــــة جعلته طليعة بلدان العالم القديم . وتميز قطرنا العراقي بحضارته الاصيلة والمتواصلة باعتباره الينبوع الذي لاينضب للعطاء في كل مجالات الحيـــاة لرفد الحضارة العربية والانسانية بمبتكرات حضارية جديدة ومفاهيم فكرية وعادات وتقاليد سليمة لاغناء البشرية بما فيه خيرها وسعادتها .

فحضارة العراق تستمد اصالتها من جذورها القديمة الممتدة عميقا في تربة هذه الارض المعطاء ، وقدمها قدم وجود الانسان . ان البحث عن الحياة اليومية للعراقين القدماء موضوع طويل ومتشعب ولكننا سنحاول ايجاز بعض مظاهر تلك الحياة ، اخذين بنظر الاعتبار ماتعرض له الكتاب في فصـــول اخرى ، عن المقومات الاساسية للاقتصاد العراقي القديم وعمـــاد حياتهـــم .

الفكرية والاجتماعية والفنية والذي يصب بطبيعة الحال في مجال معارفنا عن الحياة اليومية للفرد والمجتمع العراقي .

الدراسات السابقة

انصبت الدراسات الاثارية واللغوية منذ منتصف القرن الماضي والى الثلاثينات من هذا القرن على تناول ماله علاقة بالتوراة والقصص الواردة بها ، كما اخذ العلماء المتخصصون في حقل الاثار واللغات القديمة يركزون على بعض المباحث العلمية وبخاصة في الرياضيات والطب والفلك وعلوم النبات والحياة وما الى ذلك . واخذت الصورة تتوضح تدريجيا عن طبيعة النظم والقوانين والعادات والتقاليد وصولا الى معرفة العلماء بدقائق الامور من خلال تحليلهم للمخلفات الاثرية او دراستهم للنصوص المسمارية العراقية القديمة .

ومن خلال تظافر جهود العديد من الباحثين صدرت مباحث واسعة في الدراسات الاقتصادية في اواسط الخمسينات من هذا القرن كما صدرت بعد ذلك بقليل أي في نهاية الخمسينات وبداية الستينات كتب عن الحياة اليومية ومن اشهر الدراسات السالفة الذكر دراسات دياكونوف والمدرسة الاقتصادية التي يمثلها . كما صدر كتاب الاستاذ الفرنسي كونتينو الموسوم (الحياة اليومية في بلاد بابل واشور) وكتاب الاستاذ البريطاني ساكز بنفس العنوان . كما كتب الاستاذ طه باقر وبعض الباحثين العرب بحوثا قيمة ومتنوعة تناولت بعض مظاهر الحياة اليومية في العراق القديم وبخاصة تلك الدراسات التي عنيت بدراسة مخلفات عصور قبل التاريخ من خلال التنقيبات الاثرية العراقية او دراسة بعض النصوص المسمارية ، كما صدرت لهؤلاء الباحثين كتب عامة تناولت جوانب حضارة العراق القديم واثرها على الحضارات القديمة الاخرى .

واتحفنا الاستاذان الدكتور فاضل عبد الواحد علي والدكتور عامر سليمان في سنة ١٩٧٩ بكتابهما الموسوم (عادات وتقاليد الشعوب القديمة) ضمن مااتحفانا به من كتب منهجية لطلبة كليات جامعات القطر .

ونود ان نؤكد هنا ، وكما كررنا ، اننا لن نتناول طبيعة الانظمة الادارية او الاقتصادية او الاجتماعية او الدينية . لان مثل هذه الموضوعات تم التطرق اليها في مواضيع اخرى من هذا الكتاب . وسنكتفي بتناول بعض النشاطات اليومية والمظاهر التي تختفي بين الموضوعات الرئيسية .

حياة الاسرة

لاتختلف الاسرة العراقية القديمة عن الاسرة في عراقنا الحديث من حيث التركيب الا في عدم احتواء الاخيرة على الاماء والعبيد وخضوعها لقوانين متطورة ربما كانت ذات صلة بالقوانين العراقية القديمة . فمولد ورضاعة ونشأة وخطوبة وزواج الابن ربما كان في نفس البيت الذي يعرف بالاكدية بيتو bītu .

الحقل

كانت ملكية الارض محدودة في العصور العراقية الاولى ولكنها اتسعت خلال العصر البابلي القديم (٢٠٠٠ ــ ١٦٠٠ ق . م) . وتمكن الباحثون من تمييز نوعين من الملكية ، الملكية الخاصة ، وملكية الاقطاعات مقابل الخدمة العسكرية . ويمكن ان يحصل المرء على حقل اما بواسطة الشراء او بالتبني الحقيقي ليرث قطعة من الارض او بالتبني الخاص بالاموال غير المنقولة أوما يسميه الباحثون (تبني البيع) Sale adoption ، أوكشريك في أعمال زراعية مشتركة تشبه نظم الجمعيات التعاونية الزراعية . وغالبا ماتقع الحقول خارج المدينة ، ولكن البعض منها كان ضمن سور المدينة .

تبني البيع

ان هذا الموضوع من الاهمية ما يدفعنا لتناوله مستقلاً ولو باختصار .
فقد شخص الاستاذ كاد Gadd طبيعة هذا النوع من التبني منذ العشرينات
وذلك من خلال تأكيده على الطبيعة الاقتصادية لنوع من النصوص المعروفة
باسم mārūtu أي « التبني » . واستخدم كل من كيبرا وشبايزر
مصطلح « تبني البيع » وقبلت تسميتهم هذه من قبل معظم الكتاب . ومال
البعض لتسميته بـ « التبني الكاذب » أو « التبني الخاص بالاموال غير
المنقولة » وشاع استخدام المصطلح الاخير لدى بعض الباحثين .

فقد تبين للباحثين ان الحكومة قد منعت بيع الاراضي بعد ان اقطعتها
الى من يستحقها من الناس . لكن « الاقطاعيين »آنذاك استطاعوا
وبواسطة حيلة قانونية ان يلتفوا على القانون . فنقرأ في مئات من النصوص،
ان اكثر من مائتي فلاح تبنوا « اقطاعيا » واحدا ، واصبح ابنهم البكر
والمستحق للحصة المفضلة والمنصوص عليها وعلى موقعها في العقد ، لقاء
هدية « أي الثمن » يقدمها لمتبنيه . وهذا النوع من العقود يستند شرعا على
المواد القانونية الخاصة بالتبني الصحيح . والآتي ملخص لاحد تلك
النصوص : عقد تبني بين الطرف الاول والطرف الثاني ، واستنادا اليه
سيعطي الطرف الاول « المتبني » للطرف الثاني (المتبنى) قطعة ارض في
المدينة (المنصوص عليها في العقد) غرب الحقل العائد « للشخص المنصوص
عليه في العقد » . (واستنادا الى هذا العقد ايضا) اعطى الطرف الثاني
(المتبنى أو « الاقطاعي ») الى المتبني (صاحب الارض) عشروزنات من
الشعير (وكذا) من الفضة كهدية له . واذا مادعى احد بخلاف ذلك فعلى
الطرف الاول (المتبني) ان يزكي Zaku الطرف الثاني . (ويأتي بعد
ذلك شرط جزاء ينص على دفع منٍّ من الذهب كعقوبة تترتب على اخلال
احد طرفي العقد ببنوده) . ثم يختم العقد بقائمة من الشهود وبضمنهم كاتب

العقد ، وطبعات اختام الشهود والاطراف المعنية واحيانا بعض الاداريين من المدينة .

البستان

عرف العراقيون القدماء البساتين وعملوا على رعايتها وزرع انواع من الشجر فيها كالنخل والاعناب والتين والرمان والكروم والكمثرى والسفرجل وغير ذلك . كما عملوا على العناية بالغابات من أجل الاخشاب لعمل اثاث معابدهم ودورهم كالاسرة والكراسي والصناديق والسلال وما الى ذلك .

دور السكن

تقوم جامعة بغداد منذ عام ١٩٧٨ باعمال التنقيب في مدينة سبار القديمة ، وركزت هذه التنقيبات المنبثقة عن قسم الاثار اعمالها في منطقة سكنية عامة . ومن النتائج المهمة لتلك التنقيبات انها عرفتنا على مخططات (بيوت العامة) للعراقيين القدماء في حدود الالف الثاني ق . م فالبيوت على اختلاف مساحاتها تتضمن غرفة واحدة او غرفتين أو ثلاث غرف وساحة وسطية وصولا الى عشر غرف في بعض البيوت مع بقاء الساحة الوسطية . ويشاهد في بعض الدور شبكة مجار ومرافق ، وقد تبنى اقسام من البيت او تبلط بعض الغرف بالطابوق بينما السائغ في البناء استخدام اللبن (الآجر المجفف بالشمس) ويمكننا ان نستنتج من ذلك ان سعة البيت وعدد غرفه وربما اثاثه تعتمد اساسا على المستوى الاقتصادي الاجتماعي لمالكه . كما قد تكون بعض البيوت مشيدة من طابقين . وقد تترك حرفة صاحب البيت ووضعه الاقتصادي أثرهما على مخطط مواد البناء وتأثيث البيت .

فالبيت يمكن ان يؤثث بالاسرة الخشبية والارائك والكراسي ، ويمكن في نفس الوقت اذا ماكان مالكه فقيرا ان يخلو من الاثاث سوى الحصران

والبسط والدكاك وعدد من الجرار الفخارية ، كما يمكن ان يحتوى على بعض المسارج للانارة .

ان الذي عرضنا له يمثل البيت الذي يقع في المدينة ويتجاور مع غيره على امتداد شارع او زقاق ، اما في الريف او القرية فقد يكون البيت عبارة عن خصّ (بالاكدية husu خصو) اوبيت مبني بالطوف كما هي عايه الحال في بعض القرى والى وقت قريب .

وعلى الرغم من كل ماتقدم فقد عرف العراقيون بناء منازل كبيرة وقصور عظيمة ذات زخارف ومرافق متعددة وغالبا ماتلحق بها حدائــق غناء وعلى سبيل المثال لا الحصر قصور الملوك الاشوريــين وبخاصة قصر سنحاريب وقصر اشور بانيبال وقصور ملوك ماري وقصور ملوك العصر البابلي الحديث وبخاصة قصر نبوخذ نصر الثاني .

الغذاء وما يرتبط به من آلات وادوات

لا يخلو بيت عراقي من موقد نار للطبخ وعلى حد قول الاستاذ مارتن اليفي « لم يكن الموقد ليطفأ » والاعنى ذلك الموت او كارثة في البيت ويذكرنا هذا القول الطريف ببيت الشعر العربي :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره تجد خيرنار عندها خير موقد

كما كان لكل دار او بضعة دور على اقل تقدير تنور لعمل الخبز ، وغالبا ماتتم عملية اعداد الطعام على يد ربة البيت وعثر المنقبون على عــدد كثير من النماذج لتنانير ومواقد ثابتة ومتنقلة كما عثروا على تجهيزات المطبخ مــن اواني الطبخ واوعية الشراب ، اغلبها صنع من الفخار او الحجر وقليل منها من النحاس وامثلة نادرة من الفضة او الذهب . كما عثروا على العديد مــن الهاونات والمدقات والمجارش . وعلى الرغم من شيوع تناول الاطعمة باليد

مباشرة ، لكن العراقيين خلفوا لنا شوكات معمولة من العظم وسكاكين من النحاس او العظم وملاعق من الفخار او العظم ومغارف من الطين . وبالتاكيد استخدم الخشب لعمل العديد من الادوات المنزلية الا اننا لم نعثر على نماذج كاملة لحد الان لانه من المواد العضوية التي تبلى بمرور الزمن . ولكن النقوش الجدارية كثيرا ماترينا مثل تلك النماذج . ويجب الا يفوتنا التاكيد في هذا المجال على امكانية تغير الادوات السالفة الذكر من عصر الى عصر او من قصر الى قصر او بيت او خص .

كان العراقيون يعتمدون في غذائهم على الحبوب والسوائل والمنتجات الحيوانية وبخاصة الحليب والجبن والسمك ولحم الغنم او لحم البقر الذي اعتبره البعض من المشهيات ، بالاضافة الى البقول والدرنيات والخضروات والتوابل والبصل والثوم والخبز والمعجنات والحلويات وصنوف من العصائد والاطعمة اللينة والنبيذ والخمر . وكانوا يتناولون وجبتين رئيسيتين من الطعام يوميا وجبة الصباح ووجبة المساء .

ويخبرنا الاستاذ ليفي من خلال تتبعه لانواع الاطعمة وتوزيعها بان الجيش في العراق القديم كانت لديه مؤن رئيسية ومنها الطحين والخمر . كما يخبرنا بان الفقراء كانوا يتناولون الخضروات والفاكهة ، كل ذلك اضافة الى الماء العذب من نهرى دجلة والفرات او البئر او القناة .

الزينة والنظافة

احتوت القصور وبعض الدور على الحمامات التي كانت حكرا على الموسرين ، اما عامة الناس فكانوا يستحمون بالانهار او القنوات . وغالبا ماكانوا يمسحون اجسامهم بالزيت لتنعيم البشرة . كما اعتاد العراقيون قص شعرهم وحلاقة ذقنهم ، وتصفيف الشعر وتقليم الاظافر وارتداء الملابس المتنوعة وتعصيب الرأس او تغطيته بانواع مختلفة من العمائم او القلنسوات

المختلفة وبموجب مقدرة او مركز كل منهم اقتصاديا واجتماعيا، وتفننت النساء يعمل ازيائهن وتصفيف شعرهن وتعطير اجسامهن ولبس الاساور والقلائد والحلقات ودبابيس الشعر ومااالي ذلك من مواد الزينة المختلفة والمتعددة .

الحياة اليومية للناس

بالرغم من قلة النصوص ذات العلاقة بتدوين مذكرات الافراد اليومية او الاسبوعية او الشهرية او حتى السنوية ، الا اننا نستطيع ان نرصد عــددا لابأس به من العادات التي ربما كان معظم الناس يقومون بها يوميا او على الاقل تقدير بين فترة واخرى ...

فالراعي ، لابد وان يذهب لرعي غنمه وسقيها وحلبها وعمل مشتقات حليبها بالتعاون مع اهله او مع اصحاب الغنم او المواشي . والصياد اما ان يطارد الغزلان او الماعز او الارانب او الحيوانات الاخــرى أو أن يصطاد البط او الطيور المتنوعة والمتوفرة في الحقول او البساتين القريبة من مكان سكنه . والفخّار يعمل على تنقية الطين وعمل اوانيه المختلفة وتحضير الكورة او الفرن او الاتون لفخرها . والنجار والحداد والتاجر والفلاح والكاتب والجندى والضابط والادارى وحاكم المدينة او المقاطعة والكاهن والملــك وحاشيته كل يعمل على الحفاظ على منصبه وادامة آلاته وانتاج او بيع نتاجه اوشراء انتاج الاخرين . كل هؤلاء يمكن ان يذهبوا الــى المعبد للتعبد او السوق لاجراء المعاملات التجارية او الحقل لانتاج او تبادل السلع او السفر في رحلة تجارية او توظيف الاموال لهذا الغرض او ذاك .. الخ وباختصار فان لكل صاحب حرفة او تلميذ او رجل دين او رجل ادارة حياته اليوميــة الخاصة بــه .

ولاشك بان هناك الكثير من المعلومات التي تصل الينا عن نشاط العراقي القديم اليومي ، ولكن يمكن للقارىء ان يطلع على الامثلة التالية كاطار عام للنشاطات التي قام بها العراقيون آنذاك :

١ ــ فلنأخذ على سبيل المثال ما كان يقوم به أحد الصاغة الموسرين والمدعو بيل ــ ابني، الذي يستيقظ وزوجته قبل طلوع الشمس فيقبل أحدهما الاخر ، ويقبلان الاطفال ، ومن ثم يذهبان الى الحمام وينتهيان منه بوضع زيت الزيتون على جسميهما وشعرهما ومن ثم تعطير نفسيهما بالعطور المختلفة •• وبعد ذلك تقوم الزوجة بالاشراف على الاماء والعبيد الذين يعدون طعام الفطور بينما اخذ الزوج والاطفال يتمشون فوق سطح المنزل يتعبدون ويتطلعون الى شروق الشمس • وبعد تناول طعام الفطور يذهب السيد بيل ــ ابني الى معبد صغير قريب من البيت ، ويقدم قربانا وهو خروف اشتراه قبل يوم وربطه في باحة الدار خلال المساء • وعند دخوله المعبد سمع صنوضاء وشاهد حراسا يقبضون على رجل دخل مكانا ما في المعبد قبل تقديمه الفروض المتعارف عليها •

اعطى السيد بيل ــ ابني الخروف الى احد الكهنة فسارع احد الكتبة وقدم وصلا بذلك الى بيل ــ ابني وبنفس الوقت كتب رقيما آخر دون فيه مصدر الضحية لحفظه في ارشيف المعبد • وبعد انهاء هذه العملية توجه السيد بيل ــ ابني الى المعبد الكبير معبد أيساكيلا Esagila مارا بمحاذاة النهر ، ووقف قليلا يتأمل حركة السفن المستمرة • وعند المرسى (الميناء) ، شاهد عملية تفريغ احدى السفن القادمة من الخليج العربي والمحملة بالنحاس لحساب معبد المدينة الكبير أيساكيلا • كما شاهد قاربا صغيرا محملا بالشب من كركميش ينتظر دوره لتفريغ حمولته • بينما اخذ بعض العمال يحملون احد القوارب ببذور السمسم المرسلة لاحد المعابد الكائنة الى الجنوب من بابل • وبعد مغادرته الميناء توجه بيل ــ ابني الى احدى غرف المعبد الكبير ، أيساكيلا ، حيث سلمه احد الاداريين الموجودين في المعبد كمية من الذهب وقام الاداري باعطائه التوجيهات لعمل خواتم وحلقات وخلاخل لتزيين التمثال

الجديد للاله مردوخ • كما اعطاه ايضا كمية من الفضة على شكل شريط وهي تمثل اجره المدفوع مقدما •

وهناك ايضا كتب رقيم ينص على وزن الذهب ووزن الفضة التي تمثل اجر الصائغ بيل ــ ابني • ثم ذهب الصائغ ليشتري كور من الحبوب (حوالي اربعة اكياس) ودفع مقابل ذلك وزنا معينا من شريط الفضة الذي يحمله • فارسل التاجر الحبوب مع احد العبيد الى بيت بيل ــ ابني •

ولما كان يوم بيل ــ ابني قد بدأ حوالي الساعة الخامسة صباحا بتوقيتنا فان الوقت قد شارف الثامنة عندما وصل الصائغ الى دكانه • وعند دكانه في سوق الصاغة ، رأى بيل ــ ابني ولده كودا ينتظره ، وقد قام باعداد الفرن واشعال النار اللازمة ، فتلا الاب والابن التعاويذ الخاصة بالصاغة ووضعا الذهب في البوتقة الفخارية وأخذا يحركانها تدريجيا نحو النار الشديدة • ثم تولى الابن مهمة ادامة نفخ النار بينما راح بيل ــ ابني يعد قوالب الصب ويسخنها كي لاتتكسر عند سكب الذهب فيها • واخيرا ذاب الذهب الموجود في البوتقة فتناولها بيل ــ ابني وسكب الذهب في القوالب • وبعد ان ترك الذهب ليتصلب ويبرد ، اخرجت الحلي من القوالب • ثم انكب الوالد والولد على تنظيف الحلي وجليها مستخدمين المبرد والازميل والمطارق الخفيفة • وبعد ذلك اخذا يكفتان الذهب ببعض الاشرطة الفضية وينقشان الزخارف الجملية عليها •

وبينما كانا منهمكين في العمل المتواصل سمعا مناديا فتوقفا لسماع مايبتغيه المنادي فاذا به يصرح حول هرب احد العبيد • وتوقفا تارة اخرى عند بكاء وعويل عائلة تجاورهم لوفاة احدى النساء منها • وعندما انتصف النهار جمع بيل ــ ابني وابنه كودا الادوات والقوالب ووضعاها في صندوق فخاري وهدآ النار المشتعلة في الفرن ونظفا جوانبه ومن ثم توجها نحو البيت • فأخذا الحلي وبقايا الذهب لوزنه امام المسؤول في المعبد • وفي طريق

عودتهما مرا بمعبد فلاحظا جلوس بعض الجيران يستمعون الى قضية رفعت من قبل رجل ضد احد الاشخاص، وكانت القضية تدور حول ملكية قطعة ارض تقع مابين داري الرجل المشتكي والمشتكى عليه • فاستمع القضاة الى الشهود ووجدوا ان بعض الرجال قد زوروا العقود ، فعاقبوهم • وعند اقتراب بيل ــ ابني وكودا من مجلس المحاكمة شاهدا احد الرجال يجلس جانبا وهو يصرخ من الالم وبجواره صديقه الذي ابتلت ثيابه بالزيت وظهرت نقطة حمراء كبيرة على جبينه : حيث سخن الرقيم المزور وكويت جبهته عقابا له على تزويره •

وعند وصولهما البيت راى بيل ــ ابني زوجته في حالة غير اعتيادية بسبب مرض الامة amatu التي اشتراها قبل اسبوعين فقط لولده كودا • فهدأ بيل ــ ابني من غضب زوجته بقوله ان الامة مضمونة لمدة ثلاثة اشهر وما عليه الا اعادتها واسترجاع ثمنها •

فتناول بيل ــ ابني وزوجته وكودا والاطفال الطعام • وبعدها ذهب بيل ــ ابني وزوجته للتمتع بالقيلولة ولم تكن القيلولة بالنسبة للزوج والزوجة متعة فقط بل واجباً ، لان الزوجة كانت حاملا في شهرها الخامس ، ونصوص الفال والعرافة كثيرا ما تؤكد على جماع الزوج والزوجة في مثل هذه الحالة •

اخذ بيل ــ ابني حماما وبعدها عاد مع ولده كودا الى الدكان واخذا يعملان حتى غروب الشمس ثم عادا الى البيت لتناول وجبة العشاء • وقد اقيم في ذلك المساء احتفال صغير في احد المعابد ، فارتدى افراد العائلة ملابسهم النظيفة والجميلة وصفف كل واحد منهم شعره وذهبوا للتمتع بالاحتفال • ولايوجد بين المصادر مايشير الى تحجب زوجة بيل ــ ابني كما هي عليه الحال في بلاد اشور او في العهود السالفة في بلاد بابل •

كانت المشاعل المعمولة من حزم القصب المطلي بالقار متوهجة • وكان

العديد من معارف العائلة متواجدين يرقصون ويغنون ٠ وعند المدخل الكبير للمعبد شاهدوا احد الكهنة يشرف على تضحية ثور كبير ٠

وهدأ الجميع لسماع التراتيل التي لايفهمها غير دارسي اللغة السومرية، ولكن تمثيل المشاهد من قبل الكهنة المقنعين جعل فهمها بسيطا ٠

ولما قارب الاحتفال على الانتهاء تهيأ بيل ـ ابني وافراد العائلة للعودة الى البيت ٠ وقبل وصولهم الى البيت شاهدوا مدخل الدار منورا وعند الدخول لاحظوا ان العبيد قد اشعلوا المسارج في ساحة البيت والغرفة الرئيسية ايضا ٠ وبينما كانت زوجة بيل ـ ابني تعطي التوجيهات الى العبيد، راح الاب والاولاد يلعبون بعض اللعب المسلية ٠ وتناول الجميع طعاما خفيفا أو بعض الحلوى وهكذا اختتم ذلك اليوم من حياة تلك الاسرة العراقية القديمة ٠ لقد اعتمدنا في روايتنا هذه على دراسات الاستاذ ساكز للرقم الطينية البابلية الحديثة التي تعود لتلك العائلة ٠

٢ ـ بيت الالواح E.DUB.BA (المدرسة) : وهو كما يصفه لنا العراقيون القدماء « يدخل فيه من عيناه مسدودتان ، ويخرج منه من عيناه متفتحتان » ٠

أن احسن من تحدث لنا عن يوميات طالب مدرسة عراقية قديمة هو استاذ سومري قام بتدوين مذكراته عن ايام التلمذة ٠ وصلتنا تلك المذكرات مكتوبة على الواح الطين التي يرقى زمنها الى حدود ٢٠٠٠ ق ٠ م ٠

وتبدأ مذكرات الاستاذ بطريقة شيقة تتخذ شكل حوار يقول فيه : « ايها المتخرج القديم ، الى اين كنت تذهب (عندما كنت صغيرا) ؟ » فيجيب المتخرج « كنت اذهب الى المدرسة » ثم يسأله الاستاذ « وماذا كنت تفعل في المدرسة ؟ » وهنا يجيب التلميذ :

« كنت اقرأ لوحي واتناول غذائي
ومن ثم احضر لوحي (الجديد) لانتهي من كتابته
(وقبل المساء) كانت الواح التمارين تجلب الي
وعندما انصرف من المدرسة كنت اعود الى البيت
وكنت اجد ابي جالسا هناك
فاشرح لابي (مايتضمنه) لوح تماريني
وبعد ان امثل أمام ابي كنت اقول :
انا عطشان ! اعطوني ماء لأشرب
انا جوعان ! ، اعطوني خبزا لآكل
اغسلوا قدمي وهيئوا فراشي
فاني ذاهــب لانــام
ايقظوني مبكــرا
لكي لاأتاخر والا اقتص مني استاذي »

وربما قبل شروق الشمس ينهض الاب والام فيوقظان تلميذنا مــن فراشه مبكرا للصلاة وتأمل شروق الشمس كما سبقت الاشارة الى ذلك أثناء كلامنا عن عائلة بيل ــ ابني ، على اية حال فالتلميذ يخبرنا :

« عندما استيقظ في الصباح الباكر
كنت ألقى امي فاقول لها :
اماه ! ، اعطيني غذائي لاذهب الى المدرسة
فتعطيني أمي رغيفين واشرع بالذهاب
أجل ! ، لقد كانت تزودني برغيفين فاذهب الى المدرسة .
وفي المدرسة قال لي مسؤول الدوام :
لم انــت متأخــر ؟

فدخلت على معلمي بقلب يخفق واديت له التحية باحترام •
لقد قرأ « مدير » مدرستي لوحي وقال :
« هناك شيء غير موجود » • وضربني بالعصا
وقال الشخص المشرف على الاناقة :
« لقد تسكعت في الطريق ولم تنظم ملابسك » • وضربني بالعصا ••
قال الشخص المسؤول عن السكون (أثناء التدريس) :
« لم تكلمت بلا اذن ؟ » وضربني بالعصا •
وقال الشخص الموكل بالاصطفاف :
« لم استرخيت بالوقوف بلا اذن ؟ » وضربني بالعصا •
قال المسؤل عن حسن السلوك : « لم نهضت بلا اذن ؟ » وضربني بالعصا •
وقال مراقب البوابة :
« لم خرجت (من البوابة) بدون اذن ؟ » وضربني بالعصا •
وقال المسؤول عن السوط :
« لماذا اخذت •• بلا اذن ؟ » وضربني بالعصا •
وقال المسؤول عن اللغة السومرية :
« لماذا لم تتكلم باللغة السومرية (الصحيحة) ؟ » وضربني بالعصا ••
وقال استاذي (المشرف) :
« خط يدك سيء لايرضي » وضربني بالعصا •

وبعد ان ييئس تلميذنا يذهب الى ابيه ملتمساً دفع أجر المعلم (المشرف) ورعايته ودعوته وتكريمه ، فيستجيب الوالد لطلب ولده ، ويكرم المعلم الذي قال للتلميذ بعد ذلك : « ايها الشاب ، (لانك) لم تكره كلماتي ولم تهملها (عسى) ان تتقن فن الكتابة من بدايته الى نهايته ••

عسى ان تخلو تمارينك من الاخطاء •• وبين اصدقائك عســى ان تكــون الرئيس •• وعسى ان تكون منزلتك بين الطلاب اعلى منزلة •• »

٣ ــ وفيما يلي نص قصير عن عتاب اب لابنه التلميذ المتقاعس في دراسته:

« لم اجعلك قط في حياتي تحمل حزم القصب الى الاجمة
ولم تحمل في حياتك حزم البردي التي يحملها الصبيان الصغار
لم ارسلك قط للعمل في حراثة حقلي
لم ارسلك قط لتشتغل عاملا
ولم اقل لك في حياتي « اذهب واعمل لتعينني » •

ومع كل هذا العتاب نرى الاب في نهايــة حديثه يتوسل الى الالهــة لحماية ابنه ومنحه المراكز المرموقة في المجتمع •

٤ ــ نشر الاستاذ مجول سفيل Miguel Civil بعض النصوص الخاصة بمذكرات شهرية نص البعض منها على تخصيص ايام معينة لانجاز اعمال معينة نقتطف منها الاتي :

« يوم واحد لانجاز الاعمال المتعلقة بالقصب
يومان لشد حزم القصب
يوم لغســل الملابــس
يوم للعمــل في البيــت
يوم للذهاب الــى المعبــد »

وهذا نص آخر يتحدث بالتخصيص عن الاعمال لايام الشهر نقتبس منه الاتي :

« اليوم التاســع :
لتزييت صــنارات الابواب
والذهاب (لقطــع) القصــب

اليوم العاشـر :
لتنظيـف المعبـد
اليوم الحادي عشـر :
لقطف التمور وعسل المكانس
وجرش الشـعير
اليوم الثاني عشـر :
لتحسيص الشعير المجروش وتخمير الجعة :
ولجلب التقدمات والنذور في وقت مبكر لمعبد الاله انليل
اليوم الثالث عشـر :
تفتيش البيت والمعبد
وعمل الحطـب اللازم
اليوم الخامـس عشـر :
لغسل تمثال الالـه
ولادامة المطاحن لمدة يومين »

٥ ــ عثر المنقبون على آلالف الرقم الطينية التي تحتوي على رسائل ذات مواضيع متنوعة منها الادارية او الاقتصادية ورسائل ملكية وقليل منها ذو طابع يتعلق بتفاصيل الحياة اليومية وفيما يلي بعض الامثلة المأخوذة عن كتاب الاستاذ اوبنهايم الموسوم « رسائل من بلاد الرافدين » :

أ ــ « اخبر السيدة زينو » : أدن ــ سين يرسل الرسالة التالية : ليحفظك الى الابد الالهة شمش ومردوخ وايلبرات وليديموا الصحة الجيـدة. عليك من اجلي من سنة لاخرى ، فان ملابس الرجال هنا تتحسن ، بينما ملابسي تسوء من سنة لاخرى . والحقيقة انك تتعمدين في جعل ملابسي من سيء الى اسوأ . ففي الوقت الذي كان لدينا الصوف كثيرا كوفرة الخبز ، فانك عملت لي ملابس بسيطة . ابن ادد ــ ادنام الذي

ابوه مساعد لابي ، لديه بدلتان جديدتان •• بينما تماطلين حول بدلة واحدة لي • وعلى الرغم من انك انجبتني بينما والدته قد تبنته ، امه تحبه ، بينما انت ، انت لاتحبينني ! » •

ب ـ « اخبر سيدي : امتك دابيتم ترسل الرسالة التالية : ما اخبرتك به قد حدث لي : لمدة سبعة اشهر والطفل في احشائي ، ثم مات الطفل منذ شهر ولايريد احد العناية بي • اتمنى ان اسر سيدي ولو قبـل موتي ، تعال وزرني واجعلني ارى وجه سيدي ••• لماذا لم تصلني هدية منك ؟ واذا مامت ، فاجعلني اموت (ولكن) بعد ان ارى وجـه سيدي ثانيـة » •

جـ ـ « اخبر والدي : الذي ترعاه وتحفظه بصحة جيدة الالهة كولا •• ودامو وارماشم : ورد ـ كولا يرسل الرسالة التالية : لتحفظ الالهة كولا ودامو وارماشم بالصحة الجيدة ، لتثبت اقدامك في المركز الذي تتسنمه • لاني لم ارك او اكتب اليك وذلك لسفري المفاجيء ، فان احد الاداريين قد سجنني وارسلني مخفورا الى ايسن • ولا استطيع الخلاص منه للمثول امامك • لاتبالي ، حول مصيري على اية حال ، فسـوف ارسل لك الفضة التي بذمتي ، وستكون جاهزة ، واذا ماسافر دامو ـ ابكالي فسوف يجلبها اليك • والا فسأتوجه اليك بنفسي بعد عشرة أيام ، أي بعد الحصول على الحبوب التي تعود لي • لااستطيع النوم في الليل من شدة قلقي عليك »•

د ـ « اخبر ازالم : ابنك ادد ـ ابرم يرسل الرسالة التالية : لتحفظك الالهة شمشووير بالصحة الجيدة • لم اكتب اليك من قبل حول شيء ثمين• ولكن اذاما اردت ان تكون ابا لي ، فحصل لي على خيط مليء بالخرز، لالبسه حول رأسي • اختمه بختمك وسلمه لحامل رسالتي هذه ليجلبه

لي • واذا لم يكن لديك الان ، فاحصل عليه ولو من تحت الارض وارسله لي • فانا شديد الحرص على حيازته • لاتمنعه عني • وبهذا سأرى ان كنت تحبني كوالد حقيقي يحبّ ولده • وبطبيعة الحال ، ثبت ثمنه من اجلي ، اكتبه وارسل لي رسالة • فالشاب سيصل اليك يجب ان لايرى خيط الخرز • اختمه بداخل رزمة واعطه له يجب ان لايرى الخيط ، الخيط الذي يلبس حول الرأس • الذي سترسله • يجب ان يكون مليئا بالخرز ويجب ان يكون جميلا • واذا مارأيته ولم احبه فسوف اعيده اليك : ارسل كذلك الرداء الذي سبق لـــي وتكلمت الك عنـــه » •

هـ ــ « اخبر بيلشونو : قودوشا يرسل الرسالة التالية : ليحفظك الاله شمش بصحة جيدة • كما سمعت بالتاكيد فان الريف مرتبك والاعداء يتربصون سوءا • ارسلت الرسائل الى ابني ــ مردوخ وغيره ، واليك خذ حملا من القطيع الى العراف واحصل على رأيه فيما يتعلق بالماشية وقطعان الغنم ، وهل يجب ان تجلبها الى جورانا أو ان هجوم الاعداء وقطاع الطرق سيتوقف ، او يتوجب جلب الغنم والماشية بالقرب مني ــ والا ، اجلبها (الغنم والماشية) الى مدينة كيش وبذلك فلن يستطيع الاعداء التمكن منها • واجلب ايضا كل مايمكن توفره من حبوب الى مدينة كيش واكتب لي تقريرا مفصـــلا » •

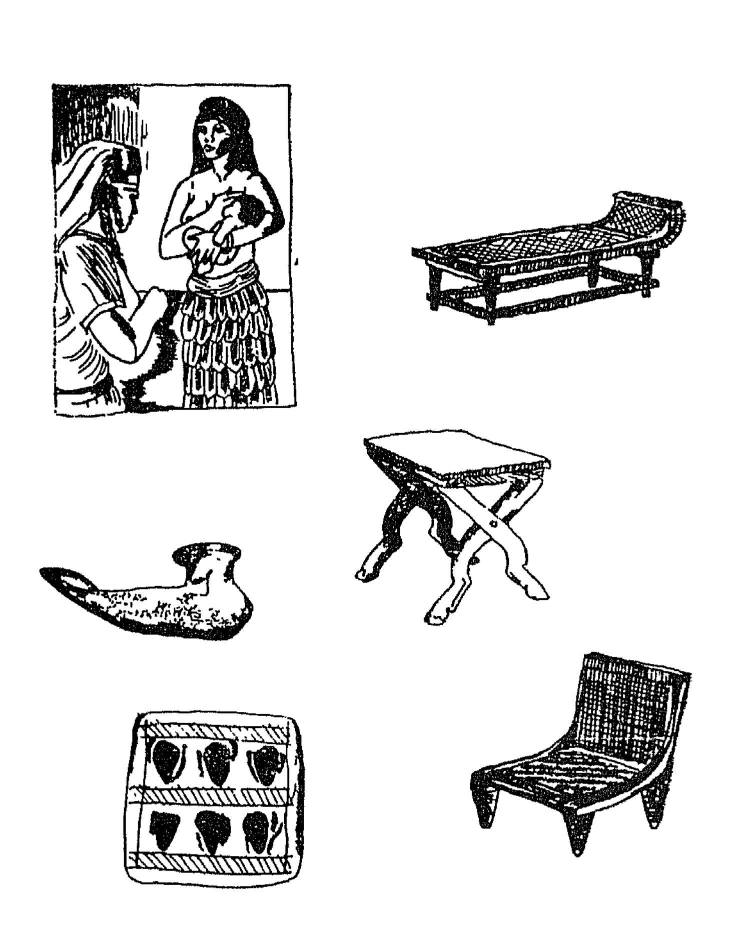
و ــ « اخبر السيدة الميشوم ، سيرم ترسل الرسالة التالية : ليحفظك الاله شمش وبانيكينكارا للابد وبصحة جيدةمن اجلي، هذه هيالوسيلة التي يمكنك بها ان تريني اخوتك • على الرغم من معيشتنا سوية (منذ كنا اطفالا) ، فانك لم تفكري بي منذ ان اصابك الحظ ، فلم احصل حتى على هدية ذات ثمن بخس منك • فعلى الرغم من جلبك لي الهدية في المرة الفائتة ، الا انك لم ترتاحي الاباستعادتها مني قائلـــة لـــي

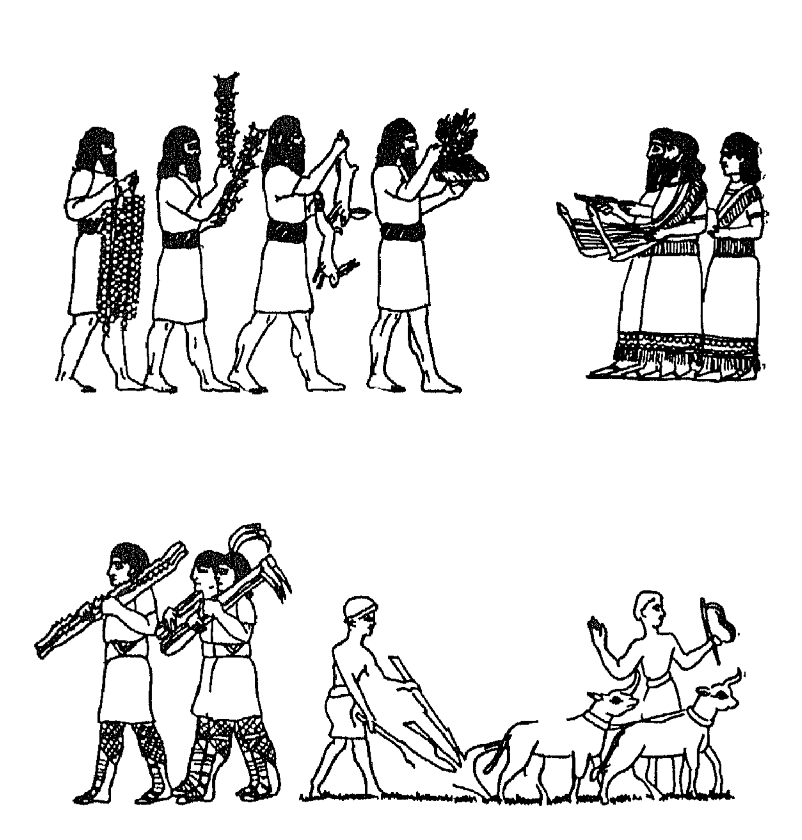
« سارسل لك فيما بعد هدية ثمينة و ،،،، و ،،،، الـخ » ولكنك لم ترسلي لي شـيئا ••••

واخبرتك كذلك « اذا ما احتاج صاحب الشرف زوجك ! ، آبي ــ امورم أي علب ، فليكتب لي وسارسل له خمس علب » • الان ارسل اليك الرجل الذي يصلكم في رحلة تجارية لمعبد ادد • ارسلي لي مائة جرادة وطعام بقيمة سدس شيقل من الفضة وبهذا سـأرى اخوتـك نحـوي »

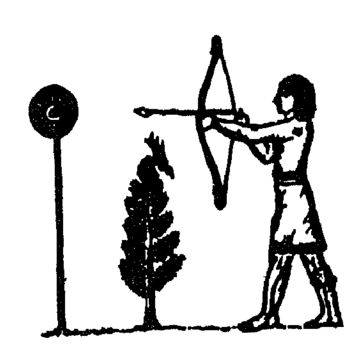
لقد حاولنا من خلال صور النشاطات لجوانب الحياة اليومية للمواطنين العراقيين القدماء ان نهيء للقارىء الكريم فرصة تلمس جوانب الاحاسيس والمشاعر التي تفرزها ممارسات الحياة اليومية وهي في اقرب نقاط التصاقها بالواقع وبعيدا عن الرسم النظري او الادعاءات التي تسـطرها النصوص التاريخيـة •

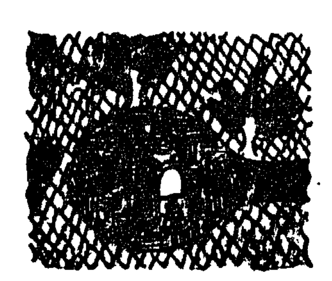
وعلى الرغم من عجالة العرض ، ولكن الموضوعات تؤشر من دون شك اهمية البحث في هذه الجوانب الهامة من الحضارة العراقية وصولا الى تحديد السمات الاساسية للشخصية الحضارية العراقية القديمة • وان مباحث هذا الفصل تكمل الصور التي رسمت لجوانب الحضارة العراقيـة القديمة في فصـول اخـرى •

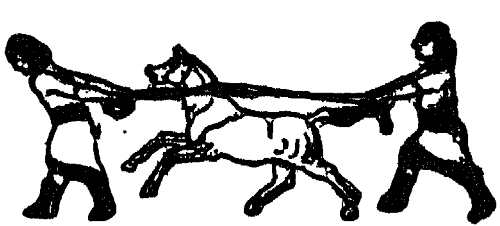












المراجـع

١ ـ دكتور فاضل عبد الواحد علي ، عادات وتقاليد الشعوب القديمـة ، جامعة بغداد ، بالاشتراك مع دكتور عامر سليمان ١٩٧٩ .

٢ ـ دكتور فاضل عبد الواحد علي ، هكذا كتبوا على الطين ، مجلة كليـة الاداب ٢٧ ، ١٩٧٩ .

3. Al-Rawi, Farouk N.H., **Studies in the Commercial Life of an Administrative Area of Eastern Assyria in the Fifteenth century B.C., Based on Published and Unpublished Cunei form Texts**, Unpublished Ph. D. Thesis, University College Cardiff, United Kingdom, 1977.

4. Chiera, E. **They Wrote on Clay**, University of Chicago Press, 1959.

5. Civil, Miguel, "Daily Chores in Nippur", JCS, 32/4, 1980 pp. 229-232.

6. Contenau, G., **Everyday Life in Babylon and Assyria**, London, 1954.

6. a Diakonoff, I.M., **Ancient Mesopotamia**, Moscow, 1969.

7. Driver, G.R. and STR Miles, J.C. **The Babylonian Laws**, 2 volumes, Oxford, 1868.

8. Gadd, C.J., **Teachers and Students in the Oldest Schools**, London, 1956.

9. Kramer, S.N., **The Sumerians; their history, culture and character**, University of Chicago Press, 1963.

10. Laessle, **People of Ancient Assyria**, Routledge and Kegan Paul, 1963.

11. Levey, M., **Chemistry and Chemical Technology in Ancient Mesopotamia,** London, 1959.

12. **Müller,** V., "Types of Mesopotamian Houses", **JAOS,** 60, **1940, pp. 151-180.**

13. Oppenheim, A. Leo, **Ancient Mesopotamia,** U.S.A. 1965.

14. Oppenheim, A. Leo, **Letters from Mesopotamia,** The University of Chicago Press, 1967.

15. Saggs, H.W.F., **The Greatness that was Babylon,** Sidgwick and Jackson London, 1966.

16. Saggs, H.W.F., Everyday Life in Babylonia and Assyria, B.T. Batsfard Ltd., London, 1965.

17. Starr, R.F.S. **Nuzi; Report on the Excavations at Yorgan Tepa Near Kirkuk, Iraq, Conducted by Harvard University in Conjunction with the American Schools of Oriental Research and the University Museum of Philadelphia, 1927-31, with Appendixes by R. S. Chute, R.W. Ehrich, H.W. Elliott, R. J. Gettens and E.R. Lacheman,** Vol. 1, Text, Harvard University Press, 1939; Vol. 2, Plates and Plans Harvard University Press, 1937.

المحتوى

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ـ بغداد
(١٤٩٣) سنة ١٩٨٤